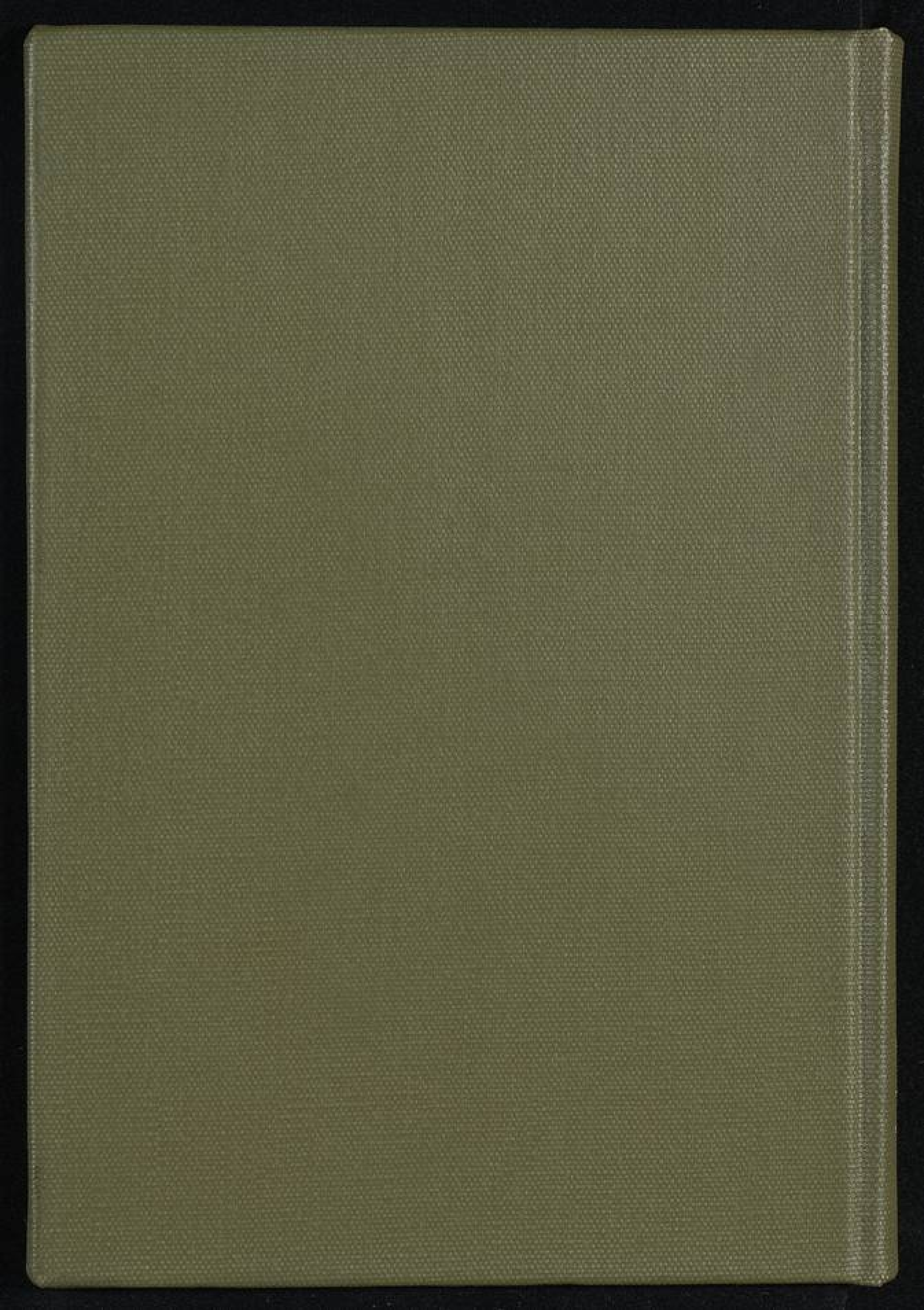
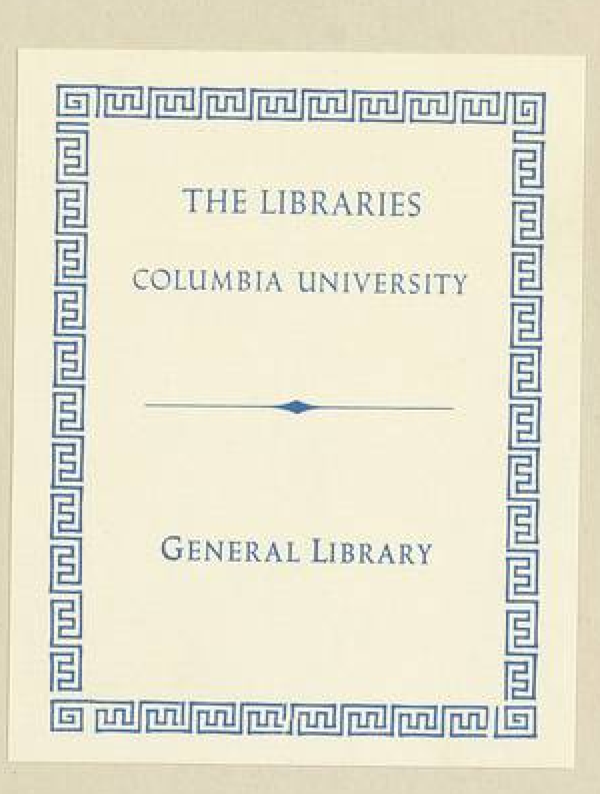
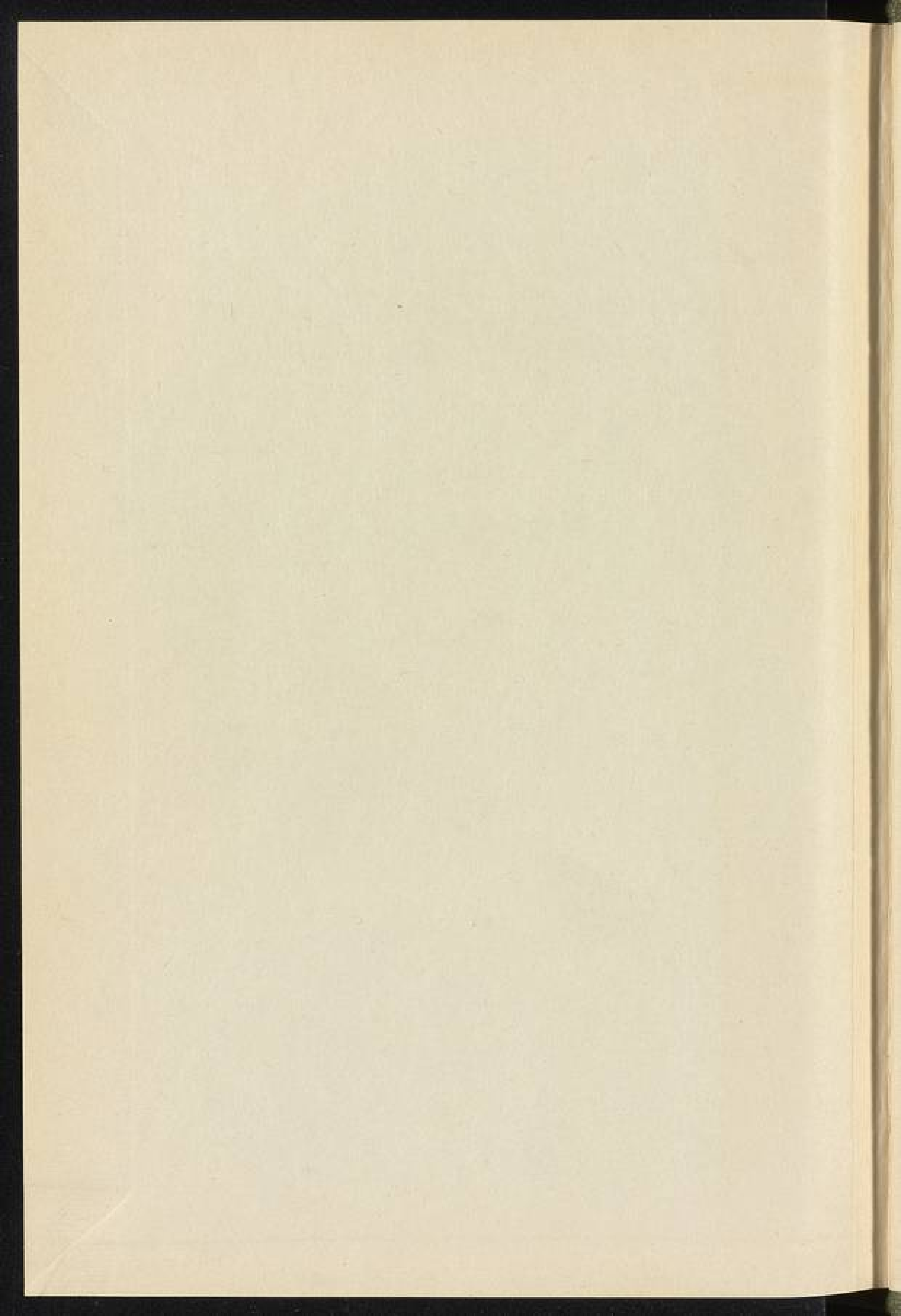
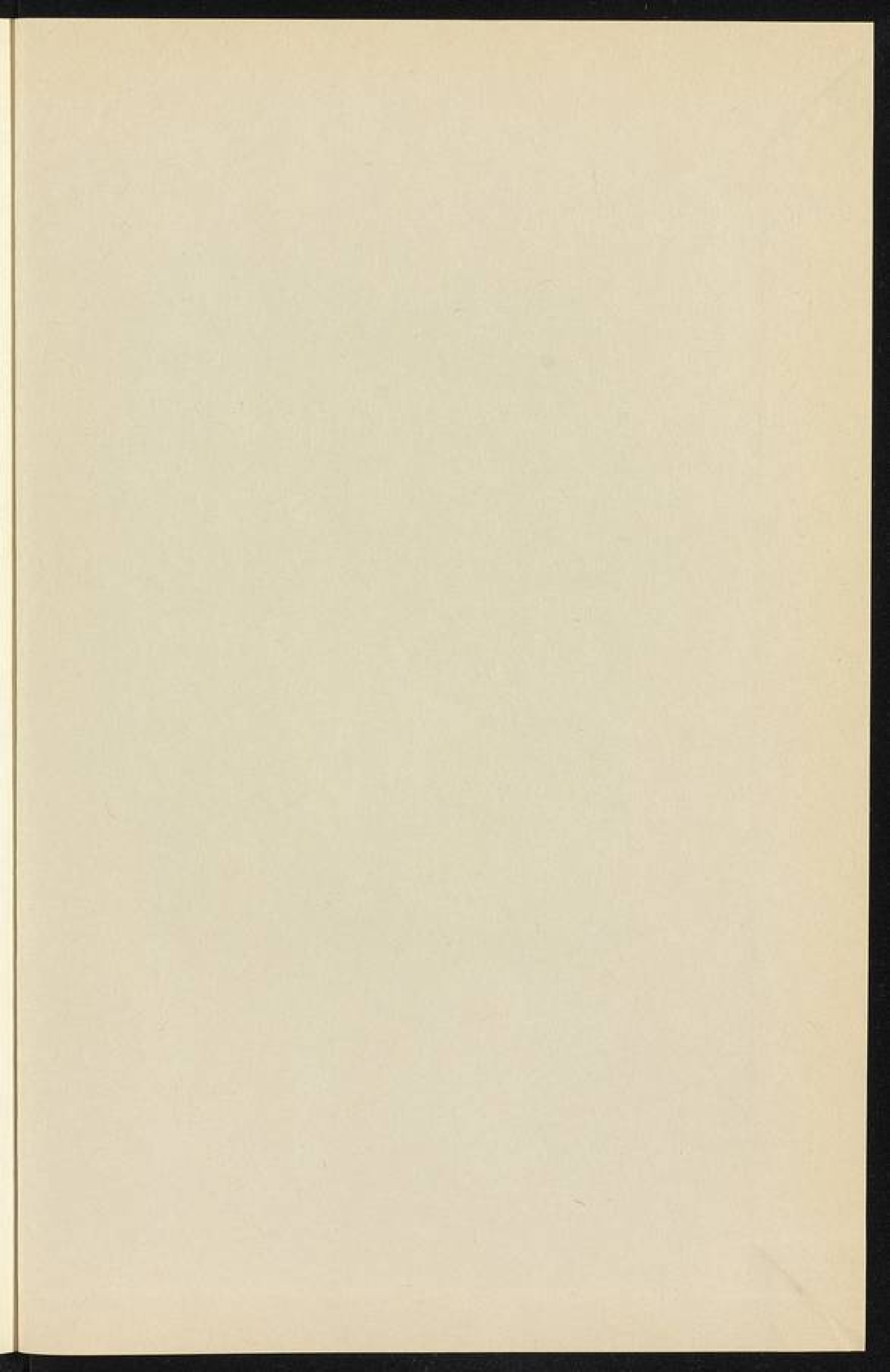
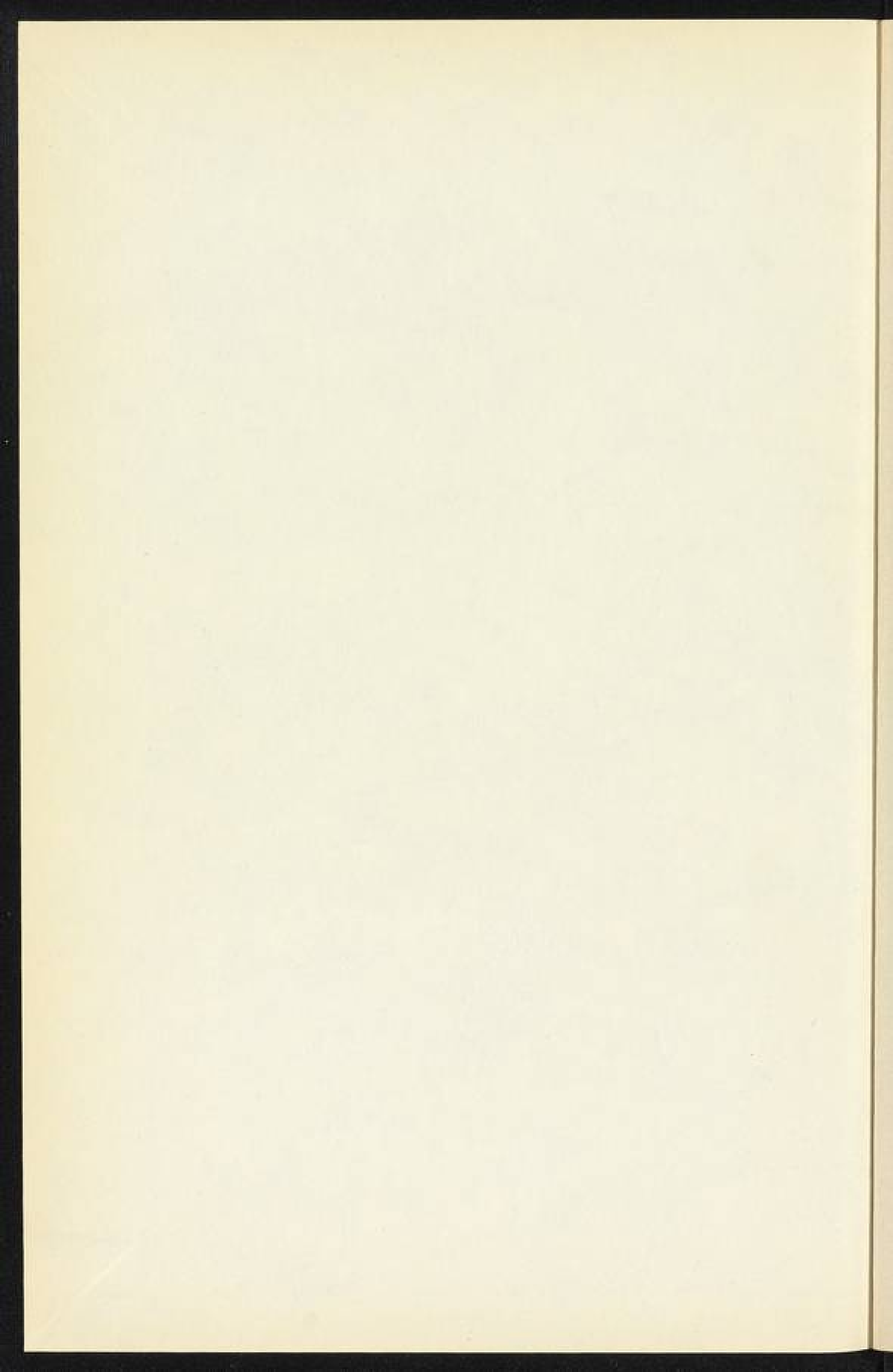
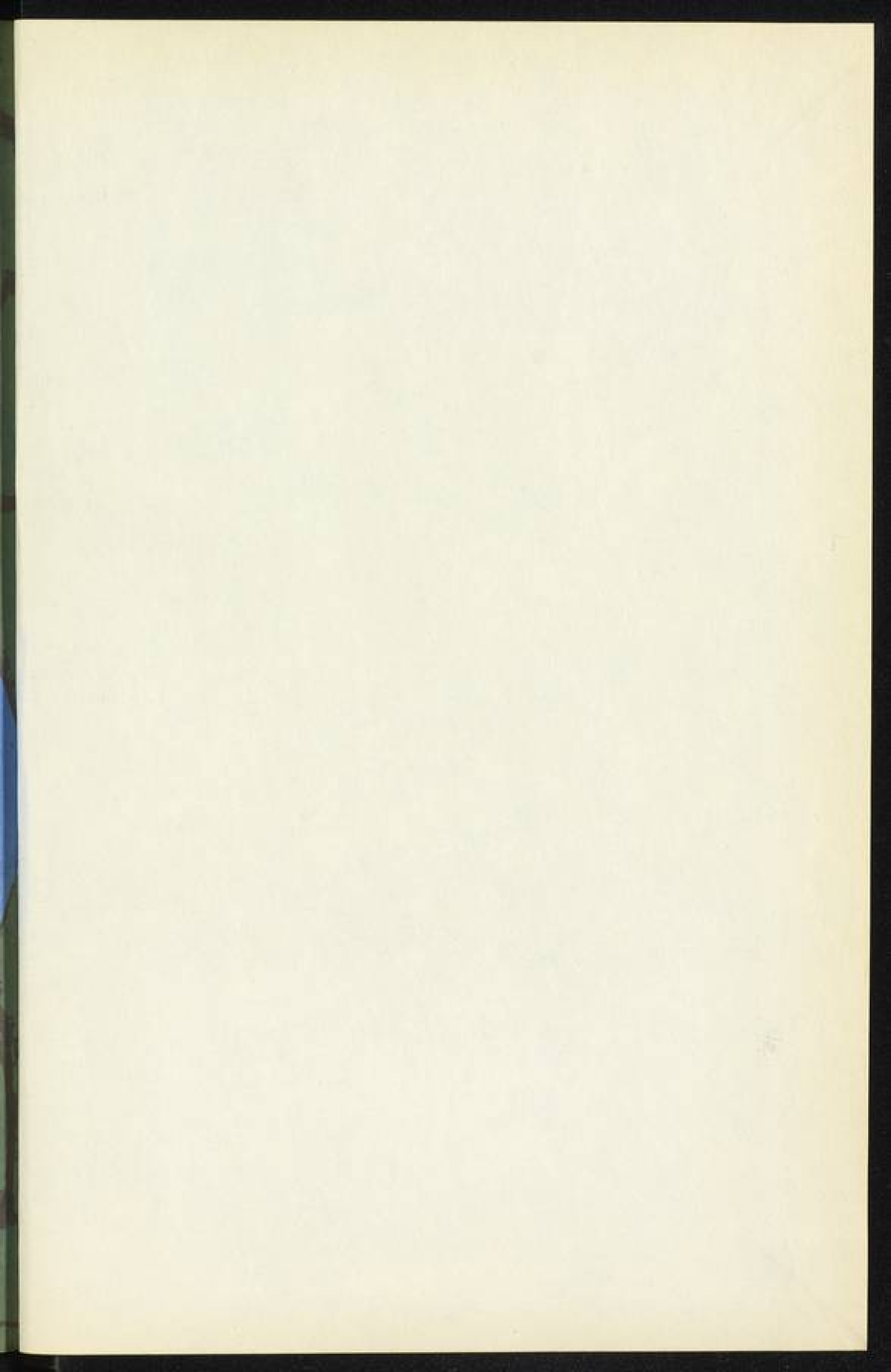


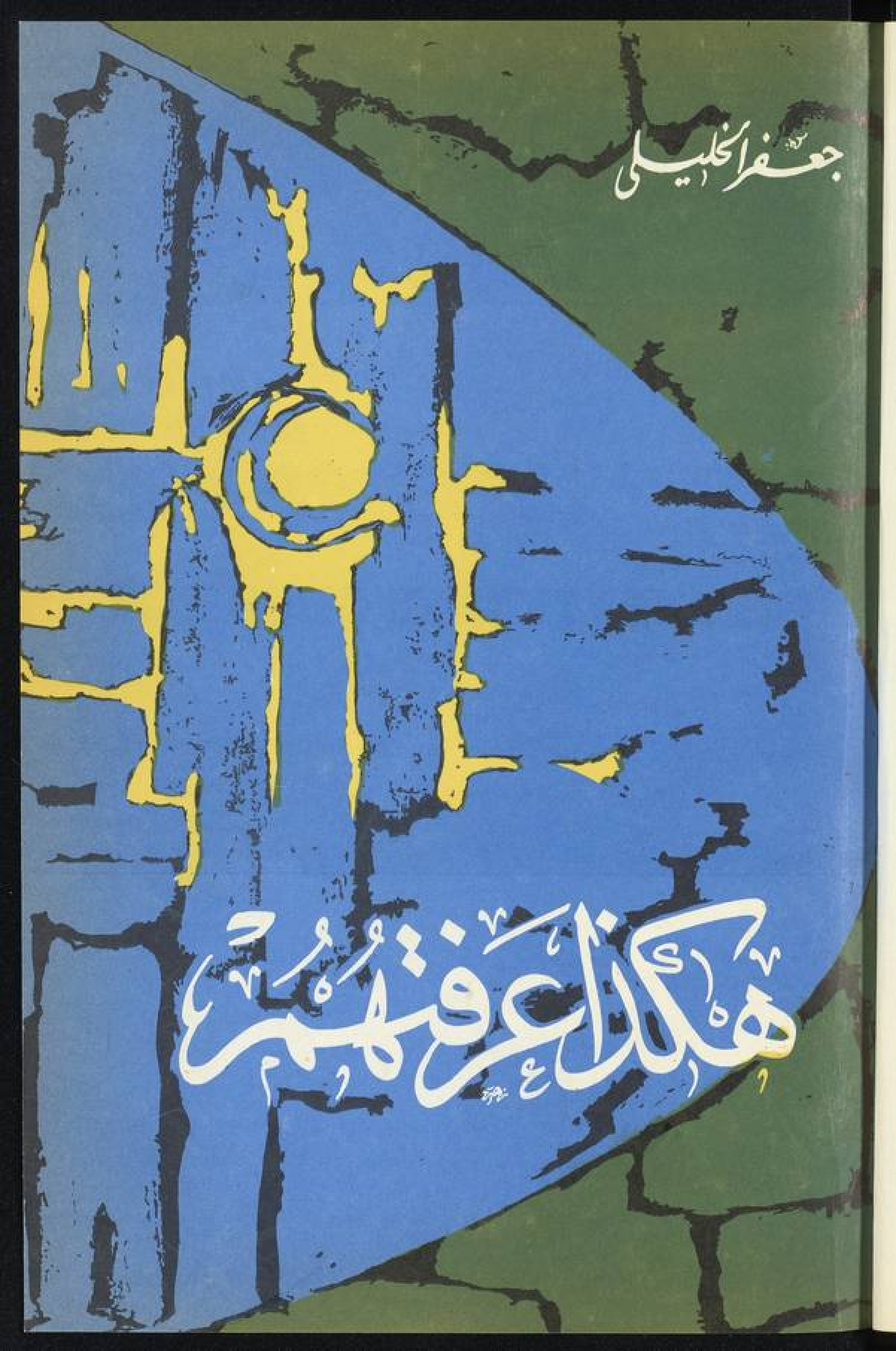




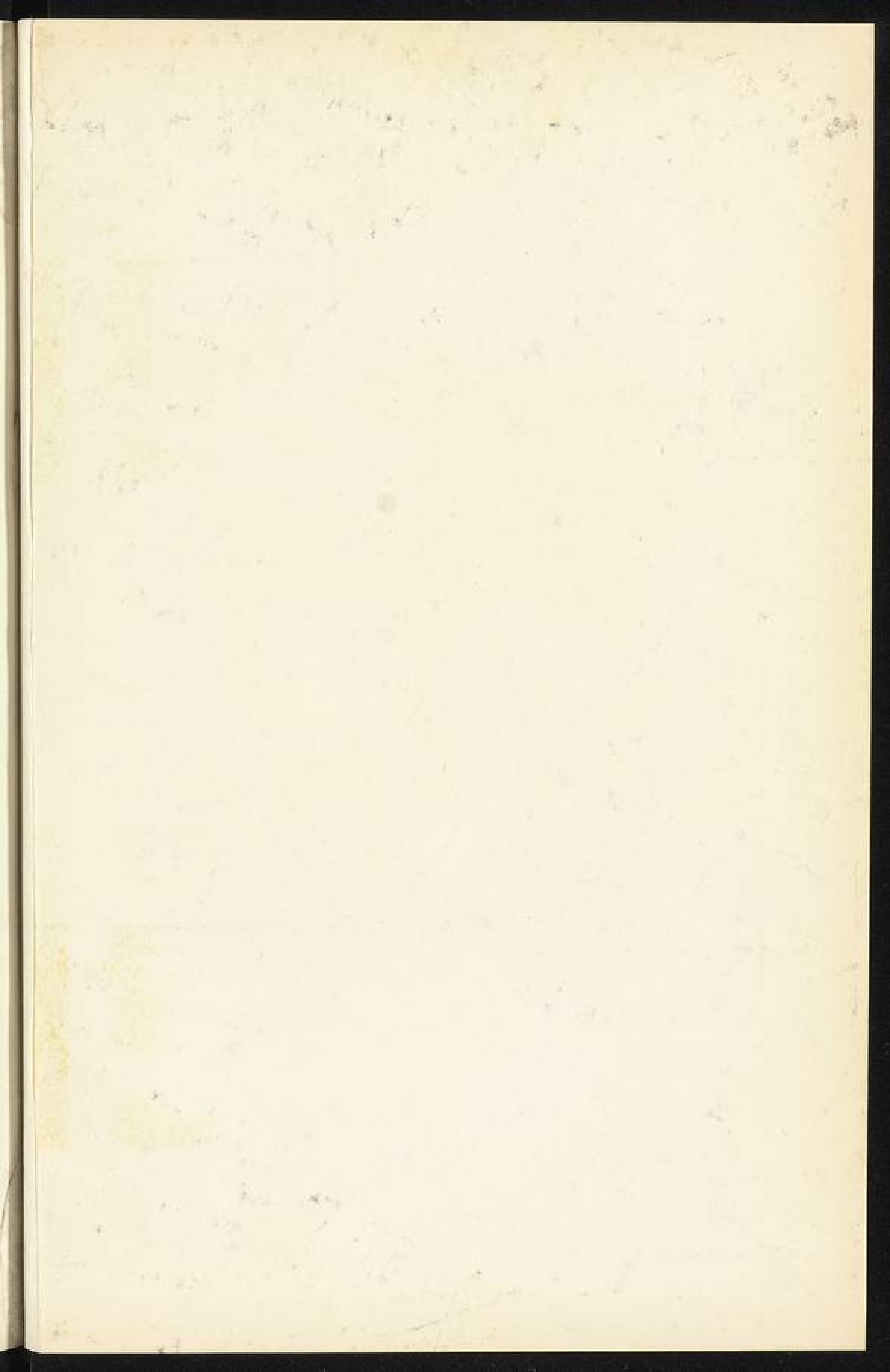








جعفر الخليلي
هكذا عرفتهم





خواطر عن اناس افذاذ عاشوا بعض الاحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لانفسهم ٠

تأليف

جعفر الخليلي

١٩٦٣

مطبعة الزهراء ـ بغداد ـ شارع المتنبي

هكذا عرفتهم

هذا عرض موجز لجانب من حياة بعض الاشخاص الذين كان لهم ذات يوم بعض الشأن فى الحياة العامة والخاصة أو هو فى الواقع عرض موجز لبعض ما احتفظت به الذاكرة عن بعض من عرض لى فى طريق الحياة وكيفية تعرفى بهم وماهية هذا التعرف ولونه ، وهو لون من الادب والتاريخ المبتكر ، وليس من الغرور ولا التشدق ان اقول انه لون قائم بنفسه ، واننى لم اجار فى عرضه احدا من قبل ولم يسبق لى ان قرأت عرضا على هذا النسق يجمع بين الادب والتاريخ ، ويربط بين النواحى الخاصة والعامة ، جمعا وربطا لا تكاد تتبين او لاتكاد تعزل ما يخصك منه وما يهمك وما يخص اصحابه وما يهمهم ، وما يخص الناس ويعنيهم .

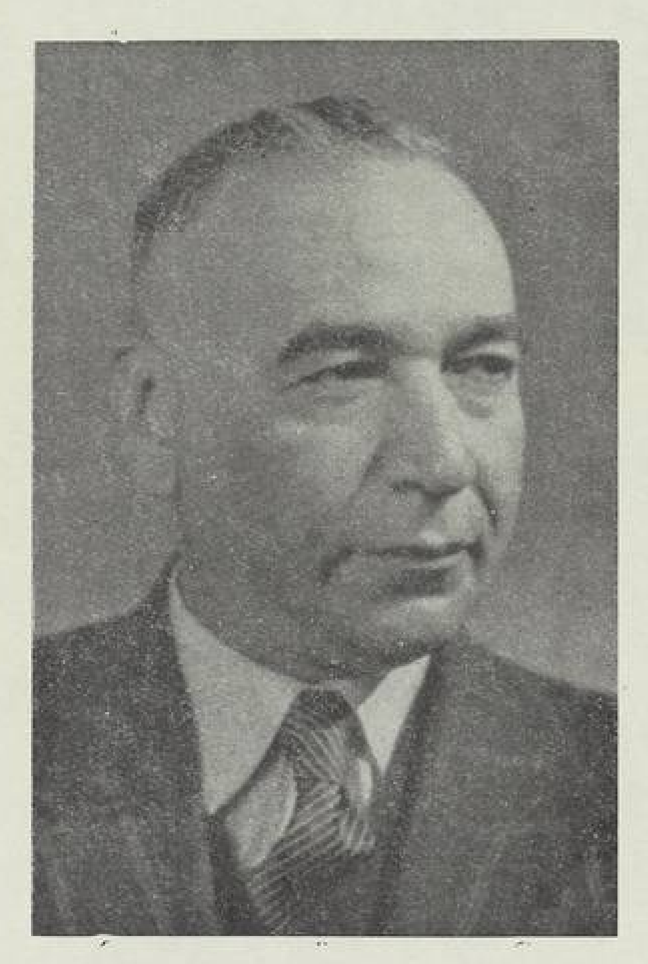
والواقع انى لم احس بانى بدأت اكتب شيئا جديدا مبتكرا يحسن ان تكتب به التراجم وتوضع على نمطه الاحاديث حتى نبهنى الى ذلك عدد من الادباء ، وحتى صار يسألنى الكثير حين يتوفى الله شخصا من معارفى عما اذا كنت ساكتب عنه كلمة من هذا القبيل ؟ والذى زادنى يقينا بان الذى كتبته كان نوعا جديدا : هو ان بعض الذين تلذذوا به لم يكن لهم باى وجه اى اتصال او معرفة سابقة بمن تحدثت عنهم ، وقال لى هذا البعض — ان حقا ام باطلا — ان هذا العرض على رغم كونه يخص جماعة عاشوا فى جهة معينة ، وفى محيط خاص وعلى رغم انه جانب من تاريخ معرفتى انا بحفنة من الرجال ، لقد قال لى هذا البعض ان ذلك لايقلل من شأنه

كأدب جديد يلذ اى قارىء عربى فى أية بقعة من البقاع ان يقرأه سواء عرف المحدث والمحدث عنه ام لم يعرفهما .

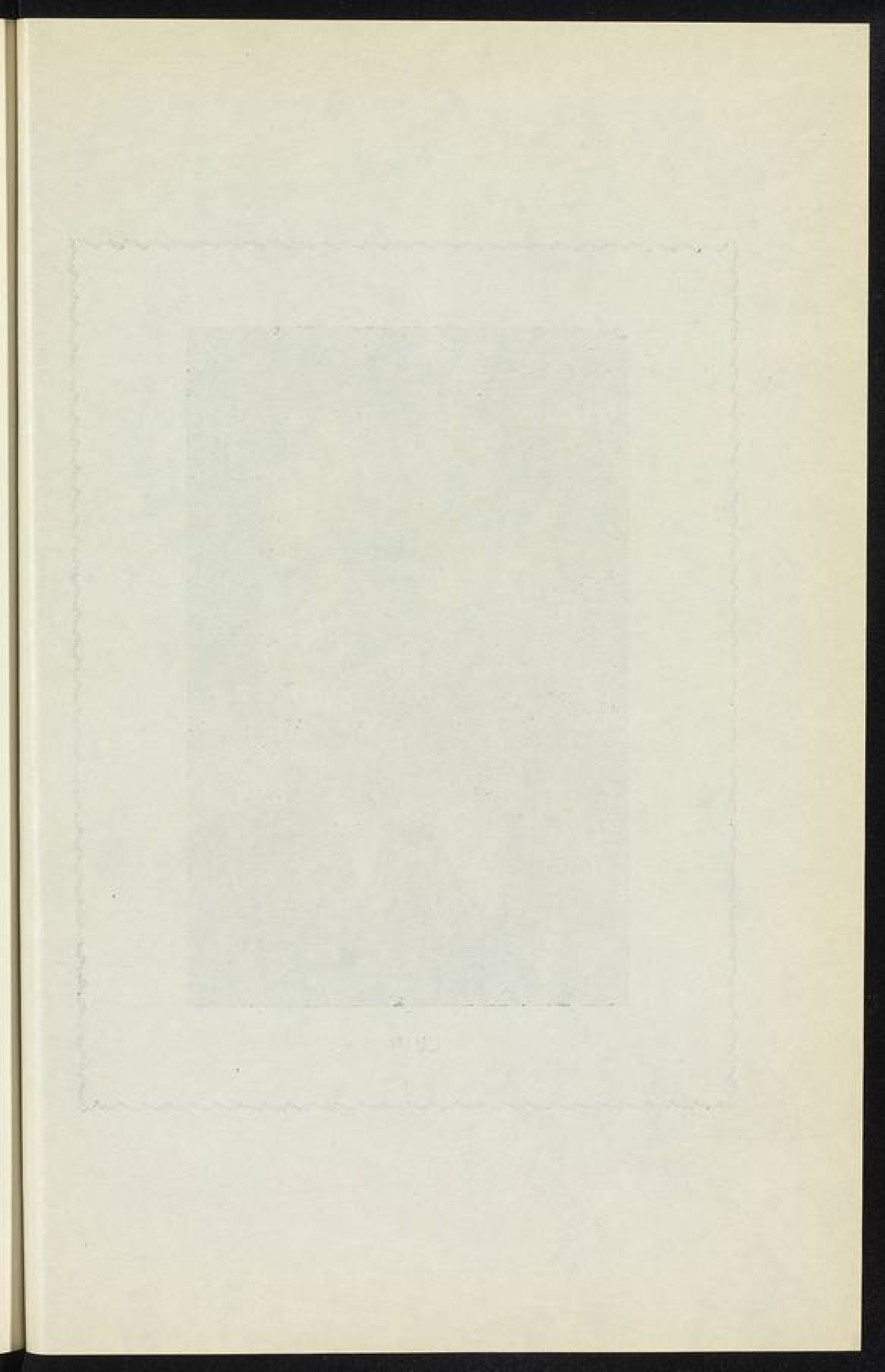
وسواء صح هذا الذى قيل ام لم يصح فقد وجدتنى أومن بعض الايمان بصحته ، واتقدم لجمع ماتناثر منه هنا وهناك فى هذا الكتاب على اعتباره عرضا موجزا غير كامل لبعض من عرفت من الاشخاص الذين صادفتهم فى حياتى ، اقول عرضا غير كامل لانه ما من شخص – ممن ذكرته هنا – الا وكان الذى اعرفه عنه اكثر مما ذكرته .... وقد اضطررت بل واضطرنى ما تبانى عليه الناس واصطلحوا عليه: بان (ليس كل ما يعرف يقال) اجل اضطرنى هذا الى ان اقتصد فى القول الذى حسبته مستساغا ، واوردت بعض ما عرفت عن بعض من عرفت ، فان صح اننى قد جئت بشىء جديد من الادب فى سياق الترجمة وكيفية العرض فضلا عما تضمن الكتاب من الوقائع التاريخية والادب الذى قد ينطبق عليه قول حبيب جاماتى (تاريخ ما اهمله التاريخ) – اقول ان صح هذا ، فهو المقصود ، والا فلست بأول من ظن انه فاعل شيئا بينما هو لم يقدم شيئا ولم يؤخر .

بغداد – كرادة مريم

جعفر الخليلى



المؤلف



السيد مير علي (1)

كنت ابن عشر سنوات او اكثر قليلا حينما كنت اختلف الى مدرسة اسرتنا الدينية المعروفة بمدرسة الحاج ميرزا حسين الخليلي في النجف لاحمل الى اخي الاكبر الطعام والالبسة او بعض الحاجات فقد كان اخي يقيم في احدى غرف الطابق الاعلى من هذه المدرسة ولا يتركها الا حينما تضطره الحاجة الى الخروج لزيارة أحد او حضور البحث ، او الذهاب الى البيت • وكنت ارى – في جملة من ارى بين اسبوع واسبوع أو يوم ويوم من طلاب الدين الداخلين الى المدرسة والخارجين منها ، المتكئين على المطالعة والجالسين القرفصاء في زاوية من الايوان ، او ركن من الاركان ، ليدخنوا غليونا ، او ليسرحوا الطرف في الافق او ليتناقشوا في مواضيع دروسهم مناقشة تكون فاترة حينا ، وحادة في اكثر الاحيان – اجل لقد كنت ارى بين هؤلاء الطلاب بمختلف صورهم سيدا في العقد الثالث من العمر ، اسمر اللون ، خفيف اللحية ، ربع القامة تعلو رأسه عمة سوداء قد تكون اكبر عمة رأيتها على رؤوس اقرانه وزملائه الطلاب ، وهو يرتدي ثيابا مترفة تدل على تأنق باعتدال ، ويحتذي جوربا ابيض ، ونعالا اصفر من النوع الجيد ، وهو يتحرك باتزان ، ويخطو باتزان ، ويتكلم بصوت هادىء في نبرات موسيقية جذابة ، ولست اذكر الان متى القيت النظرة الاولى عليه وكيف؟ وكلما اذكر هو انني رأيته في هذه المدرسة وفي غرفة اخي ثم في منزلنا وقد دعاه اخي لتناول العشاء مرة او غير مرة وهناك عرفت انه السيد مير علي ابو طبيخ •

---

(1) الهاتف السنة (8) العدد 318 الجمعة 25 كانون الاول 1942 ومن هذه الكلمة انتزعت مقدمة ديوان (الانواء) • للسيد مير علي ابي طبيخ •

ومرت الايام سراعا وغادر اخي النجف هاربا من وجه السلطة الانكليزية ولم تعد تنقلني رجلاي الى المدرسة ، ولا المرور عليها على رغم وجود اقارب لي فيها ، وعلى رغم كونها مدرسة الاسرة ، وذلك لان بيتنا يقع في طرف آخر من هـذه المحلة ، ولانني اصبحت غير ملزم بنقل الطعام او الحاجات الاخرى لاحد آخر ، أو قل انني كبرت فلا يسوغ لاحد اقربائي ان يسخرني لمثل ماكان يسخرني اخي قبل هربه ، ولم اعد ارى السيد مير علي الا لماما ، وفي فترات قصيرة ، في الطريق ، او في الصحن الشريف ، فلا تزيد تلك الفترات على القاء السلام مني عليه وتلقي الجواب منه بشيء من الاعتداد بالنفس ، او عدم المبالاة ، حتى لقد حسبته غير مرة كثير الرضا عـن نفسه ، عظيم الاعتداد بها ، فلم اشعر نحوه بما كنت اشعر به من ميل نحو اصدقاء اخي الذين ما التقوا بي مرة حتى سألوني عن اخبار اخي وشؤونه ، او راحتي انا وشؤوني ومع ذلك فقد كنت احترمه كثيرا ، وابالغ في احترامه كلما التقيتـه في الشارع ، او في مجلس ، فالقي عليه السلام كما يلقيه شبابنا الصغار على علماء الدين الكبار ، ويرد هو على السلام كما يرده اباؤنا على ابنائهم ، ثم يمر زمن آخر فألفي نفسي وقد انتقلت من دور الى دور قد لا تكون له بالماضي اية علاقة او اي اتصال ذلك هو دور الشباب الذي اذا اجتازه الشاب بسهولة فلن يستطيع ان يجتاز زهـوه وغروره وكبرياءه بتلك السهولة ، فاجدني معتزا مغرورا بكلمتين تعلمتهما مـن النحو والصرف ، وآخرين من المنطق والمعاني والبيان ، وثالثة بما بقي في ذهني أو استعدته في ذاكرتي من دروس المدرسة الحديثة ، فاذا بي شامخ بعض الشموخ ، واذا بي وانا التقي السيد مير علي مرات فاصفح عنه دون ان احييه او اسلم عليه كأن ليس لاخي حرمة في نفسي ، وكأن ليس لاصدقائه اثر في ذاكرتي ، ويبـدو لي ان هذا السلوك مني قد لفت نظره الى فلم يلاق عنده القبول ، او انه عز عليه ان يرى اخا صديقه جافيا ، قاليا ، خارجا على الادب .

وذات يوم وانا ادخل مجلسا من مجالس النجف المكتظة بالفضلاء والادباء لفت نظري ازدحام صفوف الجالسين فاهم بالجلوس في مكان قصي من الحضار وقد

احسست بالخجل يستحيل الى قربة من العرق البارد ، واذا بصوت من صدر المجلس وبكل لطف واحترام يدعوني الى الجلوس عنده وما كادت تحين التفاتتي الى مصدر الصوت حتى رأيت السيد مير علي واقفا ، ومفسحا لي في المجال ، واذا بي اجلس اليه جنبا الى جنب فيسألني عن حالتي ، ويسألني عن اخي ويكثر من السؤال والاستفسار ، ويقص علي قصة كان لها مغزى عظيم في عالم الغرور والكبرياء فاتلقاها صدمة عنيفة منه كانت بمثابة قرص الاذن ، كما كانت السبب المباشر لان يثوب الى رشدي قبل اوان ثوبانه عند الشباب ، فعدت كلما رأيته انمق له اسنى التحيات واعطرها ، فيتقبلها قبولا حسنا ويرد عليها باحسن منها ، فصرت ارى فيه رجلا غير الذي ظننت ، وارى قلبا غير الذي حسبت ، واشعر بجاذبية تجذبني اليه ، وتحببه الى نفسي على رغم تباين هدفي وهدفه ، وسلوكي وسلوكه ، ووجدتني اذكره بشيء من الارتياح في كثير من المناسبات الادبية ولم يمر بعض الزمن حتى اشتدت بيننا اواصر المودة وحتى بدأت ارى في شخصه الرجل الطيب المفعم باسمى العواطف نحو البشرية وارى في احاديثه اصدق الدعوات لانتشال الانسان من هوة الوحشية وارى في حركاته وسكناته شيئا غير قليل من المثالية فاعجب به غاية الاعجاب ، واكبره غاية الاكبار ومع ذلك كله فلم تكن لي به تلك الصلة التي تخولني ملازمته ملازمة اخي أو اي صديق اخر ، فهو قد توغل في دراسة الفقه والاصول والحكمة ومقتضيات الدين والآخرة ، وانا توغلت في (السطوح) ومقتضيات الدنيا لحد اذا لم يكن بعيدا فهو حد فاصل بين غايتي وغايته على الاقل ، فكان التقاؤنا مقتصرا على الصدف من غير ميعاد وعلى المنتديات والمجالس العامة والخاصة بحيث لم تزد مدة هذا الالتقاء او المقابلة على نصف ساعة على الاكثر فلا اغادره بعدها الا وانا مغمور ومسحور بعقله وحديثه واهدافه ، ولا اراه الا وانا مشتاق للاستزادة من تلك الذهنية الفياضة ومن ذلك القلب النابض بحب الانسانية والفضيلة .

وفي اثناء السنة كنت احس بخلو مكانه في المجالس والمنتديات زمنا قد يطول حينا ، وقد يقصر حينا آخر ، فاعلم انه يقضي بعض ايام عطلاته عند قسم من اعمامه

في (غماس) او عند القسم الاخر من اعمامه في (الطابو) فقد كانت المودة بينه وبينهم على غاية الصفاء ، وكانت عنايتهم به مفرطة وهو يكاد يذوب في حبهم ، فلا تحين عطلة الدرس حتى يخف الى زيارتهم ويقضي شطرا من الوقت في ربوعهم ثم لا تكاد تنتهي ايام العطل حتى يعود الى النجف ليواصل درسه وبحثه •

وطالت ذات سنة غيبته فلم أسأل عنه حاسبا تعلق اعمامه الشديد به وتعلقه الشديد بهم كل الاثر في تلك الغيبة الطويلة ، ولكن غيبته قد طالت كثيرا ، وتجاوزت حد الحسبان ، وحينئذ علمت بانه مريض ، وانه يشكو وجعا حادا في مفاصله ورجليه وان المرض قد الزمه البيت فلم يطق الخروج منه ، وبعد شهر او اكثر من ذلك التقيته في الشارع بشيء كثير من اللهفة والسؤال عن الحال والعافية ، وسرني كثيرا ان اجده متهللا ، ومكثرا من الحمد لله كلما كررت عليه السؤال عن الكيف والاستفسار عن الصحة ••••

ومر زمن اخر ، علمت ان مرض الروماتزم قد عاوده ، وان رجليه اصبحتا لاتطيقان النهوض به بدون واسطة ، وانه قد اضطر الى مراجعة الاطباء ببغداد كما اضطر الى السفر (لحمام العليل) في الموصل وانه لم يترك وسيلة من الوسائل الحديثة دون ان يتمسك بها في شفائه فلم يجده ذلك شيئا ، فراح يلتمس شفاءه في وصفات المجربين والعجائز حتى لقد جرب الف صنف وصنف من العقاقير المألوفة فلم يحصل على فائدة ، وشاء الله ان تقف رجلاه عن الحركة فوقفتا ، وان ينفض يديه من كل رجاء فنفض يديه ، وان يقتعد جانبا من البيت لاينتقل من مكان الى اخر الا بحمله على الاكتاف فاقتعد ، وان تظل اعصابه مرهفة الحس تشعر بالاوجاع حينا بعد حين فظل كذلك • اما الشيء الذي لم يشأ الله ان يسلبه اياه فهو الابتسامة المرتسمة على ثغره والصبر الذي يغمر وجوده •

ولم يجانب السيد احمد الموسوي الهندي الواقع حين رثاه بقوله :ـ

حوشيت لم تجزع	ولا طول السقام زعزعك
قالوا تئن للضنا	فهل وساد سمعك ؟

أسهرك المجـد ومـا سـقم أقض مضجعك
يا بطل الصبر الجميل أى قـرن صرعك ؟
يـا ذاهبـا بالصبـر محمود الثنـا قد رجعك

اجل لقد وقفت حركة رجليه ولم يبق ما يدل على وجود الحس فيهما غير اوجاع شديدة طالما اقضت مضجعه فلازم البيت كسيحا مقعدا لايحيد عن مقعده قيد شبر الا بمشقة كبيرة ، وجهد عظيم ، وراح اصدقاؤه يزورونه صباحا ومساءا ويقصدونه كلما افتقدوه وشعروا بفراغ محله فى منتدياتهم ، وحلقات دروسهم ، وكل زائريه من اولئك الذين قطعوا واياه شوطا كبيرا من مراحل العلوم والبحوث الدينية ، فكانت هذه الزيارات المتمادية المتصلة سبب مشقة له اكثر مما كانت سبب سلوى ، لاسيما والرجل مقعد لايطيق ان يستغنى بنفسه فى خدمة نفسه ، ولو ترك الامر له لظل فى قيد لاانفصام له ، وعذاب لا انتهاء له ، من كثرة الداخلين عليـه والخارجين منه ، ولكن طائفة من اخواله آل الشيخ راضى واصدقائه المتفانين فى حبه، والمفكرين فى راحته وهنائه ، قد وقفوا سدا فى وجه الزائرين وخصصوا لزيارته يوما واحدا فى كل اسبوع وهو يوم (الاربعاء) واعلنوا ذلك للجميع دون ان يهتموا برضاه او عدم رضاه وصار يوم الاربعاء من كل اسبوع يوما يفتح فيه الباب عـلى مصراعيه لاصدقائه ومعارفه والمعجبين به ، واصبح يقضى كل ايام اسـبوعه هادئا بعض الهدوء ، ساكنا بعض السكون ، يقطع شطرا من النهار فى مطالعة كتب الفقه والاصول والحكمة ويقطع الشطر الاخر منه فى قراءة بعض مؤلفى العصر كالرافعى والعقاد ، والدكتور طه حسين ، وهيكل ، قراءة دقيقة وبذلك استيقظت موهبتـه الادبية فى نفسه وتنبهت ملكته الشعرية وكان قعوده فى البيت اول مرحلة لمزاولته الشعر •

نعم انه كان يفهم الادب فهما جيدا وقد جرب غير مرة نظم الشعر فافلح ، وتليت له بعض قصائده من قبل ، كما انه كان يحسن نقد الشعر وانتقاء ارق معانيه ولكنه ماكان ليتخذ منه وسيلة تسلية ، ولم يشتهر به الا يوم قعد به المرض ، والا

يوم تفرغ من تبعات المجتمع وتقاليده ، فخلا بنفسه ليقرأ ويتأمل ، حتى اذا مل القراءة ، وسأم التأمل ، عمد الى النظم يعبث بقوافيه واوزانه عبث الناظر اللاهى ، واذا بهذا العبث المقصود يجره الى نتيجة غير مقصودة ، ويخرج منه شاعرا من طراز خاص فلا يترك مناسبة تمر دون ان يصور فيها خاطرة من خواطره الشعرية فيقول عن كساحه وحمله على الاكتاف مثلا :

أنفت ان تصافح الارض رجلى ... فاستوت فى منابر الاكتاف
فكانى وقفت فيهـــا خطيبا ... او كأنى فى القوم (عبد مناف)

ويكتب لصديق له معتذرا ويقول :ـ

هذا كتاب الله فينا ناطق ... لسانه : ليس على المرضى حرج
وقد شهدتم مرضى وحرجى ... فأسأل الله الشفاء والفـــرج

اجل لقد مضى يتخذ من الشعر وسيلة للتعبير عن خواطره وخوالجه ، ويصور فيه لحد ما افكاره ، وجده ، وهزله ، ولم يعد يوم الاربعاء مقتصرا على زيارته فحسب ، وانما صار يوما يتنافس فيه البعض من حضاره فى الاراء والافكار ، ويتنافر فيـــه الادباء بالشعر والنثر ، فيسمعون منه منظومه ومنثوره ، ويرددون على مسامعه اصداءه وما يعلق فى نفوسهم ، وطابت هذه المجالس ، ولذت احاديثها فى افـواه زمـلائه واصدقائه من علماء وادباء ومحبين ، فمضوا يسعون لاستغلالها فى مجالس خاصة تقتصر عليهم وحدهم واقترحوا ان لايتركوا دار السيد مير على نهار الاربعاء مع من يتركها من بقية الزائرين ، وان لاينصرفوا عندما يحين وقت الانصراف فاذا ما حان الظهر حمل كل فرد من هؤلاء الاصدقاء غداءه الى بيت السيد مير على ، ودعا هو بغدائه ، فكانت من كل ذلك مائدة واحدة وقد اطلق على طائفة خاصـــة مـن هؤلاء الاصدقاء اسم (الصفوة) كان منهم الشيخ حسين الحلى ، والسيد على بحـر العلوم ، والشيخ محمد حسين المظفر ، والشيخ محمد جواد الحجامى ، والشيخ محمد حسين الجواهرى ، والشيخ كاظم على بيج ، وحضر هذا اليوم غير مـرة ، الشيخ عبدالحسين الحلى والشيخ محمد حسن حيدر وغيرهما ، وحرصت هـذه

الصفوة كل الحرص على ان تجعل من يوم الاربعاء بعد انصـــراف الزائرين يوم متعة ولذة ربما كانت تتجرد فيه من قيود المجتمع ، ليواجه بعضها بعضا بحقيقتـه ، وبذاته ، ومباذله ، ولم يكن هذا التجرد عن القيود والسلاسل والظهور بالحقيقة المطلقة من قبل (الصفوة) غير الافساح فى المجال لانفسهم ليضحكوا ماشـاء لهـم الضحك ، وليعلقوا على الاخبار الادبية والمقاطيع الشعرية بما شاءت لهم الحـــرية والفكاهة ويعطوا لانفسهم المتعة الكاملة فى الاكل حتى وان جاءت هذه المتعة عند الصفوة عن طريق اختطاف اللقمة من فم صاحبها ، أو الاسراع بانتزاع اللحم من الحساء ، وحرمان الاخرين منه ، او بمهاجاة شعرية مستملحة مقبولة تتجـــاوز العشرات من ابيات الشعر المرتجل الهازل ، الى غير ذلك من اللذة البريئـــة التى تنشدها نفوس ادباء تعبوا على انفسهم بعض التعب ، وعلى هذا فقد يتغير مجلس الواحد من الصفوة عدة مرات ، فحين يكون الى جانبك فى هذه الدقيقة لايلبث ان يكون فى طرف بعيد الى جانب شخص آخر فى الدقيقة الثانية ، اما الذى لايتغير مجلسه ، وحديثه ، ولون وجهه ، فهو السيد مير على وحده ، وقد اعتاد ان يضحك كثيرا لنكت الزمرة ، اما نكته هو فقد اعتاد ان يرسلها هادئة بغير ضحك ولكنها على الغالب تكون من النكت المبتكرة الحارة ، وانى لاذكر يوما من ايام مرح الزمرة حـــول الخوان وقد انقلبت دلة القهوة على الكتب وتسربت نار الموقد الى الفراش فاحرقته ، وادى عمل اخماد النار واطفائها ومزاح الصفوة الى نوع من الفوضى كان مـــن جرائه اصطدام جبين السيد مير على با (المنقل) الحديدى عفوا .

نعم انى لاذكر ذلك اليوم واذكر تلك الابتسامة التى ارتسمت على ثغر السيد مير على واذكره حينما التفت الى الجميع قائلا ـ اشهد انه لايليق بمثل هذه الفوضى التى جئتم بها غير بيت من شعر (الابوذية) العامى ، فمن منكم يجيز هذا الشطر :

(جماعته باكلهم كسفونه)

فضحك الجميع واجازوا البيت حتى جعلوه عشرين شطرا وليس ثلاثة شطور كما هى القاعدة فى نظم (الابوذية) ، وانتفت فاذا بكدمة ونتوء بحجم الجوزة تعلو

جبينه من اثر الاصطدام ، •• ولكن هل تغير وجهه ؟ هل تنكر لجلسائه ؟ وهل قال شيئا ؟

وشاع مجلس (الاربعاء) باحاديثه وأدب (الصفوة) وشعرهم ، وظرفهم ، ومباذلهم في مجالس النجف ومنتدياتها ، واصبح الاستقراء والاستنساخ والمساجلات في الشعر وتبادل النكات وابتكار الملح والفكاهة كشيء ملتصق بنادى السيد مير على الادبي أو باسمه على الاصح ، حتى صار الكثيرون يحيلون النقاش والاحتكام في بعض المشاكل الشعرية والمساجلات الادبية ليوم الاربعاء ، ولمجلس السيد مير على وكثيرا ماتكون هذه المشاكل من التعقيد بحيث تستعصى الاجابة عليها سريعا ، وتتطلب ان يتناولها من يحضر منتدى الاربعاء من العلماء الذين لم يخل ناديه منهم في صباح الاربعاء ، وطالما اختير السيد مير على حكما مطلقا فيما اختلف فيه من بعض الاراء وبعض الافكار الادبية ولست انسى تلك الحلبة الادبية التى اشتركت فيها طائفة من الادباء بالاراجيز حتى كانت منها مجموعة بلغت اثنتى عشرة ارجوزة طويلة وقد كتب لى انا ان اكون احد المشتركين بها في وليمة غداء فاخرة اقامها الشيخ قاسم محيي الدين في بيته ، اقول لست انسى تلك الحنبة الشعرية التى انتهت بمعركة ادبية اضطرت البعض الى اختيار حكم يضع حدا نهائيا لتلك المعركة فوقع الاختيار بالاجماع على السيد مير على ورفعت اليه تلك الاراجيز ومعها كتاب موقع عليه من قبلهم وهم يلتمسون صدور حكمه في هذه المعركة العنيفة وكان ان صدر حكمه في ارجوزة شعرية تجلت فيها قوة الشعر كما تجلت خفة الروح والدعابة التى قلما خلا منها ارباب الذوق والنفوس المتفتحة ، وكانت الارجوزة بمثابة انتصار لامع للمشتكى المقهور ضد جميع مهاجميه ، ومن المؤسف ان تودع كل تلك المقاطيع والاراجيز عند الشيخ قاسم محيي الدين لسبب من الاسباب الخاصة فيحرص عليها الشيخ ، ولم يدعها ترى النور ومعها قصيدة عبر فيها الشيخ محمد طاهر الشيخ راضي عن رأيه وحكمه في ذلك النقاش ، ومعها قصيدة السيد مير على التى كانت بمثابة التميز والاستيناف في تلك المعركة •

وصار يوم الاربعاء من تلك الفترة من اشهر ايام النجف المعروفة وقد اشار اليه الكثير ممن رثى السيد مير علي وكان منهم ابراهيم الوائلي الذي جاء في مرثيته قوله :

منتدى العلم في الغريين ... اخفى الموت رمز الفخار من اعضائه
شاعر مرهف الاحاسيس ليس ... (البعض) من نده ومن اكفائه
حدث (الناس) عن سواه فصولا ... وحديث الزمان عن (اربعائه)

واهدى لي السيد مير علي ذات يوم (دلة) قهوة معدنية وارفقها بقصيدة جاء فيها :

منطق الفن وهو بعض الادلة ... دل ان الجمال في صنع (دلة)
صورتها كف الصناع فوافت ... بمصب تصاغ منه الاهله
الى ان يقول :
شاقني ان ازفها باحترام ... (للخليلي) فهو زين الأخله
انا ما ان ازال آكبر منه ... قلما رائعا وأكبر عقله
أتحرى نظيره جهد ما بي ... من نشاط لكنني لم اجد له ...

ونشر (الهاتف) هذه القصيدة وعلق عليها ولم تكد تنتشر حتى تناولها جمع كبير من فحول الشعراء وباروها بقصائد رائعة وقد عزاني البعض في هذه المباراة بابني الوحيد (هاتف) ، وكان من اولئك الشيخ محمد حسن حيدر ، والشيخ عبدالحسين الحلي الذي تفنن في قصيدته هذه تفننا عجيبا ، جمع فيها عددا من الاغراض التي قلما جمعها شاعر كما جمع هو من غزل الى نسيب الى مديح الى هجاء ، الى رثاء ، وقد تعرض في هذه القصيدة للسيد مير علي ولمن نظم على غراره ، وهجا اولئك الشعراء وعدهم مخفقين في اعطاء قافية (الدلة) حقها من صوغ رثائهم وتعزيتهم لي على ذلك النمط من الرثاء الباكي الحزين فقال مما قال وهو يخاطبني :-

لك اهدى نجية من نجيب ... اوقفوا قبلها ببابك بغله

ألبسوها من العويل ثيابا　　وسقوها من واكف الدمع وبله
وحشوها من القديم حديثا　　ما اجادوا وما استجدوا أقله
وجلوها رسما اجل هى رسم　　قد دعوه قصيدة للتجله

وكان عنوان قصيدة الشيخ عبدالحسين الحلى هو (دلة من قريض ؟) .
واغتاظ السيد مير على ولكن غيظ السيد مير على لم يكن مكشوفا لكل احد ، واغتاظ غيره من الشعراء وكان منهم السيد احمد الموسوى الذى حاول ان يناقش الشيخ عبدالحسين الحلى على رغم تهيبه له فقال مما قال :

ايها الشيخ ان للحب ثله　　لاتعى للعذول في الشوق عذله
قد ينال الملام منهم ولكن　　هم على الحب فى رحيل وحله
فاحتسبنى منهم فدينهم دينى　　ومالى سوى المحبة قبله
أأوارى نوارتى ثم ارتد　　خليا ـ هذى حماقة (بقله)

والتعريض باهل الحلة هنا واضح فى قافية (البقله) ، والقصيدة فى نحو مائة بيت واكثر وقد ارفق احمد الرضوى القصيدة بكلمة اعتذار نشرها الهاتف يقول فيها مخاطبا الشيخ عبدالحسين :

« وبعد فمن التطفل على شيخنا قاضى القضاة ان ينشر لى (الهاتف) شعرا قد يظن انه معارضة لقصيدته العامرة الخالدة ولكن هذا بمثابة الجلوس على مائدة الكريم بغير دعوة يعده الناس تطفلا وهو احترام » .

والحق ان قصيدة الشيخ عبدالحسين كما اشار اليها السيد احمد قصيدة تفنن فيها الشيخ تفننا عجيبا غريبا جمع فيها مختلف الاغراض الاجتماعية والادبية ووفق بين حلقاتها المختلفة توفيقا منعدم النظير وهى تقع فيما يقرب المائة بيت منشورة فى الهاتف وقد ختمها الشيخ الحلى بالابيات التالية التى عبر فيها عن ماهية قصيدته وصفتها من حيث الموضوع ، اما ماهيتها الادبية فلا احسب ان من الهين حصرها فى جمل صغيرة كهذه ، وقد ختم الشيخ القصيدة بقوله :

لك مني تبدى التحايا هدى | لك زفت من بعد بطء ومهله
لست ادرى ولا الهدية تدرى | ما الذى قد تكلفت لك حمله
أرثاء أم دلة من قريض | ام هجاء ام مدحة للاجله
أم عظاة تضم جدا وهزلا | ام تراها تحملت ذاك كله ؟
جبر الله بالمسرات منى | ثقل بعدى ومن (خليلي) ثكله

ونظم السيد مير على قصيدة تضمنت شيئا من عدم رضاه ودفع الى بها لنشرها كرد على قصيدة الشيخ عبدالحسين الحلى ولكننى لم استسغها لا لشيء الا لانني لم ارها جديرة بالوقوف امام قصيدة الشيخ الحلى الرائعة التى حفظ الكثير من الادباء ابياتها ، فقد صور فيها الشيخ عبدالحسين الشعر بابدع صوره ، وتفنن فى صياغة (الدلة) تفننا عجيبا ، وقد صارحت السيد مير على برأيى ووافقنى وقبرت القصيدة فى مهدها . (وقد اوردت بعض الابيات من هذه القصيدة المعاصرة فى كلمتى عن الشيخ محمد حسن حيدر من هذا الكتاب) .

وفى تلك الاثناء رأى الشيخ محمد جواد قسام ان يتم قصة (الدلة) بفنجان من فناجين القهوة الخاصة ، وتفضل على مشكورا باهداء فنجان عمل الفن فيه عمله ، فصيغت فى وسطه قبة مشبكة من الفضة احتوت على مقدار من المسك لايكاد الراشف يرشف منه رشفة حتى يحس بالعطر يضمخ انفاسه ، وارفق الفنجان بقصيدة نشرها له (الهاتف) فى حينها وكان هذا مطلعها :

وافاك فنجان لدله | يسقى بقهوته الأخله

وبالاجمال فقد صار (للدلة) وقع ادبى رائع بفضل السيد مير على ، ولم تزل الدلة تشغل من خزانة محفوظاتى اسمى موضع واغلاه .

وكان السيد مير على سريع البديهة يأتيه الشعر عفو الخاطر معبرا به عن احاسيسه وكان بيته يقع على السور مطلا على صحراء النجف ومقبرة (وادى السلام) وكان لاعمامه (آل ابى طبيخ) عبد يسمى (قنبرا) فاذا اتفق وجوده فى النجف وفى بيت السيد مير على تكفل هو بنقله الى تلك الغرفة المطلة على (الوادى) صباحا ثم قام بنقله

الى الحريم مساء ، وقد اوحى اشتراك اسم هذا العبد مع اسم عبد لعلى ابن طالب يدعى (قنبرا) واشتراك اسم السيد على ابى طبيخ مع اسم على ابن طالب ، لقد اوحت له مشاركة الاسماء وهو مستقل كفى عبده قنبر هذين البيتين :

ان تكن (قنبرا) فانى (على) | بك اهلا فانت لطف خفى
قال: فاركب فانت(درة) تاجى | قلت فاغنم لكننى (نجفى)

والدرة النجفية اشهر من ان تعرف للقراء اما الاشارة الثانية للنجفية فى هـذه التورية فنترك تقدير دعابتها لذوق القراء من النجفيين وذكائهم .

ولم يكن بيت السيد مير على القديم على هذا النحو من الموقع ، وانما كانت بينه وبين هذا الفضاء حوائل من ابنية استملكتها بلدية النجف وشقت منها شارعا عريضا فتهدم من بعض البيوت جانب بسبب هذا الاستملاك ، وأضيف الى بعض البيوت جانب آخر من فضلات الطريق التى باعتها البلدية ، وكنت انا من الساعين لشراء قسم من فضلة الطريق لبيت السيد مير على الذى تجدد جانب الديوان منه ، فكانت له من تلك الاضافة تلك الغرفة الجميلة المطلة على وادى السلام والتى تشرف منها على العابرين وعلى السيارات الجائية من كربلاء والذاهبة الى كربلاء وهذه الاطلالة كانت من اهم وسائل التسلية عنده ، حين يكل من المطالعة ، وحين يختلى بنفسه ، ولقد عبر عن انتزاع بعض المساحات من بيوت هذه المحلة الواقعة على هذا الشـارع ، واضافة بعض المساحات من فضلات الشارع لبعض البيوت ومنها بيته احسن تعبير فى هذين البيتين :

شوارع وسعوها كى يكونا | على رفه بهـا المستطرقونا
فكم صلموا بها أذنـا وانـا | بحمد الله زادونا قـرونا

ومن أجمل ما قرأت له من البديع الذى تضمنه شعره تقريظه لكتاب (الضائع) وهو أحد مؤلفاتى الذى طبع ونفـد ولم تبق منه ولا نسخة عندى :

صناعة جلت تصـــاويرها في النفس مذ جلى بها الصانع
كم من كتاب باطل في الورى يوجد والحق هــو (الضائع)

وكنت ادخل عليه كلما سنحت لى الفرصة دون الاهتمام بيوم الاربعاء الا نادرا ولا يكاد يصل صوتي الى اذنيه وانا انادى من وراء الباب :

ـ السيد موجود ....؟

حتى ينطلق صوته من الديوان مناديا :ـ

ـ مولانا ..... مولانا

ثم يردف ذلك بصوت عذب وبنغمة حلوة صائحا :ـ

ـ صدقي .... صدقي ....

ويمط هذا النداء بتلك النغمة الرتيبة ، ويمده حتى يبلغ مسامع ولده الاصغر (صدقي) فيخف ابنه مسرعا من الحرم الى الديوان وهناك تحضر دلة القهوة ، وتتفتح نفسانا معا مستعرضين ما تقتضيه المناسبة ، وما جد لى اوجد له من خاطرة بعثتها مطالعة كتاب جديد او سماع قصيدة حديثة ، وما اكثر المناسبات التي كانت تتلى فيها القصائد يومذاك في النجف .

وعلى ان عددا من الامراض قد تضافرت على هدم عمره ، منها الرماتزم الذى اقعده ، ومنها اعتلال الكبد الذى عانى منه الكثير من الالام ، ومنها السرطان الذى مات به .

وفي مرثيتى له اشرت الى ما كان يعانى من هذه الامراض والالام بقولى :ـ

دنيا الجميع لذاذة لكنمـــا دنياك سلسلة مــن الالام
وحياتهم نعم موفرة ومـــا خليت حياتك من ضنا وسقام

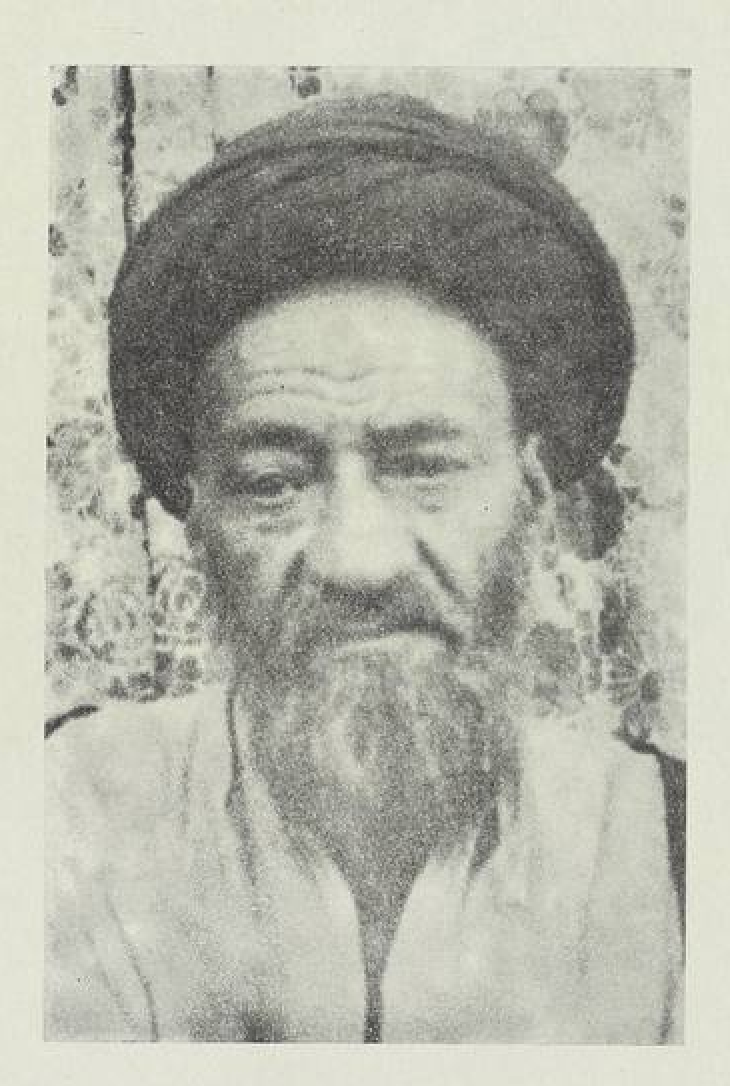
اقول :ـ وعلى ان عددا من هذه الامراض قد تضافرت على هدمه فانى اكاد اجزم بانه لم يوجد بعد احد من اقاربه ، أو اصدقائه من سمعه شاكيا او رآه جازعا وقد ظلت تلك البشاشة تصحبه الى آخر ساعات حياته .

وكان آخر ما نظم مقطوعة رثى فيها نفسه ، وضمنها وصيته وليست وصيتـه

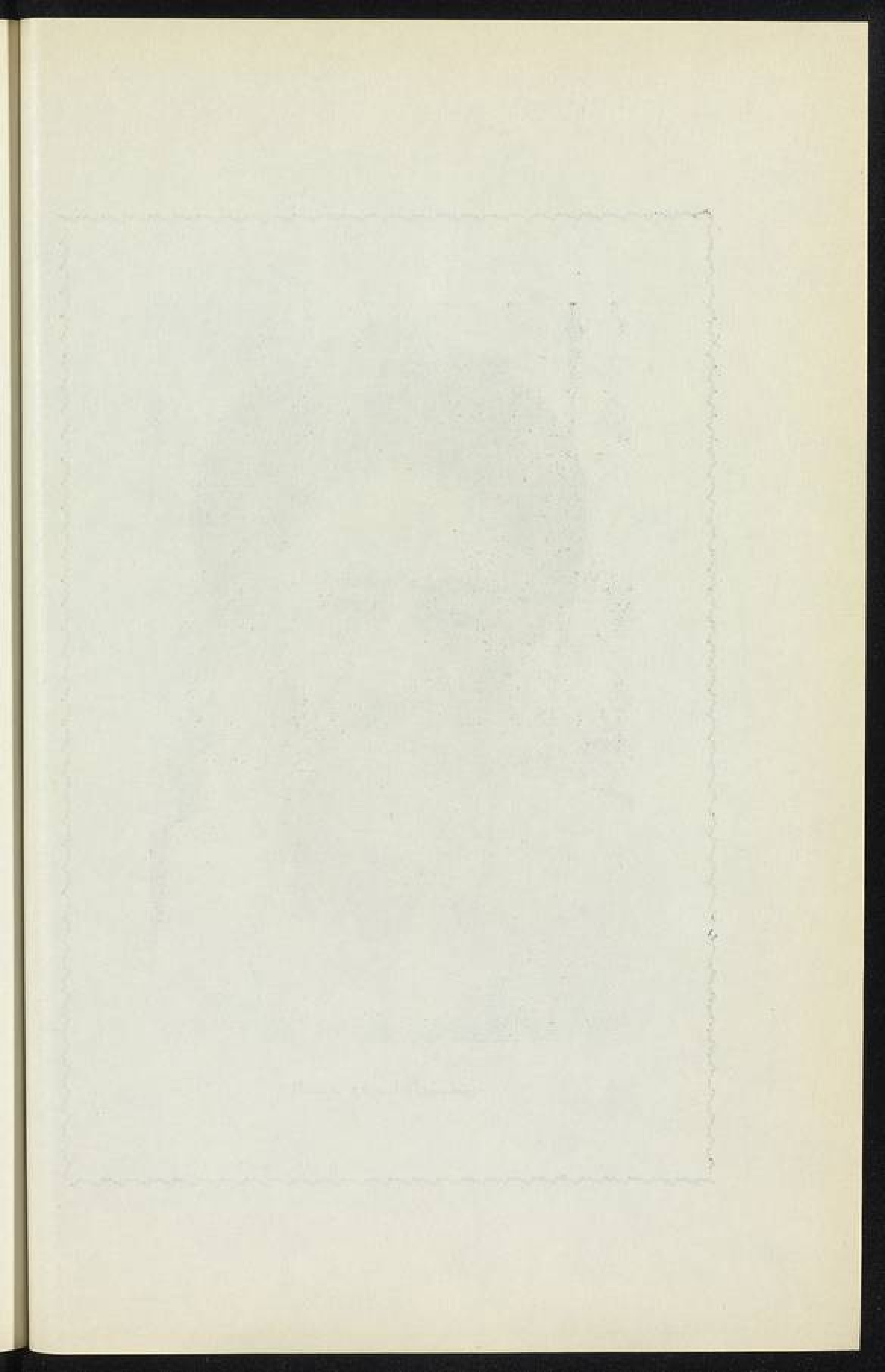
الا رغبة ملحة بان يقفوا به طويلا - اما مروا - على قبره ، ومن تلك المقطوعة هـذه الابيات :

واذا ما قضيت نحبى فخطوا   لى قبرا بجنب (وادى السلام)
وقفوا وقفـة الشحيـح عليـه   لا تمروا بـه مرور الـكرام
واذكرونى مهما حييتم بخير   رحمة واذكـروا بهـا ايامى
كل حى وان يعش ابد الدهـر   بدنياه سوف يسقى بجـامى

وانا اليوم امر على قبره واطيل الوقوف عنده ولا افارقه الا وقـد ذرفت آخر دمعة مما تختزنه ماقى ، غارقا فى بحر من الذكريات والاحلام اللذيذة التى لـن تعـود •



السيد رضا الهندي



السيد رضا الهندي (١)

كان ذلك قبل خمس وعشرين سنة أو اكثر عندما علمت بان صديقى السيد احمد الهندى انما هو ابن السيد رضا الهندى ، أو قل اننى عرفت ان لصديقى هذا أبا له فى عالم الادب والعلم شأن كبير ، ثم عرفت بان هذا الاب هو عم السيد صادق الهندى ، الذى تعرفت به فيما بعد ، ثم تحول هذا التعرف الى صداقة جد وثيقة ، ورحت كلما خطوت فى السن احس بشخصية السيد رضا الادبية تمتلك نفسى ، ويلذ صدى ادبه فى سمعى ، ولشد ما احببت ان استزيد سماع النكتة اللاذعة، والنادرة المستفزة ، والتهكم الادبى الهادىء المروى عنه فى الاوساط النجفية ، وذلك اما لانى كنت مرحا اميل الى الفكاهة والدعابة ، او لانى كنت لم افهم للادب حينذاك معنى آخر غير هذا النوع الذى كان يملأ نفسى اعجابا بالسيد رضا الذى يجيد هـذا اللون من الادب اجادة عظيمة .

ثم خطوت خطوة اخرى اتيح لى فيها ان اسمع للسيد رضا شيئا اكثر واكثر ، لقد اتيح لى ان اسمع اجود ما كنت افهم حينذاك من الشعر واسماه ، وابرع النكت الادبية واغزرها مادة ، واتيح لى ايضا ان ارى السيد رضا عن كثب فيما كنت ارتاد من المجالس الادبية ، وارى مقامه بين العلماء وبين الادباء ، فاسمع صوته الخافت واتميز نبراته بين مختلف الاصوات ، ولقد كانت بين مجلسى ومجلسه مسافة هى مابين فهمى الادب وفهمه ، ومع ذلك فقد كنت اسمع احاديثه ، واسمع تعليقاته بكل وضوح ، واتسمع الى ما كان يراه ويبديه من آراء لم افهم اكثرها ، ولكنى كنت افهم بعضها ، وبعبارة اخرى اننى كنت افهم ما كان يتصل بالادب اكثـر من فهمى للمواضيع الاخرى ، وكنت اطرب ايما طرب حينما كنت ارى نفسى قريبـة منه ، وقادرة على سماع احاديثه بلا تكلف .

---

(١) الهاتف السنة التاسعة ـ العدد ٣٣١ ـ ٢٥ حزيران ١٩٤٣ .

وهنا خطوت خطوات اخرى الى الامام فاذا بي استطيع ان اتخذ من الفقيد حكما لرأى ارتئيه ، او مشادة ادبية تقع بينى وبين بعض الاصدقاء والادباء ، او استيضاح عن معنى مغلوط ، او جملة ملتبسة المعانى والاغراض ، ولقد حكم ذات مرة لخصمى فى قضية كنت احسبنى فيها محقا فغضبت فلم يكن منه غير ان التفت الى وقال ما معناه :

« اذا كنت تريد العراك وكنت شجاعا فيجب ان تبحث عن (تركى) حاد المزاج لا ان تقصد (هنديا) بارد الطبع مثلى » فخجلت ووليت . ولقد كان حقا ـ كما قال ـ كان بارد الطبع ، لين العريكة ، وقد ساعدت صفاته هذه المختلفين فى الكثير من البحوث ولاسيما الشعر والادب على اختياره حكما نهائيا فى اختلافاتهم ، وظل يتمتع بهـــذه الصفة وتلك القابلية قابلية اصدار الحكم بكل اناة فى القضايا الادبية الى حين وفاته .

واتسعت دائرة معرفتى به ، وقرأت له اثارا كثيرة رائعة ، وصار لى به اتصال شديد اتاح لى ان اعرفه معرفة جيدة ، واسمع منه اخبار اعلام الجيـل الماضى بكل دقائقها فقد كانت له المامة واسعة بالمشاهير من ادباء الجيل الماضى وكان ملما باخبارهم الماما كافيا بل كان صدره عبارة عن سجل تاريخى لاهم ماقيل وما يجب ان يقال فى اسعد الساعات واكثرها رخاء ، واشدها حرجا ، وتوثقت عرى هذا الاتصال بينى وبينه فما وجدتنى بعد ذلك الا وانا اسير الحديث معه كما أشاء وكما يلذ لى أن يكون ، ووجد منى مصغيا فصار يجتهد فى نقل ما وسع ذهنه الى ذهنى من روائع الادب ، ويتحفنى باسمى منتوجه واغلاه ، وحتى غدا يزورنى فى مكتب جريدة الهاتف فى كثير من المناسبات ، وارتفعت الكلفة فيما بيننا ، وادرك انى لست من الذين يتخيلون للعظمة صورة خيالية بحتة متى تجردت منها لم يعد للعظمة معنى عندهم ، كأن يطلبوا من العظيم ان لايضحك مثلهم ، ولا يتحدث معهم والا فقد هبط من ملكوت عظمته مادام يحادثهم كما يحدثهم ند من اندادهم ، وكان اذا دخل مكتب الجريدة وهو متعطش لشرب الشاى ـ وكان منهمكا بالشاى كثيرا ـ نادى

(انا شايان) (انا شايان) ••• واعترضته اول يوم سماعى لهذه الصيغة الغريبة واستعماله كلمة (شايان) بقصد طلب الشاى قال :

اذا حق لذاك الفقيه العجمى ان يستعمل هذا القياس فى كلمات ابعد ما تكون معنى عن قياسى انا ويصيب المرمى بها فكم بالحرى ان يحق لى انا استعمال هذا القياس فى المعنى القريب •

ولما سألته عن قصة الفقيه العجمى قال :

هو فقيه عجمى لم يحسن غير اللغة العلمية الفصيحة وقد ضايقته بطنه ، وهو فى السفينة مضايقة شديدة ارغمته على ان يطلب من الملاح الدنو من الساحل فنادى:

- ايها الملاح ادن من الساحل فاننى اريد الخلاء •••• ولكن الملاح لم يفهم شيئا مما يقول هذا الفقيه فعاد الشيخ ينادى مرة اخرى - أن ادن من الساحل فاننى اريد المرحاض ، فلم يفهم الملاح شيئا ، وعاد للنداء ثالثة ورابعة وهو يستعمل اى رمز للمرحاض فلم يفهم الملاح شيئا ، وحينذاك سمع طفلا فى السفينة يبكى ويصيح : (جوعان) ، ويكررها مرات صائحا : جوعان ، جوعان ، فالتفت الشيخ الفقيه هنا وقال :- الان فهمت ••• ان القياس يجب ان يكون على (فعلان) ، فيا ملاح انا زربان، انا خريان ، انا بولان ••• فضحك الملاح ومن كان فى السفينة وفهموا ما يقول الشيخ •

وهنا قال السيد رضا - اذا حق لهذا الشيخ ان يستعمل قياسه المغلوط على (فعلان) وقد استطاع الملاح وغير الملاح ان يفهم مقصوده فكم بالاحرى ان تفهم انت ويفهم الجميع قولى حين اقول انا (چيان) واقصد بذلك انى شديد العطش لشرب الشاى ؟

وزارنى ذات مرة وانا اتلو قصيدة من هذه القصائد التى يظن اصحابها انهم من الشعراء المغموطة حقوقهم ، والمجهولة اقدارهم ، وهى ابعد ما تكون عن الشعر من حيث المعنى ، والوزن ، والقافية واسمعته طرفا منها ، وتلوت عليه ما يلفت النظر ، فاذا بالذكرى تعود به الى اربعين سنة خلت أو أكثر فتبدو على شفتيه ابتسامة خفيفة

كثيرا ما كانت هذه الابتسامة مقدمة لحديث ادبي طـــريف واذا به يقص على القصة التالية :

قال – كنا جماعة ندرس العلم ونتفكه بالادب ، وطالما تهادى بعضنا مع بعض بالطرائف وما قد ينفق له في حياته اليومية الخاصة ، وما كان يتم له استكشافه في اثناء العمل ، فكان احدنا يهدى الى الاخر ما يعثر عليه من نوادر ادبية ، وطـــرف شعرية كلما اجتمعنا ، وذات يوم تسوق المصادفة الى رجلا بغداديا جميـل البزة ، حلو الهندام ، نظيف الثوب والقلب ، تعلو رأسه (كشيدة) صفراء في غاية الاناقة والزركشة ، فينشدني قصيدة من شعره المضحك المبكي وهي قصيدة اصدق ماينطبق عليها الوصف العامي الذى يجمع كل اطرافها بكلمة (خرابيط) ولكن خرابيطها كانت من النوع الجيد الممتاز الذى لايطيق المرء أن يتمالك نفسه من الضحـك امامها ، ومـع ذلك فقـد اطقت انا ذلك ، وحبست نفسي لغاية في نفسي وهي ان اغرى هذا الرجل حتى أهيىء منه هدية نفيسة اقدمها الى صديقي كبير الشعراء السيد محمدسعيد الحبوبي ، فكان ما اردت ، وقد اغريت الرجل باز يعرض هذه الجواهر النفيسة على مشتريها ، ومقدرى حقها ، وضربت له موعدا ، وحضرنا نادى السيد السعيد معا وقدمته بهذه الالفاظ :

هذا الجلبي – قلت هذا وانا اشير اليه – هذا الجلبي شاعر ممتاز ولكنه كالقط ينتج ويخفي ما ينتجه في صدره ••• ، وسيقرأ لكم احدى قصائده العامرة لتروا فيها مثال الشاعرية الفياضة ، وكان تعريفي هذا قد اعمى الجلبي عن الالتفات الى الغمز اللفظي ، والكناية المعنوية في تشبيهه بالقط فصار ينشد بصوت اعلى ، واكثـر ترنيمة مماانشدني به شعره من قبل ، وما كاد ينهي مستهل القصيدة الا وانفجـر السيد محمد سعيد ضاحكا ، ثم اغرق الباقون في الضحك ، والشاعر مشغـــول بتلاوة القصيدة ، ولكن الحبوبي لم يلبث دقيقتين او اقل حتى بدأت الضحكة تغور في فمه كما تغور الشمس في السحاب ، وتنكمش منه السحنة ، وتختفي الابتسامة في نفسه ، كما ينكمش الحلزون ويختفي في نفسه ، ثم اذا بالحبوبي يتوجه الى الرجل بغتة ويقول :

ـ لقد غشك يا جلبي هذا (وقد اشار الى) فانت رجل لاتفهم الشعر ، ولا تحسنه ، واذا بقيت مغرورا بنفسك ، فستظل سخرية الساخر ، وهزؤ المستهزىء ، وانى ارى من واجبى الدينى ان انصحك ، واصرفك عن نظم الشعر نهائيا فهل انت فاهم ما اقول ..؟

ـ قال الرجل ـ نعم فهمت .

اما انا فكان الارض قد مادت بى من شدة الحياء ، وقد تصبب العرق من جبينى ، وبقيت كلما رأيت (مكشدا) من بعيد يعرونى مثل هذا الخجل الذى لايحتمل ولا يطاق .

وعلى ذكر هذا النوع من الشعر تذكرت انه عرض مرة على السيد رضا الهندى بيتان من الشعر لاحد الذين عرفوا بان فيهم (خيوطا) والخيوط كناية فى الفرات عن المس والخبال ، وقد يصغرونها فيقولون (خويطات) اذا كان خباله قليلا ، اجل لقد عرض على السيد الهندى هذان البيتان لصاحب الخيوط :ـ

اذا زفت عروس نحو عريس تشوش فكرتى وتجن بالى
وان جلست على الكرسى يوما يهب الريح من طرف الشمال

ثم طلب من السيد رضا ، ان يجيز هذين البيتين ببيت مناسب من نوعهما فقال :ـ

لقد زعموا بان به خيوطا لقد صدقوا ولكن كالحبال

فذهب هذا البيت مثلا واصبح كناية للمخبولين فى جميع الاوساط .

قلت انى اعرف السيد رضا من حيث كنت افهم ، او مما يلذنى ان افهم ، على الرغم من ان النواحى التى كانت تجتذب المتصلين به كثيرة ، وعلى الرغم من ان ابرز صفاته لم ينحصر فى الادب وحده فقد كان فقيها ، غزير المادة ، واسع الاطلاع وكان من مشاهير تلامذة الاستاذ الاكبر (الاخوند) وله فى العلوم الدينية ولاسيما الردود على الذين تناولوا الدين الاسلامى جولات ، وصولات ، يعرفها المتصلون به والمحيطون بها . ولا شك ان الذى يتصدى لترجمته سيخرجه صورة كاملة من جميع جهاتها اما انا فلم احاول غير ان استعيد ذاكرتى واحكى شيئا عن كيفية معرفتى له واتصالى به .

اجل انني عرفت السيد رضا من حيث اردت انا لا من حيث يجب ان يعرف، وعرفت انه زاول الادب زمنا طويلا فابدع فيه ابداعا كان المجلى فيه بين جمع كبير من الادباء والعباقرة فى زمانه ، ولقد ولع (بالبديع) ولعا سما به الى منزلة قل من ارتفع اليها من قبل ، وان لدى الكثير من الشواهد من نظمه ونثره ومنها (مقامات) اذا شئتها شعرا كانت شعرا بحور مختلفة ، وقواف مختلفة ، وان شئتها نثرا كانت نثرا مسجعا او مرسلا ، ولم يكن هذا غريبا بمقدار غرابة خلو هذه المقامات من التكلف ، فقد كان بحق امام البديع وشيخ الادباء فضلا عن كونه عالما ومن علماء الفقه المعروفين .

ومن ابرع بدائعه فى وضع التواريخ الابجدية التى سمعتها منه هو تاريخه لشهادة الامام ابى عبدالله الحسين الذى وقع سنة ٦١ هجرية وهو عدد صغير جدا كما يرى القارىء يستحيل على الشاعر ان يستخدمه لوضع تاريخ شعرى متين وبدون تكلف ، ولكن براعة السيد رضا قد تغلبت على هذه الصعوبة فوضع التاريخ التالى وهو شاهد على منتهى ما يبلغ المتفنن مما يتصور المتصورون لملكات الصياغة اللفظية والفنون الادبية فى ذلك العصر فجاء التأريخ على هذا النحو :

صرخ النادبون باسم ابن طه   وعليه لم تحبس الماء (عين)

لم يصيبوا (الحسين) الا فقيدا   حينما ارخوه (أين الحسين) ؟

وحساب هذا التأريخ يجرى بان تتبع الاشارة فى صدر البيت التى تقتضى تنزيل اسم (الحسين) باعتباره (فقيدا) من قوله (أين الحسين) فيكون التاريخ مجموع حروف (أين) وذلك سنة ٦١هـ وهو المطلوب ....

وعلى ذكر تواريخ الائمة من آل البيت اسجل بعض ما يحضرنى من تواريخ السيد رضا الهندى لباب حرم (العسكريين) بسامراء فلقد صيغ لحرم العسكريين باب فضى اجهد الصائغ المشهور (رجب على) نفسه فى اخراجه اخراجا بارعا من حيث الفن والنقش وقد اخرج من وسط الباب طغرى ذهبية ابدع فى صياغتها ابداعا كبيرا فعهد للسيد رضا الهندى تسجيل تاريخ الباب على هذه الطغرى الذهبية ففعل ،

الا انه لم يمض بعض زمن حتى اقتلعت الطغرى من الباب وسرقت ، وقد لها الناس بحديث الطغرى وسرقتها وكثر حولها اللغط ونسوا الابيات والتاريخ الذى وضعه السيد رضا لباب (الامامين العسكريين) والمنقوش عليها وهو :

عبدكما واقف ببابكما يعفر الخد فى ترابكما
يلثم اعتاب بقعة فخرت اركانها أنجم السما بكما
مذ اثقلت جنبه الذنوب أتى يلتمس العفو من جنابكما
يعتقد الفوز فى ولائكما ويوقن النجح فى ايابكما
ويبتغى الأمن فى المعاد وأن يسقيه الله من شرابكما
جاءكما زائرا وارخ (هل - يخيب - مستمسك - باكما)

وتاريخ اخر قاله السيد رضا فى باب (الامامين العسكريين) بسامراء وقد ركب قافية لا يستطيع ان يعطيها حقها الا الشاعر الفحل وقد كان شاعرها الفحل نفسه وهذا هو التاريخ :

قل لمن يمموا النقى وأموا من حمى العسكرى افضل خطه
جئتم (سر من رأى) فاقيموا أبدا الدهر فى سرور وغبطه
زرتم لجتى عطاء وفضل يغتدى فى يديهما البحر نقطه
خيرة الناس هم ومن ذا يساوى فى المزايا آل النبى ورهطه
قيل ارخ باب (النقى) فارخت بيت فى قلبى الوحى خطه :
(ادخلوا الباب سجدا ان باب العسكريين دونه باب حطه)

وللسيد رضا الهندى (تواريخ) فنية شعرية كثيرة وكلها من النوع الذى يدل على علو كعبه فى البديع ، وميزة البديع عند السيد رضا هو ان يأتى به فى الشعر أو يأتى به فى الحديث بعيدا عن التكلف كما لو كان يرتجله ارتجالا ويرسله ارسالا ومن ذلك كان التأريخ الذى وضعه لضريح زعيم الثورة العراقية السيد (نور) الياسرى والذى كتبوه على قبره ، وقد اورده موريا بين اسم (نور) وبين معناه من قوله :ـ

وكيف يختشى ظلمات الثرى ... رخ (ضريح ملؤه نـور)

واظن ان هذا التأريخ شطر من ابيات قرأها على مرة وقد كتبت على الضريح المذكور فلم يعلق فى ذهنى غير التأريخ وغير هذا البيت :

هذا ضريح فيه(نور) الهدى ... وهـو بلطـف الله مغمـور

ومن ابرع آثاره الشعرية المتضمنة لاروع الوان التورية والجناس المألوف فى ذلـك العصر قصيدة عامـرة رثى بهـا اباه الزعيـم الروحانى الـكبير السيد محمد الهندى .

والسيد محمد الهندى كاد ينفرد بالزعامة الدينية لو لم يحدث له حادث غير ذى قيمة ولكن منافسيه قد اتخذوا منه ذريعة للدعوة الى زعيم روحانى آخر ، اما الحادث فهو يتعلق بحكم رؤية هلال العيد لشهر رمضان ، فقد حكم السيد محمد برؤية هلال العيد ثم ثبت بعد ذلك ان العيد لم يحل ، وان الرؤية لم تثبت ، فقامت على أثر ذلك ضجة كبرى على ما كان يروى الشيوخ والمسنون ، سببت ان يرفض بعض مقلديه من حوله ، ويتضعضع الاجماع الكلى الذى اتجه اليه قبل هذا الحكم .

اقول ومن اروع آثار السيد رضا الهندى الشعرية تلك القصيدة العامرة التى رثا فيها أباه وضمنها شيئا من (بديعه) الرائع فى قوله :ـ

ولا بكين على نواك (متمما) ... عمرى لانـك (مالك) لعنـانى

ومتمم هذا كما هو معروف شقيق مالك ابن نويرة الذى قتل ، والذى بكاه اخوه متمم حتى دمعت عيناه العوراء ... على ما روى المؤرخون .

ومثل هذا التفنن وان لم يتعاطه الادباء اليوم ولكنهم لاينكرون انه يصلح ان يكون وسيلة من وسائل قراءة الاديب وتبين ملكاته ومدى استعداده فى علم الصياغة وطرازها وطريقة نسجه فى النظم .

وكان قد نقل عن السيد رضا الهندى بيتان من الشعر الذى تضمن هـــذا النوع من البراعة الشعرية ، وحكى جانبا من تفننه فى البديع ، وقد حفظ البيتين المذكورين جميع من سمع بهما فكثر اللغط عمن قيل فيه البيتان المذكوران ، فقال

البعض انهما قد قيلا فى السيد محسن الامين لتبنيه فكرة الاصلاح الدينى والدعوة الى تحريم اللطم على الصدور وشج الرؤوس بالسيوف فى يوم عاشوراء حزنا على الحسين ، تلك الدعوة التى كان لها انصار ، وكان لها خصوم فكان السيد رضا من خصومها على ما عرفت .

وقال البعض ان البيتين قيلا فى السيد محسن (ابو طبيخ) لان السيد محسن (ابو طبيخ) كان قد هاجم الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء فى رسالة طبعت باسم (المبادىء والرجال) وفسر هجومه هذا تفسيرا غير مرضى اثار حماة الدين واهله ، فقال السيد رضا فيه ما قال ـ وقال الاخرون غير هذا ، اما البيتان اللذان يحفظهما جميع من سمع بهما على اساس براعتهما البديعية او على اساس الغرض الذى يرمى اليه كل واحد وفق مزاجه فهما :ـ

ذرية الزهراء ان عددت	يوما ليطرى الناس فيها الثنا
فلا تعدوا (محسنا) منهم	لانها قد أسقطت (محسنا)

وسقوط (محسن) هو اشارة كما يعرف المتتبعون الى انه كان لفاطمة الزهراء ولدان هما الحسن والحسين وكانت حاملا بثالث اسقطته وكان قد سمى با (لمحسن) عند سقوطه .

ولقد سألت السيد رضا يوما وهو عندى فى مكتب (الهاتف) يحسو الشاى ويدخن ، وكان يسرف كثيرا فى التدخين وفى شرب الشاى فاذا اخذ كفايته منهما تفتحت نفسه وفاضت بالرفيع من الادب نقلا ونقدا وانشاء .

لقد سألته عما اذا كان البيتان المذكوران قد قالهما فى السيد محسن الامين حقا ؟

فقال لى وقد ظهرت آثار الانزعاج على سحنته قال :ـ

ـ انا راض ان توجه هذا السؤال لنفسك ، وترى أيليق بواحد مثلى ان يقول شيئا من هذا فى السيد محسن الامين ... ؟

وفاتنى ان اسأله بعد ذلك عن البيتين المذكورين وفيما اذا كان هو قائلهما حقا ؟

وفيمن قالهما ؟ لاننا كنا قد انتقلنا الى مواضيع بعيدة ولم التفت لاهمية هذا السؤال الا بعد وفاته .

ومن هذا اللون من الجناس ما قرأه على وهما بيتان وجههما السيد رضا الى ابنه السيد احمد الذى كان يزور (صيدا) بلبنان يومذاك فقد كتب لابنه قائلا :

وكنا ان اردنا منك وصلا أصبناه ولو نمشى رويدا
فصرنا نستعين على التلاقى باشراك الكرى لنصيد (صيدا)

ولست انا وحدى الذى أضعت فرصة الافادة من وجود هذا العالم الشاعر وانما اضاعها الكثير ممن لم يحسبوا حساب الموت وفى مقدمتهم ابنه السيد احمد الهندى الذى كان عليه وهو الشاعر والاديب ان ينتهز تلك الفرصة الثمينة فيسجل فيها لابيه كل خواطره التى كان ينفرد بها فى عالم الفقه والتاريخ والادب والبديع الذى لم يجاره فيه الا القليل القليل .

لقد كان السيد رضا الهندى من اهم اركان النهضة الادبية فى اوائل القرن العشرين ولم تنل له قصيدة او مقطوعة او بيت من الشعر دون ان يحدث ذلك بعض الاثر وقد كان لقصيدته الكوثرية التى افتتحها بقوله :ـ

أمفلج ثغرك ام جوهر ورحيق رضا بك ام سكر ؟
قد قال لثغرك صانعه (انا اعطيناك الكوثر)

دوى كبير وقد صاغ على نمطها عدد كبير من الشعراء قصائد فخمة ولكنها لم تبلغ شأو قصيدة السيد رضا ، ومن تلك القصائد كانت قصيدة الشيخ محمد السماوى الذى بارى فيها (كوثرية) السيد رضا وركب فى مباراته قافية الضاد الصعبة على سبيل المنافسة فقال :ـ

سودت صحائف اعمالى وبمدح ابى حسن تبيض

والسيد رضا الهندى بعد ذلك كما قلت عالم فقيه ولكن الادب الذى اضفى عليه بتلك الجلالة لم يدع من لم يعرفه جيدا ان يعرف براعته فى النواحى الاخرى ، وقد طواه الموت فطوى به سجلا حافلا بارقى واسمى وارفع الفنون الادبية

وانمحت بموته صورة من صور النجف المعـــربة عن الغناية الاصيلة بالبـــلاغة والفصاحة والطرفة الادبية من هذا اللون في صياغة البديع الذى عرفته انا فيه ، وقد كان لنصف قرن كامل احد فحول شعراء العراق لتلك الحقبة من الزمن الذى كان يضم عددا من نوابغ الشعراء ممن كانوا يجرون على تلك الوتيرة ، وقد فقدت به انا منبعا عذبا ، وملجأ روحيا ، كان يقضى الكثير من اوقاته فى مكتب الهاتف فقد كان العالم الروحانى لمدينة الفيصلية وكان يكثر التردد عـــلى النجف وحين يريد العودة الى الفيصلية كان يمر بدار الهاتف منتظرا فيها تهيؤ السيارة القريبـــة من مكتب الجريدة لنقله اليها ، وفى هذه الاثناء كنت اوصى بان يعدوا له شايا خاصـــا وافتح امامه علبة السجاير ، وافتح معه باب الحديث حسب ما تقتضيه المناسبة .

* * *

وقد يصادف ان يمر بمكتب (الهاتف) فى طريقه الى (الفيصلية) فى يوم عطلة الجريدة فيجد الباب مغلقا فلا يمتنع من ان يقصد احد المقاهى المجاورة لمكتب الهاتف ويجلس فى احدى ارائكها دون ان يهتم بالعرف الذى ينكر على العلماء الجلوس فى المقاهى او المجالس العامة ، والاكثر من ذلك ان مزاج السيد رضا الهندى والعرف السائد كانا دائما على طرفى نقيض ، لذلك لايبالى ان يكون جليسه رجلا معـروفا فى دنياه او نكرة مجهولا ليس له اصل او فرع ، ولذلك كثيرا ما تجده وهو يخوض حديثا طويلا مع احد الناس فتعجب به كيف يأنس كما لو كان يتحدث الى رجال العلم والادب من انداده ...!!

قال لى مرة : انه مر ذات يوم (بالهاتف) فالفى الباب مغلقا فانتحى ناحية من المقهى المجاور لمكتب الجريدة وجلس الى جانب شخص بدا له اول الامر انه من عارفيه حين وجده يقف على قدميه مفسحا له بالجلوس والبشر طافح على وجهه .

يقول السيد رضا : وما كدت احدثه حتى علمت بانه اخرس ... ولكن هذا لم يكن بمانع من ان نتجرف انا واياه فى الحديث بالاشارات ونشرق ونغـرب ، ونصعد وننزل بايدينا واصابعنا ، واتجاهات عيوننا ، وما كان يظهر على سحننا مـــن

تغضن ، وانطلاق ، وكان ان طال حديثه معى ، وطال حديثى معه ، ولست أدرى أكان صحيحا هذا الذى كنت افسره لنفسى من اشاراته ؟ وهل حقا انه كان يفهم ماكنت اقوله له بطريق الاشارة ؟ ولكنى اعلم اننا كنا قد انسجمنا ، وقد أنس بعضنا ببعض ، وزاد انسى حين وجدتنى غارقا واياه فى ضحكة امتدت طويلا حتى لقد كان يضرب بكفه على فخذى من شـــدة الضحك فاحس بالالم ، واجمـــع رجـــلى ، وانكمش ، وانا اكاد لا اتمالك نفسى من شدة الضحك والسعال الذى لازمنى ، ولا يهمنى بعد ذلك أكان هذا الذى يقصه على باشاراته هو عين ما كنت افهمه منه ام انه كان شيئا آخر ...

وهنا قص على السيد رضا هذه الاسطورة الفكهية قال :ـ

قدم فيلسوف على احدى المدن فاحتفت به المدينة غاية الاحتفاء ، وقد رأى ان يجلس للناس فى احد الميادين ليختبر مدى فهم علماء هذه المدينة الرمزيين وادراك فلاسفتهم بما يوجهه اليهم من الاسئلة عن طريق الايماء والاشارة الصامتة . وقـد تقدم الكثير اليه فلم يفهموا شيئا من اشاراته فانصرفوا مخذولين فاشلين .

وسمع بخبر هذا الفيلسوف حمال عرف بين الحمالين بشعث شعره ، واندلاع صدره ، وزراية هيكله ، كما عرف بطاقته الكبرى فى حمل الاثقال والنهوض بها ، فاحب ان يرى هذا الفيلسوف الذى شغل الناس بحديثه ورجاحة عقله ، وغزارة علمه ، وعمق فلسفته بحيث استطاع ان يزيف كل فلاسفة البلد ورجال الفـــكر والعقل منهم .

وشق هذا الحمال القوى الجبار تلك الصفوف المتحلقة حول هذا الفيلسوف العظيم ، وتقدم اليه وجلس امامه ، فظن الفيلسوف وهو يمعن النظر فى هذا الشعر المشعث ، والصدر المفتوح ، والثياب المهلهلة ، واللامبالاة البادية على هذا الحمال : بانه امام فيلسوف لايبعد ان يكون من كبار فلاسفة العالم ، فمد يده الى مخصرة كانت بجانبه ورسم بها دائرة بحجم الصحن على الارض ... فلم يكن من الحمال الا ان يسرع وينصف الدائرة باصبعه الى نصفين ...

وهنا علت وجه الفيلسوف دهشة واستغراب فمد يده الى جيبه واخرج منه

برتقالة وبدأ يحركها يمينا وشمالا بين اصابعه ... فلم يكن من الحمال الا ان مد يده الى عبه واخرج منه رأس بصل كان قد اختزنه فى ردنه ليؤدم به غداءه ، وقد قبض عليه بين انامله وبدأ يحركه ذات اليمين وذات الشمال على غرار حركة البرتقالة فى راحة كف الفيلسوف ....

وهنا فغر فم الفيلسوف من الدهشة والاستغراب ولم يكن منه الا ان اومأ للحمال بسبابته وقد بدت على وجهه علامات الجد والصرامة ، فرد عليه الحمال بان اومأ له باصبعيه محركا اياهما امام عينى الفيلسوف بنوع من التحدى العجيب .

وزادت دهشة الفيلسوف ، وجحظت عيناه من العجب فرفع يده فى هذه المرة الى الاعلى موميا الى كبد السماء .... اما الحمال فقد رد على حركته تلك بان صفق الارض براحة كفه بقوة عجيبة .

وهنا علت ضحكات المتفرجين وحصل بين الجمهور ما يشبه الهرج والمرج ، وقال العقلاء ان هذا الحمال قد اخزانا ، واساء الى سمعة بلدنا بما ارتكب من مهزلة غير مغتفرة ، وطلبوا بان يسحب من الميدان حالا قبل ان تصل المهزلة الى الحد الشائن .

وهكذا حمل جمع من الاشداء على الحمال واخرجوه من الميدان ، وفى اقل من بضع دقائق كانوا قد غيبوا وجهه عن الفيلسوف ....

ولكن الفيلسوف صاح باعلى صوته .... لقد صاح باعلى صوته :

ـ لم لاتتركون الرجل يمضى فى اجوبته ؟ لم تحولون بين رجال الفكر والعلم فتحرمونهم من مواصلة بحوثهم ؟ آه لو عرفتم كم هو هذا الرجل الذى اخرجتموه عظيم لاستغفرتم عن ذنبكم ولا تقيتم بانفسكم على قدميه ، ولاعتذرتم بدموعكم وتوسلاتكم اليه .

فقال سكان البلدة :ـ اننا لم نزل غير مدركين شيئا مما تقول : فهل بامكان سيدنا الفيلسوف ان يفصح لنا ، ويقفنا على الحقيقة ؟

قال الفيلسوف ـ لقد سألت فيلسوفكم هذا وانا اخط على الارض دائرة بمخصرتى ، لقد سألته : هل الارض هذه التى نعيش عليها من نوع واحد ؟

فقام الرجل وقسم الدائرة الى قسمين وهو يعنى ان الارض عبارة عـــن ماء ويابس .

وحين اخرجت البرتقالة ـ قال الفيلسوف ـ كنت اردت ان أسأله : وهل ان قبة السماء كهذه البرتقالة ؟

فكان ان مد يده الى عبه واخرج رأس البصل ، وهو يعنى ان قبة الســـماء كرأس البصل هذا : طبقة فوق طبقة ...

وعندما اومأت له باصبعي كنت اريد ان اعرف هل هو معتقد بوحدانية الله ؟

فكان جوابه بتحريك اصبعيه مقابل عينى يعنى ان الله واحد لاشريك له .

وهنا رفعت يدى الى الاعلى ـ قال الفيلسوف ـ وانا اعنى بذلك السؤال منه عمن رفع السماء بدون عمد ...

وقد اجاب وهو يصفق الارض براحته : ان الذى رفع السماء هو الذى بسط الارض ..

وقال الفيلسوف ـ ولكنكم يغفر الله لكم ـ أبيتم الا ان تنغصوا علينا هـــذه المتعة فاخرجتم الرجل من الميدان اخراجا لايليق بفيلسوف عظيم مثله ..!

وجاء المتفرجون الى الحمال يسألونه :

ـ ترى ماذا قال لك هذا الفيلسوف ؟ وماذا قلت له انت ؟

قال ـ لقد قال لى وهو يخط دائرة على الارض انه يأكل كل رغيف مـــن الخبز وحده ، فقلت له اما انا فأكل من كل رغيف نصفه واترك لزوجتى النصف الاخر ؟

وحين اخرج الفيلسوف البرتقالة من جيبه ـ قال الحمال ـ كان يريد ان يقول بانه انمـــا يأكل البرتقـــال مع الخبز ، فقلت له : اما انا فآكل الخبز مؤدما بالبصل .

فحملق الفيلسوف فى وجهى ـ يقول الحمال ـ وتحدانى باصبعه زاعما انه سيفقأ لى باصبعه احدى عينى ، فمددت له كلا اصبعى مشيرا الى انى سأفقأ بهما كلتا عينيه .

ثم رفع الفيلسوف يده الى الاعلى رامزا الى انه سيطوح بي في الفضاء باقصى ماالديه من قوة ومقدرة ويرميني بعيدا عن الارض ، اما انا فقلت له ــ وانا اصفق الارض بكفي ــ باني ساضرب به الارض ، ولن اتركه الا وقد تلاشت جثته ، وقد غدا اثرا بعد عين .

قال السيد رضا الهندي :ــ من يدريك انه لم يكن بيني وبين ذلك الاخرس ماكان بين الفيلسوف المذكور والحمال من البعد الشاسع اكثر واكثر ، ولكن المهم هنا اننا كنا منسجمين ومأنوسين .

* * *

لقد كان السيد رضا يؤمن بالغيب ، ويعزو اسباب الكثير من الحوادث والوقائع الى المغيبات ، فكان للاحلام عنده شأن كبير ، وهو يعتبرها بمثابة البشائر ، والنذر للحوادث ، ويرى ان كثيرا من الامور التي يراها المرء في منامه تتحقق له في يقظته في اليوم الثاني او الايام القريبة الاخرى .

واذكراني ناقشته رأيه هذا قبل وفاته بمدة قليلة حين قال لي ان مدته لن تطول بعد اليوم في الحياة لانه كان قد رأى في المنام أباه وهو يدعوه لمرافقته لزيارة احد الاضرحة المقدسة ، وقلت له : انني اعتقد ان تحقيق الحلم في اليقظة ليس الا من قبيل المصادفة ، وهي لا تزيد على ان تتوقع شيئا او تتمناه في يقظتك فيتحقق لك ذلك بينما تنسى انك قد تمنيت اشياء كثيرة في اليقظة ، ورأيت ملايين الاحلام في المنام فلم يتحقق شيء ولا بعض شيء منه ، ثم قلت : وهب ان مايقع في الحلم سيقع في اليقظة فما علاقة دعوة ابيك لمرافقته في زيارة الاضرحة المقدسة بانتقالك الى الآخرة لاسمح الله ؟

فقال ــ ان الاختلاف في هذه الامور لايقتصر على وعليك وحدنا بل ان لهاتين العقيدتين المتضادتين اهلهما والمؤمنين بهما ، ومنذ وقت طويل والفجوة بين هاتين الطائفتين واسعة وواسعة جدا ...

ومات السيد رضا بعد مدة قصيرة من هذا الحديث ..!!

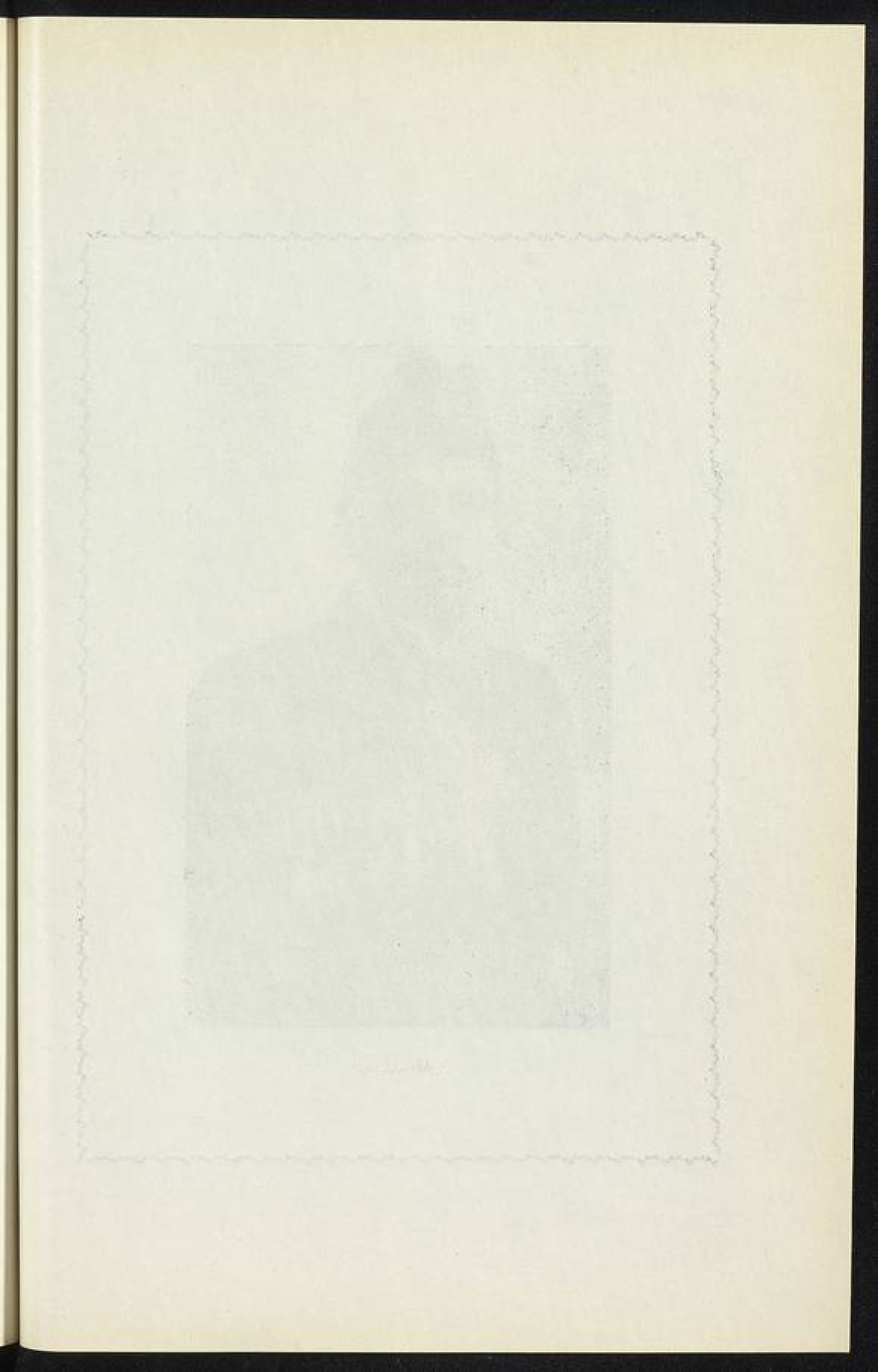
الله كم هو قاس هذا الموت الذي يطوي مثل هذه الارواح الوادعة الظريفة البريئة التي طالما كانت بلسما للقلب المكلوم ، وملجأ لليائس المظلوم ، وعلاجا روحيا

تقيم المعوج من النفوس ، ونبراسا يهتدى الناس بعلمها ، وادبها ، وسيرتها الحميدة ، ونفوسها المفعمة بالطيبة والمرح ، وقد كان السيد رضا من هذه الارواح التى طواها الموت فى الطليعة فكانت الخسارة بفقده كبيرة ولم تكن مقتصرة على ما اصاب الادب ، والفضيلة ، والروحانية التى مثلها السيد رضا الهندى خير تمثيل حين توفاه الله ، وانما فيما اصاب الانسانية والخلق المرح البرىء الذى لايخضع لقيد ، ولا يتأثر بتقاليد ، هذا الخلق الذى قلما وجدنا نظيره مجتمعا فى شخصية روحانية •

لقد شق على فراقه وها هى ذى ايام تمر وانا اتصور مجلسه الذى لم يتغير من ذلك الكرسى الذى اعتاد ان يقتعده ، كأنه لم يزل حيا ، والحق انه لم يزل حيا فى نفوس عارفيه ومقدرى فضله •



حمیـد خان



حميد خان[1]

لم يكن احد من النجفيين يرتدى (السترة والبنطلون) يوم كان حميد خان آل نظام الدولة ، يخطر فى لباسه الملكى الجميل فكان (طربوشه) الاحمر الذى يعلو رأسه ، وازرار سترته البراقة التى فى صدره ، وحذاؤه اللماع الذى فى قدميه ، كان ذلك ملفت انظار جميع الناس فى هذه المدينة ....

ولقد قيل ان الحاج محسن شلاش قد ارتدى السترة والبنطلون حين انعم عليه بالوسام من الحكومة العثمانية ، وقيل ان محمود عجينة احد رؤوساء بلدية النجف فى العهد العثمانى هو الاخر كان قد ارتدى اللباس الملكى ، ولكن ذلك ـ ان كان ـ فهو لمدة موقتة ، ولايام خاصة ، اما الذى لبس السترة والبنطلون منذ أول شبابه الى اخر ايامه فهو حميد خان الذى يكون اول نجفى ارتدى هذه الالبسة فى هذه المدينة ، واكثر ما كان يرى حميد خان فى اوائل شبابه فانه يرى فى الصحن الشريف وعلى دكة مقبرة ابيه (اسد خان) وكانوا يفرشون الدكة فى الصيف ببعض السجاد فيتخذها البعض من موظفى الحكومة التركية ووجوه النجف مجلسا حين فراغهم وحين نشدانهم التنزه عصر كل يوم ، وفى صباح ومساء كل يوم جمعة ، فكنت انا اراه كلما مررت عصرا بالصحن الشريف ، لقد كنت اراه بين زمرة من الموظفين العسكريين والملكيين الذين تقع عيون الجميع عليهم فى اثناء المرور بالصحن ، وكانت البزة العسكرية تأخذ من عيون الجميع مأخذها يومذاك ، وقد علمت ان هذا الرجل هو حميد خان ، وانه يحسن اللغة الانكليزية وانه ابن اسد خان الموسر الكبير صاحب حمام (الحضرة) ونصف (القيصرية) الكبيرة كما يقولون ، فرحت وانا طفل صغير ارى كل اسرار العظمة مجتمعة فيه وزاد فى

---

(١) الهاتف ـ السنة التاسعة ـ العدد ٣٤٥ ـ ٧ كانون الثانى ١٩٤٤ .

عظمته عندى انه كان يتكلم الانكليزية ، وانه كان قد قطع مرحلة دراسته فى الهند اما اسباب تلقيه الدروس فى الهند دون سائر الجهات فلان عمته (البيبى) كما يسمونها كانت زوجة زعيم الطائفة الاسماعيلية وهى ام (اغا خان) الكبير •

ولقد جاءت هذه (البيبى) مرة الى النجف زائرة ، وكنت يومها طالبا فى المدرسة العلوية فاعانت (البيبى) المدرسة العلوية بمبلغ من المال ، وانعمت على كل طالب بمبلغ (مجيدى) واحد أو (ربية) واحدة على اغلب الظن ، وهنالك ونحن صغار علمنا ان هذه (البيبى) هى اخت اسد خان ، وانها ام اغا خان ، وعمة حميد خان اضافة الى ان مدرستنا كانت من املاك اسد خان ، وهو البيت الذى يقع فى شارع مدرسة السيد كاظم اليزدى •

وثمة شىء آخر مما كان يجعلنا ان ننظر الى هذا البيت بيت اسد خان ونحن صغار نظرة اعجاب ودهشة ، هو الذى كان يقصه كل نجفى عن تلك الابهة والحفاوة التى حف بها زواج ولدى الحاج (على اغا) شقيق (الحاج اسد خان) وهما اغا عباس واغا صدرى من بنتى عمهما اسد خان ، وعلى ان هذا الزواج كان قد تم قبل ولادتى بنحو سنة واحدة اذ كان ذلك سنة **١٣٢١** هجرية فقد ظل حديث جميع المجالس كما صار انشودة الصبيان لجيل آخر ، ولقد مر الان اكثر من نصف قرن ومازال الكثير من سكان النجف واطرافها يهزجون بتلك الاهزوجة التى بعثتها مناسبة زواج ولدى الحاج على اغا من اختى حميد خان •

فلقد نقل ان زفاف العروسين الى ابنى عمهما المذكورين قد جرى فى عربة تجرها خيول مطهمة اسرجت بسروج من الحرير المطرز بالقصب ، وألجمت بألجمة من الفضة ، وزينت العربة تزيينا بالغ فيه المتحدثون كثيرا ، وكان من ورائها آلاف من النساء والوصائف والعبيد فلا تبلغ العربة مفترق أحد الشوارع فى المدينة وهى فى طريقها الى بيت العريسين حتى تقف ، فيقف الموكب كله ولا يتحرك الا بعد ان يجىء العريسان فيتنازلا للعروسين عن قطعة من املاكهما على سبيل الترضية واشباع الدلال ، فتمشى حينذاك العربة ثم تقف عند مفترق شارع آخر ويعود

العريسان مرة اخرى فيهديان للعروسين شيئا آخر ، وهكذا حتى وصل الموكب الى بيت الزوجية •

كان هذا مما ينقل لنا ونحن اطفال عن زواج اولاد الحاج على اغا ، وينقل فى صور مختلفة تركت لها آثارا عميقة فى نفوسنا • اما قصة الاهازيج او الاناشيد التى التصقت بهذا الزواج فتتلخص بان (الحاج على أغا) كان قد أقام الولائم بمناسبة زواج ولديه لجميع سكان النجف على الاطلاق مدة ثلاثة ايام فخص اليوم الاول منها بالعلماء والادباء ورجال الحكومة من النجف واطرافها ، وخص اليوم الثانى بالوجوه والتجار والكسبة المحترمين •

اما اليوم الثالث فقد فتح فيه الباب على مصراعيه للجميع ، وبلغ خبر هذا الفتح جميع القرى والقصبات القريبة من النجف فجاءت زرافات ووحدانا الى بيت الحاج على اغا ، والظاهر ان المشرفين على المطبخ لم يقدروا عدد الواردين فى هذا اليوم تقديرا صحيحا فشحت عندهم مواد المرق ، اما اللحم ، والرز ، والسمن ، فقد كان لديهم منه الشىء الكثير ، فاستنفدوا كل ما استطاعوا ان يحصلوا عليه فى السوق فى تلك الساعة المتأخرة من النهار من (حمص) و (آلوجة) و (بخارا) و (اسبناج) ولكن اين يكون بمستطاعهم ان يكفوا هذه الجموع المحتشدة فى الشوارع والتى صارت تدخل البيت بالمآت فتتناول العشاء وتخرج من البيت بالمآت •••؟ واخيرا ارتأى المشرفون على المطبخ ان يستعينوا بالشلغم والجزر دون ان يلتفتوا الى ان مثل هذا المرق والادام فى الدعوات والاعراس لايعتبر مألوفا ، لذلك لم يغتفر الداخلون فى اواخر الليل لال الحاج على اغا مثل هذا السهو ، وعدوه اهانة للطبقة الثالثة من الفلاحين ، والعمال ، والفقراء ، ونسوا ما كانوا قد تناولوه من جيد المأكول ولذائذ المطبوخ فى الوجبات الاولى من العشاء وكان بين تلك الطبقة بعض شعراء الزجل العامى من العمال فلم ينفض هؤلاء ايديهم من العشاء حتى هزجوا ، وردد الاخرون اهازيجهم :

اطبيخنا خوش اطبيخ — يا حيف مرقتنا جزر

ثم اردفوا ذلك بابيات كثيرة من قبيل :

دزوا خبر لاسد خان   وزنة جزر نص قران

ومن قبيل :

مرقة جزر بيها احدار   بالانكرى ما تنـــدار

وغير ذلك مما ظل يردده الكبار والصغار جيلا كاملا وبلغ من الامر ان تناول القضية احد الادباء المتفننين ووضع لها تاريخا بقوله (عشنا مرقت جزر) .

وكان اغلب التاآت القصيرة فى القواعد الاملائية التركية يكتب بالتاء الممدودة ومن هذه كانت التاء فى كلمة (مرقت) وهى تعنى (مرقة) ويبلغ مجموع هذه الجملة (١٣٢١) وهى السنة التى تم فيها الزواج المذكور ....

كل هذا قد جعلنى انظر الى حميد خان نظرة اكبار واتمعن من بعيد فى سترته وبنطلونه واعجب ان يرتدى احد من المدنيين السترة والبنطلون التى كانت مقتصرة على موظفى الحكومة فى النجف .

وبعد ذلك فقد كانت اشياء اخرى كثيرة تتولى تعريف الناس بحميد خان فى ذلك الوقت ، كان منها (مسعود) الزنجى النحاسى اللون ، ومسعود هذا عبـد اسود يمتلكه حميد خان ، وقل فى النجف من لم يعرف مسعودا ، فقد كان رجلا وقورا وعلى جانب كبير من الاناقة فى ملبسه ، وحركاته ، وسكناته ، فلا يمر بمكان الا ويشير اليه المشيرون بانه عبد حميد خان الخاص ، ومنها كان الحاج اسود شيرعلى الذى كان يلازم بيت حميد خان . ومنها كان حمد السنى ، وحمد السنى هذا ابن قس من القسيسين اسلم على يد الزعيم الروحانى الحاج ملا عـلى الخليلى ، واستطاع فى مدة قليلة ان يستلفت الانظار الى ما استطاع ان يحيط به فى مدة وجيزة من علم الفقه والاصول والكلام والادب ، وقد تزوج بامرأة من آل قفطان فاولدت له ولدا سمى بحمد السنى ، ولست ادرى لم سمى بحمد السنى فهذا السواد لايفهم المنطق والمناسبة والمقتضيات ليحاسبه احد على مسمياته ومعتقداته ، وعاداته ، ويغلب على ظنى ان مفهوم السواد يومذاك لايتجاوز فى الاديان والمذاهب اكثر من المذهبين

الشيعي والسني ، فكل من لم يكن سنيا كان شيعيا في نظر سواد السنة ، وكل من لم يكن شيعيا كان سنيا في نظر عوام الشيعة ، ولكن حمدا لم يكن الا شيعيا فمن اين جاءت هذه التسمية ؟ انها على مايبدو لى نتيجة نسبة حمد لابيه المسيحي الاصل فسماه السواد بحمد السني لانه لم ينحدر من اصل شيعي ....

ولم تكن شهرة حمد مقتصرة على هذه النسبة وهذا التأريخ ، وانما لشخصية حمد في عالم الفتوة والشجاعة شأن او بعض شأن في الاوساط. فلقد شب حمد شجاعا باسلا غير هياب وأسهم في حرب (الزكرت والشمرت) واعطى بندقيته مكانة قد تكون مرموقة بين البندقيات ، وكان يعمل في احد البساتين من الشواطيء القريبة من النجف مزارعا يفلح الارض بنفسه ، وكم يصادف ان يترك البستان في ساعات متأخرة من الليل ويدخل المدينة من فجوات خاصة في السور ، لان ابواب المدينة تكون مقفلة في تلك الاوقات . دون ان يخاف احدا .

ولقد افاد حمد السني من هذه النسبة السنية ذات يوم في نزاع وقع بينه وبين خصم له اشبعه حمد ضربا وصفعا وترك انفه ينزف بالدم ، حتى لجأ هذا الخصم الى القومسير شاكيا داعما شكواه بعدد من الشهود على ما فعل به حمد السني الامر الذى حمل القومسير على توقيف حمد السني وجلده ، وحين اخرج حمد السني من التوقيف ليجلد تيقظت فيه النباهة ، ووجه الكلام الى القومسير قائلا :

ـ لا انكر يا سيدى ما فعلت يداى بالمشتكي واني لاحمد الله ان تم الامر على هذه الصورة ولم يؤد الى ارتكاب جريمة ، فهل تدرى لم كل هذا ؟ فاذا كنت لم تعلم فلتعلم الان انني السني الوحيد في هذه البلدة ، والسني مكروه عند الشيعة ، وانهم ليضايقونني في حياتي مضايقة شديدة حتى لقد جزعت اليوم ونفد صبرى فبطشت بهذا الرجل كما ترى وانا مكلوم ، واذا لم تصدقني فاسأل عني الجميع فقد بلغ من كره المدينة لى انهم يلصقون مذهبي باسمي ويسمونني بحمد السني ليعرفني من لم يعرفني بعد .

ويظهر ان القومسير وهو ضابط تركي وسني قد اقتنع بما قال حمد فاكرمه على ما قيل واطلقه ...

وكانت لحميد خان وعمه الحاج على اغا املاك من (قيصريات) وحمامات، واسواق ، فانيطت حراستها بحمد السنى خصوصا فى الاوقات التى كان يسود فيها الشغب وتقوم المعارك بين الزكرت والشمرت فى النجف ، فكان حمد فى مقدمة جماعة حميد خان وآل الحاج على اغا ومن (الفتوات) الذين التصقت اسماؤهم باسماء آل نظام الدولة مدة غير قليلة ، وكانت صورة حمد السنى وانا طفل لاتبارح ذهنى ولم اكن اعرف عنه الا انه من اتباع حميد خان .

ومما كان يرافق اسم بيت حميد خان ايضا هو وجود ببغاء فى بيتهم وهى من صنف خاص انفردت بصفات خاصة ، بين اصناف الببغاوات وقد اتصل خبرها بجميع الناس ، ورووا عنها الاعاجيب وقالوا ان فى بيت حميد خان ببغاء تتكلم الهندية والفارسية والعربية بطلاقه ، وكانت تنادى (مسعودا) كلما رأت زائرا يدخل البيت ويجلس فى الديوان صارخة بمسعود ان يجيىء بالشاى للزائر وكانت تسأل قائلة : (من الطارق) اذا سمعت الباب يطرق ، وكانت تشتم ، وتسب بما تعرف من اللغات كلما رأت شخصا يتحرش بها ، وكثيرا ما كانوا يعاكسونها بعود يدسونه اليها من بين اسلاك القفص ، وكل هذا كان ينقل عن هذه الببغاء العجيبة وربما بشىء كثير من المبالغة التى تحملهم على وصف اشياء ليست فيها .

ولقد اهدى حميد خان هذه الببغاء التى يسمونها (كاسكو) لقد اهداها الى احد اعمامى وهو الميرزا محمود الخليلى ، وقد استطعنا ان نستعيرها ونأتى بها الى بيتنا اياما ، ولم ازل اذكر ازدحام المعارف والاقارب على قفصها فى بيتنا كازدحام الناس على الراديو والتلفزيون يوم اول تعرفهم به ورؤيتهم له ، ولما مات الميرزا محمود اصرت زوجته على ان تكون تلك الببغاء من ضمن ميراثها .

كل ذلك واكثر مما كان يتصل بحميد خان او بيته عن بعد او قرب كان مرتسما فى ذهنى وانا صبى لم اعرف من العالم الخارجى غير المدرسة وما تقع عليه عينى فى الطريق وغير ما كانت تستوعبه اذناى من المسموعات .

ومرت سنين تغيرت فيها الاحوال ، ودالت دولة الاتراك وقامت حكومة الاحتلال الانكليزى فعرضت على حميد خان وظيفة معاون الحاكم السياسى فى النجف وهى

وظيفة خطيرة جدا يومذاك فأبى قبولها واشتد اباؤه ، وأحست حكومة الاحتـــلال بالحاجة الماسة اليه فسعت عن طريق الزعيم الروحاني المنفرد السيد كاظم اليزدى لحمله على تكليف حميد خان بقبول هذه الوظيفة ومازال به حتى قبلها خصوصا وان ثلة من اصدقائه الخلص كالشيخ جواد الجواهرى ، والميرزا مهدى الاخوند ، والشيخ عبدالكريم الجزائرى كانوا يرون فى قبوله لهذه الوظيفة ضربا من ضروب اداء الواجب نظرا لاحتياج الناس الى امثاله فى قضاء حاجاتهم ومن هنا بزغ نجم حميد خان لامن حيث المقدرة واللياقة فحسب وانما من حيث تصديه لقضاء حاجات الناس ، ولكن هنالك فئة من المتطرفين او غير المطلعين على مبدأ دخول حميـــد خان فى ميدان الوظيفة قد غالت فى تهجمها على حميد خان ولاسيما الشباب منهـم وعـدت قبوله الوظيفة ضربا من ضروب ممالئة سلطات الاحتلال ، واشتهر حميد خان ولم تقتصر شهرته على النجف وحدها وانما تجاوزت الفرات ، وصار يعد من ارباب الحل والعقد ، ولم يعد يحتاج احد من الكبار والصغار الى ان يمر بالصحن الشريف لتقع عينه على الدكة التى كان يقتعدها هذا المطربش ليعرف هناك شخصيته ، فقد دخل اسم حميد خان فى كل حديث من الاحاديث السياسية والثقافية والاجتماعية أليس هو اليوم المعاون المتنفذ ذا الكلمة المسموعة عند الحاكم السياسى بل عند الحاكم السياسى العام؟ أليس هو أول من تثقف من النجفيين ثقافة عصرية حديثة ؟ ثم أليس هو ابن تلك الاسرة العريقة المعروفة في النجف ؟ ذات الفضل فى حفظ النجف من الغزو بسبب ذلك السور العظيم الذى كلف بناؤه الشيء الكثير من المال ، ثم اليسوا هم الذين بنوا مدرسة (الصدر) وهى اكبر مدرسة دينية علمية فى النجف وخصصوا لها اوقافا تدر عليها وعلى طلابها ، الرزق ؟

وضاق بيت حميد خان بالوفود والزوار وارباب الحاجات ، بل ضاقت بيوت اصدقائه من الشيخ جواد الجواهرى والشيخ عبدالكريم الجزائرى والميرزا مهدى الاخوند بالناس الذين يلتجؤون اليهم لقضاء حاجاتهم عند حميد خان ، وبدأ الناس يرون فى اعمال حميد خان صورة لانسانية قل عهدهم بامثالها ممن عرفوا فى حياتهم العامة والخاصة ، فقد زخرت شخصيته بالكثير من المرؤة والنبل والحلم والسخاء .

واني لاذكر ان أبي قد جاء ذات يوم وهو في اشد حالات القلق ليخبر اخي عباس الخليلي بان حميد خان قد أسره بان تقريرا سريا قد رفع الى الحاكم العسكري يتهم فيه اخي بالعمل على قيام ثورة في النجف وان حميد خان قد فند هذا التقرير على رغم اعتقاده بصحته وقد طلب ابي من اخي ان يقدر العواقب ، وان لا يزج بنفسه في هذه الميادين ، وكان اخي عباس من اولئك الشبان الذين يسيؤون الظن بحميد خان وكان ممن يرى في صداقة ابي له شيئا من الاساءة لاسرتنا ان لم يكن شيئا من الخيانة ، وانا يومذاك لم ازل في مرحلة الصبا ولم ابلغ بعد السن التي تخولني ان افهم شيئا أو أرى رأيا ، لذلك كنت الى جانب اخي في العقيدة وفي فهمي للوطنية ، ولم نكن وحدنا من اسرتنا الذين نرى هذا الرأي في حميد خان ونلوم أبانا على صداقته الاكيدة وانما جل اسرتنا كانت على هذه العقيدة .

ومرة اخرى جاء ابي الى اخي يخبره بان الازمة قد اشتدت وان التقارير بخصوصه قد تكاثرت وان حميد خان قد لايستطيع الدفاع عنه بعد هذا ، ولكن اخي – وكان قد غطس في اعداد ثورة النجف الى شحمة الاذن – كان لايعير أباه اذنا مصغية .

وقامت ثورة النجف وعرفت مكانة اخي منها وتحققت مضامين التقارير ووقع شيء غير قليل من الكدر وسوء التفاهم بين السلطات الانكليزية وبين حميد خان بسبب اخي وبسبب عدد آخر ممن كانوا قد اسهموا معه في الثورة النجفية فحال دفاع حميد خان بين السلطة والقبض عليهم قبل استفحال الثورة حتى فات الوقت على السلطة ، وفي مقدمة اولئك كان السيد محمدعلي بحر العلوم والشيخ محمد جواد الجزائري اللذان لم يعبئا بتحذير حميد خان ولم يهتما بدفاعه عنهما ، ان لم يكونا كاخي من الناقمين عليه . ولقد وقع بين السلطة الانكليزية وبين حميد خان شيء كثير من الاخذ والرد والكدر عند اندلاع ثورة النجف ولكن هل منّ حميد خان على أحد من اولئك الذين ذب عنهم ؟ وهل قال لاحد من اسرهم انه قد تحمل في سبيلهم ما تحمل من مؤاخذة وتجريح ؟

وقد ظل ابى حتى الموت وهو اشد مايكون خجلا من حميد خان بسبب اخى ، ويوم سجن حميد خان فى طويريج قصده ابى مرتين وباذن خاص من عمران الحاج سعدون وزاره فى البيت المخصص لسجنه والمحظور دخوله على الناس الا بصعوبة واطال المكوث عنده .

وكنت انا غير مدرك ماكان يدركه المجرب البعيد النظر اذ لم تكن تتجاوز نظراتى حدود قدمى لذلك لم افهم حميد خان على حقيقته ، وكنت اسمع بالكثير من فضائله الانسانية ونبله وكرم خلقه ولكنى كنت كالكثير من عميان البصيرة لا اقيم وزنا لما اسمع حتى قامت الثورة العراقية ، وهم حميد خان ان ينجو بنفسه من هؤلاء المتطرفين الذين يجهلون قيمة حميد خان وحقيقته وكانوا قد كثروا فى النجف ، وقد ركب الناس حماس وطنى عارم حال بينهم وبين الادراك بان دخول حميد خان الى الوظيفة انما جرى بناء على حث ائمة الوطنية وزعماء البلد كالشيخ الجزائرى وان البلد قد افاد من وجوده مالم يفده من الكثير من أهل الحزم والاخلاص .

اقول وادرك حميد خان انه معرض نفسه للهلاك اذا بقى فى النجف ساعة واحدة فهم بان يخرج منها ويقصد مدينة كربلاء ويغيب نفسه فيها ، لان محيط كربلاء كان ارحب صدرا من النجف يومذاك ، وكان للشيخ صادق الكتبى فى النجف دين على حميد خان ، وكان قد بلغه خبر محاولة خروج حميد خان متسترا من النجف فقصده حيث قد اسرجت خيول العربة المعدة لنقله خارج النجف ، وهناك وقف حائلا بين حميد خان والسفر ، وعبثا اجهد حميد خان نفسه فى اقناعه ، وعبثا اكد له بانه سيكتب له حوالة على أحد التجار او على وكيله لكى يتسلم المبلغ منهم ، فلم يفد الاجهاد مع الرجل شيئا ، حتى اضطر الى ان يبعث باحد العمال من هناك ليأتى له بمن يلتقيه فى الطريق او فى بيوتهم ممن اسماهم له لكى يسددوا للشيخ صادق دينه وبعد انتظار ساعة واكثر حضر السيد مهدى المحلاتى وقام بدفع المبلغ للكتبى ، وخلص منه حميد خان ، ولكن هذا التعطيل قد ادى الى ان يتسرب خبر خروج حميد خان من النجف الى اولئك المتطرفين فاندفع البعض منهم وادركوا العربة وهى على وشك الحركة ...

ومن حسن الحظ ان حضر تلك المعمعة بعض من يعرف حميد خان بحقيقته وحافظ على كرامته وتوسط في امره واكتفى المتطرفون بسجنه في مدينة (طويريج) تحت رقابة عمران الحاج سعدون رئيس قبائل بنى حسن ، فكانت هذه الحادثة اولى حادثة غيرت نتيجتها وتبعاتها فيما بعد رأيي ورأى الكثيرين فى حميد خان ، فقد انتهت الثورة ، وعاد الرجل الى النجف وازداد عدد انصاره واحبائه وكان المنتظر ان ينزل باولئك الذين خاصموه وآذوه وضايقوه ضربة مؤذية اذا لم تكن ضربة منتقمة ، ولكن حميد خان لوى جيده ، واشاح بوجهه كانه لايعـــرف من الماضى شيئا ، ومن ذا الذى لايعرف خصوم حميد خان ؟ لقد عرفهم حتى الاطفال أفيخفى اذن على حميد خان احد منهم ؟ وتلك كانت من اهم سجايا الرجل التى انفرد فيها فى النجف .

ففى ذات يوم من ايام سجنه (بطويريج) وقد كان يعد البسته ليدخل حمام البيت وكان الحارس الموكل عليه والخادم الخاص به يعملان فى تسخين الماء فى الحمام وهو اول حمام أعده حميد خان فى البيت بعد بذل جهود غير قليـــلة مـع الحارس الذى كان يخاف من ادخال العمال والبنائين الى البيت حذرا من عـــدم موافقة المسؤولين فى بناء حمام فى البيت وان كان ذلك على نفقة السجين نفسه .

اقول ففى ذات يوم وحميد خان يعد البسته وكان قد التفع بعباءة اذ طرق باب البيت طرقا عنيفا اضطره الى الذهاب بنفسه نفتح الباب وحين فتح الباب الفى نفسه قبال رجل متجهم يتطاير الشرر من عينيه وهو فى وضع يدل على انه قادم على شر أو ارتكاب جريمة .... فخافه حميد خان وسأله عما يريد ؟ فاجاب ـ أرنى حميد خان وسترى .... فتركه حميد خان فى الباب وجاء الى الحمام حيث الحارس والخادم وناداهما فخفا الى الرجل واذا به فى وسط الدار وهو شاهر سلاحه فقبضا عليه وانتزعا السلاح من يديه وساقاه الى عمران الحاج سعدون ... واعترف هناك الرجل بانه فلان وانه من النجف وقد جاء ليقتل حميد خان تقربا الى الله ولوجه الوطنية ...!! وقال انه لم ير حميد خان من قبل ولا سبق بمعرفته !

وتمر الايام بسرعة ويخرج حميد خان من السجن ، ويعود الى النجف كأن

لم يكن شيء قد مر ، وكان الشيخ صادق الكتبي الذي لولا مضايقته لحميد خان لكان حميد خان قد دخل كربلاء ونجا من السجن ، اذا بالشيخ صادق يقصد حميد خان في بيته ويلوذ به ليخلصه من ورطة وقع فيها فقد اصبح الشيخ صادق ـ بسبب تأجير مطبعته في النجف على حكومة الثورة ـ من غرماء الانكليز ، تلك المطبعة التي كانت تطبع بها جريدة الاستقلال التي كان يديرها السيد محمد عبدالحسين فكانت لسان حال الثورة ثم انتقل اسمها بعيد الثورة الى بغداد وبدأ يصدرها عبدالغفور البدري كامتداد (لاستقلال) الثورة ، فقد صودرت مطبعة الشيخ صادق الكتبي من قبل الانكليز وفرضت عليه غرامة من المال وعدد من البنادق يجب ان يأتي بها الشيخ صادق ويسلمها للانكليز ، ولكن أترى قال حميد خان شيئا ؟ او اشار الى شيء مما كان من امر الشيخ صادق ؟ او ذكره بما كان له معه ؟ وكل ما فعل حميد خان هو انه سعى فرد له المطبعة وخفف الغرامة واسقط عن كاهله البحث عن البنادق وشرائها ...!!

ووقع مثل هذا بل واكثر من هذا يوم كان يهم حميد خان بدخول السراي بعد الثورة فاذا به وجها لوجه امام ذلك الرجل الذي كان قد قصده في طويريج ليقتله متقربا الى الله بقتله ، وحين وقعت عين الرجل على حميد خان رجع الى الوراء قليلا ولاذ بباب احدى غرف السراي ولكن حميد خان اسرع اليه ، وامسك به من يده وهو يضحك والرجل ترتعد فرائصه من الخوف واخذه الى غرفته وسأله :

ـ أليس هو فلانا ؟

قال ـ بلى .

قال ـ فما الذي جاء بك الى هنا ؟ فانني اخشى ان تكون قد جئت لتتقرب بي مرة اخرى الى الله . قال هذا وهو يضحك ...

فاطرق الرجل ولم يجب من فرط الخجل ، وخرج حميد خان من حال الدعابة والمزاح الى الجد ، وسأل الرجل عما اذا كان يشكو شيئا ، فقال انه يشكو ادبار الدنيا ، وقد حسن له بعض الاصدقاء ان يعرض نفسه على الحكومة كمتعهد أو

ملتزم لبعض الاشغال ، ومنذ اسبوعين واكثر وهو يراجع الجهـــات المختصة فى السراى فلم يوفق ....

ولم يترك حميد خان الرجل يخرج من السراى فى ذلك اليوم حتى اوجد له عملا مناسبا فى الكوفة ...!

وكم من مرة اساء المسيؤون الى حميد خان واحسن حميد خان ، وأساؤوا واحسن ، وظل يحسن حتى ذهبت الاساءة وتنوسيت وبقى الاحسان ، وحين كان متصرفا للواء كربلا اتسعت دائرة انفاقه حتى لم تعد واردات املاكه تكفى لمصروفه بالنظر لما كان يخصص من رواتب شهرية لجهات كثيرة وبيوت متعددة ، وكثيرا ما كان يخصص للطلاب المعوزين ما يستعينون به على دراستهم ، وقل من عرف بذلك الا القائمون بتنفيذ رغباته ، وبعض الحاشية الذين من الصعب ان يمر شىء بدون اطلاعهم عليه ، وقد اكد هؤلاء ان حميد خان لم يتقاض فى ايام الاحتلال فلسا واحدا من الخزينة البريطانية فكانت السلطة تضيف راتبه الشهرى الى خـــيريات (اوده) التى يجرى تقسيمها على الفقراء فى كل ثلاثة اشهر عن طريق السلطات الانكليزية وهذا بالطبع قد ساعد كثيرا عـلى نفوذ حميد خان واحتـرام السلطات الانكليزية لرأيه عند وقوع الاختلاف معه .

ويستقيل حميد خان لوقوع شىء من الاختلاف بينه وبين الملك فيصل الاول وذلك بعد زيارة الملك فيصل للواء كربلاء ونزوله ضيفا على حميد خان فى النجف، فيقرر حميد خان السكنى ببغداد بعد ذلك وينتقل اليها ، ويكثر اقترابى منه فى هذا التاريخ وتزيد معرفتى به فاندم على ما فاتنى من وقت كان يجب ان اعرفه فيـــه بحقيقته قبل هذا التاريخ ، ووجدتنى اخيرا امام رجل لايكفى ان تنعته بالرجـولة وحدها فهو انسان بكل معنى الانسانية وقد خصه الله بقلب كبير ، وشعور مرهف وطيبة تجاوزت الحدود وقد تضافرت هذه الصفات فخلقت منه نبيلا شريفا جوادا لم تر النجف نظيرا له منذ عشرات السنين اذا لم نقل منذ مئات السنين . وهناك لم يبق احد الا وقد عرف حميد خان بحقيقته واستغفر الذين اساؤوا اليه لربهم .

رأيته فى ضهور الشوير فى صيف ١٩٣٩ وكان يعانى ضغطا عاليا فى الدم ،

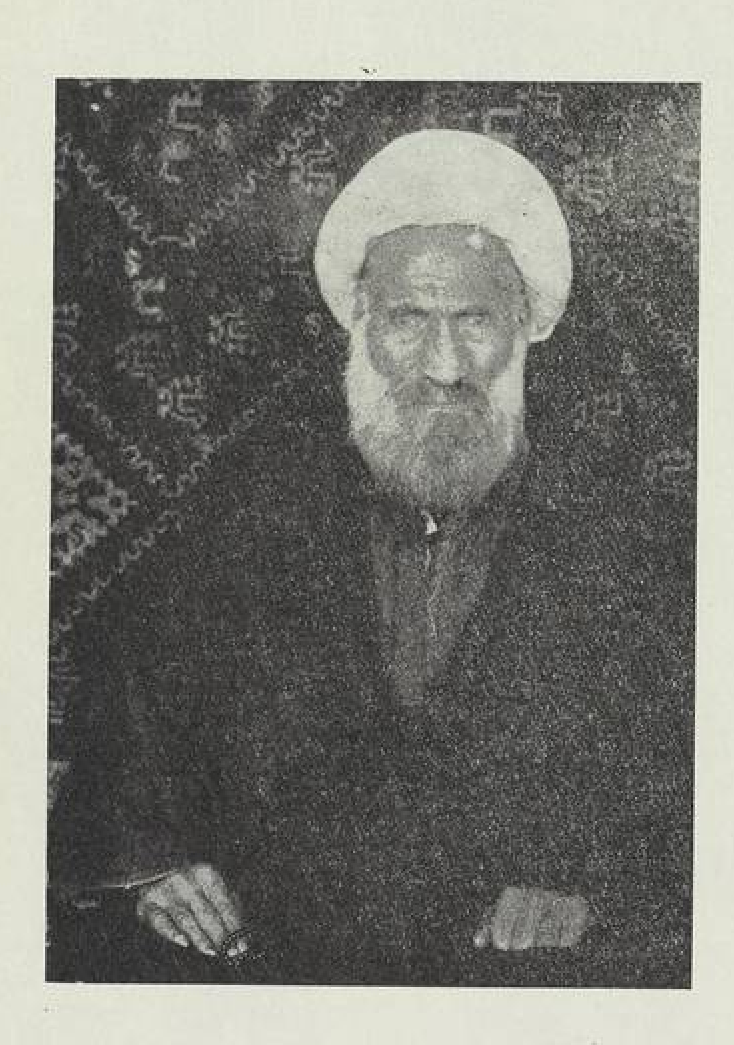
وكان الى جانبي احد الذين انكر حميد خان يوم انكره الكثيرون وانا من بعضهم ، ولكنه حين عرفه لم يتح له ان يعتذر اليه عما سلف ، لان الايام كانت قد نأت بـه وحالت بينه وبين حميد خان ، وهو حين تلاقى واياه هنا وفي ضهور الشوير بعـد ذلك الجفاء هم بان يعتذر اليه بل بدرت بادرة الاعتذار على لسانه ، ولكن حميد خان كان ينظر حينذاك الى الافق ساهيا واجما كمن لايعنيه امر الاعتذار او كمن يريد الانتقام من الرجل بالاعراض عنه الامر الذى حمل الرجل على الغضب والندم على تقـدمه بالاعتـذار وسـرعان ما انـكمش عـلى نفسـه ، ونقلصت سـحنته ، وراح يشغل نفسـه هـو الاخـر بناحيـة ثانيـة مـن الفضاء ليقابل الزاوية بالزاوية ، وبعد دقائق هم ان يقوم ، فامتـدت يد حميـد خان اليه مومية له بالبقاء وهو ساكت ، وهنا ادركت انا وادرك صاحبي ان الرجل يعاني عارضا نفسيا لا دخل له بسوء ظننا ، وبعـد فترة قال ... قال انني مريض يا اخي ، ان قلبي ... يهددني بالوقوف عن الحركة ، وكنت ـ قال حميد خان ـ وانت تتكلم في حال من الانهيار الذى لايطاق فلم يكن بوسعي ان ارد تحيتك ..!

وقبل ان يموت حميد خان بشهر وانا ببغداد علمت بانه يعاني نوبة من تلك النوبات القلبية التي اشار اليها وهو في ضهور الشوير فصممت على زيارته باسرع ماكنت افعل من قبل واذا بي في الطريق امام اخيه مصطفى خان يخبـرني بان الطبيب قد اوصى بمنع الزيارات عنه وقال لي انه سيتولى ايصال تحيتي وزيارتي له وبعد عدة ايام لقيت حميد خان في المكتبة الوطنية بسوق السراى وهو يقتعد الكرسي الذى كان يلذه ان يقتعده من هذه المكتبة كلما مر بسوق السراى ، فاقبلت عليـه معتذرا واخبرته بما كان في عزمي من زيارته واكتفائي باخيه ولامني قائلا ان المنع كان صحيحا ولكنك لم تكن انت مشمولا به ، وقبل ان امضي في الاعتذار منه بدأ يقدم لي اعتذاره لعدم استطاعته حضور حفلة تدشين (دار الهـاتف) وقال لي انه ينتظرني في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم في داره بباب المعظـم وكان قد انتقل اليها كما اخبرني ، وقد كرر هذا الطلب وهذا الرجاء اكثر من المعتاد حتى اثار في نفسي الشك وخلت انه ربما يريد تقديم هدية (للهاتف) بمناسبة تدشين دارها والا فما معنى هذا الرجاء بزيارته وعلى هذه الصورة الملحة وظللت اقدم رجـلا

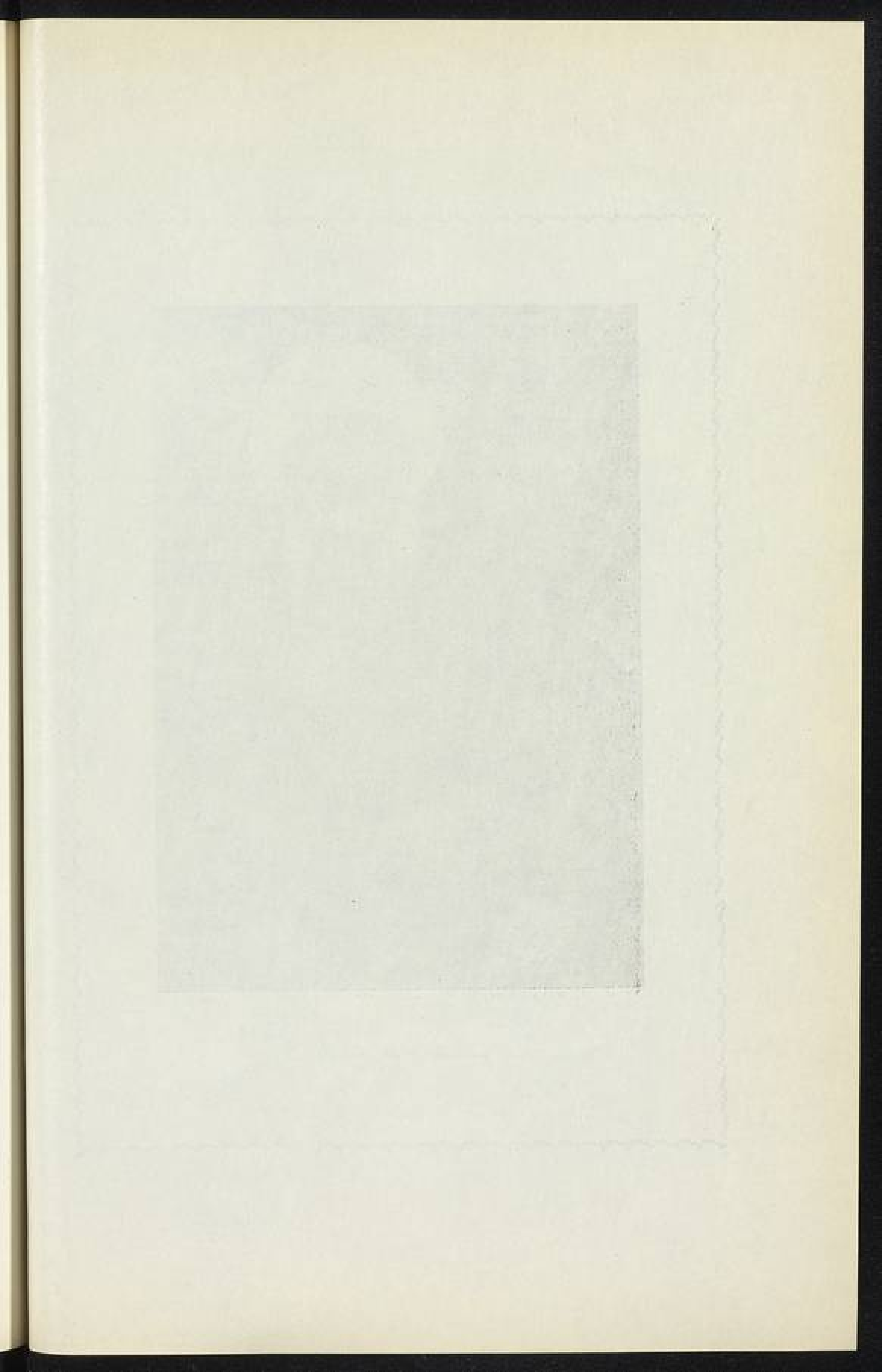
وأوخر اخرى وانا احدث نفسى أأذهب اليه ام لا اذهب ؟ واخيرا قوى الشك فى ذهنى ساعة بعد ساعة حتى حان الموعد فالفيتنى مصمما على عدم الذهاب ، وقد درت برأسى الى جهة لعلها تعاكس تماما الجهة التى يقوم فيها بيته وكانت تلك آخـــر رؤيتى له .

وتعددت النوبات القلبية ، وعلى انه كان شديد الحذر والتوقى فانه لم يمتنع عن زيارة الاصدقاء وتفقد محبيه ولم يمتنع اصدقاؤه ومحبوه من ان يهيئوا له الجو الذى يأنس به ، وذات ليلة وهو على مائدة عبدالرزاق الازرى عاودته النوبة القلبية ، وفى هذه المرة لم تمهله اكثر من ثوان معدودة ماكاد يحس بها الحاضرون حول المائدة ، فانطفأ ذلك السراج الوهاج من الخلق الكريم ، والنبل الذى ظل تاريخ النجف يروى عنه الكثير مما لم يجر على بال ، فكان اول نجفى ضرب اروع الامثال للحلم والانسانية وتجاهل الحقد والانانية فى جميع ادوار حياته ... كما كان اول نجفى تثقف ثقافة عصرية .

وحين توفى تبين ان عددا كبيرا من المعوزين كانوا يتقاضون من حميد خان رواتب شهرية ومساعدات موسمية ، وان ماكان يحصل عليه من وارد املاكه الكثيرة كان ينفقه كله وبدون ان يبقى شيئا منه على وجوه البر والاحسان على ذلك النسق الذى كان مألوفا فى ايامه ، فكانت فجيعتى به كبيرة وحزنى عليه عميقا . وكانت خسارة الاخلاق به فادحة .



الشيخ جواد الشبيبي



الشيخ جواد الشبيبي [1]

وعيت ولشيخ الادباء الشيخ جواد الشبيبي دوى هائل فى الاوساط الادبية • والمحافل النجفية ، وكان اسمه من الشهرة بحيث لايذكر اسم الادب يومـــذاك بجميع فنونه الا وكانت له من المناسبة ما تجعل الاتصال وثيقا باسم الشبيبي الكبير ، وكان عدد ادباء العربية الموهوبين حينذاك كبيرا ، وعلى جسامة هـذا العـدد كان الشبيبي فى الرعيل الاول من المتفوقين والعباقرة ، حتى لقد كان يجـــوز للاديب ـ فضلا عن المتأدب ـ ان يتجاهل او يجهل طائفة من اولئك الادباء الكبار ولايجوز ان يجهل او يتجاهل تلك القلة التى كان منها الشيخ جواد الشبيبي فى الطليعة •

ولعلى قبل ان اعرف الشيخ جواد بالذات قد سألت عنه واكثرت السؤال ، وبحثت عنه واكثرت البحث ، فكانت لى به معرفة ليست كمعرفة واحد يسمع باسمه ، او يقرأ له ، او يصغى الى ادبه وكلماته ، وانما هو شيء يفوق ذلك كله • ويدل على زيادة فى المعرفة لم تتأت الا عن اسئلة واجوبة متواصلة ، وتتبعات واستقصاءات متعاقبة ، وانا حين استعرض صحيفة الذاكرة الان لا علم تأريخ اول معرفتى به لم اجدنى واصلا الى شيء اكثر من انى عرفته منذ استطعت ان اعرف الناس ، فقد كنت اعلم انه من رواد مجلس آل الشيخ عباس كاشف الغطاء ، ومجلس السيد حسين القزوينى ومجلس السيد على العلاق ، وانه من اقران الشيخ هادى الشيخ عباس ، والشيخ عبدالكريم الجزائرى • والشيخ عبدالحسين الجواهرى والشيخ اغا رضا الاصفهانى ، والسيد على العلاق ، والسيد جعفر الحلى ، وكنت اعلم ان لهـــؤلاء تأريخا حافلا بالفضيلة والكرامة ، ودواوين عامرة بالشعر والادب والنـــوادر والنكت ، وانه يرجع اليهم الفضل العظيم فى بناء النهضة الادبية ، وتكوين مجموعة من روائع الادب العربى الرصين ، تلك المجموعة التى لاتجارى من حيث متانتها ،

---

(١) الهاتف ـ السنة التاسعة العدد ٣٥٠ـ١٧ آذار ١٩٤٤ •

وقوتها وكيفية نسجها ، وكنت اعلم ان للشيخ جواد الشبيبي مع هذه الزمرة الخاصة من طبقته ومع غيرها من زمر الادب التي تلي طبقته تأريخا ادبيا ممتعا ، وكان من هذه الزمرة الشيخ عبدالحسين الحلي قاضي قضاة البحرين ، والشيخ عبدالرضا الشيخ راضي ، والشيخ عبدالحسين الحياوي وغيرهم •

اقول ، وكنت اعلم ان له مع طبقته الخاصة والطبقات الاخرى نوادر ونكتا غاية في الرقة ، وغاية في سمو المعنى ، ومساجلات شعرية ربما طوقت جيد الادب بعقود قلت نظائرها في كثير من الحقب التأريخية ، وكان الشيخ جواد الشبيبي هو المجلي في الغالب بشعره ، ونثره ، ونوادره ، وسرعة خاطره ، وقد قيل ان نوادره الادبية ، وتحفه الفنية من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات ضخمة لو تصدى احد لجمعها •

لقد وعيت وانا واحد من عشاق ادبه ، ومتتبعي بدائعه ونكته ، وكنت ابحث عن نماذج من رسائله وخطوطه بقصد المتعة الروحية ، وطلب الادب ، وكنت اقرأ ما احصل عليه بكل شوق ولهفة • فقد كان العلماء كثيرا ما يتخذون من قلمه ترجمانا للاعراب عن رغباتهم ، ومقترحاتهم فيبعثون بها للباب العالي باسطنبول ، او يخاطبون بها الولاة ببغداد ، وكثيرا ما يقصده ارباب الحاجة ممن يريدون ان يسجلوا وصيتهم بعد مماتهم • او يريدون وقف املاكهم ، او تأسيس شركة لهم ، او اجراء بيع او شراء على الوجه الشرعي فيما بينهم ، فيدبج لهم بانشائه وخطه وثيقة حسبها من القيمة الشرعية والعرفية ان يقال انها من وضع الشيخ جواد الشبيبي فقد عرف ببراعة انشائه كما عرف بحسن خطه ليس في النجف فحسب وانما في جميع الاوساط الادبية في العراق • وكثيرا ماكان ينظم الشعر الجيد ويعطيه لمن ينتحله لنفسه لغرض من الاغراض •

هكذا كان يقال لنا عنه ونحن شبان متأدبون حينما كنا نسأل عن شخصه ، وكنت انا اسمع عنه اكثر من هذا لاسباب كثيرة اهمها ماكانت تربطه باواصر المودة مع اسرتي خاصة ، حتى لقد قيل انه كان من اقرب اخصاء الحاج ميرزا حسين الخليلي المرجع الروحاني بعد الميرزا حسن الشيرازي • اما رابطته بالميرزا محمود

الخليلي فكانت رابطة مودة جد وثيقة يعرفها كل من وقف على شيء من تأريخ الجيل الماضي •

وكانت هذه الاسباب بالاضافة الى رغبتي في الادب جعلتني اسمع يومذاك عن الشيخ جواد الشبيبي اكثر مما يسمع اغلب اقراني ومن كان في مثل سني ، وقد كان يكفي ان ينطلق بيت الشعر من فمه • ويكفي ان يخط سطر من نثره على الورق لكي تراه مرددا على الكثير من افمام الادباء ، اما النادرة فحسبك منها أن كان يتلقفها الجميع من مختلف الطبقات ••• وانني لاحفظ نكتة (جويعد) من زمن قديم، وقبل ان يتاح لي ان اعرف الشيخ جواد عن كثب ، وجويعد هذا في الحقيقة اسم مصغر لاسم (جاعد) اي (قاعد) وهو بعد ذلك اسم لاب الشيخ عبدالحسين الحياوي وهو رجل قروي من اهل الحي ليس له شأن يذكر لولا ابنه الشاعر المعروف الشيخ عبدالحسين الحياوي الذي انتقل من الغراف الى النجف طالبا للعلم ثم نال من العلم والادب قسطا وافرا ، وكان جويعد هذا ذات يوم في زيارة ابنه الشيخ عبدالحسين في النجف ، وكان مجلس ابنه الحياوي غاصا بالادباء وفي مقدمة اولئك كان الشيخ جواد الشبيبي ، وقال بعضهم بل كان ذلك في مجلس السيد علي العلاق ، وكيفما كان الامر فقد غاب الشيخ عبدالحسين الحياوي عن مجلسه برهة ثم عاد فالفى الشيخ جواد الشبيبي يدخل المرحاض ، وتغافل الشيخ الحياوي وشاء ان يعرض بالشبيبي مداعبا وسأل بصوت عال :

– اين انت الان يا شيخنا الشبيبي ؟

وكان الحياوي ينتظر ان يكون الجواب : انه في المرحاض ، وفي ذلك مافيه من تعريض لايخفى المقصود منه على القارىء ، وسرعان ماسمع القوم صوت الشبيبي مجيبا •

– بالطهارة (جويعد) •

اي ان (جويعد) في المرحاض ، فلم يبق احد في النجف دون ان يروي هذه النادرة ويذكرها كلما جاء ذكر سرعة الخاطر ، وجمال التورية بين معنى جويعد

(القاعد) واسم أب الشيخ الحياوى • وقد ضحك الجميع وضحك معهم (جويعد) القروى الذى ظل يحدق الى الوجوه ولا يدرى لم يضحك القوم ••؟

وكان الكثير من كبار الادباء يتهيبون مساجلة الشيخ جواد بالشعر واذا كان لابد لنا ان نستثنى البعض من اقران الشبيبى فذلك هو السيد جعفر الحلى • وكان الكثير يتهيبون مداعبة الشبيبى بالنكت والملح والفكاهة لانه كان من اقدر من عرف بسرعة البديهة ، ولانه كان من ابلغ الشعراء واشرقهم ديباجة ، واوضحهم اسلوبا ، بل كان نسيج وحده من حيث غزارة المعنى والعمق ، اضافة الى سرعة الخاطر وحلاوة النكتة •

وان قصيدة الشبيبى التى يداعب بها الشيخ عبدالحسين الجواهرى والد محمد مهدى الجواهرى وخال الشيخ على الشرقى ، وقد كان من الم رجال الادب ومن افاضل تلك الزمرة بالاضافة الى جرأته وهيبته التى كان يحسب لها انداده كل حساب ، اقول وان قصيدة الشبيبى فى الجواهرى لتعتبر من حيث البديع من باب (المدح فى معرض الهجاء) لوحة فنية من اسمى واغلى الالواح التصويرية ، ثم هى بعد ذلك دليل على موضع الشبيبى من الجرأة قبال الشيخ الجواهرى الذى كان يهابه الكثير • وكان الشيخ عبدالحسين الجواهرى قد اصيب بالقرع وهو طفل صغير وقد ترك القرع فى رأسه بعض الندوب ، والنتوء ، والالتواءات فتناولها الشيخ الشبيبى يوم استدعت المساجلة الادبية والملحة والظرف – وكثيرا ماكانت حياة الادباء فى النجف حينذاك تستدعى مثل هذه الدعابات – فصور تلك الاثار فى رأس الجواهرى تصويرا يصلح ان يجيء دليلا على ماكان يتمتع به الشبيبى الكبير من مواهب فنية غاية فى الروعة والعمق •

يقول الشبيبى فى رأس الشيخ عبدالحسين الجواهرى :

لك رأس مرصع ومدبج	دوحة الجسم ابنت فيه بستج
روضة تنبت الشقايق فيها	اقحوانا وسوسنا وبنفسج
قد قرأنا حديثه من قديم	فرأيناه عن جعود مخرج
خط (يافوت) فيه جدول تبر	نقطوه من (قيحه) بزبردج

فوق كافوره من الشعر مسك ... كل من شم نشره يتبنج

فيه بحر للقار من ظلمات ... ضرب الشف يمه فتموج

ارضه عسجد وحصباه در ... لو ازيلت اصدافه لتدحرج

(كم بموسى الحجام) عاد كليما ... صعقا خر بالدماء مضرج

لو على ابن الهموم ضاق خناق ... وكشفنا عنه لقلنا تفرج

عمموه بلؤلؤ وعقيق ... فهو ملك معمم ومتوج

كورة فيه يطبخ الجص والاجر ... يبنى من الصديد ويملج

وهو وادى العقيق كم جمرات ... عنه ترمى (معصومة) ساعة الحج

موقد شعلة كفكرة عمرو ... من سناها نار البروق تأجج

ذوبيان لو خاصم الجمر فيه ... لانطفى حره وباخ وابج

واديب لا بابلى ولكن ... سحره من كلامه الفصل مخرج

ذو سبال يسيل عذابا ولكن ... جمه فى فم المقبل قد مج

انا ظام ولم أرد نهر فيه ... حيث فيه من العوارض كوسج

كيف ارجو من ورد خديه قطفا ... وعليه عثنونه قد تعوسج

هو ذئب ان أبصر اللحم يشوى ... واذا ابصر الحشيش تنعج

اكر الارز دحرجتها يداه ... بذراع مفتولها قد تصولج

ان تمشى تيها من الدل أمسى ... جسمه وهو زئبق يترجرج

ايها الصقر فى خدودك شعر ... مشرئب كأنه ريش دعلج

كيف يرجى لناظر لك عدلا ... وله حاجب عن الحسن معوج

لك ريق يحمومه يا حمانا الله منه ... بلغم الصدر يمزج

ولك اللحية التى الف بيت ... من زوايا جهاتها الست ينسج

باعد الحسن منه اعظم ثغر ... فهو فيها مقيح لا مفلج

ولم يكن هذا اول تعريض وقع من الشبيبى برأس الجواهرى على سبيل المزاح ، وانما كتب له مرة على اثر قضية خاب الرفاق ان يظفروا بشىء منها عند الجواهرى ، لقد كتب له من الشطرة الى النجف يقول :

خابت رفاقي منه بالذي طلبت كما يخيب برأس الاقرع المشط

والمناسبات التي تهيج قرائح الشعراء وتشيع السرور في نفوسهم كثيرة في النجف ، واذا عز وجود المناسبة التي تستدعي المساجلة والمباراة الشعرية والسلوان ، فان الشعراء هم انفسهم يخلقونها خلقا ويوجدون لقول الشعر دواعي متعددة ، وفي تاريخ الشبيبي الادبي كثير من هذه المناسبات العامة والخاصة التي جلى فيها وكان له القدح المعلى ، واني لاروى ان رهطا من الادباء كان بينهم السيد جعفر الحلي ، والشيخ جواد الشبيبي ، والشيخ اغا رضا الاصفهاني والشيخ هادي الشيخ عباس كاشف الغطاء ، كانوا قد اجتمعوا في بيت السيد باقر الهندي في النجف وقرروا هناك خطف خروف لعمي الشيخ اسماعيل الخليلي كان قد عني به واعده اعدادا خاصا لعيد الاضحى ، وكان الفصل خريفا . والهواء عليلا يساعد على نشاط النكتة وهياج القريحة ، وقد تم لهم خطف الخروف من بيت الشيخ اسماعيل بطريقة خاصة ، وجاءوا به الى بيت السيد باقر الهندي وذبحوه هناك ودعوا عليه صاحبه ، وبعض الرفاق الاخرين ، ثم رثوا الخروف ، ورثوا لحال عمي الشيخ اسماعيل وهو يرى خروفه مجندلا فوق خوان الرفاق ، واشترك في هذا الرثاء كل اولئك او معظمهم ، ومن المؤسف اني لم احتفظ باكثر من هذه الابيات من تلك القصيدة التي قيل انها كانت كبيرة ولم استطع تبين ما يعود للشبيبي ولغيره منها ، وهذه هي الابيات احتفظ بها عسى ان يحصل من يحفظ كل القصيدة ويعين قائل كل بيت منها .

قف برمل الحمى ورو الطلولا بدموع تحكي السحاب همولا
رحل القاطنون عنها وقلبي شاء في ساعة الرحيل الرحيلا
اي بدر للمجد كان ضئيلا وبليل التمام شاء افولا
يا لفصل الخريف أي خروف فيه أمسى مجندلا مقتولا
هو فصل اهل العراق نفاقا ذبحوا فيه كبش (اسماعيلا) (١)
فتمنى الذبيح لو يقبل الحتف بديلا بان يكون بديلا

---

(١) هو عمي الشيخ اسماعيل .

يا سليل الخليل صبرا وان كان عزيزا فقد (الخليل) الخليلا[1]
وكأني به يقول دع العذل فلن يسمع المشوق عـذولا
(وخلاف الجميل قولك للذاكر عهد الاحباب : صبرا جميلا)
لهف نفسي (ليوسف)[2] وهـو يبـكي
ويطيـــل الشجا ويبـدي العـــويلا

قلنا ان الشيخ جواد الشبيبي كان سريع البديهة . حاضر النكتــة يعطي الظرف والدعابة ما يعطي الجد من الاهتمام بل يضع كل شيء في موضعه ومقتضيات حاله ، فلا يمتنع ان يعلق على ما يعرض امامه بكل ما يحضره من تعليق يناسب المقام ، وقد وجه ذات يوم الى الشيخ ابراهيم الاطيمش ، وعلى حين فجأة وبغـاية السرعة بقصد المزاح وهو العارف بذهول الشيخ الاطيمش وما يحتمل ان يشتمل عليه جوابه من المضحكات لقد وجه له هذا السؤال مباغتا :

ـ ما اسمك بالالف ؟

وهذا السؤال هو جزء من تسلية ادبية طالما كان الادباء يتسلون بها فيسأل بعضهم بعضا عن اسمه بالباء او القاف او اي حرف آخر مثـلا ، فيجيب المسـؤول بعجلة وبدون تباطؤ ويورد اسما مبدوءا بالحرف المطلوب وبغاية السرعة ...

والشيخ ابراهيم ـ كما ذكرنا ـ معروف بالذهول والنسيان في اكثر الاحيان ، وحين فاجأه الشبيبي بسؤاله : (ما اسمك بالالف) نسي الشيخ ابراهيم اقرب الاشياء اليه وهو اسمه (ابراهيم) المبدوء بالالف وراح يبحث في ذهنه بمنتهى السرعة عن اسم مبدوء بالالف ، ولكن الاسماء كلها قد طارت من ذهنه ولم يحضره اســم غير اسم (حسين) منطوقا به على السنة العوام الذين يبدؤونه بالالف فيقولون (احسين) بكسر الالف ، لذلك اجاب الشيخ ابراهيم وهو في غاية الارتباك قائلا :

ـ احسين .

ولم يجد الشيخ جواد جوابا يناسب مثل هذا الحال او قل لم يجد جوابا اشفى

(١) المقصود بالخليل في صدر البيت هو جد الاسرة الخليلية والخليل في عجـز البيت هو الابن الاكبر للشيخ اسماعيل .
(٢) هو الابن الثاني للشيخ اسماعيل الخليلي .

لنفسه من ان يورد همزة على أحد الاسماء وينطق به كما ينطق العوام ليكون الجواب مطابقا ٠

وهكذا رد عليه الشبيبى بنفس السرعة قائلا :

ـ احدار ٠

والحدار بدون همزة فى اللغة ـ تعنى مرضا جلديا معروفا بالتورم وطالما استعمل الفراتيون هذه الكلمة للدعاء بالشر ٠٠٠

* * *

وكان الشيخ الاطيمش يلازم الشيخ الشبيبى ملازمة الظل فى حله وترحاله، فهو فضلا عن كونه من ارحام الشبيبى فان ادبه وظرفه وما ابتلى به من نسيان ، وذهول قد حببه الى الشيخ جواد والى جميع شيوخ الادب ، ومن ذهوله المضحك انه نظم ذات يوم قصيدة لامية القافية ولكنه لم يتمها فى تلك الليلة ، وحين عاد فى الليلة الثانية لاتمامها ركب قافية الميم ونظم عليها احد عشر بيتا قبل ان يلتفت الى هذا السهو ، والغريب المضحك ليس فى هذا وحده ـ كما روى لى الشيخ ابراهيم نفسه هذه الحكاية ـ وانما فيما كان قد وقع دون التفات الشيخ ابراهيم الى ذلك فقد وجد ان بحر الابيات اللامية السابقة كان من (المتقارب) والبحر الذى اكمل به الابيات فى الليلة الثانية كان من (البسيط) ٠٠٠٠!!

ولقد جرى مرة حديث عن الصحف العراقية ، وما قد اصابها من ركة وخروج على قواعد اللغة ، وكان الشيخ ابراهيماطيمش حاضرا فقال :

ـ ومن آية هذا الخروج على القواعد العربية ان هؤلاء الصحافيين قد بدأوا يرفعون المرفوع ، وينصبون المنصوب ، ولم يلتفت احد منا للسهو الذى وقع فيه الشيخ ابراهيم لو لم يعقب الشيخ جواد الشبيبى على قول الشيخ ابراهيم قائلا :

ـ ويجرون المجرور ، ويتبعون فيما يكتبون كل القواعد العربية ٠٠ أليس كذلك يا شيخ ابراهيم ؟

وهنا التفت الحاضرون لسهو الشيخ ابراهيم وتهكم الشيخ الشبيبى وضحكوا٠

قلنا ان الشيخ الشبيبى كان معجزة من المعاجز فى سرعة البديهة ورهافة الحس وقد تعرض به ذات مرة احد العلماء مداعبا وقال له :

ـ ليس ثمة شك في انك كنت احد الذين ولدوا في سنة وفاة الشيخ الانصاري •• (وكان الذين ولدوا في تلك السنة عددا من مشاهير اهل الفضل والادب كان منهم الشيخ الشبيبي وصديقه المداعب) •

فقال الشيخ الشبيبي :

ـ وهب اني ولدت في سنة وفاة الانصاري فما الضائر ؟

قال الصديق ـ لاتنس ان وفاة الانصاري يجمعه تأريخ قولك : « ظهر الفساد» بحساب ابجد •••

قال الشبيبي ـ وانت الاخر على ما ادري من مواليد تلك السنة ، ومن المشمولين بظهور الفساد ••

قال ـ بل ولدت انا قبل هذا التأريخ باربع سنوات •

قال الشبيبي ـ فعلى هذا يكون تأريخ ولادتك (ظهر الفسا) بحذف الدال الذي يساوي اربعة في الحساب •••• وبكسر الفاء •

ولا حاجة للتنبيه الى سرعة هذه البديهة وكيفية صياغة الجواب البليغ المرتجل فهي من الوضوح بحيث لاتغيب عن ذهن القارىء •

وعلى اساس الشيء بالشيء يذكر ، اذكر ان الشيخ جعفر الشيخ راضي وكان من كبار علماء النجف وزعمائها الافذاذ قد ولد هو الاخر في سنة وفاة الانصاري فشمل هو والشبيبي وطائفة اخرى من كبار العلماء بالقول المؤرخ (ظهر الفساد) ، وحين ولد الشيخ عبدالرزاق ابن الشيخ جعفر الشيخ راضي داعب احد الاصدقاء اباه بان وضع لميلاد ابنه الشيخ عبدالرزاق تأريخا يجمعه قولك (لب الفساد ظهر) فكانت يومها من النكت البديعة •

★ ★ ★

ولست اذكر اول اتصالي بالشيخ الشبيبي تماما ، وكلما اذكر هواني كنت اختلف الى بيت الشبيبي وكنت اطيل الجلوس هناك ، وكان يبهرني منه حديثه ، وتعليقه ، وشواهده ، وكنت في كل مرة اجد روحا جديدة ، وأدبا جديدا وسرعة خاطر وبراعة قد يفقدهما الكثير من العباقرة في الوقت المناسب وفي المكان المناسب من الايجاز والاسهاب ، وفي كل مرة كنت اشعر شعورا اعمق بقيمته ، وعلو كعبه

في عالم الشعر والادب ، فهو على رغم تقدم سنه فقد كانت روحه لاتزال في اسمى مراتب المرح والشباب ، وكان ذهنه لايزال في غاية الخصب والنشاط ، وانك حين تقرأ قصائده ومقاطعه المتأخرة تكاد لاتصدق بان منتجها رجل في غاية الخـــور والضعف من حيث الصحة ، وانه قد جاوز الثمانين من العمر ، وعلى ذكر الثمانين وذكر المرح اذكر بانه كتب مرة الى الشيخ عبدالرضا الشيخ راضي - وكان قد سمع بان الشيخ جواد عليوى الذى أربى على الثمانين قد تزوج بفتاة صغيرة السن ، وانه بدأ يعالج نشاطه الجنسى بمختلف الوسائل والعقاقير ، والشيخ جواد عليوى يمت الى الشيخ عبدالرضا بنسب من القرابة - ولذلك كتب الشبيبى للشيخ عبدالرضا يقول :

(جوادك) من بعد الثمانين صاهل   فمن ذا يجاريه ومن ذا يطاول
وقائلـــة ماذا تحـــاول نفســـه   فقلت لها فتح (الحصون) تحاول
فقالت أبا لسيف الذى هـــو حامل   وما سيفه في الـروع الا حمائل
ومن عجب ان الصياقل لم تكن   تعالجه ، بل عالجته (الصيادل)

ومن الذين بلغوا الثمانين او اوشكوا ان يبلغوها كان الشيخ ابراهيم الاطيمش وهو الاخر كان قد تزوج امرأة كان بين سنه وسنها من الفـــوارق ما كان بين الشيخ جواد عليوى المتقدم وزوجته واكثر ، وذلك بعد زواج الشيخ عليـــوى بايام فكتب عن اطيمش معقبا :

أتاك الصاهل الثـــانى   عقيب الصاهـــل الاول
كلا الطـرفين لم يعثـر   وان خب عـلى الجنـدل
ولـكن طرفـا استعصى   على السائس فاسترسل
اردنا منـــه امهــــالا   عـلى الوثبـة فاستعجل

وحين تزوج الشيخ عبدالمحمد زاير دهام على هذا النحـو مـــن الفارق بين العمرين عده الشبيبى (صاهلا) ثالثا ونظم فيه ابياتا افتتحها بقوله :

« وجاء الصاهل الثالث »

ومن المؤسف انني لا احفظ هذه الابيات وليس الامر من الاهمية التأريخية بحيث يستلزم البحث والتعقيب .

واقدم السيد ابو الحسن المرجع الروحانى الاعلى خابا على ذلك النمط من المفارقة بين سنه وسن زوجته فقال فيه الشبيبى :

أتاك الصاهل الزابع فهن الشرع والشارع
ثمـــانون لعشرين فأين (القدر الجامع) ؟

والقدر الجامع كما لايخفى هو الناموس العلمى الذى يبنى العلماء والفقهـاء عليه تشريعهم .

ومن أحسن ما شنفت به مسمعى من اوصافه وتشبيهاته المبتكرة وصفتـه (للعربات) فقد جاء مرة ذكر السيارة وسرعتها وقول السيد مير على (ابو طبيـخ) القائل :

ما بين اقصى شرقها او غربها فى السير الا ان تقـول لها اقدمى

فقال لى احسب ان هذا البيت مقوس ومؤشر عليه من لدن السيد مير على لانه كان استعادة او اشارة لقولى عن العربات التى كانت تنقل المسافرين بين النجف وكربلاء . وبين كربلاء والكاظمين ، وهى عربات من طراز خاص ادركتها انا وركبت فيها وهى تحمل ثمانية انفار ، وتجرها اربعة خيول فتغادر النجف صباحا وتصل الى كربلاء مساء ـ وقرأ على الشيخ الشبيبى قوله عنها الذى وصفها به وصفا شعريا جميلا تناول محمولها ، وسرعتها . وابتداء حركتها ، وموعد وصـولها فى تصويرة مبتكرة ، فذة ، اذ قال :

مابين غاية مجراها ومبدئهـــا الا بمقدار قول القائل : اندفعى
تحملت وهى (حبلى) فى ثمانية صبحا وقيل لها عند المساء ضعى

وكان للاختام فى الجيل الماضى شأن كبير، وكان لصيغتها واختيار الكلمات المنقوشة عليها فن خاص لايتقنه الا ادباء يحسنون وضع الكلم فى مواضعها ويبدعون فى استخدام الوان من بدائع الجناس والتورية فى صيغة الخاتم الذى يخص المرموقين والزعماء والوجهاء ، ولما لم يكن التوقيع بالقلم معروفا يومذاك فقد اقتضى ان يتخذ حتى العلماء والادباء اختاما لهم من الفضة او البرنز او العقيق واليواقيت ، والكثير

منهم كانوا يتخذون من اختامهم فصوصا لخواتيم يلبسونها بقصد الزينة ، ويستعملونها في ختم الكتب والرسائل والوثائق والاسناد عند الحاجة ، ولما لم يكن طبع الابهام شائعا ايضا ، فقد يضطر الفلاح والعامل والقروي ومن شاكلهم ممن تلجؤهم الحاجة الى حفر اختام باسمائهم .

وكان تواضعي صيغة الاختام وانتقاء الكلمات المناسبة من تضمين الايات القرآنية او الحديث الشريف والامثال والنصوص الادبية التي تتناسب واسم صاحب الختم ومقامه ومنزلته الاجتماعية . كان لهؤلاء مقام مرموق في الاوساط الاجتماعية والادبية اذ ليس بمقدور كل اديب ان يبدع في اختيار ما يناسب اسماء الشخصيات البارزة من علماء ووجهاء ويختصرها في كلمتين او ثلاثا . وكان السيد جعفر الحلي ، والشيخ جواد الشبيبي ، والسيد رضا الهندي ، من اشهر من عرف في وقته بهذا الفن من البديع والايجاز ،

وعلى هذا الاساس قصد مرة الحاج (وناس) وهو من التجار الامين وكان قد اصبح وجيها ولابد ان يكون للوجيه خاتم يليق به من حيث براعة الجناس والتورية لقد قصد الحاج (وناس) الشيخ جواد الشبيبي ليسأله عما يصلح ان ينقش على ختمه من آية قرآنية او حديث نبوي يتناسب واسمه ـ وكان الشيخ جواد الشبيبي كثيرا ما يقصد للاستعانة به حتى في اختيار اسم لكتاب يؤلف، او مولود يولد ، او مؤسسة تشيد ، وذلك لما عرف به من سرعة البديهة وسلامة الذوق ، وحسن الطبع ـ فقال للحاج وناس .

ـ انقش على ختمك الآية الكريمة (من الجنة والناس «وناس») .

ولو لم يتدارك الشيخ الشبيبي الامر بعد ذلك ويفهم الحاج (وناس) بانه لم يقل ذلك الا مازحا لكان (وناس) قد حفر ختمه على تلك الصورة ، واصبح من الجنة بكسر الجيم شاء ام ابى .

ونظير هذا ما نقل عن (سعيد ناجي) وقد كان من وجوه النجف واعيانها فقد طلب من السيد جعفر الحلي ان يضع لختمه الكلمة المناسبة فكتب له السيد جعفر :

« بحب بني النبي سعيد ناجي »

وقد لقي هذا الوضع استحسانا كبيرا في الاوساط الادبية . وكانت له رنة بناء على شهرة الرجلين السيد جعفر وسعيد ناجي ، والمنقول والعهدة على الناقلين وعلى الشايع طبعا ، ان (سعيد عجينة) وقد كان من منافسي سعيد ناجي في الوجاهة وكلاهما من البيوتات العريقة في النجف - لم يسره ان ينفرد منافسه سعيد ناجي بهذا الاعجاب والتحدث في المجالس عن براعة صيغة ختمه ، فجاء الى (جابر الكرماني) وقد كان وحيد عصره في نقش الاختام وحفرها على الاحجار والمعادن ، وطلب منه على ما يروى الرواة في ذلك اليوم ان يحفر له ختما على غرار ختم منافسه سعيد ناجي .

وحين استوضحه الكرماني قال له سعيد عجينة :

- انقش على الختم ما نقشت على ختم سعيد ناجي وقل فيه :

« يحب بني النبي سعيد عجينة » .

وبمناسبة ذكر الاختام روى السيد محسن الامين يوم كان يدرس العلم في النجف : انه حضر مرة نزاعا بين قروي وحكاك كان يمتهن حك الاختام ونقشها ، وكان القروي قد دفع (للحكاك) اجرة نقش اسمه على ختم من البرنز وكان اسمه (منتوش بن منكوش) ويبدو ان الحكاك قد نسي اسم القروي فحفر له الختم باسم (حنتوش بن عنكوش) وحين جاء القروي في الموعد تسلم الختم وراح ، ولكنه عاد بعد برهة وهو يحرق الارم من الغيظ قائلا :

- اريد ان اعرف كيف قد صيرت منتوشا حنتوشا ؟ وكيف قلبت اسم ابي منكوش فجعلته عنكوشا ...

اما الحكاك فكان يدافع عن نفسه كما روى السيد محسن الامين بان لا فرق بين منتوش وحنتوش ، ومنكوش وعنكوش ، فكل المناتيش حناتشة ، وكل المناكيش عناكشة .... قائلا : أفليس الغرض ان تختم الورقة بختم يدل عليك ؟ فهذا هو الختم ، وانت تستطيع ان تختم به ماتريد ، وليكن الاسم منتوشا او حنتوشا .

ولا عجب فقد كان منطق الحضر مع القرويين يجري على هذه الوتيرة .

وصار دنوي من الشيخ الشبيبي اكثر وعرفت عنه ، وعن عمقه ، ومقامه

الادبى ، واتجاهاته اكثر مما تستطيع هذه الصورة العابرة المستعجلة إن تعبر عنه تعبيرا كاملا ، وجرت بينى وبينه مكاتبات فى مناسبات مختلفة ، وعلى رغم تنوع المواضيع والاغراض التى كانت تتضمنها تلك الرسائل فانها لم تخل من براعة استهلال او مقدمات تعبر عن ملكاته الادبية ، وتفصح عما هو عليه من مقدرة فى عالم النظم والنثر .

ولقد كنت اجد فى كل رسالة من رسائله اشارة الى باب من ابواب جريدتى (الهاتف) او اى موضوع مما كنت اتناوله من مواضيع الكتابة فى كل اسبوع ، وقد كان يشير الى ذلك باسلوب لم يتكرر وان تكررت الاشارة الى الموضوع ، ولقد قيل انه كتب مرة بضعة عشر كتابا مرة واحدة على السنة العلماء الى الباب العالى باسطنبول فى موضوع عام يخص العراق ، فكتبها كلها باساليب وعبارات تختلف كل الاختلاف فى الصورة ، وتتفق كل الاتفاق فى المعنى ، وكان وقوع مثل هذا فى يومه يقارب الاعجاز ...

اما نوع الاستهلال والمقدمات التى يبدؤها قبل الدخول فى الموضوع فيكفى منها هذا المثل الذى اقتطعه من احدى رسائله التى كتبها لى وقد مر فيه على (خيال الظل) بالتلميح ، وخيال الظل هذا باب من ابواب جريدة (الهاتف) التى عنيت بها اهتماما بالادب التحليلى الذى لم يكن مألوفا بعد عند الكتاب والقراء كما ينبغى ان يكون ، وعلى هذا النحو كان ينهج فى استهلال كتبه ورسائله فيقول :

«الفاضل المثقف ، والحاذق الذى هو بداء الايام اعرف ، ادام الله صحيفته المطهرة لسانا يعبر عن اصلاح الامه ، وقلمه سنانا يصيب مقتل الجهل ، ويرشد الى التى هى اقوم ، وجعل الافكار تتفيأ (خيال ظله) فتخرج بالوارف الظليل ... وابقاه (خليلا) للاباء والعفاف ، ولا ينكر ذلك على آل الخليلى .. وبعد ....» .

ولدى عدد من تلك الكتب التى تفيض بالادب الحى والامثلة الرائعة والشواهد من بديع الشعر والنثر .

* * *

والى جانب سرعة البديهة التى عرف بها الشيخ جواد الشبيبى فان له مواقع

ارتج فيها عليه ، وخانته سرعة الخاطر فلم يحر جوابا مع ان الامر لم يكن من الاهمية بحيث يستدعي واحدا كالشيخ الشبيبي ان يعين في رد الجواب ، وانا اروى من هذا النوع قضيتين احداهما قصها على هو نفسه ، والاخرى رواها لى احد الاصدقاء في حينها .

دخلت عليه يوما وكان يقضى دور النقاهة في بيت ابنه جعفر الشبيبي بشارع السعدون (الذى هو الان المحل الرئيسى لمتجر حفيده صبيح الشبيبي) فقال لى وهو يضحك :

ـ لشد ما يؤلم المرء حينما يحونه ذهنه في وقت غير مناسب ....

وحين استوضحته قال ـ وقد غرق في ضحكة طويلة ، وضحكة الشيخ الشبيبي ضحكة ناعمة ليس فيها جعجعة وصوت ، وانما هي من نوع عميق هادىء لايبين منها غير افتتاح الفم ببعض الاتساع ، وهزات متعاقبة من الرأس ، وبشر طافح على الوجه ، وقد تتخللها سعلات منشؤها كثرة تدخينه للسيكاير فتنقطع الضحكة ، بضع ثوان ، وحين تقف السعلة ، تواصل الضحكة بعد ذلك امتدادها وتاخذ حقها الكامل ، ويبدأ اهتزاز الرأس الى فوق والى تحت بحركة شبه ميكانيكية .

لقد قال لى :

ـ كان عندى قبل قليل هنا الشيخ مهدى سميسم ، وانا لا اعلم والله بترشيحه قاضيا للمحكمة الشرعية ليحل محل الشيخ عبدالحسين الحلى الذى وضعوا العراقيل في طريق تعيينه في المحاكم الشرعية في العراق ورفضوا تعيينه ـ وكان الشيخ على الشرقي حينذاك رئيسا للتميز الشرعي الجعفرى وقد شاع يومئذ انه هو الذى وضع الاسئلة فسبب وضعها على تلك الشاكلة وقوع العراقيل في طريق تعيين الشيخ عبدالحسين الحلى على ما اشيع في وقته ، وقد نفى لى الشيخ على الشرقي صحة هذه الاشاعة نفيا باتا [1] .

قال الشيخ جواد الشبيبي ـ وتطرق حديثي مع الشيخ مهدى سميسم الى

---

(١) وقد مرت الاشارة الى ذلك في عرضى لايام الشيخ عبدالحسين الحلى
المؤلف

العراقيل التى وضعت للحيلولة دون تعيين الشيخ عبدالحسين الحلى قاضيا فى محاكم العراق الشرعية - وكان حديث فشل الشيخ عبدالحسين الحلى فى الامتحان من اهم ما كان يشغل المجالس العلمية والفقهية فى النجف فقد كان الشيخ عبدالحسين من كبار العلماء والفقهاء ومن الشخصيات اللامعة التى يشار اليها بالبنان فلم يكن القول بفشله فى امتحان فقهى بالشىء المعقول والمقبول بسهولة .

... قال الشبيبى - فقلت للشيخ مهدى سميسم : حسنا فعلت الحكومة ، فانى لا اعهد برهانا اكبر وادل على غباوة الحكومة وغرضها ودنائتها من رفض قبول الشيخ عبدالحسين وترشيخ حمار لايدرى اى طرفيه اطول ليحل محله ...

ولم التفت - قال الشبيبى - الا ووجه الشيخ مهدى سميسم يصفر ثم يلوح عليه شىء من الاضطراب الممزوج بالخجل ، وقال وقد بدأ العرق يتصبب من جبينه ، لقد قال سميسم .

- استطيع ان اؤكد لكم باننى رفضت قبول القضاء فى محل الشيخ عبدالحسين وفى مثل هذا الظرف ، ولكن وزارة العدلية هى التى أصرت والحت فى ترشيحى للقضاء ...

قال الشبيبى - فقلت له : وهل انت المرشح للقضاء ؟

قال - بلى .

قال الشبيبى فسكت انا ، وسكت هو .. واعترانى ماكان قد اعتراه من الخجل واكثر ، على رغم سهولة الاعتذار لو كنت اردت ان اعتذر ولكنى وجدت جميع ابواب المعذرة مغلقة فى وجهى ...!!

وروى لى احد الاصدقاء قال :

- استعار الشيخ جواد الشبيبى يوما كتابا خطيا من الشيخ محمد السماوى لينقل نسخة منه عليه ، وحين اتم الاستنساخ واعاد النسخة الى السماوى كتب فى صدر النسخة المنقولة والتى احتفظ بها لنفسه - ولكنه لايدرى لم كتب ؟ ولاى سبب من الاسباب ؟ لقد كتب الشبيبى فى صدر نسخته كلمة تعنى انه نقل هذه النسخة من النسخة الاصلية التى استعارها من الشيخ محمد السماوى الذى ظل

مدة من الزمن ـ على ماكتب الشبيبي ـ محل ريبة وشك من حيث ايمانه وعقيدته الدينية ...!!

ومر على هذا الحادث اكثر من ثلاثين سنة انتقل فيها آل الشبيبي من النجف الى بغداد ، وكان الشيخ جواد يقوم بزيارة النجف بين آونة واخرى فيمكث فيها اياما ثم يعود الى بغداد ، وفي احدى هذه الزيارات مرض الشيخ جواد في النجف واقبل الكثير من اصدقائه ومعارفه يعودونه في بيته ، وجاء الشيخ محمد السماوي ذات يوم يعود الشبيبي ، وكان الوقت قبيل الظهر ، واغلب زوار الشيخ الشبيبي وعواده قد خرجوا منه ، وهو في غرفة مكتبته ممدد في فراشه ومغطى باللحاف الى ما فوق صدره ، وبعد ان استفسر السماوي عن صحة الشبيبي وتبادل واياه الاحاديث التي يجري تبادلها عادة في مثل هذه المناسبات ، لفتت نظر السماوي هذه الصفوف المتراصة من الكتب فوق رفوف الغرفة ، والسماوي من اكبر عشاق الكتب وهواتها ، واكثرهم حرصا عليها ، وتقديرا لقيمتها وقد كان يملك مكتبة نفيسة ثمينة حوت الكثير من نوادر المخطوطات ، وبلغ من عنايته وخوفه على الكتاب ان تعلم تجليد الكتب واشترى اللوازم والادوات الخاصة بالتجليد وعكف على كتبه الخطية يجلدها بيديه حذرا من المجلدين ، اذن أفيمكن للسماوي ـ وهذه حاله ـ ان يدخل بيتا ويرى فوق رفوف الغرف كتبا مسطرة ولا يمد يده اليها ، ويتصفح اولها وآخرها ، ويستعرض فهارسها على الاقل ؟

وجريا على هذه العادة مد الشيخ السماوي يده الى أحد الكتب على غير تعيين وسحبه من وسط الصف ، وتشاء المصادفة ان يكون الكتاب المسحوب هو تلك النسخة الخطية التي نقلها الشبيبي من نسخة السماوي قبل ثلاثين سنة ، وتشاء المصادفة ايضا ان يقرأ السماوي ماكتب عنه الشبيبي في صدر تلك النسخة مما مرت الاشارة اليه ..!!

وحين اتم قراءتها اعاد ما قرأ على مسامع الشبيبي وقال :

ـ ما الذي دعاك ان تكتب عني ما كتبت ؟ وما الذي بان لك من قلة ايماني وانحرافي لتقول في ما قلت ؟

فارتج على الشبيبي ولم يدر ما يعمل سوى انه مد يده الى اللحاف وسحبه الى الاعلى مخفيا به وجهه وهو يقول ويكرر :

- هذا من سوء الطالع يا شيخنا •••• من سوء الطالع وليس من شيء آخر •••!!

★ ★ ★

وكان بعد انتقاله الى بغداد ، شديد الحنين الى النجف ، كثير التشوق الى معرفة اخبار النجفيين بجميع طبقاتهم ، وقد قال لى غير مرة انه انه يقرأ من جريدتى (الهاتف) كل شيء حتى اعلاناتها ، متسقطا اخبار الخاصة والعامة من النجفيين ، ومثله كان الكثير وكان منهم الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، والسيد محسن الامين ، والشيخ عبدالكريم الجزائرى ، والشيخ عبدالحسين الحلى ، وكانوا يقرؤون حتى اعلانات الطابو التى يقوم بنشرها الهاتف وذلك تعمقا منهم فى الاحاطة والتذاذا باخبار البلد ، وهذا ما سمعته منهم مباشرة ••!!

وكانت للشيخ جواد الشبيبى تعليقات ادبية ذات قيمة على بعض مواضيع (الهاتف) وحينما كنت اتناول بعض الاشخاص بالتحليل واصفهم بصفاتهم المعنوية دون ذكر الاسم كان هو اسرع من غيره تعرفا باولئك الاشخاص ، وكان ينبهنى عندما تيسر لى زيارته ببغداد الى ما كان قد فاتنى من الصفات التى تخص اى شخص كنت قد تناولته فى عرضى الاسبوعى ، وكنت قد عرضت مرة صورة معنوية للشيخ ابراهيم الاطيمش دون ان يشوبها اى وصف مادى يقربها للذهن من هذا الطريق وسألت القراء عن هذه الشخصية قائلا : من هو ؟ كما كنت افعل مع الاخرين ، وكان الشيخ ابراهيم الاطيمش يقضى وقتا طويلا من كل سنة عند آل الشبيبى ببغداد فقال لى الشيخ جواد الشبيبى :

- لقد رأيت ان اختبر مدى تغلغلك فى طبيعة الاشياء فعرضت ما كتبته عن الاطيمش على جمع من اهل الكرادة والزوية ممن اعتادوا ان يرتادوا مجلسنا وسألتهم عما اذا كانوا يعرفون هذا الموصوف بمعناه فى الهاتف ، فأجاب الجميع بانه الشيخ ابراهيم الاطيمش •

قلت ان الظرف من احدى مميزات الشيخ الشبيبى البارزة ، واذا كان قد بز الكثير من الشعراء والادباء المعــاصرين شعرا ونثرا ، وضرب لسرعة بديهتــه وحضور ذهنه اروع الامثال ، فقد كان من اظرف من رأيت من مشايخ الادب واكثرهم بشاشة واشراقا ونشدانا للمرح الذى يتولى صقل الفن والادب ، ولم يفارقه هــذا الظرف حتى فى مرضه مع انه من اشد من عرفت خوفا من المرض وهلعا مــن الموت .

وورث كل اولاده شيئا غير قليل من ظرفه وكان صديقى محمد حســين الشبيبى من اكثر الادباء ظرفا وميلا للدعابة والمزاح ، واذكر من مرحه مرة ان قبض على الشيخ مولى الطريحى هو وجماعة كان بينهم السيد محمود حبوبى ولفه بالملحاف ثم قمطه بالحبل كما يفعل بالاطفال فى المهد والشيخ يصيح ويستغيث وهم يتداولون حمله من يد الى يد ويرقصونه كالاطفال وهو يصرخ وقد افهمه الشبيبى ان الخلاص من القماط منوط بسكوته فما دام هو صارخ فان الايدى ستظل تتلاقفه وسـيظل يتراقص على ايديهم طوال الليل والنهار ، ويضطر الشيخ الطريحى الى السـكوت فيطرحونه على الارض وتبتدىء هناك ترنيمة مرتجلة من الشعر حتى يتظاهر الشيخ بالنوم فيفكون القماط عنه ويهرب كل منهم ويلوذ بزاوية منيعة من البيت .

ولقد اتخذ محمد حسين الشبيبى ذات يوم على اساس ما طبع عليه من الظرف والادب وحب النكتة من (عباس عدوه) موضوع تفكهة وأنس فى مجــلس ادبى رائق ، فمهد لعباس عدوه الظروف التى طالما حملته على قول الشعر العامى على طريقة تقارب بند ابن الخلفة ، بل الصحيح على طريقة الشعر الجديد فى هذه الايام ، تلك الطريقة التى يعتبر (عباس عدوه) مكتشفها الاول اذا اردنا الانصاف .

وعباس عدوه هذا شاعر عامى ذهبت الحوادث بنصف قواه العقلية ، فاذا شرب الخمرة ، واخذ منها كفايته ، تحول النصف الاخر الى لون لطيف ، خفيف ، مرح ، محبب للنفس ، مثير للضحك ، وبدأ حينذاك مزيج من الشعر العامى والقريض يتدفق على لسانه ، فيشرق فيه ويغرب ، وعلى الاخص حين يجرى على نسق البند حيث لايبقى من لم يشرق بالضحك ويغرق فى القهقهة .

وكان الفصل فصل شتاء ، وكان الهواء باردا ، فجاء محمد حسين (بعباس عدوه) الى أحد الخياطين وخاط له عنده من قماش (الململ) الشفاف الناصع البياض سترة وبنطلونا ، ثم اغرقه بالعرق نهلا وعبا ليهيج له قريحته ، ثم انزعه قباه وعباته، والبسه تلك البذلة الصيفية الشفافة في ذلك الزمهرير القارص ، ووضع على رأسه قبعة من القش وقال له :ـ لتدخل علينا مجلسنا ، ولتشنف اسماعنا بشعرك المرتجل فانا اليوم وصحبي اشعر بانقباض وضيق صدر ، وكان من المجالس العامرة التي ظلت حديث الادباء الظرفاء زمنا طويلا وقد القى فيه عباس عدوه قصيدة رائعة وكنت انوى نشرها في (الهاتف) ولكن لم يصلني منها غير هذا المقطع :ـ

أيا والجسم بردان
واني اليوم عريان
ومولاى الشبيبي
وكل الناس والعالم يدري
ما بجيبي
سوى بيزة، وثلث آنات ، وقران
أيا والجسم بردان
واني اليوم عريان

وليس من شك ان محمد حسين الشبيبي قد ملأ جيوب عباس عدوه بكل ما يستطيع من النقود ، وخاط له بذلة كاملة وسرحه ، فقد كان محمد حسين ولا يزال اكرم من رأيت من الادباء واسخاهم .

وها هو ذا الشعر المسمى بالشعر الجديد اليوم يجري على نمط شعر عباس عدوه ، ويقتفي نهجه حذو النعل بالنعل .

* * *

وآخر ما نظم الشيخ جواد الشبيبي كان قصيدة نظمها

فى حفيده أحمد المظفر ابن المجتهد الشيخ (محمد حسن) المظفر وقد نشرها له الهاتف فى حينها ، واحمد المظفر [١] صبى ذكى تولع بجده وتولع جده به ، وقد جاء الى بغداد من النجف عائدا لجده وهو فى فراش المرض ومكث عنده اياما مواسيا ، وعند رجوعه الى النجف تلقى من جده كتابا وفى ضمنه القصيدة التى كانت اخر منظوم الشبيبى على ما اعلم وهى منشورة فى اواخر السنة الثامنة من (الهاتف) ، ومن هذه القصيدة التى ودع الشبيبى فيها قول الشعر وودع حفيده بها نقتطف الابيات التالية :ـ

نزل الهلال وانت تصعد	يا كوكب المجد المخلد
قسما بشرعة أحمد	انى ادين بحب (احمد)
ولد يشاطرنى الضنا	ولمثلها الاسباط · تولد
ادركت فيك توسمى	ولمست ما أملت باليد
أبنى هل من عودة	عود اللقا لاعود عود
اتبع اباك لفضله	واعرف مقام العلم تسعد
لبس العفاف وانه	عن زخرف الدنيا مجرد [٢]
عجبا يقلد بالهبات	وانه العلم المقلد
(حسن) ابوك وانه	فى كل مجتمع (محمد)

* * *

اقول ان الشيخ الشبيبى كان كثير الحنين الى النجف والنجفيين ، وكان يستقصى اخبارهم من زواره الكثيرين ، وكان اذا زار النجف مكث فيها شهرا او اكثر ، وكنت اعرف انه لايترك بيتا من بيوت جيرانه ومعارفه الا ويمر به متفقدا صغار اهل البيت وكبارهم فقد كان كثير العطف ، رقيق الحاشية لايلتقى احدا دون ان يسأله بكل ما

---

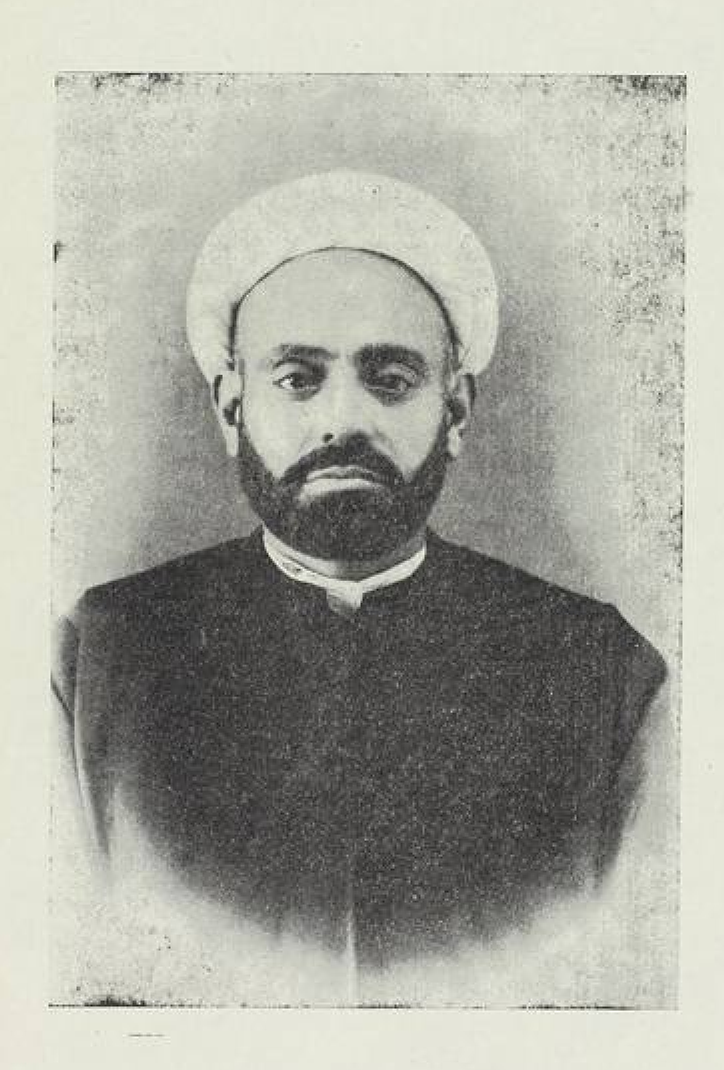
(١) هو اليوم يزاول تجارة الاقمشة بسوق المرادية ·

(٢) كان الشيخ محمد حسن المظفر من اروع العلماء واتقاهم ومن اكثرهم عزوفا عن الدنيا ·

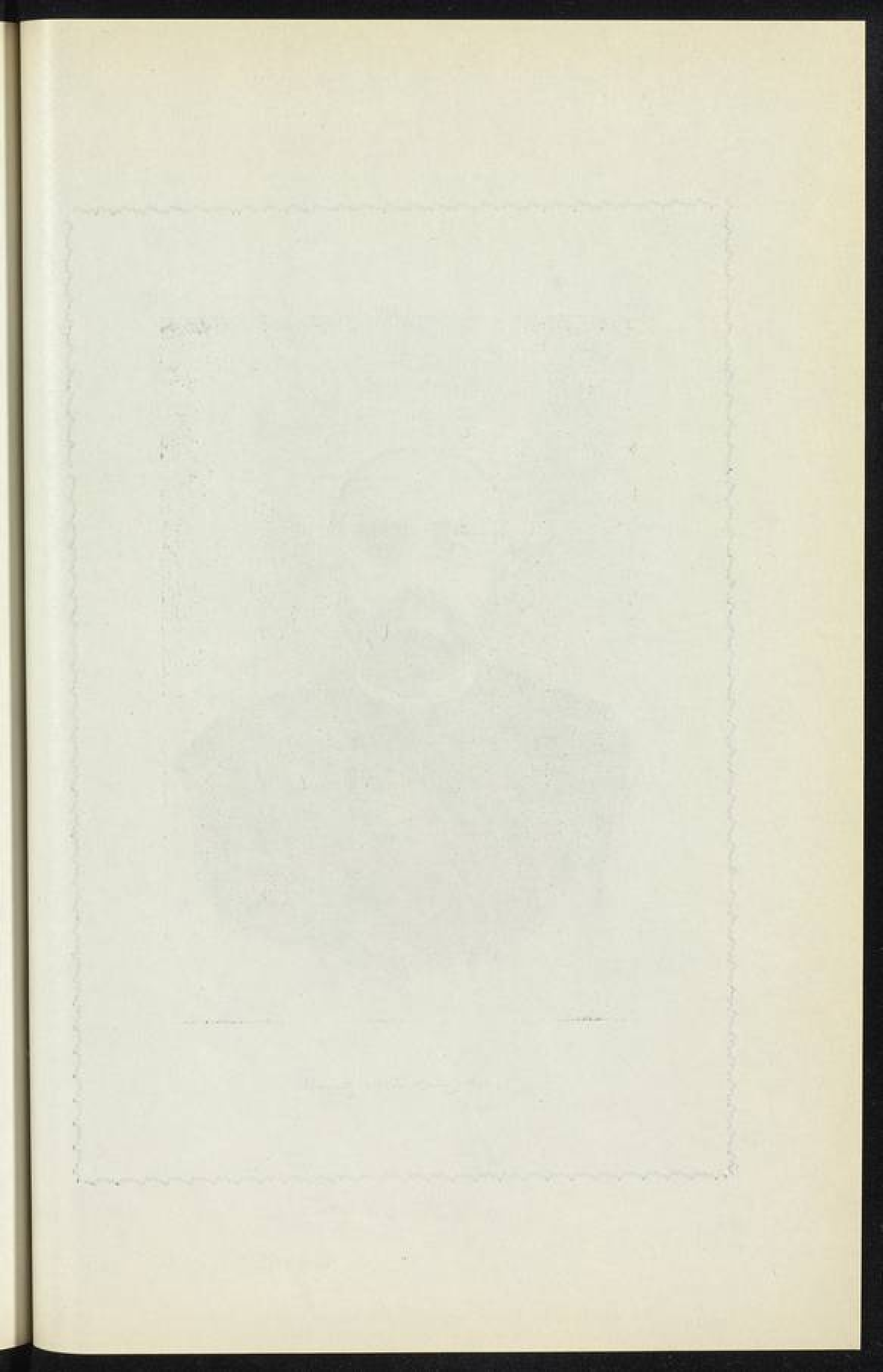
تسع له دائرة السؤال عن جميع شؤونه ، وحين يكون فى النجف تتجدد حركة الادب ، وتعمر المجالس وتصبح داره كعبة الادباء ، ومنتدى العلماء ، وكنت الازم مجلسه هذا على الغالب لانى كنت قد انقطعت عن زيارته فى بغداد (لبرودة) حدثت بينى وبين بعض اولاده لم اجد متسعا لذكرها فى هذا العرض السريع من تاريخ معرفتى به .

لقد مات الشيخ جواد الان ، وحالت بينه وبين الابصار حجب كثيفة من الظلام ولكن صورته برغم ذلك كله ستبقى ماثلة للعين والقلب بقدر ما تستطيع آثاره من الثبوت والبقاء والخلود .

لقد مات الشيخ جواد ولكنه ترك لنا ثروة طائلة من نفائس الادب ، وقلائد الشعر ، كما ترك اولادا اورثهم الكثير من مزاياه ومواهبه وملكاته .



الشيخ محمد حسن حيدر



الشيخ محمد حسن حيدر [1]

كنت فى سنة ١٩٣٠ فى عداد معلمى المدارس الرسمية ولامر ليس هذا محل ذكره اقتضى ان اكون فى (سوق الشيوخ) لمدة ٤٥ يوما فقط كنت احسب انها ستكون من اكثر ايامى ضنكا وضيقا فقد كانت لسوق الشيوخ حينذاك سمعة غير طيبة من حيث المناخ ، والمياه ، والامراض ، ولكن سمعة آل حيدر والمزايا التى اتصف بها اهل السوق عموما كانت تشغل من ذهنى حيزا كبيرا فساعد على تخفيف قلقى بعض المساعدة ، ولم اكن اعرف من تلك السمعة السابقة الى ذهنى من سوق الشيوخ شيئا ملموسا غير بعض الشعر الذى كنت قد قرأته للشيخ محمد حسن حيدر فى مجلة العرفان ، والذى نشرته له فى الفجر الصادق ، اما الشيخ محمد حسن نفسه فلم اعرف عنه الا انه خلف الشيخ باقر حيدر الرجل الذى جمع بين الرياستين الرياسة الروحانية والرياسة القبلية ، كذلك كنت اعرف ان الشيخ محمد حسن من نواب المجلس النيابى ، وكنت قد حجزت جانبا من الفندق الوحيد المعمور عند نزولى فى القصبة وهو اجمل جانب من اجمل بقعة من (سوق الشيوخ) اذ كان يطل على النهر وقد اتخذت لى منه مسكنا ومتنزها ، وفى عصر اليوم الثانى من نزولى ، وكنت قد اقتعدت كرسيا من كراسى الراحة وانا فى شبه ذهول من امر نفسى والتفكر فيها اذ دخل على ثلاثة يقدمهم رجل متوسط القامة ، صبيح الوجه ، حاد النظر ، حلو الالتفات تدل مظاهره على طيب سريرته ، وصفاء نيته ، وهو انيق فى ملبسه وعمته البيضاء ، ومذ رآنى فتح لى يديه وضمنى الى صدره ، كاننى صديقه منذ عشرين سنة واكثر ، ولا تسل عما كال لى من اللوم والتعنيف لنزولى فى الفندق ، وعدم نزولى فى بيته وراح يلح على بمغادرة الفندق والانتقال على وجه السرعة الى بيته ، وهنا عرفت

---

(١) الهاتف - السنة العاشرة العدد ٣٦٩ كانون اول ١٩٤٤ .

ان الرجل هو الشيخ محمد حسن حيدر وعرفت لاول مرة من بين اولئك الذين صحبوه السيد عبدالصاحب السيد ادريس .

وكانت جلسة استغرقت ثلاث ساعات واكثر ، قام بعدها الشيخ محمد حسن ورفيقاه وانا اشد ما اكون لهم شوقا وكان المجلس النيابي في عطلة فتكررت زيارته لي مرة ثانية ، وثالثة ، وخمسين ، ومائة واكثر وصار لايقضي اوقات فراغه من مساء كل يوم الا عندي ، والا معي حيث أكون من مجالس العزاء التي كانت لاتحصى حينذاك بسبب شهر المحرم ، وانعقاد المأتم الحسينية ، وكان الملا محمد الخطيب من اكثر الاشخاص اتصالا بنا ، وقد استدعي من (قلعة سكر) الى (السوق) لقراءة المأتم الحسيني فيه ، وقد كان لسعة اطلاعه وقوة حافظته شان مذكور في المأتم الحسينية ، والمجالس الادبية الخاصة ، وهو رجل قلما انجبت مثله (القلعة) قابلية ادبية ، وكفاية خطابية ، فكنت كثير الانس به كما كان الشيخ محمد حسن حيدر ، حتى كنا لانفترق الا نادرا ، وكنا اذا اجتمعنا فانما لنتحدث بما يؤنسنا ، ويلذنا ولم يكن الذي يونسنا غير الاحاديث الادبية والتعليق عليها بما يناسب المقام ، ولم يكن يلذنا غير التندر بالشعر والنكت ، وقد كان الشيخ محمد حسن من اكثر من رأيت ميلا للنكتة والدعابة الادبية والمساجلات الشعرية ، ولربما كان هو السبب الاكبر لمقارضتنا الشعر في مختلف المناسبات .

ورسخت صداقتنا في بحر الايام القليلة ، وبسبب هذه الصداقة قامت صداقات متينة بيني وبين اهل السوق قاطبة ، وظفرت بكنوز ثمينة من الخلق الرفيع الذي يحكيه الكثير من اهل السوق والفت البلد على رغم قصر المدة حتى غدوت وانا في السوق كانني في محيط النجف لايعوزه الا صحن ، وحرم ، وقبة ، ليكون النجف بعينه .

وسوق الشيوخ بسبب آل حيدر وما بثوا فيه من روح ادبية والاخص الشيخ محمد حسن نفسه قد اصبحت نزاعة الى الادب والشعر ، والفن ، حتى بالامكان القول بانها ثانية مدينة في الفرات بعد النجف من هذه الناحية ، وذلك لكثرة ماخلف

فيها ال حيدر من راوية للادب ، وحافظ للتاريخ ، وناظم للشعر بنوعيه القريض والعامي ....

والحق ان الفضل الاكبر يرجع الى الشيخ باقر حيدر الذي جمع بين الرياستين رياسة القبيلة الزمنية بصفته من زعماء قبايل (اجود) والرياسة الروحية بصفته من كبار العلماء والادباء كما اشرت اليه، فلقد كان له مقام مرموق في عالم الادب يهابه اجرأ الشعراء ولم يكن يومذاك اجرأ من السيد جعفر الحلي الذي كان يتهيب الشعراء مداعبته ولكن الشيخ باقر هو الوحيد الذي كتب للسيد جعفر الحلي مداعبا فلم يرد السيد جعفر عليه بشيء ، لقد كتب له يقول :

تعالوا ننشر الانساب منا ليظهر بيننا النسب الصريح
(عذاري) فكيف يطيب ريحا وهل طابت من (العذرات) ريح

والعذار قرية بالقرب من الحلة هي موطن آل كمال الدين الاسرة المعروفة ، ويضرب بغباوة هذه القرية المثل على سبيل المزاح ولكن من كان يستطيع ان يعرض بها امام السيد جعفر ، ولقد مازح السيد جعفر مرة أحد انداده الفضلاء قائلا :

من العذرات سادات العذار

فرد عليه السيد جعفر على الفور وهو يتمم له بيته قائلا :

أتسمع مايقول ابن الحمار

وكان من اهم ما امتاز به الشيخ محمد حسن نوع خاص من الجاذبية لا ادري بماذا اسميه ، اذ لايستطيع المرء ان يقف امامه دون ان يؤخذ به مسحورا ، ويعمل فيه سحر الشيخ محمد حسن فلا يلبث ان يجد نفسه في (سوق الشيوخ) رضي ام أبى وحينذاك يتلقفه (السوق) بيتا بيتا ومجلسا مجلسا ، وبدافع هذه الجاذبية وتأثير الشعر قصد الكثير من الشخصيات المحترمة والادباء مدينة (سوق اشيوخ) وزاروها من مختلف الجهات ، وتعرفوا بها ، وكان الشيخ محمد حسن حلقة ذلك الاتصال والرابطة الوثيقة بين كثير من العلماء والادباء والوجوه ، وبين أهل السوق الذين لم يكن ليكشف احد نبلهم ، وفضلهم ، لولا الشيخ محمد حسن .

وحينما غادرت انا (السوق) بعد مضى الايام المذكورة كان جل اهل السوق وابرز شخصياتهم وعلى رأسهم الشيخ محمــــد حسن فى توديعى ، فسافرت وانا لا اعرف معنى لسوق الشيوخ غير الشيخ محمد حسن نفســـه ، ولا معنى للشيخ محمد حسن غير سوق الشيوخ نفسها ، فلقد ضحى آل حيدر بكل شىء من اجـل سوق الشيوخ ، ومكانتها ، وسمعتها ، اما الشيخ محمد حسن فقد ذاب السوق فى نفسه حتى كان خير مرآة لاهل السوق جميعا بما عرف عن طيبة قلبه ، وحســـن سريرته ، وغزارة شهامته ، ونبله ، ووفرة ادبه ، ومواهبه .

ومنذ ذلك اليوم اصبحت احب سوق الشيوخ كـثـيرا لاننى احببت الشيخ محمد حسن حيدر كثيرا ، وراحت المكاتيب بينى وبين الشيخ محمد حسن تتضمن كـثـيرا مـن نـتـائج تلك المـودة حتى بـات يعنينى امـر هـــذه القصبـــة كما يعنينى امر النجف ، وعلى كثرة من أوجد الشيخ محمد حسن من اصدقاء السوق الشيوخ فقد شعرت بانى من أقرب اولئك الاصدقاء الى أهل السوق ، وتحسست بمنزلتى عندهم حينما رأيت السيد وفيق حبيب متصرف لواء المنتفك يدعونى ذات يوم من النجف الى الناصرية بصورة خاصة لازالة ماكان قد حدث من سوء تفاهم بين بعض اهل السوق وبين الشيخ محمد حسن حيدر واذا بى اوفق غاية التوفـيـق فى حسم هذا النزاع واذا بطائفة من اولئك الرفاق يسجلون للشيخ محمد حســن ماثر غراء ، ويعترفون له بافضال هى فوق افضال الاب على اولاده ، وكان لابد ان تقوى هذه الصداقة بينى وبين الشيخ بعد مزاولتى الصحافة ، فقـــد كان يحب الشعر كثيرا وكان يستغل كل مناسبة ـ بصرف النظر عن أهمية الموضوع وعـدم اهميته ـ لقول الشعر الامر الذى دعى كثيرا من الشـــعراء والادباء وغـيرهم الى مساجلته ومباراته على صفحات جريدة الراعى ، وجريدة الهاتف اللتين اصدرتهما وغيرهما من الجرائد ، والمجلات ، فكان له فيهما عدد من المقاطيع والقصائد وكان له مع البعض جولات تضمنت الشىء الكثير من الجد ، الى جانب الشىء الكثير من اللهو ، والتسلية ، وغير بعيد ، ـ على هذا ـ ان يكون له من الشعر ما يـبـلـغ عشرة الاف بيت واكثر ، وقد اعلمنى فى ايامه الاخيرة بانه اعد لشعره مجـــلدا

ضخما ، وهو شارع فى جمعه ، وتنسيقه ، وتبويبه ، وعلى رغم ابتلائه بمرض القلب منذ سنة ١٩٣٩ ونصح الاطباء له بترك النظم وكثرة الحديث ، وكثرة الاكل ، فانه ما استطاع ولا يوما واحدا ان يبدل عادته ، ويغير من سجيته ، بل صار ينشد السلوان بقرض الشعر اكثر مما كان يفعل قبل مرضه ..!! حتى لقد خفت انا عليه مغبة هذا الامر وعاقبته وخفت عليه من عدم التوقى من الاكل ، ففتحت له من صفحة (الهاتف) قاعة للمحاكمة على سبيل الدعابة واتخذت من السيد عباس شبر (مدعيا عاما) ، ومن الشيخ جعفر نقدى (حاكما) ، ومن عدد من الاباء محلفين ، وأقمت الدعوى عليه من قبل المدعى العام ، اما وجه الادعاء فقد كان يتلخص فى ثلاثة امور ، الاول الشكوى من كثرة نظمه ، وقوله للشعر وهذا مما يجهده فكرا فضلا عن ان السرعة فى النظم والاكثار من الشعر قد يجعل الركة - رضى الشاعر ، ام ابى - تطغى على خيار شعره وتذهب بحسناته ، والثانى لعدم توقيه واتخاذ الحيطة ونسيان نصائح الاطباء اذا ما مد الخوان وصفت الصحون بالمآكل الشهية ، والثالث لما عود نفسه عليه من مجاملة الناس والتواضع للحد الذى يسيىء الى شخصيته .

وافترضت له دفاعا مطولا نشر فى جريدة (الهاتف) وقد صدر الحكم باداته ، والى هذا (الادعاء) والمحاكمة يشير السيد محمد جمال الهاشمى فى قصيدته الموجهة للشيخ محمد حسن حيدر من قوله :

ابا جواد ان هزلت بعد ذا	عفوا فقد يذهب بالهزل الضجر
ظرافة الاديب ان تهيجه	بنكتة فيها من اللطف صور
يا ليت شعرى هل لما جاء به	(هاتفنا) عين لديك او اثر ؟
وهل من (الاكل) مرضت مثلما	اورثك (الشعر) هزالا وخور
حقا علينا ان نقيم ثانيا	عليك دعوى عند(قاضينا) الاغر...الخ

وقد ادت مناقشة رفع الحصانة عنه فى البرلمان ومحاكمته من قبل المجلس العرفى الى هياجه هياجا نفسيا صاخبا والى ثورة عصبية عملت عملها فى جسمه وجعلت المرض يمشى فيه مشية سريعة .

وحين صدر الحكم ببراءته واستعاد بعض عافيته عرج على النجف فاحتفل به الاصدقاء والشعراء حتى تجاوز عدد الحفلات العشرين وقد تليت في كل حفلة عدة قصائد تحولت النجف فيها الى مهرجان ادبي في تلك الايام وفي ختام تلك الاحتفالات المتواصلة والولائم المتابعة القى الشيخ محمد حسن قصيدة لعلها من احسن شعره واجوده وكانت بمثابة شكر على تلك الحفاوات الادبية وكان من ملح ذلك المهرجان منلوج فكاهي شعبي نظمه عبدالمنعم العكام واستهله قائلا : « ماش ... ماش » واورد فيه على هذا النمط قوافي مضحكة صعد بها الى وزير المالية (شلاش) ونزل بها الى حسن (الفراش) فراش مدرسة العكام وضمنها الكثير من القوافي الاخرى ذات الارتباط بالمحيط النجفي ومحيط سوق الشيوخ .

ومن اهم ما قرئت في تلك في تلك المجالس قصيدة للسيد محمد جمال الهاشمي وقد قرأها في الحفلة التي أقمتها انا للشيخ محمد حسن في بيتي وجاء منها :

تسابق القلب عليك والبصر　　فحاز كل منهما بك الظفر

يا قمر الفضل الذي لاتختفي　　آثاره عنا وهل يخفى القمر ؟

ان قصر اليراع في تكريمه　　فعذره قصوره اذا اعتذر

* * *

واينما حل الشيخ محمد حسن يهيجها ثورة ادبية صاخبة في اغلب الاحيان فهو حينما يكون في الحلة يتناولها بما تستحق من ثناء من حيث صفات اهلها وما جبلوا عليه وما يستحقون من تعنيف ولوم جزاء اضاعتهم لمواهبها الادبية واهمال ناحية الشعر التي كانت من ابرز نواحي الحلة مستعرضا في شعره (آل القزويني) واثارهم ، فينفرج هذا التحرش عن ثورة تشمل الكثير من شعراء الحلة وفي مقدمتهم كان الشيخ عبدالرزاق السعيد .

وحينما يكون في البصرة يحاول ان يبني من الحبة قبة في مزاحه فيهيج طائفة من العلماء ، والفضلاء ، وفي مقدمتهم السيد عباس شبر والسيد محمد علي الكاظمي من اجل (عصا) اضاعها عندهم لا أظن قيمتها كانت تبلغ ثلاثة دراهم او اكثر قليلا ولكنه أنزلها منزلة عصا موسى واكثر ، فنظمت الاراجيز والقصائد وتناولتها بعض

الجرائد واشترك فى تلك المعركة شعراء اخرون من مدن اخرى ، وفى طليعتهم كان الشيخ جعفر نقدى من العمارة .

وعندما يمر بالنجف ـ وكثيرا ما يمر بها ويقضى فيها اكثر ما يستطيع من اوقاته ـ يشعر الكثير من الادباء بحركة غير اعتيادية تدفعهم الى الملاطفة ، والمداعبة ، والمساجلات الشعرية ، والمباراة الادبية ، من تشطير ، وتخميس ، وغير ذلك ، ولم يكن هناك من سبب غير وجود الشيخ محمد حسن الذى يحب الشعر كثيرا ، ويحول بين ركوده ، وخموله ، حيلولة ، قوية ، فعالة .

ولقد وقفت ذات مرة على مراسلات شعرية له تناول فيها الشيخ عبدالغنى الخضرى بهجاء غاية فى الضحك ، وغاية فى الدعابة ، وذيلها بتوقيع رمزى واتخذ له رسولا امينا على سره ، فكان هذا الرسول ينقل قصائده الشعرية الى الشيخ عبدالغنى ، ويجىء منه بالردود دون ان يعرف الشيخ عبدالغنى مهاجمه ، ودون ان يدرى من اين يأتى هذا الرسول الذى اقسم ان يظل حافظا لهذا السر حرمته الى الابد ، واحسب ان السر لم ينكشف لحد الان ، وهكذا فعل مع محمد على الحومانى الشاعر ، ومن هذا النوع كانت قصيدة بعث بها من سوق الشيوخ الى طائفة من اصدقائه تناولهم بها فاطلق عليها الاصدقاء اسم (يرملون) وراحوا ينظمون على منوالها ولم يعرفوا قائلها الا بعد زمن ..

ومن طرائف الشيخ محمد حسن حيدر الادبية طريفة نشرها (الهاتف) فى العدد **٣٢٩** من السنة التاسعة تضمنت ـ دعوى ـ شعرية اقامها الشيخ ضد السيد حمودى عبدالمجيد مدير معارف لواء الناصرية (الدكتور حمودى عبدالمجيد اليوم) لدى حاكم صلح سوق الشيوخ السيد عبدالحميد على مشتركا مع السيد سعيد كمال الدين قاضى شرع الناصرية طالبا منهما الحكم على (حمودى) باقامة وليمة كبيرة لعدد من الادباء وفى ضمنهم السيد كاظم القزوينى مدير ثانوية الناصرية ، وتقى الشيخ راضى مدرس الثانوية ، وعدد من ادباء سوق الشيوخ ، لان (حمودى) كما يقول الشيخ محمد حسن كان قد اتصل به تلفونيا من الناصرية واخبره بان جماعة من رجال المعارف ، وعلى رأسهم حكام الناصرية وقاضيها والسيد حمودى من ضمنهم سيتناولون

طعام الغداء عند الشيخ محمد حسن بسوق الشيوخ غدا من نهار الجمعة وقد اولم الشيخ محمد حسن على مجرى عادته - وليمة فاخرة حضرها جميع من ذكر فى الموعد المعين الا (حمودى) الذى حالت بين حضوره بعض المشاغل كما قال .

وقد رتب السيد عبدالحميد على ، والسيد سعيد كمال الدين مجلسا ادبيا خاصا لمحاكمة السيد (حمودى) ، وصدر القرار بوجوب قيام السيد (حمودى) بدعوة جميع الادباء الى وليمة عين الحاكمان لونها ، وصنفها ، وزمان اقامتها بالتفصيل وقد عز على السيد حمودى ان ينفذ هذا الحكم فدافع عن نفسه واعترض على الحكم حتى رضى الحاكمان بان تميز الدعوى عند جريدة الهاتف .

وكتب الشيخ محمد حسن الى الهاتف يصف له اصل الدعوى فى ارجوزة لطيفة ، كما كتب السيد حمودى شرحا كافيا لقصته ، وهذه قطعة مختزلة من ارجوزة الشيخ محمد حسن المتضمنة عرض القضية .

شكرى الى الوزارة النبيلة … وزارة المعارف الجليلة
اذ انها اختارت لنا (حمودى) … يسير بالنشء الى التجديد
فالكل منا شاكر لفعله … مقدر وذاكر لفضله
لكنه نادى بصوت الهاتف … ذات ضحى من (شعبة المعارف)
يقول لى غدا نهار الجمعة … يجيئك الجمع واننى معه
فقمت بالواجب تلك الساعة … منتظرا تشريفة الجماعة
فحضروا كلهم الا هو … لم ادر اى شىء اعتراه
فحكم الحاكم فورا وله … قد قرر (القاضى) وما امهله
حكما عليه لثبوت الجرم … حسب شهادات جرت بعلم
حكما حوى شرائطا مرضيه … مقبولة فى نظم العدلية
بان يقيم عنده للصحب … وليمة من مأكل وشرب
جامعة لا حسن المأكل … ترضى جميع اخوتى الافاضل
وبعد ما بلغ بالقرار … تأثرا اصيب بالدوار
ولم يجد من حجة لديه … برد دعوى المدعى عليه

قال اذن اميز القرارا قرار حاكم الجزا جهارا
عند خليلي (جعفر الخليلي) فهو الذى يهدى الى السبيل
لابد ان يحكم بالعدالة ولم يغير ابدا اقواله
فاحكم بما تراه حكما صادقا مناسبا الى المقام لائقا

ونظرت انا باسم (الهاتف) فى هذه الدعوى وقد رددت الحكم ، وطلبت من المحكمة ان لاتكتفى بالحكم على (حمودى) وحده بل عليه ، وعلى (تقى الشيخ راضى) [1] الذى اعتبرته مسؤولا عما وقع (لحمودى) من مخالفة وقد تألف حكمى من ارجوزة على نفس النسق وهذه بعض ابياتها الصادرة باسم مجلس التميز .

* * *

وقد تلا الحكم الذى قد صدرا منكم وقد احاط بالذى جرى
فلم يدع بندا من البنود مما ادنتم بها (حمودى)
الا وفلاها بكل دقة لم يكترث بالجهد والمشقة
فصدر القرار بعد النجوى برد ما كان لكم من دعوى
والعود للتحكيم من جديد عند (حميد) الحاكم الرشيد
فاننا نعلم فيا نعلم ان تقى الشيخ راضى مجرم
وان اصبعا له فى الامر ان كنت لا تدرى فانا ندرى
مشاغب من الطراز الاول يحسن خلط جده بالهزل
غير بعيد ان يكون السببا فى الجرم ان لم تعتبره المذنبا
هو الذى جنى على (حمودى) ولج فى اقامة الحدود
فليس حكمكم من الانصاف ان يوخذ الواحد بالخلاف
ويترك الاخر يمشى حرا مستهزئا بالعدل مشمخرا
وباختصار ان ما نراه ان ينظر الحاكم فى دعواه

(١) المفتش بوزارة المعارف اليوم .

فيصدر الحكم على الاثنين مشتركين فى اداء الدين
بأكلة لذيذة وجيده يحضرها صاحب ذى (الجريدة)

وتوسعت هذه القضية وعلق عليها الكثير بالاراجيز ودامت نحو بضعة شهور تطوف المدن وتهيج فيها القرائح بقصد التسلية ، وكلها بداعى روح الشيخ محمد حسن حيدر المرحة ، وحبه للشعر .

ووجه الشيخ محمد حسن الى (الهاتف) دعوة باسم ادباء سوق الشيوخ لقضاء اسبوع في قصبة السوق ولقد لبيت الدعوة وقضيت اسبوعا كاملا وسط مهرجان ادبى اقيم طوال الاسبوع لتكريم (الهاتف) تلا فيه حمدى ال حمدى ، وسالم الحسون ، وعبدالحميد السنيد ، والشيخ محمد حسن حيدر نفسه ، وعدد آخر من ادباء السوق قصائد عاطفية رقيقة نشرها (الهاتف) فى سنته التاسعة وسميت تلك المهرجانات الادبية — التى اسهم فيها حتى الادب الشعبى الرفيع الذى انطلق به السيد عبدالصاحب السيد ادريس فى قصيدة عامرة — باسم (اسبوع السوق) فأعاد (سوق الشيوخ) ذكرى (سوق عكاظ) وهاجها ثورة ادبية مشتعلة وسط صفوف من الموائد التى اقامها عدد من كبار اهل السوق بهذه المناسبة واعتبر (اسبوع السوق الادبى) فاتحة عهد جديد لادب سوق الشيوخ الذى ابتدأت تتناقله الصحف منذ ذلك اليوم وتشير الى قيمته .

* * *

وليس هذا وحده الذى جعل الشيخ محمد حسن معروفا فى اغلب المدن العراقية وعند جميع الشعراء والادباء بكونه حركة فعالة فى بعث الروح الشعرية من مرقدها وخلق جو شعرى اينما حل ، وانما هناك صفات عرف بها بين جميع اقرانه ويعرفها كل من كانت له اليه حاجة ، وكل من استعان به على امر ، فقد كان كثير الاهتمام بشؤون مدينته وسكانها ذلك الاهتمام الذى كان يحمله على التحدث عن (سوق الشيوخ) والذب عنها فى كل وقت واذا لم يكن الوقت مناسبا سهل على الشيخ محمد حسن حيدر ايجاد المناسبة لرفع شأن هذه المدينة ، ولفت الانظار الى حاجتها من عناية الحكومة ، سواء كان ذلك امام البرلمان او امام اهل العقد ، والحل من رجال

الحكومة ، او فى معرض الشعر والادب ، حتى لقد صار احق بالتصاق صفة مرض (الذات) من السيد عبدالوهاب الصافى .

وصفة السيد عبدالوهاب الصافى - وقد كان معتمدا لجمعية (الرابطة) فى النجف - تتلخص فى انه كان لايترك حديثا يمر دون ان يحشر فيه اسم (الرابطة) والدعوة للاهتمام بها والسعى لمساعدتها ، الامر الذى جعل الشيخ محمد اضا الشبيبى يقول عنه قولا فيذهب مثلا -

لقد قال الشبيبى ان الامراض المبدوءة (بالذات) اربعة .

١ - ذات الرئة ، ٢ - ذات الجنب ، ٣ - ذات السحايا .

اما الرابع فهو (ذات الرابطة) وهو المرض الذى يلازم السيد عبدالوهاب الصافى ويحمله على ذكر (الرابطة) فى كل مكان وزمان اقول لقد كان الشيخ محمد حسن حيدر احق من السيد عبدالوهاب الصافى بهذا النعت لكثرة ما اذاب نفسه فى خدمة هذا البلد . وكثرة ما كان يتردد اسم سوق الشيوخ على لسانه وملاحقته لرجال الدولة فى الاهتمام برى البلد وزراعته وسوقه واليه وحده ينسب هذا الفضل فى التفات السلطات لوضع بعض الخطط فى تأسيس (النواظم) واشغال سوق الشيوخ بعض الحيز من اهتمام الحكومة بمشاريعها فكان احق بان يعتبر مصابا بمرض (ذات الشيوخ) .

كان الشيخ محمد حسن مرآة لعدد من الصفات الحميدة وكان مثلا من امثلة الوداعة والطيبة وحسن النية اضافة الى ما عرف به من السخاء بالنفس وبما يملك او ماهو تحت يده .

لقد كنا عنده ذات ليلة (بسوق الشيوخ) وقد طابت ليلتنا وعذبت وكان وجود السيد محمد جمال الهاشمى الذى كانت الشاعرية ، والظرف ، والعذوبة ، تطغى عليه يومئذ اكثر من اى لون آخر من الوان التصدى للضلاة بالناس والانصراف الى دراسة الفقه انصرافا كليا فينشرح صدر الشيخ محمد حسن فى تلك الليلة ويتغلب على الهاشمى فيما يكيل له تعريضا من نظم مرتجل واسجاع فكاهية مضحكة ، وارتج على الهاشمى المعروف بسرعة البديهة فلم يستطع ان يأتى بالجيد من الشعر

المرتجل بالهجاء المستساغ قبال الشيخ محمد حسن ، فظل الشيخ محمد حسن يعلو فى هجومه الشعرى ، وظل السيد محمد جمال يهبط حتى فشل فشلا ذريعا .

واقترح هناك المقترحون ان يتحول هذا السمر الى لون آخر من التهاجى ليس له بالشعر من صلة غير صلة المعنى وذلك بان يأتى احدهم بصفة فيأخذ الاخر الحرف الاخير منها ويأتى بالرد عليها بصفة مبدوءة بذلك الحرف كان يقول احدهم للاخر :

– بليد .

– فيجيبه الاخر .

– دلو .

– ويقول له –

– واوى

فيجيبه

– يزيد بن معاوية .

وهكذا يتخذ آخر حرف من الكلمة مبدأ تراعى فيه الحدود المعينة ، وهى لعبة شاعت بين جماعة من الادباء ، وتوسعت حتى حدد لكل مساجلة منها حدود معينة ، كان تكون المساجلة مقتصرة فى تلك الجلسة على المديح ، او المهاجاة ، او الصناعة والحرف ..!! أما النجاح فيها فلمن يكون اوسع افقا فى عالم اللغة والادب ، واكثر انشراحا ، وتجاوبا للوقت ، واغلب ظنى انى انا الذى ابتكرت هذه التسلية فشاعت يومها بين بعض الادباء .

وفى هذه المساجلة فشل السيد محمد جمال الهاشمى ايضا وتغلب عليه الشيخ محمد حسن حيدر للمرة الثانية وكان الشيخ محمد حسن قد ابدع فى تلك المساجلة لما اتى به من طرائف النعوت والصفات المضحكة كل الابداع ونمت على وجه الهاشمى بعض الادلة من الخذلان فقام اليه الشيخ محمد حسن مستغفرا لا لانه قد بدر منه ما يخالف القواعد ، وانما لمجرد استظهاره على الهاشمى اجل لقد قام اليه معتذرا ومستغفرا وامسك بيده وقبلها عدة مرات ، ولم يتركه حتى اكد له السيد محمد الهاشمى بان المساجلة لم تترك فى نفسه الما او اذى او اى شىء مما

يجرح شعور النفس ، وانما هو الفشل الادبي وحده ... ومع ذلك فلم ينم الشيخ محمد حسن في تلك الليلة حتى اطمأن بان السيد الهاشمي قد نام ملء جفنيه وليس هناك ما يكدر خاطره ...

وحين اهدى لى الصديق السيد مير على ابو طبيخ (دلة) قهوة مصحوبة بقصيدة، اهدى لى الشيخ عبدالحسين الحلي من البحرين (دلة) من قريض ، وهى اول دلة شعرية في عالم الادب وفي هذه القصيدة عزاني الشيخ عبدالحسين بفقدى ابنى (هاتف) وتعرض للشعراء الذين كانوا قد عزوني بشعر اعتبره الشيخ عبدالحسين الحلي بمثابة(بغلة) اوقفوها الى جانب عدد من (نجائب) الشعر فكانت قصيدة الشيخ عبدالحسين قصيدة عامرة وقد تنقل فيها ، وابدع في التنقل الذى شهد براعته من غزل ، الى نسيب ، فمدح فرثاء فنقد ، فقال من جملة ما قال :ـ

يا (خليلي) وذا الذ نـداء	من خليل اذا يخاطب خله
انت من بعض فضلك القوم تجنى	لبنيها ونفسها افضل كله
انت احجى من ان تعزى بشعر	ما اقل الحجى اذا وأضله !!
لك من نفسك الكريمة سلوانا	وعرفانك التسلي وفضله
تلك اهدى (نجيبة) من نجيب	اوقفوا قبلها ببابك بغـلة
البسوها من العويل ثيـابا	وسقوها من واكف الدمع وبله
وحشوها من القديم حديثـا	ما اجادوا ولا استجدوا اقله

الى ان يقول :

ليت كانت هديتى لك (دله)	ذات نهد يزين صدر (المجلة)
فادعهـا دلـة لتغني صبا	في هواه عن نضد اقوى الادلة
واقترضها ان شئت دلة تبر	رب فرض يطغى وينقع غله
واذا شئت سبكها من قريض	لم تصعب فدلة الشعر سهلة
واذا لم يصغ من الشعر ابريق	لماذا قد خيط او حيك حله ؟
هى ذى (دلة) تصاغ قريضا	لا بفرض ولا بطرق وشـعله
لبست من ثواقب النجم تاجا	واعارت مصبهـا للاهلة

وهاج وصف الشيخ عبدالحسين الشعراء وهاجهم طعنه في شعرهم فردوا عليه بقصائد ومقاطيع وكان من اولئك الشيخ محمد حسن حيدر الذى نظم قصيدة فى اكثر من خمسين بيتا امتدح بها الشيخ عبدالحسين الحلى واعترف بعجزه عن اقتفاء آثاره ولكنه قال رادا :

يا (خليلى) وتلك دعـوة مضنى بك والشـوق فى هـواك أعـله
قد قرانا (بهاتف) الحق شعرا مـن رثاء او مـن قريض بدله
طربا همت فى معانيه حتى لمغـانيك مـن ضنـاه ابـله
لك وافت هدية من (نجيب) حسب المهـر فى المضامير بغـله

وعز على الشيخ محمد حسن حيدر ان يرى كل واحد يهدى شيئا للهاتف وهو لايهدى فقال :ــ

هو يهدى اليـك دلـة تبر او لجين مـن الصفاء ـ وخـله
واخوك الوفى يملك نخلا وهو يسخو متى اردت (بنخله)
هـذه دلتى اليـك فخـذها فهى تسقيك من سـلافة زحـلة

والنخل الذى يشير اليه الشيخ محمد حسن هو كلما يملك مما تركه لـه اباؤوه من بساتين واراضى واسعة ما لبثت ان تحولت الى نفقات انفق ابوه جلها على الناس وانفق الباقى الشيخ محمد حسن نفسه وصار يدلل بما بقى لكى ينفقه عـلى الغير استجابة لسخاء نفسه •

قال لى السيد عبدالمهدى المنتفكى فى اثناء تشييع جنازة الشيخ محمد حسن حيدر قال :

لقد وجدت الشيخ محمد حسن كثير التأثر وهـو على فـراش المـوت فى المستشفى حين سمع ان الناس كانوا يندفعون الى التبرع للمدرسة الجعفرية ببغداد وهو لايملك شيئا يجاريهم بالاندفاع ، فامسك بيدى وقال : لى اليك حاجة يا سيد عبدالمهدى ، وارجو ان تحققها لى وهى انه قد بقى لى من كل الذى كان وما خلفـه السلف من ذلك الارث بستان يبلغ معدل ايراده السنوى خمسة واربعين دينارا فاذا مت فكل رجائى هو ان تتولى عنى اهداء الثلث الذى يخصنى من هذه البستان الى

المدرسة الجعفرية ولا تأخذك الشفقة فيمن كان يجب ان ينفق عليهم هذا البستان وايراده .

لقد عدت في اواخر صيف ١٩٣٩ من لبنان فوجدت الشيخ محمد حسن بمنزله في الكاظمين وقد علت وجهه صفرة باهتة وبدت آثار وعكة على محياه وقبل ان اسأله عن حاله قال :

ـ « اخي جعفر ... اوشكت ان اموت بعدك »

لقد قال ذلك بنبرة عاطفية فكأنه فرى قلبي بمدية ، ومنذ ذلك الحين لم يبرأ الشيخ محمد حسن من علته ، ولم يشف من مرضه على رغم العناية الكبيرة التي كان يبذلها الاطباء ، ذلك لان الشيخ محمد حسن كان مرهف الحس ، سريع الغضب يثور لاقل حادث ، ولانه كان من جانب آخر كثير الاهتمام بالناس شديد الوفاء للصديق . وكان من آية هذا الوفاء انه رقى منبر تأبين الشيخ جواد الشبيبي وهو في اشد حالات المرض ، وتلا قصيدة في رثائه ولم يفد معه نصح الناصحين وعذل العاذلين .

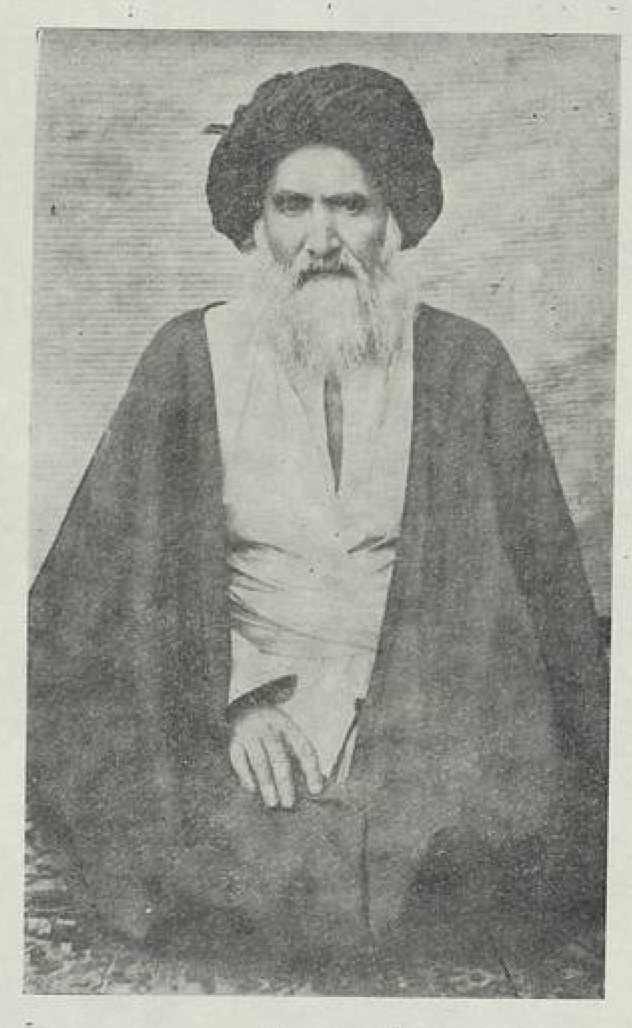
وساءت صحته يوما بعد يوم منذ ان رفعت عنه الحصانة النيابية واحيل الى المجلس العرفي للمحاكمة ، ولقد نظم عن مرضه وعما يكابد من علل وامراض شعرا كثيرا وصور خيبة أمله بالاطباء في اكثر من موضع واحد من قصائده ومن ذلك هذه الابيات المقتطعة من قصيدة كبيرة :

كم من طبيب بانواع العلاج على	يديه عالجت اسقامي ليبريني
فما وجدت علاجا ناجعا ابدا	بطبه مذ به اضحى يداويني
فالسقم لم يبق من قلبي ومن كبدي	الا بقايا براها بري سكين

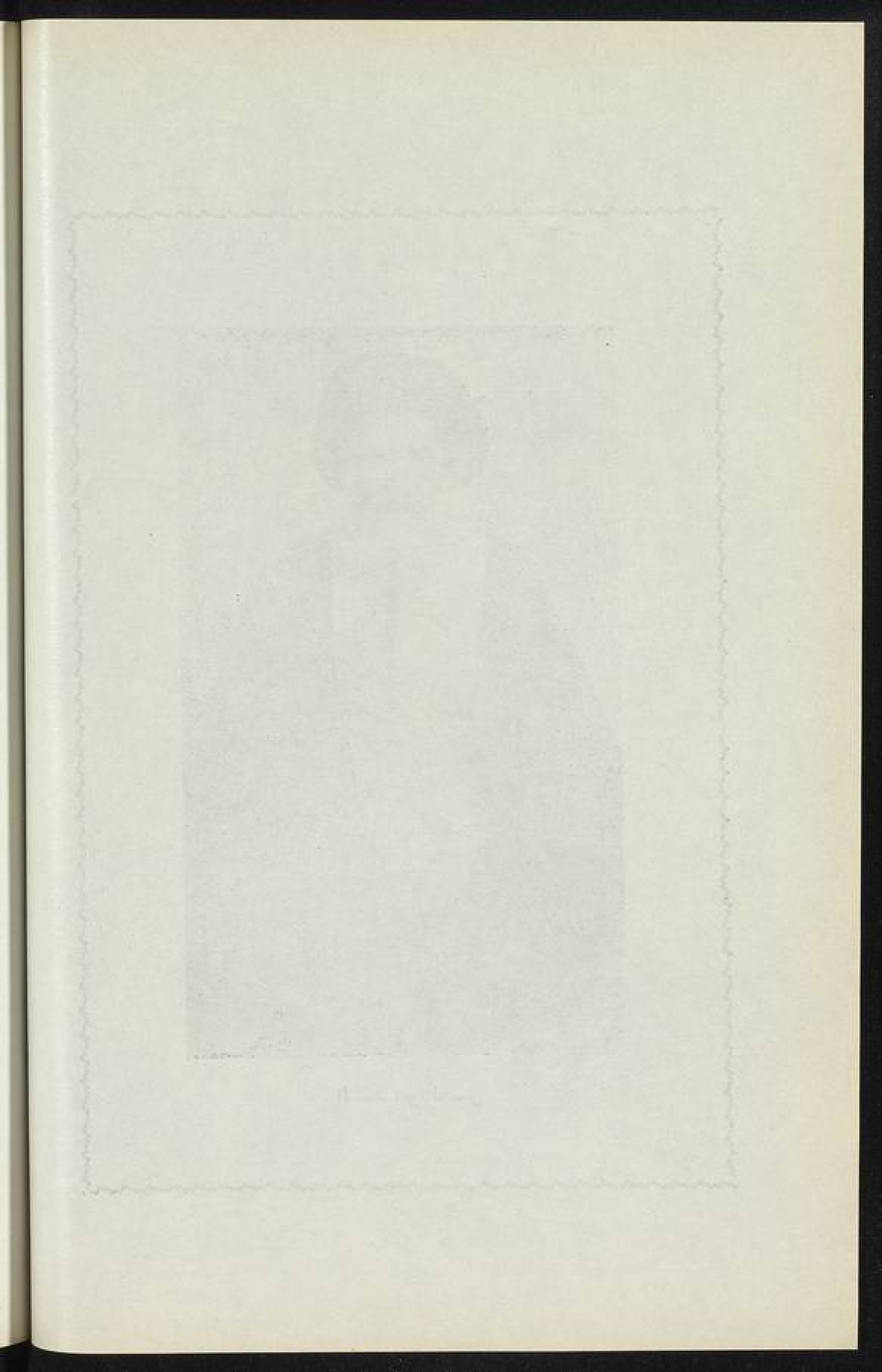
ولم يزل يمشي به المرض حتى لازم المستشفى زمنا ثم لازم بيته ، وكنت على صلة دائمة به وقد تولى السيد حمدي ال حمدي الاجابة على برقياتي ومكاتيبي حين عجز الشيخ محمد حسن ان يكتب ، وبلغني انه في مرحلته الاخيرة ، وحين ازمعت النية على السفر الى السوق لزيارته ابرق الى حمدي ال حمدي بالتأخر لان المصلحة اقتضت بنقله من السوق الى بغداد ، وحين صممت على السفر الى بغداد ، فوجئت

بخبر وفاته ونقل جثمانه الى مقره الاخير في النجف حيث مشيت مع المشيعين خلفه .

لقد فقدت بموته صديقا نبيلا وفيا كريما طالما انست بروحه الطاهرة ، فكان لموته وقع عظيم على نفسي وكان من اثره انى ظللت لا اغمض جفني فى كل ليلة الا على ذكراه الطيبة وهما مبتلتان بالدموع تلك الذكرى التى طالما ملأت قلبي دعة ونفسي هناء ، وفراغ ايامي مسرات .



السيد ابو الحسن



السيد أبو الحسن [1]

يرجع اول معرفتی بامام الشیعة الکبیر السید ابی الحسن الموسوی الاصفهانی الی ایام الطفولة التی تبلی الاعمار ولا تبلی ذکریاتها ، تلك الایام التی کنت اجلس انا وابنه الشهید (السید حسن) علی مقعد واحد فی المدرسة العلویة بالنجف ، وکنت ککل التلامیذ شدید الحرص علی ان یکون زملائی من الاولاد الاذکیاء المبرزین ، او من اولاد الذوات ، فکنت اذا لم اهتم بزمیلی من حیث نبوغه ، ورجاحة ذکائه ، اهتممت به من حیث نسبه ، وحسبه ، وقد قیل لی عن هذا الزمیل ، ان اباه عالم من العلماء ، وانه امام جماعة یأتم به بعض الصلحاء ، ولقد اتیح لی ان اری والد زمیلی هذا مصلیا فی جهة باب الفرج من الصحن الشریف فی النجف ، وهو المکان الذی یقع خلف مصلاه الاخیر بنحو خمسین قدما ، فرأیت فیه رجلا متوسط القامة ، نحیف البدن ، ذا لحیة تتناسب مع صورة وجهه ، وعمامة سوداء تتناسب مع رأسه ، وقد ائتم به صفان من الرجال ، لا یزید عددهم علی عشرین مصلیا ، عرفت منهم یومذاك التاجر الحاج عبدالرحیم البو شهری ، والحاج اغا احمد الملا زکی ، عرفتهما لانهما کانا من اعضاء المدرسة العلویة ، وکانا من انشط العناصر الآخذة بساعد المدرسة المذکورة التی درست فیها ، وهما اول شخصین دفعا بالسید ابی الحسن الی التقدم للصلاة والزعامة ، اما الباقون من المؤتمین فقد کانت هیا تهم المختلفة تدل علی تناقضهم من حیث قیمتهم الاجتماعیة ، وظللت کلما دخلت الصحن عند الغروب رأیته فی المکان نفسه مصلیا علی فراش متواضع ، وسجادة بسیطة من المنسوج الرخیص ، فیأخذنی شیء من الخیلاء والزهو لان لی صدیقا ابوه عالم ، وامام جماعة ، فکأنی لم ار عالما من قبل السید ابی الحسن ، وکأنه لیس لی فی اسرتی اکثر من عالم ، وکان

---

(١) الهاتف ـ السنة الثانیة عشرة ـ العدد ٤٣٦ تشرین الثانی ١٩٤٦ .

زميلي (السيد حسن) هذا معوزا ، ولم يكن حالي باسعد منه لو لم اكن مجهزا باللوازم المدرسية والكتب تجهيزا على قلته احسبه كان قريبا من سد الحاجة ، وكان ذلك سببا لاستعارة بعض الزملاء مني بعض تلك اللوازم في اغلب الاحيان .

وذات مرة ذهبت الى بيت زميلي هذا ، وكان يسكن احد بيوت آل الشهرستاني بالقرب من سوق العمارة ، لاسترد كتابا لي لا ازال اذكر انه كان كتابا في (العقايد الشرعيه) وهناك رأيت اباه العالم وجها لوجه ، فقد فتح لي الباب بنفسه ، وكم سرني ان ارى العالم الرباني يكلمني ، بل كنت فخورا اذ اتيح لي الكلام مع عالم علوي هاشمي مع ان في اسرتي عددا من العلماء لم اعبأ بهم .

* * *

ولا ادري الى كم ظل المؤتمون بابي الحسن معدودين لاتزيد صفوفهم على صفين ، ولكن علمت ان آل (الاخوند) كانوا يؤيدونه بكل ما يملكون من قوة ، ومن ورائهم بعض طلاب العلم الذين يحضرون درسه ، ولعل لتأييد آل (الاخوند) علاقة بتلمذة السيد ابي الحسن على يد ابيهم الاستاذ الاكبر الشيخ ملا كاظم الخراساني المعروف (بالاخوند).او لعل له علاقة بوفائه لابيهم ، ذلك الوفاء الذي تجلى في ساعة عسره واملاقه بابهى مثال ، واجمل صورة ، فقد بلغ السيد كاظم اليزدي وهو من مناوئي (الاخوند) يومذاك بسبب الفتوى المتضمنة وجوب اقامة الدساتير البرلمانية في الحكومة الاسلامية التي عرفت بحركة (المشروطة) ، اقول لقد بلغ السيد كاظم اليزدي ما هو عليه السيد ابو الحسن من عوز وفاقه عظيمين ، فارسل اليه بعشر ليرات ذهبية وهو مبلغ له قيمته المادية يومذاك ، ليسد به بعض حاجته ، فلم يستسغ السيد ابو الحسن ، — وهو على ما كان عليه من املاق — ، ان يتناول هذه المساعدة من يد منافس لاستاذه (الاخوند) وان كان غيره لم ير في ذلك بأسا ، فلقد استمال السيد كاظم اليزدي عددا كبيرا من تلامذة منافسه المقربين باعاناته ، وعلى رغم تأييد المؤيدين للسيد ابي الحسن فقد ظل عدة سنوات لايزيد على كونه امام جماعة صغيرة ، واستاذ حلقة اصغر ، وواحدا من عشرات الائمة والاساتذة الذين تعج بهم النجف يومذاك ، اللهم الا بعض مميزات كان ينفرد بها ، من قبيل نزوعه الى الحرية ،

وتشجيعه للاحرار ، والتبسط فى القواعد الفقهية ، والتمسك بالجانب السهل السمح من الاحكام الشرعية ، ومع كل ذلك فلم يكن من الاعلام الخفاقة قبل ان يحيل المرجع الاكبر الناهض بالثورة العراقية ، الشيخ محمد تقى الشيرازى بعض الامور الشرعية اليه ، فقد كان الشيرازى كثير الاحتياط فى اعماله الشرعية حتى لقد كان يحرم لبس (الشعرى) على الرجال ، والشعرى نوع من النسيج يأتى من الشام قيل ان جميع سداه ولحمته من الحرير الخالص ، فضاق مقلدو (الشيرازى) ذرعا باحتياطاته الكثيرة لاسيما فى لبس (الشعرى) المألوف لبسه حينذاك فى اوساط التجار والاعيان فرجعوا اليه يطلبون منه تعيين من يرجعون اليه فى احتياطاته اذا لم يستطيعوا التمسك التام بتقليده فدعا الشيرازى وهو المرجع الاعلى حينذاك الى احد اثنين هما شيخ الشريعة ، والسيد ابو الحسن ، اما شيخ الشريعة فقد كان فى مصاف الشيرازى ، وانداده علما واجتهادا لذلك لم تكن الدعوة له كبيرة الفائدة فى شهرته واما السيد ابو الحسن فقد نال من هذه الدعوة شهرة مكنته من ان يخطو خطوة واسعة فى ميدان الظهور ، ومنذ هذا اليوم اى منذ اشارة الشيرازى بالرجوع للسيد ابى الحسن والعمل فى المواطن الشرعية برأيه بدأ نجم السيد ابى الحسن يتألق ، وبدأت صفوف المصلين والمؤتمين به فى صلاته تزداد يوما بعد يوم ، ثم انضمت اليه بعض العناصر اللامعة فزادته ظهورا وجلاءا .

* * *

وقامت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وارتفع صوت الامام الشيرازى بوجوب الدفاع عن حرية البلد ووجوب طلب الاستقلال فكان صوت السيد ابى الحسن اعلى صوت بعد صوت الامام الشيرازى وبعد صوت الامام شيخ الشريعة ، واصبح للسيد ابى الحسن اجتهاده الخاص فى المسائل الدينية ورأيه المستقل فى الامور الاجتماعية ، لابل لقد اصبح يدنو بعد هذا التاريخ سريعا الى المرجعية العامة ، ومع ذلك كله فقد كان احب اليه لو ان يظل مع الناس غير مترفع ولا شامخ .

وكانت (الفرات) يومذاك من احد العوامل لتعريف الناس بالعلماء ، أو قل

كانت احدى الدعايات الكبيرة للاشخاص البارزين – و (الفنر) عبارة عن اسطوانة من القماش الابيض المشمع قامت على قاعدة من النحاس تسرج فيها شمعة ، وتحمل بواسطة حلقة نحاسية فى قاعدتها العليا يحملها الخادم امام العالم سراجا يضىء له الطريق ، وكلما كان العالم كبيرا او كان الرجل محترما جليلا كان (فنره) اكبر وقاعدته اوسع ، فكان العوام والسوقة يرون فى (الفنر) ، وفى الخادم الذى يحمله من حيث عمته الكبيرة ولحيته البهية دليلا على عظمة العالم المجتهد ، او المخدوم الوجيه ، ولما كان الاطفال الصغار كالعوام ، وكالسوقة بدون اى اختلاف من حيث النظر الى الامور فقد كنت انا ارى رايهم فى هؤلاء العلماء الذين يغادرون الصحن الشريف بعد اداء صلاة المغرب والعشاء واحدا بعد آخر وقد حملت (الفنرات) الكبيرة امامهم ، ولكنى لم ادر لم لم تتغير عقيدتى فى السيد ابى الحسن الذى لم يستسغ حمل الفنر امامه ، ولم يلجأ الى هذه المظاهر والتقاليد التى كان يلجأ اليها الاخرون .

وتقدمت بى السن قليلا ، فالفيت السيد ابا الحسن ينتقل من داره ليسكن دارا فى رأس شارعنا ، وعلى بعد مئة متر لا اكثر من بيتنا ، فيتسنى لى ان اراه كل يوم ، وما اكثر ما رأيته وهو يحمل الخبز بيده وقد جاء به من السوق ، اما زميلى ابنه فلم اعد اراه الا قليلا ونادرا فقد اعتم بعمة سوداء واتجه نحو درس الفقه والشريعة مقتفيا آثار رجال الدين ، وكان لابد ان يفرق بيننا الاتجاه ويجعل كلا منا فى ناحية، ولو لم نكن جيرانا متقاربين لما رأى بعضنا بعضا .

* * *

وعرضت قضية انتخاب النواب لتأليف اول مجلس تأسيس للعراق فافتى العلماء بتحريم دخول معركة الانتخاب والترشيح لدخول المجلس نوابا مالم ينجل الموقف ، ويؤيد الانكليز ان ليس هنالك شىء اسمه (وصاية) أو (انتداب) أو (معاهدة)، وتأزم الموقف ، وكان السيد ابو الحسن من اشد العلماء تمسكا بهذا الرأى ، وكان يرى فى مخالفيه مخالفة للشرع الاسلامى ، وخروجا على تعاليمه حتى آل الامر الى

نفى العلماء الروحانيين ، واخراجهم من العراق الى ايران ، وهنا ظهر تعلق الناس بالسيد ابى الحسن اشد واكثر ، واذا به مذكور اكثر من غيره من كبار العلماء - الذين نفوا معه كالميرزا حسين النائينى - على جميع الالسنة وحين عاد العلماء من ايران وعاد هو الى العراق كان هو السابق الى المرجعية الكبرى والزعامة الشيعية ، خصوصا وان شيخ الشريعة كان قد توفى قبل ذلك ، وقد فرغ الميدان الا من بعض اقران السيد ابى الحسن ، واذا بالطلاب الذين يحوطون منبره ، يغص بهم مجلس الدرس أو (البحث) كما يسمى ، حتى لم يبق متسع لاحد ، واذا بهذه الجبهة الخاصة من الصحن الشريف تضيق بالمصلين خلفه ، ثم تحف به جماهير الطلاب والمراجعين فى اثناء الخروج من بيته وعند العودة ، قبل الصلوة وبعدها فتحدث ضجة كبيرة وكثيرا ما تقدمتها موجات من التكبير والتهليل ومع ذلك كله فقد كان السيد ابو الحسن لايملك دارا ولا يحمل امامه فنر وسراج ان مشى ليلا ، وليس لديه من المستخدمين الخاصين احد بالرغم من تلك الابهة والعظمة التى تحيط به عند خروجه من البيت للصلاة والدرس وعودته اليه وانتقل من داره ومن محله فى رأس شارعنا من المشرق وسكن دارا اخرى فى رأس شارعنا من المغرب ، وعلى نفس البعد ، وعلى مسافة لاتزيد عن مائة متر ، وكانت لوالدى به علاقة اعتيادية ما لبثت ان قويت ، واصبحت صداقة كانت تحمل والدى على زيارته مرة فى الاسبوع أو اكثر .

وانى لاذكر زيارته لبيتنا عصر يوم من الايام وكان معه اثنان من حاشيته وقد جاء لزيارة والدى عائدا على اغلب الظن ، وتناول عندنا الشاى ، وقد كنت انا الذي قدم الشاى له ، فسمعته يطرى شاينا بشىء من العجب ، فاخبره والدى بان الشاى الذى يطريه انما هو شاى خاص يرسل الينا من ايران ، فقد كان لاخى الاكبر عباس الخليلى صديق ايرانى من كبار تجار الشاى فى شغانغهاى (الصين) اسمه الحاج عبدالرسول على ما اذكر ، وكان يبعث لاخى فى كل سنة بعدد من علب الشاى المختومة ، فيبعث اخى ببعضها الى والدى ، وكان والدى حريصا جدا على هذا الشاى ، وكان يتأنق فى شربه ، ولا يسمح لاحد بان يشاركه فيه ، وقد بلغ

اخي حرص ابيه هذا واعتزازه بهذا الشاي ، فزاد حصة ابيه مما كان يصله في كل سنة ومع ذلك فقد ظل والدي عند حرصه وشحه ، حتى قال اخي لاحد اصدقائه النجفيين الذين يسكنون طهران – وكان قد اعتزم السفر الى النجف لزيارة ابيه وارحامه – لقد قال له اخي على سبيل الدعابة وهو يكلفه بحمل مقدار من الشاي الينا ، قال :

– حذار ان تخون الامانة ، وتتلاعب بشاي ابي في الطريق ، فانك ان فعلت ذلك فمن الهين اذا كنت انا (سألعن لك اباك هنا بطهران) ، فان ابي في النجف سيلعن لك ابا ابيك هناك .... وهي ام المشاكل كما قد تعلم ...

اقول لقد أطرى السيد ابو الحسن شاينا ، وباشارة خفيفة لاحت لي من ابي ادركت مقصوده ، فاتيت للسيد ابي الحسن بعلبة مختومة من هذا الشاي الذي صرنا نبعث اليه بعد ذلك بعلبة منه كلما بعث لنا اخي شيئا منه على ما اتذكر ...

* * *

وبعد مدة يتقدم (السيد ابو الحسن) فيشترى الدار المتصلة بدارنا تماما من جهة الغرب ، وينقض بعض بناء البيت من اساسه ، ويدخل على البعض الاخر شيئا من التحسينات ، ولما كانت العادة المتبعة ان يولم الجيران للجار الجديد وليمة عشاء او ان يهادوه بمقدار من السكر والشاي ، فقد بعث والدي بعدد من الاوز (البط) وعدد من كؤوس السكر الى بيت (السيد ابو الحسن) جريا على هذه العادة ، ولا ادري الى كم بقينا جيرانا ، ولكني اعلم انه لم يمر كبير وقت حتى كاشفنا السيد ابو الحسن باحتياجه الى شراء دارنا ليتخذ منها ديوانا لزائريه ومراجعيه ، فقد اتسعت دائرة اعماله كثيرا واصبح لايرى طريقا لاتساع بيته الا من جانبنا ، لان الجانب الغربي كان يحد مدرسة (الايرواني) وهي مدرسة موقوفة لايجوز بيعها وشراؤها، واما الجانب الخلفي فهو يحد شارعا من الشوارع كجانبه الامامي تماما لذلك انحصر امر التوسعة بدارنا ، فاشتراها ، ولا تزال الدار حتى اليوم على هيأتها وبنائها لم يتغير فيها الا شيء يسير ، واني لادخلها كلما طلبت زيارة (السيد) فاتحسس

باصبعي مواطن حياتي الخاصة في هذا البيت من محل نومي ،وقعودي ، وملعبي ، ومكتبي ، فكنت اقول لنفسي : هنا كنت اجلس ، وهنا كنت العب ، وهنا كان مجلس ابي ، وهذه هي غرفة امي ... وكم حدثتني نفسي ان اطلب الدار من (السيد) ليعيدها لي لانها مسقط رأسي ... ومهد احلامي ... وعش الذكريات التي تملأ قلبي دعة واطمينانا ولكني كنت ارى (السيد) اكثر مني حرصا عليها ، وانها احب سكن الى نفسه ، وادناه الى رغبته ، فاقع في خجلي ، واخرج وانا مثقل بذكريات الطفولة ، مغرورق العينين بالدموع .... وكنا قد اشترينا احد بيوت اسرتنا وبعدنا عن (السيد) ولم اعد اراه كل يوم كما كنت اولا ، ولكن صورته كانت قد ملأت نفسي كلها واتسعت شهرة السيد ابي الحسن وعبرت حدود العراق وايران الى جميع الاقطار الاسلامية وكان حديث علمه ورجاحة عقله في استنباط الاحكام الشرعية ، وسلامة ذوقه ، جعله حديث الناس في جميع مجالسهم فلم يكن يمر يوم دون ان يذكر له رأي جديد في الاحكام الشرعية ، وتبسيطه الكثير من العقد الفقهية ، فهو الذي حكم بان لكل قطر افقه في رؤية الهلال ، فاذا لم يثبت هلال ذي الحجة في العراق فليس من الشرط ان لايثبت في الحجاز والاقطار الاخرى ، وان على كل حاج ان يتبع افق مكة دون الالتفات الى قطره . وقبل هذا الحكم كان الجميع في اختلاف كبير بصدد موقف الحاج ، ولربما وقف المسلمون موقفين مغايرين في يوم عرفة لثبوت العيد عند البعض وعدم ثبوته عند البعض الاخر، والى حد الان ولايزال البعض من المسلمين غير متفقين في رؤية الهلال ، ولكن الذين يدركون قد اتبعوا رأي السيد ابي الحسن واعتبروا افق الحجاز هو المقياس الصحيح وليس افق اخر غيره في ثبوت الهلال وعدم ثبوته وهم في الحج .

والسيد ابو الحسن اول من افتى باباحة تأجيل الكفارة من الذبائح في الحج الى حين حصول القناعة بامكان الافادة من لحومها ، ذلك لان (الكفارة) قبل فتوى السيد ابي الحسن كانت تفرض القيام بها حالا فيجري ذبح الذبائح وتكدس اللحوم بدون انتفاع لكثرتها في مواطن الحج .

والسيد ابو الحسن هو الذى جرأ فحرم ضرب الرؤوس بالسيوف ، ولطم الصدور ، وضرب الظهور بالسلاسل ودق الطبول والصنوج ، والمزامير وما يجرى عادة فى ايام عاشوراء باسم الحزن على ابى عبدالله الحسين .

وهو الذى كان يرى ان الطهارة تشمل عناصر كثيرة ، ومواد كثيرة مما تضيق بها دائرة العلماء الاخرين فكان لايستنجس ارباب الاديان الاخرى من اهل الكتاب، وله فى ذلك رأى خاص يخالف آراء الكثير من معاصريه من علماء الشيعة ، وهو الذى كان ينصح الراغبين بوقف املاكهم بالعدول عن تنفيذ هذه الرغبة نظرا لكثرة البراهين الدالة على ضياع الوقف ، وانتهائه الى مختلف الايدى العابثة ، وكان يقول بافضلية الانفاق فى الوجوه المطلوبة عاجلا والتحرز على قدر الامكان من الوقف الايل للتلف والضياع المحتم .

وهو اول مجتهد حكم بطلاق امرأة معدمة من زوج كان قد حكم عليه بالسجن خمس سنوات فلم تجد المرأة من ينفق عليها فتولى هو طلاقها ... ولربما كان هذا الحكم هو الاول من نوعه منذ اول قيام الاسلام حتى ذلك اليوم (١) .

واحدثت مرة كلمة نشرت لمعروف الرصافى عن وحدة الوجود ـ وهى كلمة من اصل كتاب خطى للرصافى (٢) ـ ضجة كبيرة اثارت علماء بغداد فافتى السيد ابراهيم الراوى بكفر الرصافى وتبعه علماء آخرون فجاء أحد الفضلاء بتلك الكلمة موفدا من بغداد لاطلاع علماء النجف عليها واستصدار فتوى مؤيدة لفتاوى بغداد ، واستمهل السيد ابو الحسن الرسول القادم حتى يقرأها وفى اليوم الثانى قال السيد ابو الحسن للرسول:

ـ انه لايستطيع ان يوافق على اعتبار الرصافى كافرا بمقتضى منطوق هذه المقالة ، وذلك لان مثل هذا الرأى كثيرا ما قال به بعض علماء المسلمين ولم يكفرهم فيه احد .

قال لى الشيخ عبدالحسين البشيرى ، وهو من العلماء الروحانيين الذين اوفدهم السيد ابو الحسن للشمال واليه يرجع الفضل فى اعادة قسم غير قليل من المغالين

---

(١) ظهر لى بعد ذلك ان الامام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء كان اسبق من السيد ابى الحسن فى هذه الفتوى .
المؤلف

(٢) لقد رأيت مسودة هذا الكتاب بكامله عند كامل الجادرجى ، وقرأ لى فصلا منه .
المؤلف

ـ الذين يغدقون على الامام على صفات لايجيزها الاسلام ـ الى حظيرة الاسلام ، قال لى الشيخ البشيرى : لم يبق لدى شىء بعد ان غيرت لتلك الطائفة عقائدها ، وطقوسها ، الا ان احملها على اكرام شواربها ، (وقد كان الجميع من تلك الطائفة تقدس الشوارب ، وتعنى بها وتتعهدها) فقلت ، قال البشيرى سأنتهز من يوم (زيارة الاربعين) التى يقدم فيها الزوار على زيارة كربلاء والنجف من جميع الجهات ، لاعرض هناك الفكرة على السيد ابى الحسن ، واطلب منه ان يشير على من يزوره من تلك الطائفة اشارة خفيفة برغبته فى اكرام الشارب ، وتخفيفه على الاقل وانا الضمين بانهم سيفعلون ذلك عن طية خاطر اذا احسوا برغبة السيد ابى الحسن .

وقال لى البشيرى ـ وحين ذاكرت السيد ابا الحسن بذلك انتفض السيد وقال:
ـ مالك وهذه القشور ؟ ولم لاتترك الناس على سجيتهم !.

وجعل علمه منه واجتهاده ، وسلامة ذوقه ، وحسن سليقته فى استنباط الاحكام وتطبيقها ، رجلا فذا ومن الروحانين الافذاذ فى التاريخ وبقى عليه ان يثبت لياقته وحنكته الادارية لهذه الزعامة الدينية ، ولعل هذه اللياقة هى أهم بكثير من اللياقة العلمية ، فلقد كان فى السلف من العلماء من كانوا كالشمس فى رائعة النهار من حيث المقدرة العلمية ، اما المواهب الادارية والحنكة التى تتطلبها الزعامة فقد كان الكثير منهم دون درجة السيد ابى الحسن الاعتيادية اذ كان السيد على جانب كبير من تلك الموهبة التى يفتقر اليها المجتمع فيتطلبها فى الزعيم الروحانى ، اضعاف ما يتطلب العلم والمعرفة وان العلم والمعرفة انما يطلبان فمن اجل الحياة العملية ، والسيرة المستقيمة التى تحكيها اخلاق الزعيم وحنكته .

وجاء دور تجربة الاخلاق وما ينبغى ان يوصف به الانسان فضلا عن الزعيم فعكس السيد ابو الحسن عن نفسه صورا رائعة لسمو الخلق ، وعلو الهمة ، والنبل ، والجرأة ، والسخاء ، وكان لقوة ارادته وعدم مبالاته بمناوئيه وخصومه الذين اطردت نسبتهم مع اطراد تقدمه فى ميدان الزعامة والشهرة شأن يذكر عند الذين وقفوا على حقيقته وعند من يقيس اكثر الامور بمقياس منافعه الخاصة ، واضراره ،

وقد انتهز السيد صالح الحلي فرصة تحريم السيد ابى الحسن شج الرؤوس بالسيوف ، فى شهر (محرم) ، والضرب على الظهور ، والصدور بالسلاسل ، لقد انتهزها فرصة فشن على السيد ابى الحسن غارة واسعة عنيفة بكل معنى العنف ، ولم يترك لونا من الوان الزراية بالكناية ، والتصريح ، الا وصبغ به السيد ابا الحسن من فوق المنابر التى كان يرقاها السيد صالح فكان يتصرف من فوقها بعقول المستمعين تصرف المالك ، ويميل بها انى شاء بما كان يملك من مقدرة ، وموهبة ، وجرأة رفعته الى اعلى الدرجات فى سماء الخطابة ، والبلاغة .

والسيد صالح الحلي نشأ او ما نشأ طالبا من طلاب الفقه والدين ، فدرس العلوم العربية على طريقة عصره وولع باستظهار طائفة من نصوص البلاغة فحفظ القرآن ، وحفظ (نهج البلاغة) عن ظهر قلب ، ثم رقى المنبر ذات يوم فى بيت صديق له بمناسبة (محرم الحرام) حين استبطأوا مجيء الخطيب ، فآنس فى نفسه مقدرة وزاده اعجاب المستمعين اليه رغبة فى الاستمرار على صعود المنابر ، فلم يلبث حتى امتهن الخطابة ، وصار اشهر خطباء المنابر الحسينية على غير قصد سابق . واجتمعت المقدرة والجرأة واللسان الذرب فيه فأخرجت منه شخصا قليل النظير يهابه الجميع ، ويخافه الزعماء ، ولقد بلغ من مقدرته ان التزم قراءة المأتم الحسينى لجمعية (المكارين) الذين يؤجرون حميرهم وبغالهم للمسافرين بين النجف والمدن المتصلة بها ، فقرأ لهم عشرة أيام بل الاصح انه حاضر لهم عشرة ايام لان خطب السيد صالح كلها اشبه بالمحاضرات منها باى شيء اخر فلم يخرج خلال هذه الايام العشرة عن حديث الحمير ، والبغال ، والقوافل ، واخبارها القديمة ، والحديثة ، وقصصها ، فكان الناس بمختلف طبقاتهم يعافون اشغالهم ويحضرون تلك المحاضرات التى ظلت مدة طويلة موضوع احاديث الناس وتفكههم ومثار اعجابهم وغبطتهم له على هذه الموهبة .

ومن ميزات السيد صالح انه كان سريع الحفظ ، وكانت بينه وبين الشيخ كاظم السبتى – وهو من مشاهير الخطباء المعاصرين – غضاضة ، فلم يكد يسمع الشيخ كاظم يقرأ لنفسه قصيدة فى رثاء الحسين على المنبر حتى يحفظ الكثير من

ابياتها لاول مرة وهناك يصعد المنبر فى نفس اليوم ، او اليوم الاخر ، ويقرأ شيئا مما كان حفظ من قصيدة الشيخ كاظم السبتى ولربما اضاف اليها ابياتا اخرى منه ثم يروح منددا بالسبتى قائلا ـ ان هذه القصيدة قصيدة قديمة وهى لاحد الشعراء القدماء ، وذلك بدليل حفظى لها من ايام الصغر ولكن بعض المعاصرين ـ وهو يعنى السبتى ـ يستغلون جهل الناس فينسبونها لانفسهم ...

هذا السيد صالح كان رجلا شعبيا ، وكان كلامه يفعل فى مستمعيه فعل السحر واكثر ، وكان يؤلف قوة جد كبيرة لمن يستطيع ان يستميله ، وقد وقف الى جانب الدستور (المشروطة) والانقلاب العثمانى وقفة مشرفة ، كان لها قيمتها وشأنها فى تهيئة النفوس لقبول الدستور ونشر الحرية .

ولقد بلغ من جرأته ان تحدى الكثير من كبار العلماء فى عصره بشعره ، وكناياته وامثاله فلقد قال عن السيد كاظم اليزدى :

فوالله ما ادرى غدا فى جهنم (أيزديها) أشقى الورى او يزيدها

وقال عن الشيخ كاظم الخراسانى (الاخوند) وقد كان السيد صالح من مؤيديه ولكنها الشنشنة التى عرف بها هى التى تحمله على ان يقول فى الذين يؤيدهم او الذين يخاصمهم على السواء :

وفتاة تقول وهى تصب الماء قلدت (كاظما) قلت (صبى)

ويقصد بالصبى هنا (الصابئى) فى اللغة الدارجة ، ثم هنالك تورية اخرى غير صب الماء وغير الصابئى وهى ان (كاظم صبى) وقد كان رجلا من زعماء اهل السلاح فى النجف ، وليس له بالعلم والدين شأن ... وقال البعض ان هذا البيت قد قاله فى السيد كاظم اليزدى وليس فى الملا كاظم الخراسانى الاخوند ـ وقال الاخرون بل ان هذا الشعر ليس للسيد صالح وانما المنشد له كان السيد صالح .

وكان السيد صالح من مؤيدى الحاج ميرزا حسين الخليلى ، وقد جاءه وهو جالس يتقبل تهانى القادمين بمناسبة زواج ولديه ورجا منه ان يكتب له كتابا فى حاجة عسيرة شق عليه انجازها وطلب من (الشيخ) ان ينجز له الكتاب حالا ففعل ،

وحين ختم الشيخ الكتاب كما طلب السيد صالح ، قال السيد صالح للشيخ الخليلي لقد اعددت لهذا اليوم قصيدتين احداهما تتضمن تهنئتي ، والثانية تتضمن هجائي .. وقلت اني سأقرأ قصيدة التهنئة اذا انجز (الشيخ) مهمتي ، وسأقرأ الهجاء اذا امتنع الشيخ ان يقضي حاجتي .. وهنا قبض الشيخ على الكتاب ، وقال للسيد صالح - اذا كنت تريد انجاز مهمتك بهذا الكتاب الذي استكتبتنيه فلن تحصل عليه مالم ترق المنبر ، وتقرأ الهجاء الذي اعددته .. فالتوى السيد صالح وتمانع ولكن الشيخ أصر ، وأنس السيد صالح في الشيخ رغبة لسماع هجائه ، فاطاع ومع ذلك فلم يكن يهم السيد صالح ان يكون الشيخ راغبا او لايكون ، كما لايهمه اذا اقتضى مزاجه ان يقول كل شيء في احد سواء كانوا ممن يدين لهم بالولاء او من صنف آخر .

وصعد السيد صالح المنبر وهو يضحك ، وقرأ قصيدة هجاء فاخرة استطابها الشيخ ، واستعادها له مرات ومرات وهذا مطلعها :

الله آل النبي حقهم ما بين آل (الخليل) مقتسم

لقد كان الجميع يخشون السيد صالح ، ويخشون صولته ، وانا اعتقد ان عمنا الحاج ميرزا (حسين الخليلي) لم يحمل السيد صالح على قراءة هجائه وارغامه على صعود المنبر بناء على عدم اكتراثه به وعدم خوفه منه ، وانما لان طلب الشيخ ان يسمع هجاءه من السيد صالح يعتبر ضربا من ضروب التوقي من نشر السيد صالح هذا الهجاء ولونا من الوان مجاراة السيد صالح فضلا عن ان الحاج ميرزا حسين كان له طبع ادبي كثيرا ما دعاه ان يتحرى النكتة ويأنس بها والا فاني لا اجرده من الخوف من السيد صالح بعد ان خافه الجميع وتوقوه وحاذروا منه وحاولوا ان يضموه الى جانبهم ليكسبوا به تحقيق اهدافهم ، او يأمنوا على الاقل من شره ... الا السيد ابا الحسن هذا الرجل الذي لم يهتم بالسيد صالح ، ولم يكترث بما لفق ، واشاع ، وعمل ، فلم يخف السيد ابو الحسن على مركزه الديني الذي كان ينافسه عليه انداد لهم شأنهم في الزعامة الدينية كالميرزا حسين النائيني ، والشيخ احمد كاشف الغطاء ، والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، بل ابدى السيد ابو الحسن من الجرأة ما حملته على تحريم الاستماع الى قراءة السيد صالح ..!!

واندفع السيد صالح بكل قوته الى محاولة تحطيم شوكة السيد ابى الحسن بما كان يلقيه من خطب رنانة ، ولكن الفتوى بتفسيقه ، وتحريم قراءته بدأت تعمل اكثر من سحر السيد صالح فى نفوس مستمعيه ، وقد كثر الحديث فى جميع الاوساط والمدن ذات العلاقة بقضية التحريم حتى لقد ارخ الشيخ على بازى هذا التحريم بالبيت التالى :

ابو حسن أفتى بتفسيق صالح   قراءته ارختها (غير صالحة)

وجاء وجوه الحلة وأكابرها بالسيد صالح مسترضين السيد ابا الحسن وملقين به على قدميه ولكن السيد ابا الحسن لم يلن ، ولم يغير رأيه فيه ، قائلا ان السيد صالح كحرف (أى) التى قيل عنها (اى كذا خلقت) .

وعلم السيد ابو الحسن الكثير من العلماء درسا لم يعرفه الا القليل منهم وهو ان مجاراة العوام الى منتهى حدود المجاراة على حساب المصالح الخاصة يجب ان يتجنبها المجتهد ، والزعيم الدينى ، وان كان فى ذلك خسران لزعامته ، وفقدان لمركزه ، لان السيد ابا الحسن حينما قام بتحريم الاستماع الى قراءة السيد صالح الحلى لم يتأكد من نجاحه قبال ما يملك السيد صالح من رصيد شعبى ، ومقدرة سحرية طالما ضمنت له التصرف بعقول الناس تصرفا عجيبا ... ومع كل هذا فقد اخذ على السيد ابى الحسن فقدان الجرأة والصدع بما يعرف فى كثير من المواطن الاخرى .

وذبح ابن السيد ابى الحسن المدعو (بالسيد حسن) والذى كان زميلى فى المدرسة العلوية ، لقد ذبح وهو ساجد يصلى خلف أبيه فى احد صفوف الصلاة المتراصة ، كما تذبح النعاج وذلك على يد احد طلاب العلم الذى ثبت جنونه بعد ذلك ، فما تحرك الاب من مكانه ..! وما علق على ذبح ابنه بشىء غير حوقلة ما سمعها احد منه اكثر من مرة واحدة ..!! وفى اليوم الثانى مشى السيد ابو الحسن مع الماشين خلف جنازة ابنه الذبيح ، وبعد اداء الصلوة قصد بيت (الاخوند) حيث قضى بضع ساعات هناك لم يره احد جازعا ، ولا باكيا ، ولا متجهما ، وكان لصبره ، وحلمه ، كما كان لجرأته ، وقوة ارادته ، الشأن العظيم عند متتبعى حركاته وسكناته .

وكنت يومذاك اصدر جريدة (الفجر الصادق) في النجف ، فحملتني حقوق الزمالة ، والصداقة للشهيد المرحوم (السيد حسن) وحملتني حقوق الجوار ، وما وقع من ظلم على هذا الشهيد ، ثم اعجابي بالسيد ابي الحسن ، كل ذلك قد دفعني الى ان اعني بقضية هذا الشهيد ، عناية فائقة ، واصدر ملحقا خاصا من الجريدة بمقتله ، واسباب هذا القتل ، ثم رحت اتتبع محاكمة المجرم واولي اخبار الوفود ، ومواكب العزاء التي كانت تقدم النجف بهذه المناسبة من جميع المدن ، لقد كنت اولي ذلك اهتماما فائقا ، فكان ذلك اول حجر اضعه في بناء صلاتي الخاصة بالسيد ابي الحسن ، فقد رأيته ذات يوم في الطريق ، وحين اقبلت عليه مسلما تمتم ببضع كلمات فهمت منها انه يسأل عن احوالي ، ولم يكن يفعل ذلك من قبل ...

وفي مجلس الفاتحة التي اقيمت بمناسبة وفاة والدي حضر (السيد) الفاتحة ثلاثة ايام متوالية ، وخصني بعناية منه في عبارات التعزية ، والدعاء لي بالخير ، وهو مالم يعمله للغير الا نادرا لكثرة اعماله ، ومشاكله ، ولمست محبته بجميع شعوري واحساسي ، ولا اعرف لتلك المحبة سببا غير ترفعي عن اي طمع في جاهه ، وشهرته ، وماله ، ولم يكن ترفعي بداعي الاستنكاف وما شابه ، وانما كان بداعي الحقيقة التي حببت لي هذا الرجل وانا صغير لم يزد عمري على عشر سنوات ، واستطيع ان اقول ، ويدعم قولي المطلعون انني كنت من اولئك القلائل - وهم معروفون - الذين نالوا شرف الاتصال بالسيد ابي الحسن على اساس الولاء والاخلاص ، بدون ان تشوب ولاءهم واخلاصهم أية شائبة مادية او مصلحة خاصة ، والفيت نفسي اقرب اليه يوما بعد يوم ، كما الفيت نفسي واسع الجاه عنده فلم ابخل بجاهي على بعض المعوزين ممن يلتمسني في قضاء حاجته عنده ، واذكر مرة جاءني فيها صديقي الشيخ (محمد رضا ذهب) يلتمسني ان اكلم السيد ابا الحسن بمنح الشيخ عمران الدجيلي (وكالة) تخوله ان يكون عالما لناحية (الحمزة) فرفضت ذلك لاني لم اجد من المناسب التكلم في قضية تتعلق بالدين ، ذلك لان واحدا مثلي لايسوغ له الادب والعرف ان يتدخل في امر لايعنيه ، ولا يعرف مقتضياته ، خصوصا مع رجل كالسيد ابي الحسن ،

وفى امر يتعلق بوكالة الشيخ عمران ولكن الشيخ محمد رضا ذهب اصر واصر وقال انه لابد وان يكلمه واحد مثلى ٠٠٠ ومازال بى حتى اقنعنى بوجوب مواجهة السيد والتحدث معه فى هذا الامر ٠٠٠!

وجئت الى (السيد) عصر ذلك اليوم ، وانا اكاد اذوب خجلا لارغام نفسى على التدخل فى شؤونه الخاصة ، وقلت له اننى لا اريد ان ازج بنفسى فيما لايعنينى حينما اطلب من سيدى منح الشيخ عمران الدجيلى وكالة يستند اليها فى ادارة شـــؤونه بناحية الحمزة ، وانما ارجو ذلك اذا لم يكن فيه بأس شرعى او مشكلة اجتماعيـة - قال - كيف تريد منى ان ابعثه وكيلا لجماعة قد لا يعتبرون الاصيل ، وهو انا ، ولا يرجعون اليه فى تقليدهم ؟ قلت - اذا كان هذا هو السبب وحده فانى واجد له حلا ، وهو ان يكتب سيدى الكريم للشيخ عمران وكالة مطلقة ، لايشير فيهـا الى ناحية الحمزة ، فان نجح الشيخ فى (الحمزة) كان هو المطلوب ، والا فكأنه لم يوفد لهذه القصبة مادامت وكالته التى يحملها وكالة عامة وليس هنالك من يؤاخـــذ (السيد) عليها ، اذ ليس من بأس اذا لم ينجح فى تمثيله الدينى هناك ٠٠٠ فتأمل (السيد) قليلا ثم تناول القلم وكتب الوكالة المطلوبة ، ولم يكن هذا دليلا على ايثاره اياى كما كان دليلا على سلامة ذوقه ، وتمسكه بالمنطق ، ولو كان آخر غيره لرفض كل حـل يأتى به واحد من امثالى ، وعن طريق غير طريق المعممين فى شأن دينى مثل هـذا لدى واحد من امثاله .

وكثرت زيارتى له فى مناسبات العيد ، والوعكة ، والعودة من زيارة العتبات ، فكنت ارى من لدنه عطفا خاصا ، واهدى الى ذات يوم وانا عنده علبـة مـن الـكز (من السماء) بدون أية مناسبة فاخذتها شاكرا .

لقد كان يتبع جريدة (الهاتف) ويقرؤها دائما ويقرأ ما يخصه مما ينشر فى بعض المناسبات ، فلا يشير الى ذلك بشىء ، كانه لم يكن قد رأى او قرأ ، وكان ذلك ممـــا يزيد عظمتـــه فى عينى ، ويزيدنى اخلاصـــا له وعقيـــدة بكبر نفســه ، ولقـد علم ذات مـرة بانى قـد نشرت برقيـــة جاءته مـن جـلالة

شاه ايران ، وكان لنشرها اهمية عامة يومذاك ، ولا ادرى لاى سبب لم يرد هو نشرها ، وكانت الجريدة لم توزع بعد ، ولم تحمل الى البريد ، فجاءنى صهره السيد مرزه حسن البجنوردى ، وابنه الحاج اغا حسين ، وطلبا الى اتخاذ كل تدبير للحيلولة دون نشر هذه البرقية لان (السيد) قد علم بخبر نشر البرقية بطريقة ما قبل توزيع الجريدة ، ولا ادرى كيف علم ؟ وقد رأى من المصلحة التى قدرها هو ، وجوب حذف البرقية قبل انتشار جريدة الهاتف وتوزيعها ، وكان الحل اما ان يكون بتأخير العدد عن الصدور فى ميعاده من الغد ، او قص الخبر من الجريدة ، واخيرا فضلت الحل الاخير ، وكثر حول هذا القص السؤال والجواب من لدن جميع الجهات ، وعلى الاخص الجهات الرسمية ، ومنه يتضح للقارىء اهتمام السيد ابى الحس بما كان ينشر ، وان لم يتظاهر بذلك ، وقد رأيته يدخل مجلسا عقيب هذا الحادث بيومين ، وكنت انا فيه ، وكان مجلسى بعيدا عنه فخصنى بالتفاته ، وسأل عن حالى ، فلم اسمعه نذلك لم التفت اليه واذا بعدة اشخاص يتبرعون بايصال صوته الى مسمعى ، وتنبيهى الى هذا اللطف ، وكان لطفه هذا بمثابة الرضا منى ، لقيامى بحذف الخبر من الجريدة ، وكان التفاتا معززا لى عند من رأى هذه الالتفاتة .

وعلى كثرة مشاغله فلست اذكر يوما صدنى عن مقابلته او ارجأ ذلك الى وقت آخر ، وكنت كلما دخلت عليه الفيت رزمة من الكتب المرسلة من مختلف الجهات كان يطالعها بنفسه ، ويجيب عنها بنفسه ، ولقد قلت له ذات مرة لم لم يعهد بهذه الكتب الى معتمد يقرؤها له ويعرض عليه مضمونها ليريح نفسه بعض الراحة ؟ فاجاب انه تعود هذا العمل ولا يرى فيه اى بأس ... وانا اعتقد انه كان قليل الاعتماد على الحاشية وقليل الوثوق منهم ، ولكنه لم يشأ ان يقول لى ذلك .

وعلى كثرة السؤال وارباب الحاجة على بابه فلا اذكر انه رد احدا عن نيل كرمه ، وعطائه ، الا نادرا فهو والمال عدوان لدودان لايجتمعان وانه ليحسن انفاق المال فى محله ، ويحسن العطاء فى محله ، لحد قد لايحسنه زعيم دينى آخر ولقد عرف فيما عرف به ان امام الثورة الميرزا الشيرازى حينما عرف حاجته وعوزه بعث

له بمبلغ خمسمائة ليرة ذهبية ليشترى بها دارا له وذلك فى ايام حاجته وضنكه ، فلم يمد يده الى المبلغ بل اودعه لدى بعض الخبازين وبدأ يحوله خبزا للطلاب ، والفقراء المعوزين ، ولقد كلمنى صديقى السيد (مير على ابو طبيخ)مرة بالسعى فى رفع ما علق بذهن السيد (ابى الحسن) عنه ، وطلب منى استحصال موافقة على تصرفه اى تصرف (السيد مير على) بنصف المبالغ التى تخص احد ارحامه بصفتها حقوقا شرعية اشترط ذلك القريب ان تعطى بيد السيد (ابى الحسن) نفسه ليتصرف بها كيف شاء وحين كلمت السيد ابا الحسن بشأن هذا المبلغ اجابنى اليه ، وقال انه سيبعث به حوالة الى السيد (مير على) ليتسلمه من قريبه فينفقه حيث شاء .... اما سوء التفاهم الذى اشار اليه السيد مير على والذى تطرقت انا اليه لازالته فلم يعلق عليه(السيد) بشىء .. ولم يثبت ولم ينف،وحين اعلمت السيد (مير على) استعجل وكتب هو الحوالة بنصف المبلغ المودع وارسلها الى (السيد) لتوقيعها فوقعها (السيد) فعلا ، وبعد اسبوعين او اكثر ، وفى مناسبة من المناسبات التى حملتنى على زيارة (السيد) قال لى (السيد) ما مضمونه : « ان صديقك ابا طبيخ قد تعجل واستعجلنا فى الانجاز فقد كنت اريد ان احول له كل المبلغ لانه ان لم يستفد منا معنى ، فليستفد منا اسما على الاقل» وقد كان يعنى ان هذه الحقوق الشرعية التى احلناها له انما هى من مال اقربائه وليس من ماله اى مال السيد ابى الحسن .

* * *

قلت انه كان يعرف اين يضع احسانه ومعروفه وانى لاذكر يوم قامت الشرطة ـ بناء على طلب مديرية الدعاية العامة التى كانت تعاكس (الهاتف) يومها معاكسة مقصودة مخصوصة ـ بوضع يدها على ما كان لدى الهاتف من ورق لبلوغها ان الهاتف كان يشترى ورقة من السوق السوداء وحين بلغ الامر مسامع السيد ابى الحسن امر بحمل الورق المعد لطبع رسالته العملية الى دار الهاتف لئلا يقف الهاتف عن الصدور فى ميعاده ، وقد حمله لنا التاجر الحاج مهدى البهبهانى ونشر الهاتف الخبر فى حينه ، واشار الى عطف السيد ، فقامت قيامة مديرية الدعاية والنشر

يومذاك ، اما (السيد) فقد ساءه نشر الخبر ولا ادرى على اى اعتبار ؟ ألاننا نوهنـا بمعروفه ام لاننا عرضنا بمن حاول ان ينكل بنا ؟ وكيفما كان فقد عـرف وقت احسانه الينا معرفة جيدة ••••

وحين قدم له احد تجار ايران مبلغا من المال نيشترى البيت المجاور للمسجد الهندي ويتخذ منه مقبرة يدفن بها عند مماته ، تسلم المبلغ وقال ما مضمونه (يا لله من هذه السذاجة التى تدع الناس يفكرون فى الانسان بعد مماته ولا يفكرون به فى حياته) وانفق المبلغ فى وجوه اخرى •

وزرته ذات يوم بصحبة صديقى السيد باقر السيد احمد الحسنى ، وكـان يصحبنا صديقان آخران وكان (السيد) حينذاك فى الكوفة ، وفى ضمن الاحاديث التى دارت عنده ، التفت السيد باقر اليه وقال :

ـ اظن يا سيدى انه اصبح من حقى ازاء اخلاصى ، وولائى ، وتفـانىّ فى حبك ان اطلب منك (فلسا) واحدا او اى شيء تافه آخر لاتخذ منه رمز بركة لى وتذكارا يذكرنى بايمانى ، وتمسكى بولائك •

وحين اتم السيد باقر كلمته انتفت الشخص الثانى واعقبه الشخص الثالث وطلبا من السيد نفس الطلب ، وبقيت انا حائرا أأطلب انا الاخر ما طلبـوا ؟ وانا اخشى احراجه بعد الذى رأيت من وجومه ؟ ام أسكت ؟ فقد يخالنى مستنكفا عن طلب مثل هذه البركة ؟ واخيرا وبعد دقائق معدودات قلت : واى الناس لايرجـو بركتك يا سيدى وانى لأمل ان لايقل نصيبى من عطفك عن الاخرين ، ومرت اسابيع نسيت فيها البركة والتبرك ، واذا بابنه الحاج اغا حسين يزورنى فى البيت ويضع فى خنصرى خاتم درنفيس ويقول :

ان والده قد انتزعه من اصبعه وبعث به اليك ولايزال الخاتل عندى ، وانا محتفظ به كأثمن ذخيرة من الذخائر الروحية ، وقد علمت انه اهدى الى السيد باقر خاتما من العقيق هو الاخر قد انتزعه من اصبعه •

وحين ثقل كاهله بالعمل وضاق بالناس خصوصا فى اثناء خروجه الى الصلاة الذى كان يستغرق وصوله من البيت الى الصحن الشريف نحو ساعة واكثر عـلى

قرب المسافة التى لاتتجاوز بضع دقائق للشيوخ والعجزة اتخذ الحمارة وسيلة للانتقال من بيته الى الصحن وكان يحف به ويمشى فى ركابه عدد غفير من طلاب العلم ورجال الحاشية وفى ضمن اولئك بعض اصهاره واصهار اصهاره مثل الشيخ على مردان الذى كثيرا ما كانت الحاشية والاصدقاء يتخذون منه موضوع دعابة قد تصل اخبارها بالسيد فيضحك لها •

وكانت حمارة السيد من اشهر ما يعرف تاريخ الحمير فى النجف فقد كانت حمارة (حساوية) بيضاء جميلة تعرف وقت الصلاة ، وتعرف اين تقف فى الطريق والسيد فوق ظهرها ، وتعرف حين وصولها الى باب الصحن اين هى من باب الصحن كأنها كانت تعلم بان احترام الطقوس الدينية لايجيز لها ان تخطو ولا خطوة اخرى من باب الصحن الشريف ، وقد ود الكثير وتمنى غير واحد لو كان سائسا لحمارة (السيد) ، ولربما رووا عنها صفات عجيبة مبالغة فى قيمتها ، ولما ماتت هذه الحمارة اجتمع حولها الاطفال والنساء وبدأوا يسحبونها بالحبال الى خارج المدينة ، وكلما اجتازوا مسافة انضم اليهم ابناء محلات اخرى وكانوا يهزجون وفى طليعة هذا الجمهور من الصبيان والنساء كان (عبايه) الفكه الذى الف هذا الموكب ، اما الاهزوجة فقد كانت :

هاى هيه يو بعد تلفينه   وداعة الله يا جحش والينه

ومن اشهر الحمر التى يعرفها تاريخ الحمر فى النجف كانت حمارة الملا وحيدة ، وهى امرأة شاعرة عدادة ومن العباقرة كانت تضطر لركوب الحمارة لكثرة مجالسها فاشتهرت حمارتها بالنظر لشهرة الملا وحيدة ، واشتهر مملوكها الزنجى وعرف بين اوساط الناس عن طريق هذه الحمارة التى كان يتعهدها هذا العبد ويأخذ برسنها كلما خرجت الملا وحيدة الى بيوت العزاء ،

وكانت للميرزا جواد الطبيب حمارة هى الاخرى كانت ذات شهرة فى النجف وقد كان لها جحش ظل حديث الناس زمنا طويلا وذلك ان بيت الميرزا جواد الطبيب كان ملاصقا لبيت الزعيم الروحانى الشيخ حسن الماقمقانى فكثيرا ما

كان هذا الجحش يفلت من بيت صاحبه الطبيب فيدخل بيت الشيخ المامقاني في اثناء القائه الدرس على طلابه ، وكثر هذا الانفلات فارسل المامقاني على الميرزا جواد الطبيب وقال له مازحا :

ــ يا سيدي الميرزا ، ويا جاري العزيز ، لم تترك الحبل على غارب ابنك (يعني به الجحش طبعا) ليعيث فسادا ؟

فرد الطبيب عليه مازحا ــ قال لقد سعيت كثيرا ان اخرج منه طبيبا فأبى الا ان يكون عالما روحانيا فما العمل ياسيدي ؟

قال الميرزا محمد الاردبيلي للسيد ابي الحسن والشيخ الاردبيلي من اظرف العلماء ــ قال للسيد ابي الحسن لا اعهد عالما روحانيا وزعيما دينيا بلغ ما بلغت انت من العظمة والجاه والجلال .

قال السيد ــ وكيف كان ذلك ؟

قال ــ لا اعهد ان زعيما روحانيا قد استطاع ان يجتاز بحماره باب الصحن الشريف وانت تجتاز كل يوم بحمارك الصحن الشريف وتبلغ به الحرم المقدس .

قال السيد ــ واين هو هذا الحمار الذي تقول ؟

قال الاردبيلي ــ هذا هو الشيخ علي مردان الذي لايترك مصاحبتك حتى وانت في الحرم المقدس تزور .

وظلت هذه النكتة ترافق الشيخ علي مردان زمنا طويلا لان السيد ابا الحسن كان قد استذوقها وانس بها .

وفي السنوات العشر الاخيرة ثقل كاهله بالعمل اكثر واكثر وصار عليه ان يقابل عددا كبيرا من الزائرين من ارباب الحاجات ، ويقرأ كثيرا من الكتب والاستفتاءات التي كانت ترد من مختلف الاقطار وبمختلف اللغات ويجيب عليها بخطه ، ولا يسمح لاحد ان ينوب عنه في استعمال خاتمه كائنا من كان ، ولقد كان ختمه معه الى آخر ساعة من حياته ، وكان طبيعيا ان يكل ، وطبيعيا ان يمرض ، ولو كانت اعصابه من حديد ، ولقد كان بميسوره ان يرتاح لو كان يريد الراحة ، ولكنه اخذ

على نفسه ان يضرب الرقم القياسي للعمل ، فعمل الكثير مما لا طاقة لغيره ان يعمله وهو في مقتبل العمر ، فكيف وهو في آخر مراحل الحياة ... لقد زرته مرة وهو محموم وكان يعد نفسه للخروج والصلوة بالنـــاس ، وقـد كانت النجف تغص بالزائرين الايرانيين فاقترحت عليه ان يلزم الراحة في البيت حرصا على صحتـه فابى ، وقال انك قد لاتدرى .. لاتدرى ان عددا كبيرا من زائرى العتبات المقدسة يحسب زيارته للعتبات ناقصة غير مقبولة عند الله اذا لم يستطـــع ان يرانى ويأتم بى فى صلاته ؟ وان ادخال السرور والايمان على قلوب امثال هؤلاء البسطاء السذج من الناس امر قد يكون فى مصاف العناية بالصحة ضرورة ..!!

وساءت صحته فى السنوات الاخيرة اذ ان مزاجا لشيخ مكدود ، مهدود ، يقتل ليله ونهاره بالعمل فلا يترك لنفسه فراغا ، امر لايدعك تصدق انه يستطيع ان يبلغ الرابعة والثمانين ، وقد بلغ هذه السن وكان الى ما قبل شهر ، من وفاته يستطيع ان يؤدى عمله بنشاط غريب ، حتى ولو حم وانحرفت صحته .

لقد قلت له قبل شهور وهو فى الاعظمية ، وكنت قد قصدته عائدا له ، قلت له : اننى اراه فى صحة جيدة احسن مما كنت اراه من قبل ، وطالما كنت اقول له ذلك حين ازوره عائدا على أثر وعكة خفيفة ، او مرض شديد ، فيهش ، ويبش ، ويبدو انتعاشه جليا لعين الرائى ، لقد قلت له وانا اضحك ان السر فى تقدم صحتك مثل هذا التقدم منوط بقدومى انا الذى يعتبره بعض المتفائلين من اصدقائى قـدوم خير ، فابتسم ، واشار الى السماء بعينيه ويديه ، وحين هممت بالقيام قال :

ارجو ان تزورنا كثيرا كلما تسنح لك الفرصة ، قلت اخشى ان يكون ذلك حبا (بخير قدومى) وليس حبا بى انا ؟

فضحك وقال (وهب ان الحب من اجل قدومك الميمون افليست قدمك منك؟) ولم يتح لى ان اراه بعد سفرى الى ايران ، وسفره هو الى سوريا ، ولم تقع عينى

بعد هذا الا على جنازته محمولة على اطراف الايدى ، فاذا بى استعرض الماضى فى دقائق معدودة بكل ذكرياته منذ الطفولة حتى اليوم ، تلك الذكريات الجميلة التى مرت كالحلم ، او كالبرق الخاطف ، ولم يبق لى منها غير هذه الخطـوط ، والنقط ، وانا انشرها هنا على صفحات الورق كعرض موجز لاحلى فترات العمر .

الشيخ محسن شرارة[1]

كان عملي يحتم على الخروج في الصباح المبكر من كل يوم من بيتي في النجف وكان لابد لي من المرور بالصحن الشريف ذاهبا او آيبـا ، فكنت التقي في طريقي ـ اغلب الايام ـ رجلا نحيف الجسم ، خفيف اللحية ، نظيف الملابس حسن الهندام ، على رأسه عمة بيضاء تدل لفتها على ذوق خص به بعض المعممين دون الاخرين ، وعلى ان هذا الرجل لايزال في عنفوان شبابه ، فان حركاته المتزنة ونظراته المتركزة في طريقه ، ـ وسلامه ، وكلامه مع من يلتقيهم في الطريق ممن يعرفونه ـ لتدل دلالة واضحة على ان الرجل وان كان لايزال في مقتبـل العمر فان له عقلا راجحا اكسبه وقارا هو أقرب الى وقار الشيوخ المجـربين وعقولهم منه الى عقول الشباب والكهول ، وأقسم اني احببته على غير معرفة ، بل اقسم ان كثيرا مثلي لو اتفق لهم ان يروه ـ كما كنت اراه ـ في عرض الطريق ماشيا وهو يتابط كتابه لاحبوه كما احببته وان لم يعرفوه ، ثم لفت نظري بعـد ذلك ان طريقه كان نفس طريقي الى بيتي ، ثم علمت فيما بعد انه جار لنا لايبعد بيته عن بيتي اكثر من بضعة ابواب ، ومع كل ذلك فانا لم اعرف من هو بعـد ؟ وكلما عرفت هو انه رجل تدل هيئته على الطيبة ، وعلى الاجتهاد في تحصيـل العلوم العربية الدينية ، وانه على جانب من الاخلاق الحميدة التي يستطيـع ان يستشفها كل احد من وراء هذه السيرة الساذجة النقية .

ولا ادري كم مر من الزمن ولكني اعلم انه لم يكن طويلا حينما اصـدر المجتهد السيد محسن الامين رسالته التي جمع فيها فتاوى العلماء بتحريم ضـرب الظهور بالسلاسل ، وشق الرؤوس بالسيوف ، وغير ذلك مما يفعله البعض يوم

(١) الهاتف ـ العدد ٤٣٣ للسنة الثالثة عشرة من تشرين الاول ١٩٤٦ .

عاشوراء باسم الحزن على سيد الشهداء الامام الحسين (ع) تلك الرسالة التى داخل موضوعها كثير من الغايات الشخصية والاغراض والمنافع التى اثارت بعض الاشخاص وحملتهم على مقاومتها والهجوم على مؤلفها الامين ولم يكد يمر على صدور هذه الرسالة اسبوع او اكثر وتنتقل من الشام ـ حيث تم طبعها ـ الى العراق حتى رافقها كثير من (الدعايات) ضدها ، ووجدت هذه (الدعايات) هوى فى بعض النفوس فاشعلوها فتنة شعواء تناولت السيد محسن الامين المؤلف واتباعه بقساوة لا توصف من الهجاء ، والذم ، والشتم المقذع . وخاف الذين آمنوا بقدسية هذه الرسالة ، وصحة فتاوى العلماء لقد خافوا ان يعلنوا رأيهم فى وجوب الذب عن موضوع هذه الرسالة والدفاع عن شخصية المؤلف ، وكادت الحقيقة تعلن للناس ان انصارها انما يكونون فى يوم الرفاه والسعة ... اما فى يوم الضيق فمن العبث ان يبحث المرء عن انصار الحقيقة ، وعن اصحاب المبادىء الصحيحة خصوصا اذا كان مثل هذا اليوم الذى اصبح الرأى العام فيه ضد هذا المجتهد ، واصبح الناس ـ سواء أكانوا جاهلين أو مغرضين أو طائفين ـ سواء فى رفض هذه المبادىء ، وسواء فى هجومهم على المؤلف ، وعلى فتاوى بعض العلماء الذين انتصروا للسيد محسن وحرموا اسالة الدماء بالسيوف ، ورض الصدور بالضرب عليها ، وادماء الظهور بالسلاسل ، باسم الحزن على الحسين (ع) اذ من ذا الذى كان يجرأ ان يخالف للناس رأيا ؟ ومن كان يستطيع الظهور بمظهر المخالف فى ذلك اليوم ؟ ومع ذلك كله فقد لمع فى ذلك الوسط الصاخب المليىء بالخوف من سطوة العوام اسم ما لبث ان توهج واضاء على رغم ما كانت تكتنفه من الغيوم السوداء ، وكان صاحب ذلك الاسم هو (الشيخ محسن شرارة) الذى لم يهتم بثورة الثائرين ، ولم يعبأ بحملة المغرضين وهياج الهائجين ، فكان اول من رفع عقيرته باستنكار هذه الحملة الشنيعة واول من اندفع للذب عن تلك الاغراض التى تضمنتها رسالة السيد الامين بشجاعة منقطعة النظير وجرأة نادرة فتحت للخائفين كوة من الرجاء ما لبثت ان صارت بابا واسعا ، واذا بقوى المهاجمين تتجمع كلها فتمطر الشيخ (محسن شرارة) سبا وشتما وقذفا وثلبا ، واذا بالشيخ محسن شرارة

(١) فى غير هذا الموضع من الكتاب اشارة اخرى الى هذه الحركة الاصلاحية .

يقابل كل هذه الهجمات بجرأة المؤمن العارف بما يترتب على المؤمنين من الامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واذا بالناس كلهم فى مجالسهم وانديتهم يرددون اسم الشيخ محسن بما تمليه قلوبهم ، وعقولهم ، وامزجتهم ، ولكن من هو هـذا الشيخ محسن ؟ وما هى ماهيته ؟ انه رجـل لم تقتصر شهرته عـلى الانـدية ، والمجالس وعلى السنة الخطباء بل تجاوزت ذلك الى الصحف التى نشرت له عدة مقالات صريحة التوقيع ، وعدة مقالات بتواقيع رمزية فاندفع الكثير من الادباء والكتاب الذين يعنيهم امر الاصلاح الدينى الى التنويه بذكـر الشيخ محسـن ، والدفاع عن آرائه ، ومع ذلك كله فقد ظل الكثير لايزال يسمع باسم الشيـخ محسن شرارة ، ولا يعرفه ، بل اصبح كثير من الناس يودون التعـرف به ولا يجدون الى ذلك سبيلا ، اما الشىء الوحيد الذى كان معروفا عنه هنا وفى سوريا ، ولبنان ، فهو بيته واسرته ... انه من بيت شرارة وبيت شرارة من اعرق البيوت المعروفة كان لها فى العراق موطن ، وفى لبنان موطن ، ولا يزال احد شـوارع النجف يحمل اسم هذه الاسرة ، باسم (عقد بيت شرارة) وقد انجب هذا البيت كثيرا من العلماء وكثيرا من الادباء ، وعددا غير قليل من فحول الشعراء وكان جد الشيخ محسن هو الشيخ موسى شرارة كان مضرب المثل من حيث فقهه وعلمـه وأدبه ومواقفه الاصلاحية ، وقد مات وهو ابن سبع وثلاثين سنة ...!! وقلما سمع بعالم يجمع بين هذه المواهب وهو بهذه السن الصغيرة ...!!

واصدرت انا جريدة (الفجر الصادق) ، ونشرت للشيـخ محسن شـرارة بعض المواضيع ، وانا لا ازال من الذين يعرفون الشيخ محسـن بالاسـم ، ولا يعرفونه بالصورة ، او قل اننى كنت من المتعطشين لرؤية هـذا الرجـل الـذى يفيض لسانه وقلمه بالايمان والاصلاح ولكنى لم ادر كيف لم يتم هذا ؟ وبعـد فترة لعلها كانت قصيرة علمت ــ وكم كانت دهشتى عظيمة ــ ان الذى كنت كثيرا ما أراه فى غدوى الى العمل من صباح كل يوم انما كان هو الشيخ محسن شرارة وان رؤيته كانت ايسر لى مما كانت لغيرى وتم الاتصال به ، وسرنى كثـيـرا ان ارى فيه مثلا من تلك الامثلة الضائعة ، وصورة من صور الفضيلة المفقودة ، وعنوانا

للجد والتفاني في تحصيل العلم والعرفان ، وقد كان الى جانب درسه للفقـــه والاصول والحكمة منهمكا في دراسة اللغة الانكليزية والرياضيات ، فكان لايترك فرصة تمر دون ان يستفيد من صداقة الاطباء واساتذة المدرسة الثانوية الرســمية في النجف ليجتمع بهم في خفية من العيون لـدرس الادب الانجـليزي وبعض العلوم الاخرى ... وكان لاسكندر حريق والدكتور انيس العاملي الفضل الاكبر في تدريس الشيخ محسن شيئا من العلوم الحديثة الى جانب العلوم الدينية ، ومرة اخرى لاكت بعض الالسن اسم الشيخ محسن بالسؤ لاقباله على تحصيل هـذه العلوم ..!! وكان ذلك سببا من اسباب انكماش الشيخ محسن بعض الانكماش ، والتلكؤ عن متابعة الدروس الحديثة خوفا من احداث موجة اخرى من هيـــاج وثورة كان ينبغي ان يكون في غنى عنها وهو شيخ روحاني وطالب علم .

وتلمسنا في الشيخ محسن عالما دينيا ومصلحا اجتماعيا وتوسمنا له مستقبلا باهرا في ميدان الاعمال وكان ان تجمع حوله جمع من ارباب الشعور والطلاب الذين ينزعون الى فصل القشور عن اللباب ، والذين يسعون لمحاربة الرياء والجمود بما يستطيعون وكان الشيخ محسن على رغم مجاراته للرأى العام لايجبن ان يجابه الرأى العام حينما لايجد بدا من مجابهته وتحديه وكان يعرف الساعة التي يجب فيها على المرء ان يقف في وجه التيار فيقف حينذاك غير عابث ولا مكترث ...

وتعددت زياراته لي وزياراتي له ، ومن طريق هـذه الزيارات المتواصـلة تعرفت بكثير من (العامليين) بل ان الشيخ محسن هو الذي حبب لي التعرف بهؤلاء حتى لقد اصبحت صديقا حميما لاكثرهم ، بل اصبحت اعتز بسبب الشيخ محسن بصداقة كل مهاجر من جبل عامل الى النجف ، وصار لي منهم اصدقاء كثيرون ، ولم اكن انا الوحيد الذي دنا من العامليين هذا الدنو واقترب منهم هـذا الاقتراب بل ان كل من عرف الشيخ محسن صار من اصدقاء العامليين ، ومحبيهم ، وامتزج بي رهط من ادبائهم امتزاجا قويا الى ان اصبحت احس باحساسهم ، واشـــعر بآلامهم ، وربما شاركتهم في نظمهم ومقارضتهم الشعر ، وقتل الفراغ باستعراض نكاتهم الادبية وطالما احيينا ليالي طوالا في مسجد الكوفة ، واخرى مثلها في مسجد

(السهلة) وعلى ضفاف نهر الفرات ، فكانت من احسن الاوقات ، وكان الذى يزيدها حسنا في عيوننا ولذة فى اذهاننا ، هو الشيخ محسن بما كان يضفى عليها من الجمال الادبى ، وروعة الايمان ، وحسن التقدير بل كان هو المحور بين تلك الجماعات لكل حديث علمى ، ولكل مساجلة ادبية ، وهو مع غيرنا من مشايخ الحديث وطلاب الاصول والفقه والحكمة كما هو معنا شرارة ملتهبة ، وذكاء متقد وقد درس على الامام السيد ابى الحسن الاصفهانى وعلى الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، وعلى الامامين السيد اغا جمال والميرزا حسين النائينى •

وحينما دعته مدينة (بنت جبيل) ليشغل فيها مقام العالم الروحانى أبى الاجابة على هذه الدعوة اباء شديدا ، فكررت عليه بنت جبيل الطلب بعد زمن وألحت وما زالت به حتى اضطر الى الرحيل من النجف اليها وحينما هم بالسفر كان اول عالم اعتمد على كفايته العلمية والاجتماعية ، دون ان يراجع المراجع الروحانية العليا لاخذ الشهادة والتزكية والتعريف به كما جرت العادة عند البعض وانى لاذكر ان السيد (ابا الحسن) قد بعث بالشهادة (العالمية) اليه الى بيته بمجرد سماعه بازماعه على السفر وكانت شهادة علمية وافية تناقلنا موضوعها ليلة سفره التى كان مدعوا فيها عندى ، اما (الميرزا النائينى) فقد ارسل بشهادته له فلم يدركه رسوله الا وهو راكب فى السيارة كما ان الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قد ارسل له بشهادة اجتهاد مفصلة الى لبنان • والشيخ محسن اول عالم يقدر له العلماء مكانته فيمنون له بالشهادات العلمية بدون طلب منه وينزلونه من انفسهم المنزلة التى يستحقها •

ويشعر المرء وهو يتحدث اليه بما تفيض به نفسه من العزة والكرامة والشخصية التى تفرض عليك احترامها واجلالها وان لم يكن لك به سابق معرفة ، وقد دخل مرة مكتبة مكنزى فى بغداد ، وراح يقلب الكتب الانكليزية حتم تم له ان يختار منها العدد المطلوب ، واذ سوى الحساب وجد انه لايملك من النقود المبلغ الكافى لتلك الكتب المختارة فطلب من المستر مكنزى ان يحتجز له تلك

الكتب في جانب من المكتبة ريثما يبعث له باثمانها من النجف ، ولكن مكنزى أبى ان يفعل ذلك وقال له : بل ان الكتب سترزم وستصحبه الى نزله ثم ليكن بعد ذلك ارسال قيمتها في اى وقت تيسر .

يقول الشيخ محسن ـ وقلت له : ولكنك لم تعرفنى ولم تعرف هويتى والمبلغ هـذا كبير ....

فقال مكنزى ـ ولكن الوجه والصورة تكفى للتعريف ..

ولقد ذكرتنى هذه الحكاية بحكاية جرت مع السيد هاكوب صاحب معمل زنكوغراف بغداد فقد اعتمد مرة على (الجهامة والعمامة) كما يقولون وسلف معمما مبلغا من المال وآل الامر بعد ذلك الى الشكوى في المحاكم لتمرد ذلك المعمم وتهربه ، فسأله الحاكم وكيف رضيت ان تسلف شخصا لم تعرفه ؟

قال ـ لانى وجدته معمما فحسبته من رجال الدين .

قال الحاكم ـ ألم تدر ان ليس كل معمم روحانيا .

قال هاكوب بلغته العامية ـ "بعدين كالولياها» اى بعد ذلك قد فهمت ان ليس كل معمم روحانيا .

ولكن الشيخ محسن شرارة لاتفرض عليك عمامته الاحترام ، ولا يغذيك هندامه الروحانى بهذه الثقة ، وانما للغته ، وطريقة كلامه ، ما يجعلك واثقا انك امام شخص محترم جليل .

وعاقه المرض في (بنت جبيل) من متابعة رسالته الاصلاحية فدخل (مصح بحنس) للسل زمنا ثم خرج ولم يطق ان يتبع نصائح الاطباء في تجنب العمل والخلود الى الراحة ، اذ راح ينفق جهوده في الدعوة الى توحيد الكلمة ، والوقوف في وجه الفرنسيين ومطالبتهم بحقوق تلك المنطقة المحرومة من العمران والثقافة والحرية وله وحده كما لابائه من قبل كان فضل هذه اليقظة الفكرية والوطنية والنهضة الاجتماعية في بنت جبيل .

وزرت بنت جبيل مع الصديق محمد جعفر الشبيبى ، وأخيه محمد حسين

الشبيبي ملبين دعوة الشيخ محسن شرارة في صيف سنة ١٩٣٦ وقد رأينا العجب مما كان يسود بنت جبيل من حماس وطني ، وحرارة ايمان ، وتحفز ووثبة لم يقتصر امرهما على شباب بنت جبيل وانما كان فيها الشيخ ، والمرأة ، والطفل على حد سواء ، وكان مبعث تلك الوقدة المتوهجة هو الشيخ محسن شرارة الذي استطاع ان يقضى على كل اختلاف في البلد ويوحد منها الكلمة ويوجهها توجيها مفيدا .

ودخلنا بنت جبيل بعيد هرب السيارة التي كانت تقل الامام السيد عبدالحسين شرف الدين والشيخ عبدالله السبيتي ، وقد قيل انهما كانا قد جاءا من (صور) لتلطيف الجو الصاخب في بنت جبيل ، ذلك الجو الذي كان قد استمد شرارته الوطنية من الشيخ محسن شرارة ، واستمد حرارته من روحه الوثابة المستعرة ، وقد هوجمت سيارة الامام شرف الدين بالحجارة ، وقيل ان بعض المهاجمين من الشباب قد تجرأ على الشيخ عبدالله السبيتي واختطف عمامته ومزقها مما ادى الى رجوع السيارة من حيث اتت ، وقد دخلنا بنت جبيل وهي تموج بالغضب ، وتعج بالصخب ، وكانت قبل الشيخ محسن تشكو الركود الذي يقارب الخمول ، ومن يدريني فقد يكون حس الانتقام للشيخ محسن شرارة قد مازج حماس البلدة الوطني وضاعف من هياجها في هذا المكان لان الشيخ محسن كان قد لقي في النجف من اتباع الامام شرف الدين الشيء الكثير من الاذى بسبب مخالفته في قضية (التطبير) وشج الرؤوس بالسيوف ، لان الشيخ محسن شرارة كان في مقدمة انصار الامام السيد محسن الامين الذي حارب (التطبير) كما مرت الاشارة الى ذلك ، وكيفما كان فقد وجدنا بنت جبيل يومها في اتون مشتعل من الحماس الوطني في وجه السلطة الفرنسية .

وهناك جلس الصديق جعفر الشبيبي وراء (سماور) كبير من البرنز اللماع في بيت الشيخ محسن وراح يصب لنا الشاي في فناجين عراقية كنا قد فارقناها منذ خروجنا من العراق وقد اشتقنا اليها اي اشتياق ، وكان مجلسنا شعريا رومانتيكيا مليئا بالدعابة والنكت مما يحجم عن ارتياده العلماء الرحانيون في بيوت الناس

فكيف اذا أقاموه فى بيوتهم وحضوا عليه الناس ودعوهم الى المسامرة والنكت ، ان ذلك كان يخفف من وزن الروحانيين عند السواد ولكن الشيخ محسن كان لايخاف هذا السواد ولا يختشى منه لانه كان يشعر بغنى نفسه وبقيمته حق الشعور .

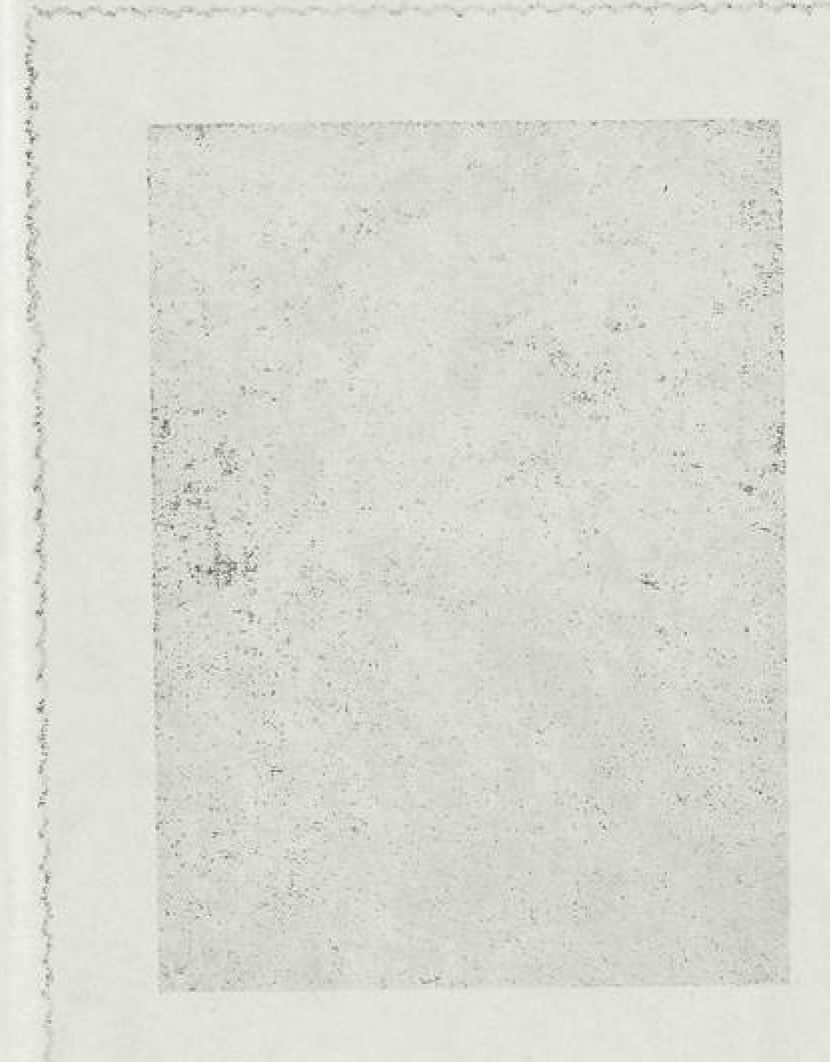
وكان شديد الاتصال بى وبجريدة الهاتف ولكنه انقطع بعد ذلك عن المراسلة ، وطالت مدة الانقطاع فلم اتلق منه خبرا وحتى لم يكن له بين الذين عزونى بابنى الوحيد (هاتف) اثر من رسالة او برقية .

وفى سنة ١٩٤٣ تلقيت منه رسالة وافية ، ضافية هى آية من آيات الادب ، واثر من آثار السحر ، وقد بسط فيها حاله ، وشرح لى ما يحيط به من ضيق روحى وما يشعر به من شقاء وان الامور تجرى على غير مجراها من حيث توجيه الناس ومصالحهم العامة وقال انه فوق ذلك كله يشكو من اعتلال صحته التى لاتساعد باى وجه من الوجوه على النهوض بالناس ودفعهم الى تغير اتجاههم ، وقد ملأ رسالته هذه بما عرف عنه من الموهبة الادبية اعتذارا منى على الانقطاع وقد اجبته على رسالته تلك فى وقتها ولم اعرف بعد ذلك الا انه نزيل مستشفى(الجامعة الامريكية) ببيروت ، وقد اجروا له عملية ، ولم يهتدوا الى علته ، وفى الوقت الذى كنت احاول الكتابة له مستفسرا عن حاله تلقيت من اخيه الشيخ موسى شرارة خبر نعيه .

لم تخسر بنت جبيل الشيخ محسن شرارة وحدها وانما خسره الفضل والخلق والايمان الصحيح فقد كان قدوة صالحة للاعمال الانسانية ، وعنوانا بارزا من عناوين التضحية فى سبيل اسعاد الامة ، وكان بعد ذلك شاعرا يئن لأنة المفجوعين ، ويبكى لبكاء المظلومين وقد عجل عليه الموت كما عجل على جده من قبل فتوفى وهو فى بردة الشباب وخلف فى نفسى لوعة لاتنسى .



المحامى عبدالمحسن القصاب



المحامي عبدالمحسن القصاب[1]

في اواسط صيف ١٩٣٤ صدرت جريدة الراعي في النجف وقد جعلت هدفها التعبير عن اليقظة الفكرية في الفرات وراحت الجريدة تشير الى هذا الهدف في سطر كتب بالحرف البارز (ان الراعي لسان حال اليقظة الفكرية في النجف) ثم صارت الجريدة تسعى لتحقيق هذا المبدأ بكل ما وسعها من جهد لتجعل من صفحاتها واسطة للتقارب والتعارف بين المجددين من الادباء والمثقفين من ارباب الاراء السديدة في مختلف الشؤون وثم تلبث (الراعي) ان عرفت في جميع الاوساط الادبية بكونها الجريدة التي تعبر عن اليقظة الفكرية في العراق فكان ان انبرى للكتابة فيها جمع من اكابر الادباء وزعماء الادب منهم الشيخ محمد رضا الشبيبي ، والاخطل الصغير (بشارة الخوري) ، وأحمد الصافي والشيخ علي الشرقي والسيد عباس شبر ، وابراهيم العريض وغيرهم ٠

ومن خيرة الكتاب والادباء الذين واصلوا نشر ابحاثهم وافكارهم بصورة مستمرة في هذه الجريدة كان عبدالمجيد محمود ، وكان اسكندر حريق ، وأمين الهلالي ، وموسى كاظم نورس ، ونايف نصر ، وفرحان حمادة ، وذو النون ايوب ، وغيرهم حتى لقد صار في رغبة كثير من المتأدبين ان يكون لهم اسم بين هذه الاسماء او ان يكون لهم رأي ضمن هذه الاراء ، فكان (الراعي) يتلقى كل يوم رزمة كبيرة من الشعر والنثر المرسلة بقصد النشر فلا يصفو منها بعد الغربلة الا القليل القليل ، فقد كانت (السلة) تلتهم اغلبه وكان البعض من الطرافة بحيث صار للراعي رأي في ان يجمع من خلاصة تلك (السلة) الطريفة مادة ازمع على اخراجها في كتاب باسم (سلة المهملات) وقد باشر فعلا بعد حذف الاسماء بنشر امثال من مضامين تلك السلة فكان لها بعض الصدى في النفوس ٠٠

---

(١) الهاتف ـ السنة الثالثة عشرة ـ العدد ٤٥٥ ـ أيار ١٩٤٧ ٠

وكان من بين هذه الاسماء الكثيرة اسم ـ عبدالمحسن داود القصاب ـ الذى كان يبعث الينا من الناصرية بالمقالات والقصص شيئا بعد شيء ، وعلى رغم اننا كنا نرمى بما يرسل الينا فى السلة بعد قراءته فقد كنا نعترف بان لصاحب هذه الرسائل استعدادا ادبيا ان استطاع ان يعنى به ويوجهه توجيها جيدا جعل منه هذا الاستعداد كاتبا ربما صار مرموقا ، وشاعرا ربما صار مطبوعا في المستقبل ، وزاد يقيننا هذا ببلوغه المرتبة التى نرجوها له ما وجدناه عليه من سعى متواصل فى الكتابة دون ان يتسرب اليأس الى نفسه من جراء عدم نشر كتاباته ، واحسب ان ذلك قد طال زمنا لايقل عن سنة او بضعة شهور كان يكتب عبدالمحسن ويرسل بما يكتب الينا ، وكنا نقرأه نحن ونرمى بما نقرأ فى بطن هذه (السلة) حتى رأيت من الانصاف ان اكتب له كتابا اذكر له فيه رأيى عن استعداده الادبى ولباقته الفطرية واشير الى ما يجب ان تكون عليه مقالاته ، وما ينبغى ان يراعى فى ذلك ليحقق لنفسه امكان استخدام تلك الموهبة باسرع وجه ومن اسهل الطرق ... وانى لاذكر جيدا كيف اكدت عليه وجوب الاكثار من مطالعة الكتب ، وقراءة آثار الادباء المصريين النثرية ، وآثار ادباء المهجر الشعرية قراءة متصلة مستديمة .

وبعد ايام قليلة وردتنى منه الرسالة الاولى (وكل رسائله محفوظة عندى) يشكر فيها هذه العناية التى لاقاها من (الراعى) ويعد بانه سينهج نفس النهج المذكور ، وكانت هذه الرسالة مبدأ للتعارف بيننا ، وقد اعقبتها رسائل اخرى لم تقتصر على هذه الناحية بل شملت نواحى اخرى اكتشفت فيها ملكات جعلتنى واثقا من انها لو اتيح لها يوما ان تظهر الى حيز الوجود لكان لها شأن ربما كان فيه شيء مما يثير الاعجاب ، ومن هذه الرسائل عرفت ان هذا الفتى موظف فى (مالية الناصرية) وانه فقير الحال ، وان فقره قد يحول بينه وبين اتمام دراسته ، وانه يسعى الان لان يجتاز الدراسة الثانوية ويلتحق بكلية الحقوق اذا استطاع ذلك ولكنه يريد ان يشبع رغبته الادبية فيكون كاتبا ويكون شاعرا ، وكانت اول كلمة نشرها له (الراعى) قصة باسم (صريع الفقر) وهى قصة حياته بالذات واذا اعوزها الفن ان تحكى قصة حياته برمتها وحقيقتها ، فلم يعوزها شيء لان تكون حكاية

جانب من نفسه وحكاية شيء من طموحه الذى قعد به الفقر فلم يدع له مجالا لتحقيقه ، وظل عبدالمحسن يكتب ولكن الذى كان ينشر له كان لم يزل قليلا ، غير ان هذا القليل كان يبشر بالخير ثم مات (الراعى) بكلمة واحدة قالت فيها الحكومة (ليمت الراعى) فمات ، وخلفه (الهاتف) فاذا بعبدالمحسن اوفر نشاطا ، واكثر حيوية ، ثم كان من ادنى الادباء الى معرفة الغاية التى يرمى اليها الادب ، فقد بدأ ينضج نضجا سريعا يوما بعد يوم وغدا يمارس الترجمة فيحسن اختيار القطع من الادب الانكليزى ويجيد ترجمتها كما صار ينظم بعض الشعر فى بعض المناسبات فيستلفت اليه النظر بعض الاستلفات ، ولم يمر على الهاتف ثلاث سنوات الا وكان عبدالمحسن فيمن يذكر من اعضاء اسرة الهاتف القلمية ...

وبدأ الهاتف ينوه بأسمه كاديب له من الملكات ما يغبطه عليها كثير من ادباء الشباب من اقرانه ، وتسنى له بعد ذلك ان يحقق رغبته فأكمل دراسة الثانوية ، وانتقل من الناصرية الى بغداد ودخل كلية الحقوق .

وما كأنه انتقل من بلد الى آخر قريب منه وان كان اوسع افقا بل كأنه انتقل من عالم الى آخر ، ومن دنيا الى ثانية ، بل من مزاج الى مزاج ، فهو اذا كان يعنى فى الناصرية بالصور التى تحكى احاسيس الناس ، وافكارهم ، وما يحيط بهم من مشاكل وآلام فهو فى صحف بغداد لايذكر من بيئته ومن محيطه وما كان يشعر به اى شيء مما كانت تطفح به مقالاته وهو فى الناصرية، وانما صار فى بغداد اديبا من طراز آخر ، ومن نوع ثان ، قد تكون الشقة بينه وبين الذى يكتب فى الناصرية واسعة جدا جدا .

انه يكتب اليوم الى الصحف اليومية كتابات ليس لقلبه فيها صلة ، انه يكتب كما تريد هذه الصحف او بالاحرى كما تريد المصلحة الخاصة ان يكتب ، اما الذى ظل يربطه بالماضى والذى ظل يمثل نزعاته الادبية واحاسيسه الصادقة فهو الذى ظل ينشره فى (الهاتف) او هو الذى كان يبدو على اساريره فى بعض المناسبات مما ينبض به قلبه ولكن صورته الظاهرة فى الجرايد السياسية كانت تشغل فراغا من الذهن اكبر من صورته الظاهرة فى (الهاتف) والماثلة امام العيون .

ومن هذا الطريق طريق الصحافة السياسية صار له على صالونات الوزراء والاعيان والاكابر دخول وخروج ، لابل صار له مكان معين ، ومن هذا الطريق تقرب القصاب الى كثير من الوجوه ورجال السياسة ، وبدأ كثير منهم يستميله لسياسته ، والسبب ـ كما قلنا انفا ـ هو ان لعبدالمحسن من الملكات ما كانت تجعله موضع اعجاب عند الكثير ، وقد ظهرت هذه الملكات ظهورا يلفت النظر في ميدان الصحافة السياسية ، وما تقتضيه المناسبات الوقتية لهذا الوزير اليوم ، ولذاك غدا ، ولغيره بعد غد .... وقد اشار هو الى حياته هذه في قصته التي عنونها باسم (قصتي) ونشرها قبيل وفاته في العدد القصصي من جريدة الهاتف ولكن هذه الدالة التي اصبحت لعبدالمحسن على هذا وذاك من رجال السياسة المتنفذين والتي فتحت له كوة من الحياة الرغيدة ، لم تنسه حقيقة الادب الكامنة في نفسه التي تتطلب من الاديب ان يصدع بها ، وان يعطيها ما ينبغي من الرعاية والاهتمام وكلما في الامر هو انها حالت بينه وبين اجابة رغبته وميوله النفسية زمنا فانقطع عن الكتابة للهاتف مدة خمس سنوات ...!!

نعم انه لم ينس حقيقة الادب ـ وان كان قد انقطع عن الكتابة للهاتف ـ ولقد كان ادبه هذا شاهدا كبيرا على قيمة الادب عنده يوم حصل بعض الالتباس عند البعض في نسبته الى اسرة (آل القصاب) فاندفع عبدالمحسن يصحح هذا الالتباس على صفحات الجرايد ، ويشير في صراحة تامة الى انه ليس له من العلاقة بآل القصاب المعروفين ما يجيز لاحد ان ينسبه لهم ، وما كلمة (القصاب) الملتصقة به ـ كما قال عبدالمحسن ـ الا صفة لابيه الذي كان (جزارا) فقيرا ، وأضاف الى ذلك معلنا يقول : « وفضلا عن ذلك فليس لي اسرة كآل القصاب» وان مثل هذا الاعتراف الذي يجري في ظرف لم يدع اليه داع ، ولم يطلبه منه طالب ، لدليل كبير على ما تحمل تلك النفس من ادب ، ومعان تنم عنها هذه المكاشفة ، وهذه الصراحة ، والشعور بلذة ارسال الحقيقة على سجيتها حتى وان كان ذكرها لايخلو من احتقار له عند بعض الناس ...

خمس سنوات مرت على معرفتي بالقصاب وقد اشتدت اواصر هذه المعرفة فصارت اكثر من صداقة وانا لم أر عبدالمحسن ولم اعرفه بوجهه حتى جرى انتقاله الى بغداد ، واتفق في احدى روحاتي الى بغداد وانا اهم بالدخول الى السينما إذ اوقفني شاب صبيح الوجه ، حلو الشمائل ، جميل الصورة ، انيق الملبس وقدم لي نفسه قائلا :

– انا عبدالمحسن القصاب •

قلت – ومن اين عرفتني ؟

قال – من هذا – واشار الى رفيق في جانبه هو الاخر من أهل الناصرية وكانت له معرفة سابقة بي على ما قال ولكني لم اذكرها – •

فقلت – انها فرصة ثمينة اذا تفضلتما فدخلتما السينما معي ليتم لي ان اتمتع بروايتين في آن واحد •

قال – ولاجل السينما جئنا نحن ففوجئنا بهذه المفاجأة السارة •••

وهنا في السينما سألت عما لم يتم لي ان اسأل عنه في رسائلي او ممن يمت الى عبدالمحسن بصلة ، لقد سألته عن كل شيء فما وجدت شابا أجرأ منه على ذكر الحقيقة ، وما وجدت شابا اكثر خضوعا للحق منه ، وزادني في هذه المقابلة ايمانا بانه يحيا حياة مزدوجة في وجهين متناقضين ، حياة من أجل ان يعيش ، وكلها كذب ، وخداع ، وغش ، ومجاملة على ما وصفها هو نفسه لكي يعيش من وراء هذا عيشا يكفل له ولاولاده الراحة النسبية ••!! ثم حياة كلها نكد ، وشقاء ، وغم ، وهم ، لانها عبارة عن افكار وتأملات قد تطغى احيانا على نفسه وتفيض فيحكيها وجهه ، وعيناه ، حكاية اشبه ماتكون بحكاية الرموز التي هي ابلغ من الصراحة ، لذلك كان الذين يعرفونها ويهتدون الى معانيها ومفاهيمها ليسوا قليلين •

هنا •• هنا •• عرفت فيه شابا اخر قد يكون احد عشرات الشبان الذين وهبهم الله شيئا غير قليل من احاسيس مرهفة وادراك في فهم الحياة ، وملكة كان يستطيع ان يوجه اليها الانظار ويقتعد بها مكانة قد تكون رفيعة من الادب لو لم تجرفه الحياة

المعوجة ، التى قضت بان تسخر المواهب لغير غاية غير مدح الساسة وكيل الثناء لهم والا فقد قضى عليهم ان يموتوا جوعا اذا لم يموتوا ذلا ...

وفى اليوم التالى كنا نتغدى معا فى أحد المطاعم ، وتناول الحديث الوانا اخرى كانت اشبه ما تكون باستعراض شامل لكل ما يثير السخرية والتهكم فعرفت فيه هنا ناقدا يحسن توجيه الانظار الى مواطن الضعف ويعرف كيف يثير الضحك ممن لايرتضيهم ان حقا ام باطلا .

وكثرت بعد ذلك رؤيتى لعبدالمحسن فى كل سفر من اسفارى الى بغداد وكان يزيد اسفى فى كل فترة انى كنت اكتشف فيه ناحية جديدة من النواحى الدالة على حسناته الخلقية ولكنى كنت اراها مقيدة فى دائرة ضيقة محدودة مجهولة، ومع كل ذلك ومع شكواه الطويلة العريضة كنت المس نشاطه فى الحقول العامة وفى المناسبات الوطنية وفيما يمكن له ولامثاله ان يقوموا به من تحطيم القيود ولربما جمحت به مواهبه وانطلقت بعض الاحيان فظهر سافرا للعيون ، ولقد ترك بعض المؤلفات التى تلمس فى بعض فصولها هذا الجموح وهذا الانطلاق ، وكنت انتظر له الساعة التى يستطيع ان يستغنى فيها عن المجاملة والمواربة والكذب ، والخداع ، كما كان يصفها هو ليستطيع ان يستخدم الادب ويستغله احسن استخدام ، واكمل استغلال ، وبعبارة اخرى اننى كنت انتظر ان يجيء يوم يصيب فيه عبدالمحسن من الرزق ما يكفل له العيش فينصرف الى خدمة الادب .

وتشاء الاقدار ان يمشي اليه السل بطريقة نقلها هو في قصة كتبها عن نفسه فى عدد (الهاتف القصصى) فنقل الى لبنان مستشفيا ، وهناك تحسنت صحته بعد زمن فعاد الى العراق وهو يكاد يشفى تماما ولكنه عاد من جديد لينغمر فى العمل ، وهنا كان قد صار محاميا ، وقد خاض معركة انتخاب نقابة المحامين داعيا الى انتخاب نجيب الراوى نقيبا . وقد استطاع (القصاب) فى هذه الآونة ان يكون عنصرا فعالا دل مرة اخرى على ما يملك من قابليات متعددة ، ثم كان محاميا لبقا استطاع غير مرة ان يوجه انظار بعض القضاة والحكام نسبيا الى بلاغته ، واسلوب بيانه ، وكان من قبل خطيبا

بارعا ، ولقد خطب فى حفلة تأبين الشيخ محمد حسن حيدر نائب لواء المنتفك خطبة استطاع ان يوصلها الى مسامع الصم والى قلب الصخر على ما وصفه به بعض الادباء • وكان قد انقطع عن الهاتف ـ كما قلت خمس سنوات ـ لم يكتب فيها شيئا لانغماره فى تلك المشاغل ، واذا به وعلى غير انتظار يرسل للهاتف حلقة من سلسلة باسم (فى مجال محاماتى) ويقدمها بكلمة يذكر فيها اسباب القطيعة وقد بدأ الهاتف نشرها فى العدد ٣٧١ •

وظلت هذه السلسلة تعمل عملها فى نفوس القراء ذلك العمل الذى كنا نتوقعه ، لانها كانت سلسلة من مصائب البيوت والاسر والمشاكل المعقدة من الاجرام التى لم يستطع ان يضع يده عليها وينبه الافكار الى خطورتها ويدل على مواطن علاجها غير محام لبق ، واديب حساس ، فكان المحامى عبدالمحسن القصاب هو ذلك المحامى الذى يملك شيئا من اللباقة ، والادب او الذى يريد ان يملك ذلك الشىء على الاقل وقد اشار فى تلك السلسلة التى نشرها له (الهاتف) تباعا الى الدعاوى التى قام فيها وكيلا ، ومحاميا ، وسردها بجميع تفاصيلها سردا ابدع فيه ابداعا استرعى انتباه القارىء حينا ، وفى هذه السلسلة حقق معتقد الكثير فى مستقبله الباهر ، اما الكلمة التى قدم فيها سلسلته المذكورة والتى نشرت فى العدد المذكور من الهاتف فهى :

« •••• وهكذا وبعد ان انقطعت عن الهاتف اكثر من خمس سنوات لا ترفعا ، ولا اهمالا ، فالهاتف استاذى الاول واستاذى الامين ، والهاتف ملء السمع والبصر ، ومفخرتى الادبية اذا افتخرت ••• وعنوان الصفحة الاولى من كتاب حياتى الاجتماعية ، ولكنها ظروف العيش ، ورغبة الشباب فى الدرس ، وطموحه ، وما دام دولاب الحياة قد عاد سيره الاول ، فلابد ان يعود هذا القلم لمحيطه الادبى الاول ، ولابد ان يجيب رغبة الهاتف يوم قالها لى كلمة قبل ثلاث سنوات « ارجو الا تترك الادب » فاجبته : ولن اتركه ، وسأنتظر هذه المرحلة من الحياة القاسية ، ومتى اشرقت شمس الغد فسيكون كلى للادب وكلى للهاتف ، واذا كان عرفنى قراء الهاتف بالامس قصصيا ينزع من المجتمع الوان صوره ، فاننى سأتقدم لهم اليوم بصورة اجتماعية جديدة سأنتزعها من صميم المجتمع ، ومن مسلكى القانونى ، فاقدم

لهم فى كل عدد ـ بعون الله ـ حادثة مما وقعت فى حياتى اليومية الجديدة ، عسى ان يكون بها فائدة ، وفيها متعة ، وان رضا الهاتف وقراء الهاتف لهو العوض فى ذلك .... » .

وكان ما نشره الهاتف للقصاب مرآة صادقة لادبه ولنفسه التى لاتشوبها شائبة الخداع اذ لم ينشر فى الهاتف الا القطع التى كان يتناولها من حسه ، ويقتطعها من قلبه ، فاذا اراد احد ان يعرف القصاب الاديب فلن يعرفه من غير طريق الهاتف ، ولقد ساهم القصاب فى عدة اعداد من اعداد الهاتف القصصية زيادة على عشرات القصص المترجمة والموضوعة التى نشرها له الهاتف فكان من اكثر اعضاء اسرته القلمية انتاجا ، ومن احبهم الى نفوس القراء .

وظهر اخيرا انه لم يشف من مرضه تماما ، وان مرضه هذا بدأ يشتد عليه ساعة بعد اخرى ، وكان للحماس الذى ابداه فى معركة انتخاب المحامين قبل سنتين كل الاثر فى انتكاس صحته ، كما كان لحياة المرح التى تلازم بعض الشباب شيء من الاثر على تأزم مرضه ، فقضى وقتا طويلا بمراجعة الاطباء ، ولما يئس قصد لبنان ودخل مصح (بحنس) للسل هناك ...

وفى مصح بحنس قام بنشاط كبير في مختلف النواحي الادبية ودعا الى تأليف فرقة مسرحية من المسلولين ، كما قام بتأليف جمعية ادبية نفخ فيها شيئا من روحه فاذا بعدد كبير من اعضائها يستحيل بين ليلة واخرى الى متأدب يعشق الادب ويتبع آثار القصاب التى نشرها (الهاتف) .

وفى مقطوعته هذه التى نظمها فى (بحنس) تصوير صادق لهواجسه وما كان يجول فى نفسه وهو فى آخر ايام حياته حين يقول :

تعالى من ربى بلدى   أعيدى ماضى الحب
ففى (بحنس) لى قلب   حزين دائم النحب
فلم يلق سوى الوادى   يناديه على الرحب

الى المـوت بلا حزن ولا عطف ولا ندب

* * *

تعـالى برداء المـوت ـ وا رحمـاك ـ غطينى
ففى دمع الندى (غسلى) وبالآهـات (تلقينى)
وفى انشودة الاحبـاب لا (الاغراب) .. فارثينى
وان قالوا ـ من الميت ؟ فقـولى ـ من بنى الطـين

* * *

على القبر رعـاك الله خطى آيـة الذكـر
بذوب الرئة الاحمر من صـدرى لا الحبر
وقـولى ـ شـاعر مـات غريبا فى صبا العمـر
تغنى فى هوى (سـلواه) بالاهـات والشـعر .

وشقاء (القصاب) بعد هذا ملموس فى جميع آثاره الادبية وحتى فى اسـماء اولاده الذين تركهم صغارا ومات وهو فى يافع العمر وزهرته حين سماهم (صواعق) و (كفاح) و (نضال) فقد كانت كل حياته المعنوية والروحية عبارة عـن صـواعق وكفاح ونضال .

* * *

وجريا على عادة (الهاتف) السنوية التى تلزمنا بتذكير اصدقاء الجريدة مـن كتاب القصة بحلول موعد صدور العدد القصصى الذى اعتاد (الهاتف) ان يفتتح به كل سنة من سنيه ، كتبنـا له الى مصـح (بحنس) بذلك ، فبعث لنا بالقصـة التى نشرت فى مستهل السنة الثـالثـة عشرة من الهاتف ومعها رسالة تفيض بالعتاب لعدم وصول الهاتف اليه طوال هذه المدة ـ وكان الهاتف قد انقطع عنه بلا سبب غير تبدل عنوانه الذى لم يعرف عنه محاسب الجريدة شيئا ـ وفى ضمن هـذه الرسالة كان يتنبأ بموته اذ يقول :

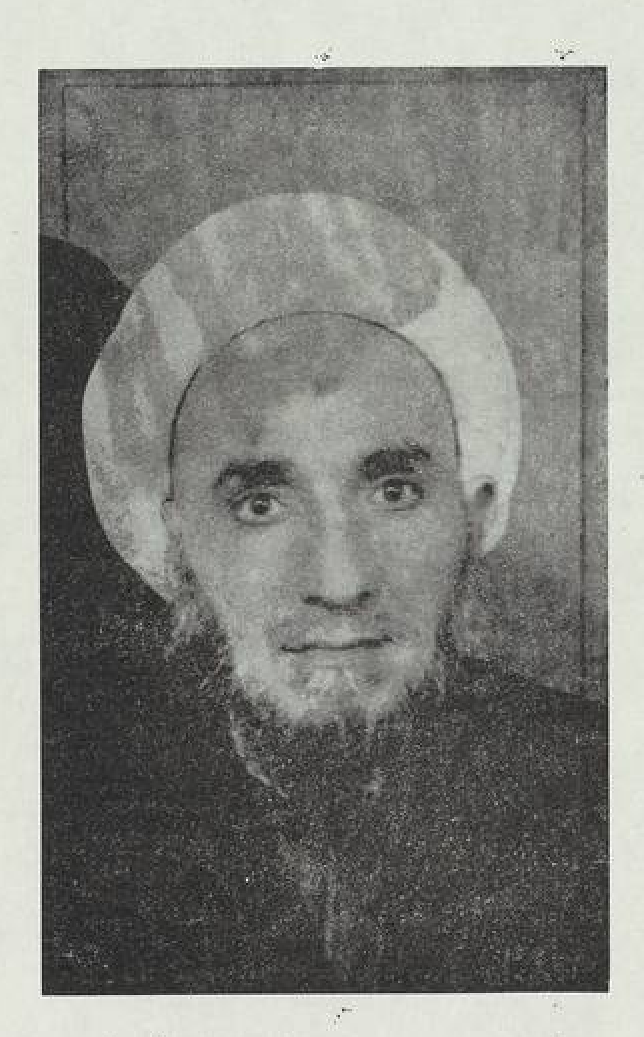
« ... لقد كتبت لكم ما قدرت عليه وانا فى غمرة عنيفـــة من المرض الذى لايعطف ولا يرحم ، وسواء أنالت القصة عندكم القبول ام لم تنله فقد اديت واجبى نحو الهاتف وانا فى اعنف أزماتى النفسية والحياتية ومن يدرى فربما كانت هذه الاقصوصة تحية وداع ابدى من تلميـذ مخلص وصديق وفى لاستاذه وصـديقه الهاتف » .

لم اخفى على القراء الحقيقة ؟ ولم اتظاهر بالجلد الكاذب ؟ بل لم لا اصارح القراء واعترف لهم بانى بكيت كثيرا ساعة قراءتى كتابه هذا وهو لم يمت بعد ، وبكيت اكثر ساعة قراءتى الكتاب بعد مماته ، وساعة غدوت استعرض ادبه وذكرياته التى سجلها (الراعى) و (الهاتف) وانا اعلم ان بكائى عليه غير مجد ، ولكن من لى بمن يبعد عن ذهنى صورته الراسخة رسوخ العقيدة فى قلوب المؤمنين ؟ ومن لى بمـن يبعد عنى تخيل هذا الشبح الهزيل الممدود على السرير ، الغائرة عينـــاه والذابلة شفتاه ، والمنطفئة شعلة بهائه ـ وهو الشاعر والاديب المرهف الحس ـ بعيدا عن اهله ، غريبا عن موطنه ؟ من لى ؟ من لى ؟ وكانت كلمته المتقدمة كلمة وداع حـــقا اذ توفى قبيل نشر قصته ..!!

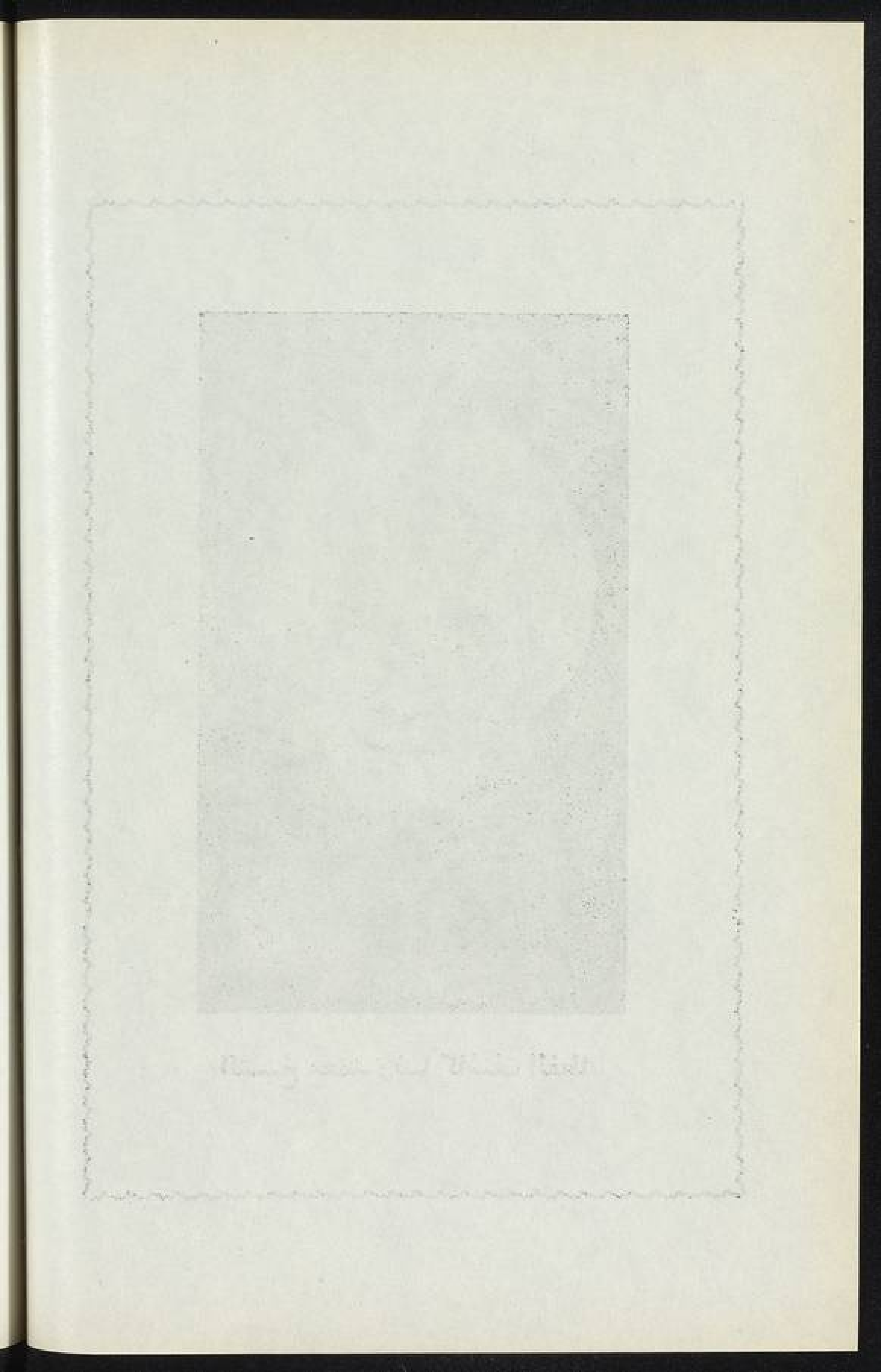
مات عبدالمحسن القصاب قبل ان يبلغ أدبه مداه ، وقبل ان يصل الى الذروة التى كان من المحتم ان يصل اليها لو كان المرض قد امهله ، ومع ذلك فقد ترك فى الراعى والهاتف من الاثر مايكفى ليجعله ضمن اولئك الذين استطاعوا ان يفيدوا الناس بأدبهم اكثر مما هو مطلوب من امثاله .

واننا نعتقد ان لعبدالمحسن حقا ـ بعد حقه على الادب والادباء جميعا ـ على بلده (الناصرية) نرجو ان تؤديه (الناصرية) فى احياء ذكراه بقدر ما نرجو ان تؤديه فى رعاية اولاده ، وان مثل هذا الحق له على نقابة المحامين اكثر واكثر فقد كان من اعضاء النقابة العاملين ، ومن عناصرها النشطين ، وممن عرف شرف المحاماة وكرامتها فذب عنها كثيرا بالقول والعمل على قدر ما فسح القضاء له من المجال .

مات عبدالمحسن وبموته انكسر قلم عز على الادب ان ينكسر ، ولكن ذلك ما شاءه الله ولا مرد لما يشاء الله .



الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء



الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء [1]

لقد جاءت اول معرفتى بالشيخ محمد رضا كاشف الغطاء عن طريق ولده الشيخ على كاشف الغطاء ، فقد كنت قبل خمس وعشرين سنة مدرسا فى المدارس الحكومية ، وكان الشيخ على طالبا فى المدرسة الرسمية الوحيدة يومذاك فى النجف ، وكنت اجد فيه كل ما يتطلب المعلم ان يجده لدى تلميذه ، من فطنة ، وفهم ، وطاعة ليوفر للمعلم مجهوده ، وليحقق هدف التعليم على احسن وجه وصورة ، وكنت أوثر الشيخ على على جميع اقرانه أو على اغلب اقرانه – على الاقل – لهذا السبب ، وكان لهذا الايثار قيمته عنده ، فكان يسعى دائما لاقامة الدليل على شكره لى وامتنانه منى باساليب واحدة لم تتغير ، ولم تتبدل طوال الزمن ، وهى ان يتحفنى باعداد مجلة المقتطف كلما وصلت الى ابيه ، وبكتاب او كتابين مما كان يصل اليهم بين آونة واخرى من الكتب الحديثة التى كانت بعض المكتبات المصرية ، تجريها فى حسابهم ، وترسلها بناء على طلباتهم ، فكنت اقرأ هذه الكتب والمجلات واعيدها اليهم عن طريق الشيخ على مصحوبة بالشكر مع ابداء الاعجاب برجل من الروحانيين يعنى مثل هذه العناية بقراءة الكتب والمجلات الحديثة ، تلك العناية التى لم تترك كتابا جديدا – فيما يتعلق بالادب والاجتماع والتاريخ – يمردون الوقوف على زبدته والاحاطة بموضوعه على قدر الامكان ...

ولقد علمت فيما بعد ، ان هنالك ناحية اخرى تستحق الاعجاب وهى ان للشيخ محمد رضا ، ولابيه الشيخ هادى مكتبة نفيسة تحوى اندر الكتب وانفسها ، من مخطوطة ، ومطبوعة ، كادت تنفرد بها هذه المكتبة دون المكتبات الاخرى فكان ذلك حافزا من حوافز توثيق الصلات بينى وبين هذه الاسرة أبا وجدا ، وكنت

(١) الهاتف – العدد ٤٦٢ – السنة الثالثة عشرة – حزيران ١٩٤٧ .

المس نفس هذه الرغبة فى توثيق الصلة عند الاب الشيخ محمد رضا وعند الجد الشيخ هادى الشيخ عباس ، ولست ادرى أكان ذلك بسبب تقارب شعورنا فى تتبع ما يقع تحت اليد من الكتب الحديثة والانهماك فى مطالعتها ؟ ام بسبب عنايتى الفائقة بابنهما الطالب ، او بداعى صداقة ابى لاسرتهما ؟ وكيفما كان الامر فقد رحت أسأل، واستزيد عن الشيخ محمد رضا وابيه الشيخ هادى الشيخ عباس سؤال من يحلو له ان يعرف عنهما كل شىء كبيرا كان ام صغيرا .

وكان ابى اكثر من يعرف عن هذا البيت العريق ومحله من اسرة آل كاشف الغطاء ، وكان لكثير من رفاقى وزملائى فى المدرسة وخارجها الملم لا بأس به عن هذا الاب والجد بسبب القربى ، او الصداقة ، او الجوار ، فكونت لنفسى فكرة واسعة عنهم احسب انها كانت كافية لاشباع رغبة التطلع واكثر . خصوصا وانني كنت اعرف أسرة آل كاشف الغطاء واعرف شيئا غير قليل عن تأريخها العام .

اجل لقد علمت ان الشيخ محمد رضا هذا هو ابن الشيخ هادى ، والشيخ هادى هو ابن الشيخ عباس الشيخ على آل كاشف الغطاء ، وان الشيخ عباس الشيخ على كان قبل خمسين سنة واكثر من اكبر زعماء النجف بل اكبرهم على وجه التحقيق ، وقد كان يجمع الى جانب علمه ، وأدبه ، مزايا كثيرة جعلت من بيته ديوانا حافلا برجال العلم ، والادب ، والشعر ، وملجأ للخائفين ، والمشتكين وارباب المشاكل الذين يبحثون عن الحلول لمشاكلهم العامة والخاصة ، ذلك لان الشيخ عباس لم يكن وجيها فى المدينة وحدها وانما كان له عند الحكومة العثمانية وولاتها جاه كبير بحيث يبعد ان يرد له رجاء يتعلق بمصلحة البلد العامة ، او مصالح الناس أو ارباب الحاجات الخاصة ، فكان لابد ان يسمو الشيخ عباس فى عيون الناس ، من الحضر ، والعشائر المحيطة بالنجف ...

ولقد سمعت الشيخ جواد الشبيبى يقول :

لقد سمعته يقول :ـ قد كان للشيخ على اشعاع خاص ، هو اشبه بالجاذبية أو القوة المغناطيسية التى لايكاد يوجهها الى احد حتى يكهربه ، ويجذبه اليه ..

وان مصدر هذا الاشعاع على الغالب كان حسه المرهف ، وفهمه للامور ومقتضياتها وأين يجب ان يضع كل شيء وزمان وضعه ...

والدليل على تلك الميزة ـ ميزة وضع الامور فى مواضعها عند الشيخ عباس ـ هو ان للشيخ عباس ابن عم يسمى بالشيخ عباس الشيخ حسن ، وهو جد الشيخ محمد رضا لامه ، وقد كان اغزر علما من الشيخ عباس الشيخ على ، وأكثر احاطة ، واوسع اطلاعا فى علم الفقه ، والرجال ، وسائر العلوم الدينية ، ولكنه لم يبلغ شاو ابن عمه الشيخ عباس الشيخ على الذى كان يترأس جماعة العلماء والوجهاء عند حلول المشاكل والمهمات . والذى كان لادبه ورجحان عقله القدح المعلى فى تلك الايام .

وسمعت من الشيخ جواد الشبيبى ايضا ـ وقد كان صديقا حميما للشيخ هادى والد الشيخ محمد رضا ـ لقد سمعت منه يقول ـ ان الفضل الاكبر فى ثقافة جمهرة من فحول ادباء الجيل الماضى فى النجف يعود الى الشيخ عباس الشيخ على والى ديوانه العامر بخيرة اهل العلم ، والادب ، والظرف يومذاك ، وان نشأة الشيخ هادى العلمية ، وثقافته الادبية ، لمدينة لحد كبير الى هذا (الديوان) الذى كان يحكى مدرسة ، او منتدى من نوع خاص .

وحين مات الشيخ عباس الشيخ على ، حزنت النجف واطرافها من القبائل حزنا لم يعرف له نظير من قبل ، وصارت مواكب العزاء والمعزين تقدم على النجف تترى حتى لقد استمر ورود مواكب العزاء ووفود المعزين اربعين يوما على ماقيل .. وقد القى هنالك من الشعر الفصيح والدارج ما يؤلف عدة دواين يستطيع مؤرخو الادب ان يعونوا عليها فى دراسة ذلك العصر ، واتجاهاته الادبية ، والوانها ، ولقد ظل الصغار والكبار ـ على ما قيل ـ يحفظون اهازيج الرثاء ، واناشيده زمنا طويلا ، ويرددونها فى الشوارع والازقة ...!!

وكان من بين تلك المواكب التى قصدت ديوان آل كاشف الغطاء للتعزية كان موكب (الشوشتريه) ، والشوشتريه هؤلاء جالية من مدينة (شوشتر) تسكن النجف منذ مئات السنين ولها فى النجف اليوم كما يعرف الجميع مؤسسة (حسينية) تقيم

فيها المآتم الحسينية فى كل سـنة بمناسبة شهر (المحـرم) ، وقد قـدم مـوكب (الشوشتريه) على بيت الشيخ هادى معزيا ، وبعد ان لطموا وقرأوا مرثيتهم وخرجوا نطق خبيث منهم هازجا بهذه الاهزوجة باللغة الفارسية الدارجة ، فهزج الجميع معه وبنغمة رتيبة راحوا يكررونها ويهتفون بها :

عباس على مرد عباس حسن ماند
يك حيف كه ان مرد صد حيف كه اين ماند

والمعنى هو «انه قد مات الشيخ عباس الشيخ على ، وقد بقى الشيخ عباس الشيخ حسن ، واذا كنا نأسف لموت الشيخ عباس الشيخ على مرة واحدة فاننا لنأسف مائة مرة لبقاء الشيخ عباس الشيخ حسن فى قيد الحياة» ... وظلت هذه الانشودة موضع تفكه الناس عدة سنوات .

ولما كان الشىء بالشىء يذكر كما يقولون فانى اعرف ان الشيخ عباس الشيخ حسن كان قد استجاب دعوة شبلى باشا الذى فتـح للصحن الشريف فى النجف بابا - هو اليوم يسمى باسم باب العمارة ، او باب سوق القاضى ، او باب الفرج ... اقول لقد استجاب الشيخ عباس الشيخ حسن دعوة شبلى باشا الى وضـع تاريخ شعرى لهذا الباب فجاء تأريخه الشعرى على هذا النحو :

« جلت علت باب سلطان السلاطين » .

وحين قرىء هذا التاريخ فى أحد المجالس الادبية العامة صاح من هناك الشيخ محمد كاشف الغطاء (وهو ابن عم الشيخ عباس وكان من فحـول الادباء واهـل الفطنة) لقد صاح ان هذا التاريخ الذى وضعه ابن عمنا لينقص ثمانمائة سنة عن تاريخ فتح الباب ...؟!

وحين استوضح الحاضرون منه اعتراضه قال :-

قال الشيخ محمد - لان (الباب) مذكر ، وقد انثه الشيخ عباس ، فاذا ما اردنا تصحيحه بحذف التائين ، من التاريخ فلن يبقى لدينا بعد ذلك الا ان نقول - (جل علا باب سلطان السلاطين) .

وبذلك ينقص العدد فى حساب التاريخ الابجدى ثمانمأة سنة ....

وعلى رغم ان الشيخ محمد كاشف الغطاء لم يرد التنديد بابن عمـه فقـد تحول المجلس الى ضحك واستمر حديث هذا التاريخ يروى عدة سنين ..!

ولكن الشيخ محسن الخضرى قد وضع فى الوقت نفسه تاريخا للباب على هذا النحو . « لقد فتح الشبلى نحيدرة بابا » .

فى هذا البيت وتحت ظل الشيخ عباس الشيخ على نشأ الشيخ هادى الذى ورث شيئا غير قليل من شمائل ابيه ومزاياه وانجب ولدين كان الاول منهما (مجيد كاشف الغطاء) الذى خطفه الطاعون وهو لم يزل فى مقتبل العمر وقد ترك امثلة قلما روى نظائرها فى عالم الفطنة والذكاء وسرعة البداهة ، وكان الثانى هو الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء الذى خطفه السل وهو فى مبتدأ دور الكهولة .

قلت انى عرفت هذه الاسرة معرفة لابأس بها وقد تكون كافية لمجاراة رغبة واحد مثلى فى مثل ذلك الدور ، وكنت قد رأيت الشيخ هادى يصـلى بالناس فى الصحن الشريف وخلفه عدد من صفوف المؤتمين ، لقد كنت اراه كلما يصادف مرورى على (باب الطوسى) .. ثم رأيته مرات فى مجالس النجف العامة مشتركا فى احاديث علمية او ادبية ، كما قد رأيت ابنه الشيخ محمد رضا على هذا النحـو او بعضه ، ومع ذلك كله ، ومع تلك المعرفة ، ورؤيتى للشيخ الاب ، وللشيخ الابن - عن طريق الحفيد الشيخ على يوم كان طالبا فى المدرسة - وكثرة ما كان يعيرنى هذا الحفيد من الكتب التى يستأذن فى اعارتها جده واباه ، ثم الرغبات المتبادلة بينى وبين هذا البيت فى توثيق عرى هذه المعرفة اقول ومع ذلك فقد كانت صلتى بهم لم تتجاوز بعد حدود السلام والتحية حين اراهما فى الطريق منفردين ، أو مجتمعين وكثيرا ما كنت اراهما معا فاراهما كصديقين حميمين لا فارق بينهمـا الا السن والا اللحية البيضاء التى تزين وجه الاب الوقور الشيخ هادى والا الحمرة التى يصطبغ بها وجه الابن الضاحك المتهلل الشيخ محمد رضا .... وما عدا ذلك فهمـا يتحدثان ، ويتناقشان ، كندين وكزميلين ، لافرق بين احدهما والاخر ....

ولا ادرى متى بعد ذلك تم لى الاختلاف الى بيتهم ، وحضور ندوتهم فى ذلك الديوان الذى بقى رمزا من رموز الشيخ عباس الشيخ على ، وعنوانا لما كانت عليه (مجالس) النجف ويمتد (مجلسهم) ـ ولاسيما فى شهر رمضان ـ الى وقت متأخر من الليل يقضى الشيخ هادى فيه شطرا ، ويترك لابنه الشيخ محمد رضا الشطر الآخر ، ليقطع الوقت فى مساجلة علمية ، او ادبية ، حسب مقتضيات الوقت وحضار (المجلس) .

* * *

واذكر ليلة من ليالى شهر رمضان زار فيها السيد عبدالعزيز الشواف ـ وكان حاكم مدينة النجف يومذاك ـ لقد زار ديوان الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء ، وبصحبته الشيخ محمد السماوى ـ وكان يومها قاضى محكمة النجف الشرعية ـ ومعهما صديقى الحاج مصطفى الصراف الذى كان من اعز اصدقاء (الشواف) و (السماوى) ، والشيخ محمد رضا كاشف الغطاء معا ، وكان الحاج مصطفى الصراف من المعجبين بالشيخ هادى الشيخ عباس ، ومن المؤتمين به فى صلاته بحيث قلما شغله شاغل عن حضور الصلاة خلف الشيخ هادى ، ولكنه لطارىء من الطوارىء البيتية اضطر للتخلف عن حضور صلاة الجماعة فى الصحن الشريف عدة ايام فافتقدوه ، وفى هذه الزيارة من تلك الليلة من شهر رمضان استغل الشيخ محمد رضا المناسبة ليحول المجلس الى مجلس مفاكهة ، ومنادرة ادبية ، فقال موجها كلامه الى الشواف ، لقد قال انه ـ ينتهز فرصة وجود الحاكم فى بيته ، ليرفع شكوى له ضد الحاج مصطفى الصراف ... ويتهمه بتضعضع ايمانه بترك صلاة الجماعة ، وتفضيل الصلاة المنفردة عليها ، واضاف الشيخ محمد رضا قائلا : لذلك لن اترك الحاكم والقاضى يبرحان هذا المنزل قبل صدور الحكم بادانة الحاج مصطفى ، وتغريمه بمقدار مناسب من اكياس الحنطة ، واكياس الرز ، ومقدار من التمر لتوزيعه على الفقراء بمناسبة شهر رمضان ، فما يقول مولانا الشواف والسماوى

ورأى السيد عبدالعزيز الشواف فى هذا الاقتراح فرصة جميلة للمطايبة ، والمفاكهة الادبية . فقال :

ـ وانا مستعد لقبول الشكوى ، والنظر فيها ، ولكن على ان تقدم مكتوبة على الورق فى هذه الساعة ، والافضل عندى ان تنظم هذه الشكوى شعرا •• وسأصدر القرار هنا شعرا وفى نفس هذه الجلسة •

وكثر الحوار فيما اذا كان الوقت يساعد للتعبير عن الغرض بالشعر فى مثل تلك العجالة والارتجال ؟ واقترح البعض ان تؤجل الجلسة الى يوم آخر ليتقدم فيها الشيخ محمد رضا بشكواه شعرا ، ولكن الشيخ محمد السماوى أصر على أن جمال المفاكهة كله انما هو فى الارتجال نفسه ، فلم ير حينذاك الشيخ محمد رضا بدا من ان يستجيب للطلب فمسك القلم وفى دقائق معدودات وضع المقطوعة التالية امام الحاكم :

من حامل للحاكم الشواف	ذى العدل والوجدان والانصاف
عنى شكاية مستغيث يشتكى	صنع المهذب ـ مصطفى الصراف
ترك الصلاة (جماعة) فى وقتها	و (الترك) مكروه بغير خلاف
قد كان عضوا فى الجماعة عاملا	يدعو لها من سائر الاطراف
شهر الصيام أتى وفيه فضلها	بين البرية لم يكن بالخافى
هل كان يأمل (وحشة) ما نالها	او ظن ان (الاقتداء) ينافى
ان كان يرجو راتبا كموظف	فالامر امر وزارة الاوقاف
فاذا اطاع وعاد يغفر ما مضى	من فعله والله نعم العافى
واذا عصى فاحكم عليه بمبلغ	من غير تبذير ولا اسراف
من بر او تمر يوزعه على	ذى علة وارامل وضعاف

و (الوحشة) التى يشير اليها الشيخ فى هذه المقطوعة هى اجور تدفع لفقراء يصلون للاموات فى اول ليلة اقبارهم صلاة تذكارية تسمى بصلاة الوحشة ، وكان يريد ان يقول هل ان الحاج مصطفى من هؤلاء الفقراء الذين يبحثون عن اجور (الوحشة) ولم ندفعها لهم ؟ اما الاوقاف فقد كانت يومها وزارة ثم صارت بعد ذلك مديرية ••••

ولقد ثقل على الشيخ محمد السماوى وهو استاذ التاريخ الادبى المعروف

فى عصره لقد ثقل عليه ان يرى الشعر المرتجل يجرى على قلم الشيخ محمد رضا بهذه السرعة وهو عالم فقيه وليس بشاعر ولا يجرى على قلمه هو فتناول القلم ، وتولى الرد نيابة عن الحاج مصطفى الصراف وكتب :

للحاكم المعروف بالانصاف ... عبدالعزيز الفاضل الشواف
هذا جواب شكاية بلغتها ... فى (عرض حال) جله متنافى
من ذى المكارم والعلى الشيخ الرضا ... علم الافاضل عمدة الاشراف
انا لم ازل لابيه حامل رآية ... منشورة بمحاسن الاوصاف
ادعو له سرا وجهرا فى الورى ... فى سائر الاقطار والاطراف
واقول فى (الهادى) الهدية والتقى ... والعلم امر لم يكن بالخافى
وارى المصلى خلفه صلى بها ... خلف (الامام الحق) دون خلاف
فعلام يرمينى بسهم جناية ... ويقول لى استغفر وربك عاف
ويروم تجزيتى الغرامة بعد ذا ... فكأن الاستغفار ليس بكاف
وعليه اطلب رد دعواه بها ... حكما وجاهيا بلا استيناف
فاحكم وحمله مصارف هذه ... الدعوى (بدعوة) مصطفى الصراف

(والدعوة) هنا اراد بها صدور الحكم باقامة وليمة للحاج مصطفى كما لايخفى على القارىء • وكان قد عز على الحاكم (الشواف) ان يرى المدعى والمدعى عليه مرتجلين خصوصا وهو المقترح ثم لايكون هو الاخر مرتجلا ، فاخذ القلم بيده وبنفس السرعة والعكوف على الورق اصدر القرار التالى :ـ

باسم الجلالة سيد الاشراف ... اصدرت حكما مقتضى الانصاف
دعوى (محمد رضا الهادى) على ... صنع المهذب مصطفى الصراف
لم تخل مما قد يبرر ردها ... من وجهة التقويم والاسعاف
اما الصلاة (جماعة) خلف الذى ... هو كاسمه هاد بغير خلاف
فالحكم فيها واجب اذ أجرها ... نص الشريعة عد بالانصاف
لكن مطلبه بدفع غرامة ... قد جاء فى شىء من الاجحاف
اذ كيف يحكم بالغرامة تائب ... يستغفر المولى وربك عاف

اما المصارف فهى بينهما اذن والحكم نسبى على الاطراف
حكما وجاهيا يبلغ معلنا من غير تمييز ولا استيناف

وحظيت تلك الليلة بعدد من القصص الادبية التى اوردها الحاضرون مما يناسب هذه المفاكهة ، فروى الراوون ما كان يجرى مثل هذا فى مجلس السيد حسين القزوينى ، وكان اكبر مجالس النجف الادبية فى حينه ، وما كان يجرى فى مجلس السيد على العلاق وغيرهما من مجالس الادب التى قلما خلت من مثل هذه المفاكهات والمنادرات الادبية والشعرية المرتجلة [1] وفى تلك الليلة روى لنا بعض الحاضرين بهذه المناسبة ماكان قد جرى يوم (الهريسة والسمك) فى نفس هذا الديوان - ديوان آل كاشف الغطاء - وهو ان جماعة من رجال العلم والادب قد لبوا دعوة لتناول (هريسة) فى الفطور ، ودعوة لتناول سمك فى الغداء عند الشيخ احمد كاشف الغطاء المرجع الروحانى المعروف [2] وكانت الدعوة فى نفس هذا البيت ، ولربما فى نفس المكان الذى كان يقتعده الشيخ محمد رضا تلك الليلة ، وكانت الدعوة بقصد المطايبة والتسلية اكثر مما كانت للاكل والشهية ، وفى مثل هذه الدعوات يكثر المزاح عادة على الاكل ، واشتباك الايدى ، وما شاكل ، لذلك ما كادت توضع المائدة حتى نسفت عن آخرها فى اقل من بضع دقائق ، ولم يحرم من الطعام الا صاحب الدعوة الشيخ احمد كاشف الغطاء ، والا الشيخ جواد الشبيبى وذلك لتجنبهما ذلك الصراع والمزاح ودخول معمعته .

ولكى يطيب الشيخ احمد نفس الشيخ جواد الشبيبى ، سأله بعد ايام وهو عنده فى نفس هذا الديوان الذى يقتعده الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء اليوم عما يحب ان يأكل من طعام ؟ وعمن يريد ان يدعوه معه يوم الاربعاء المقبل وذلك ككفارة لما سبق وقوعه مما ادى الى حرمان الشبيبى من الغداء فاطرق الشبيبى دقائق ثم رفع رأسه وفيما يشبه الارتجال تلا على الشيخ الابيات التالية :-

يا من لذاتك بيت من علا سمكا صير غدائى غداة (الاربعا) سمكا

(١) وفى مواضع اخرى من هذا الكتاب ذكر لمجالس النجف ورد فى سياق الحديث كما ورد ذكرها هنا .
(٢) هو والد عباس كاشف الغطاء مدير البنك اللبنانى المتحد اليوم .

وخصني فيه فردا لا يشاركني   سواك فالنفس تأبى الشرك والشركا
اما اعتبرت بهم يوم (الهريسة) من   ألقوا اناملهم من فوقها شبكا
قالوا لنا سرر (البني) نقسمها   ما بيننا ، والبقايا والجلود لـكا

والبنى نوع من اجود انواع سمك الفرات ، وعلى هذا النحو كانت تجـري مجالس المفاكهة في النجف وكانت مجالس آل كاشف الغطاء من بينها تموج بالوان من متع الادب والمطايبات ....

وشب الشيخ على كاشف الغطاء ، وخرج من المدرسة ليتفرغ لدراسة العلوم الدينية ، ثم خرجت انا من السلك التعليمي وتسنى لى ارتياد ديوان الشيخ هادى وابنه الشيخ محمد رضا اكثر من ذى قبل ، وصارت لى من الدالة على الاب والابن ما جعلتنى ارجوهما للكثير مما يكلفنى به ابعض عندهما من الحوائج .

ولقد كتب لى صديقى المهندس السيد حسن الرفيعى مرة من (مشيغن) وكان لم يزل يدرس الهندسة هناك لقد كتب لى يطلب منى بذل الجهد فى البحث عـن نسخة خطية لكتاب (تذكرة اعين) لعلى ابن عيسى ، واشار لى فى كتابه الى ان النسخة المطلوبة هى نادرة الحصول اذا لم تكن معدومة ، وقد رجا ان اشتريها نه اذا ما عثرت عليها بأية قيمة كانت . واذا ما تعذر شراؤها فلى ان ارفع قيمتها وادفع مائة دينار لقاء استنساخها فقط ...

وجئت الشيخ هادى ، وكانت مكتبته حافلة باكبر عدد من المخطوطات النادرة ، واحسب انها لم تزل حتى الان ذات قيمة علمية كبيرة واخبرته بقصة (تذكرة العين) وما كتب لى بخصوصها السيد الرفيعى ، ولم اكتم عنه خبر اهمية الكتاب بحيث يستدعى دفع مائة دينار لمجرد استنساخ نسخة عليه مع الموافقة على جميع الشروط المطلوبة ، فقال لى ان النسخة المطلوبة موجودة عندى وقال انها تقع فى صفحـات قليلة وليست هى بالكتاب الكبير ، وقام على رغم شيخوخته الى المظان من تلك الرفوف التى توصل الارض بالسقوف من الكتب وبحث بعض الوقت فلم يعثر عليها .... فقال لى لم لاتدع الامر الى حين عودة الشيخ محمد رضـا الى البيت ؟ فهو ادرى بموضع النسخة من هذه الكتب ، ولك ان تأخذها وتفعل ما يحلو لك ان تفعـل بهـا ..!!

وانتظرت الشيخ محمد رضا عند ابيه وانا جالس فى المكتبة ، ولكنه لم يعد ، وقمت بعد اليأس على ان اعود فى وقت آخر ... وفى الطريق وانا خارج من البيت الفيت الشيخ محمد رضا فى طريقه الى بيته فقصصت عليه القصة بالتفصيل ، فرجا منى ان اكتم الخبر عن ابيه لئلا ينزعج لانه - اى الشيخ محمد رضا - كان قد اعطى تلك النسخة الخطية قبل مدة لاحد اولاد الخانجى ، وكان هـذا قد زار النجف ، وزار بعض مكتبات البيوت ، وفى ضمنها زار مكتبة الشيخ هادى ورأى هذه النسخة كما رأى ثلاث نسخ خطية من كتب قديمة اخرى فعالج امر شرائها وشراء تلك النسخ من الشيخ محمد رضا بمختلف الوسائل ، ولما يئس وعرف انى - يقول الشيخ محمد رضا - غير بائع شيئا منها ، رجا منى ان اعيره تلك النسخ مقابل وصل منه زاعما ان لدى مكتبة (دار الكتب) بمصر صورا من هـذه النسخ وانه - اى الخانجى - يريد تصحيح البعض على البعض الاخر ... قال الشيخ محمد رضا ، ومن هناك .... ومن مصر كتب لى الخانجى يقول انه قد فقد هذه النسخ الخطية الاربع فى الطريق ..!! وقال الشيخ وانا اشك ان يكون الامر صحيحا .

قلت - وكان عليك ان تغلق باب الاستعارة .

قال - واذا تم لى ان افعل هذا مع الخانجى فهل يتم لى ذلك مع غيره ؟

ثم اردف قائلا :- لقد اضعنا عددا كبيرا من كتبنا على هذا النحو وبمثل هذا التساهل ....

وتوفى الشيخ هادى الشيخ عباس ، وعلى رغم توسم الشيخ عبدالكريم الجزائرى الزعيم الروحانى المعروف القابلية واللياقة فى الشيخ محمد رضا ونعته اياه (بالشيخ) فى تاريخه الذى وضعه ليوم لبس الشيخ محمد رضا العمامة فى اول شبابه حين ارخ له الجزائرى بقوله : (الشيخ قد لبس العمامة) .

وقد كان للبس العمامة اول ما تلبس فى السنين الماضية شأن لا يقل عن شأن اختتام القرآن ، واجراء الختان ، وما شاكل وقد اتخذ من تاريخ الشيخ عبدالكريم الجزائرى فالا يبشر بالخير لمستقبل الشيخ محمد رضا الروحانى .

اقول وعلى الرغم من هذا التوسم وعلى رغم اعداد الشيخ محمد رضا نفسه لان يكون شيخا روحانيا ، ثم على رغم بلوغه مرحلة كبيرة من العلوم الدينية والثقافة الاجتماعية التي تقتضيها الروحانية المتجددة ، وابوه لم يزل في قيد الحياة انه على رغم هذه المؤهلات فقد كان يبتعد جهده عن القيود التي كانت تحد من حريته ، وتضفي عليه آفاق اتصالاته الواسعة بالناس ، لانه كان رجلا اجتماعيا يحب الاختلاط بالناس باقصى حدود الاختلاط ، وان للروحانية قيودا ومراسيم لاتتجانس مع الانطلاق الواسع ، والاحتكاك بالجماهير ، لذلك ابدى الشيخ محمد رضا بعد وفاة ابيه تهربا عجيبا من اشغال مركز ابيه ، والصلاة بالناس في مكانه من الصحن الشريف .

واقبل عليه الكثير من الفضلاء يحضونه على التصدى للصلاة بالناس ، وكان على رأس اولئك الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء الذى بعث له بتأييده والالحاح عليه بالتصدى للصلاة ولم تكن العلاقة بينه وبين الامام كاشف الغطاء علاقة طبيعية على رغم القربى ، ومع ذلك فراح الشيخ محمد الحسين يؤيده ويشد ازره ، اما الشيخ محمد رضا فقد امتنع ، واكتفى بما كانت له من حلقة كبيرة من حلقات التدريس كان يحضرها عدد غير قليل من افاضل رجالات العلم كتلاميذ خاصين للشيخ محمد رضا .

وقد حضر احمد امين ، وعدد من طلاب الجامعة المصرية حين زاروا النجف حلقة من دروس الشيخ محمد رضا ، وقالوا انها كحلقة الازهر الا ان الدرس لدى الشيخ محمد رضا اعمق واوسع افقا من دروس الازهر ... وكنت انا حاضرا هذه الحلقة وسامعا باذني ما قاله احمد امين .

وكان السيد ابو الحسن ، قد انفرد بزعامة الشيعة ، ولم يكن حاضرا في النجف حين وفاة الشيخ هادى ، وقد بلغه خبر الوفاة وخبر احجام الشيخ محمد رضا عن الصلاة بالناس فكتب له كتاب تعزيه بليغة ، ثم ضمن كتابه هذا وجوب تقدمه للصلاة بالناس ... وهناك صدع الشيخ محمد رضا بالامر وتولى الامامة في الصحن الشريف وفي مكان مصلى ابيه .

وصلى ، وصلى خلفه جمع من العلماء ، والفضلاء ، والابرار على سبيل التأييد لاول مرة ، كما هو متبع عند الثقاة ، ولمع نجم الشيخ محمد رضا وكانت لبشاشته وسحنته المشرقة فضلا عن مواهبه الدينية والادبية اثرها فى جميع نفوس ملتقيه ، ولقد اخجلنى مرة حين وقف يوجه عتابه الى باسلوب غاية فى الادب والرقة ، وبوجه يوحى بالدعة والطيبة ، لقد كان يعتب على لانى وقفت وانا استعرض كتابه الذى اصدره عن (الشريف الرضى) فى جريدة الهاتف موقفا ربما شف عن جنوحى لرأى الشيخ عبدالحسين الحلى ، وكان قد جرى بين الشيخ الحلى وبين الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء شىء من الخصام فى دعوى لم يعرف احد وجه الصواب فيها ، فقد قال الشيخ محمد رضا انه كان قد اعار مسودة كتابه (الشريف الرضى) قبل طبعه للشيخ عبدالحسين الحلى لان الشيخ عبدالحسين كان ينوى ان يكتب شيئا عن الشريف الرضى فاحب الاطلاع على مسودة ما كتبه الشيخ محمد رضا ولكنه اساء استغلال هذا الاطلاع - على حد قول الشيخ محمد رضا - ونقل جل ما كتب الشيخ محمد رضا فى كتابه ، ثم نشره كمقدمة للكتاب الذى اصدرته (جمعية منتدى النشر) كما لو كان الشيخ عبدالحسين الحلى هو الباحث عن تلك المصادر والمستنتج لتلك الاراء ...!!

اما الشيخ عبدالحسين فيقول ان الشيخ محمد رضا كان قد عرض على مسودة كتابه (الشريف الرضى) لابداء رأيى فيه ، وقد اضفت الى تلك المسودات هذه التحقيقات التى اخذتها بعد ذلك باعتبارها ملكا لى ، وضمنتها المقدمة التى نشرت

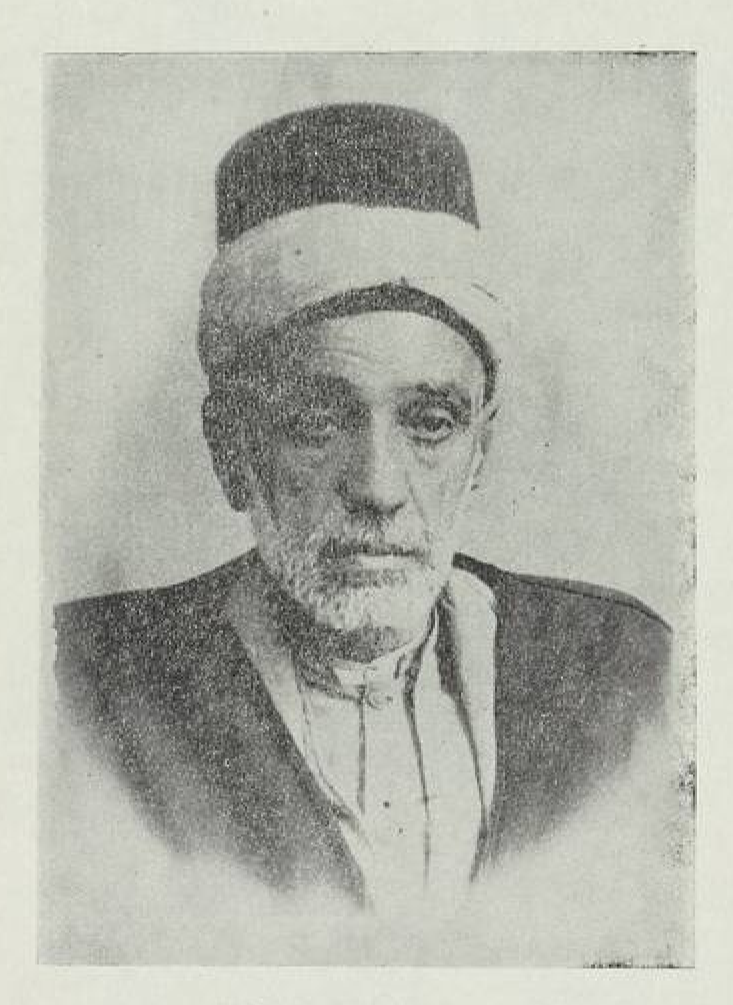
وكان الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء قد طبع كتابه بعد ذلك وعرض فيه بالشيخ عبدالحسين الحلى ، واتى على سرد القصة بشكل لم نستسغه نحن من حيث التعريض ، وليس من حيث الحق ، لان الحق لم يكن معروفا فى هذه الدعوى ولم يزل لليوم غير معروف لدينا ، فالشيخ محمد رضا كاشف الغطاء كان فى غنى عن عرض مسودات ما يكتب بقصد التصليح والتهذيب على احد ، والشيخ عبدالحسين الحلى فى غنى اكثر واكثر عن انتحال اراء غيره لنفسه بالنظر لطول باعه وعلو كعبه وقد ظل كلاهما متحمسا لرأيه ومتهما الاخر بتلك التهمة ولم يستطع احد

ان يقول شيئا فاصلا •

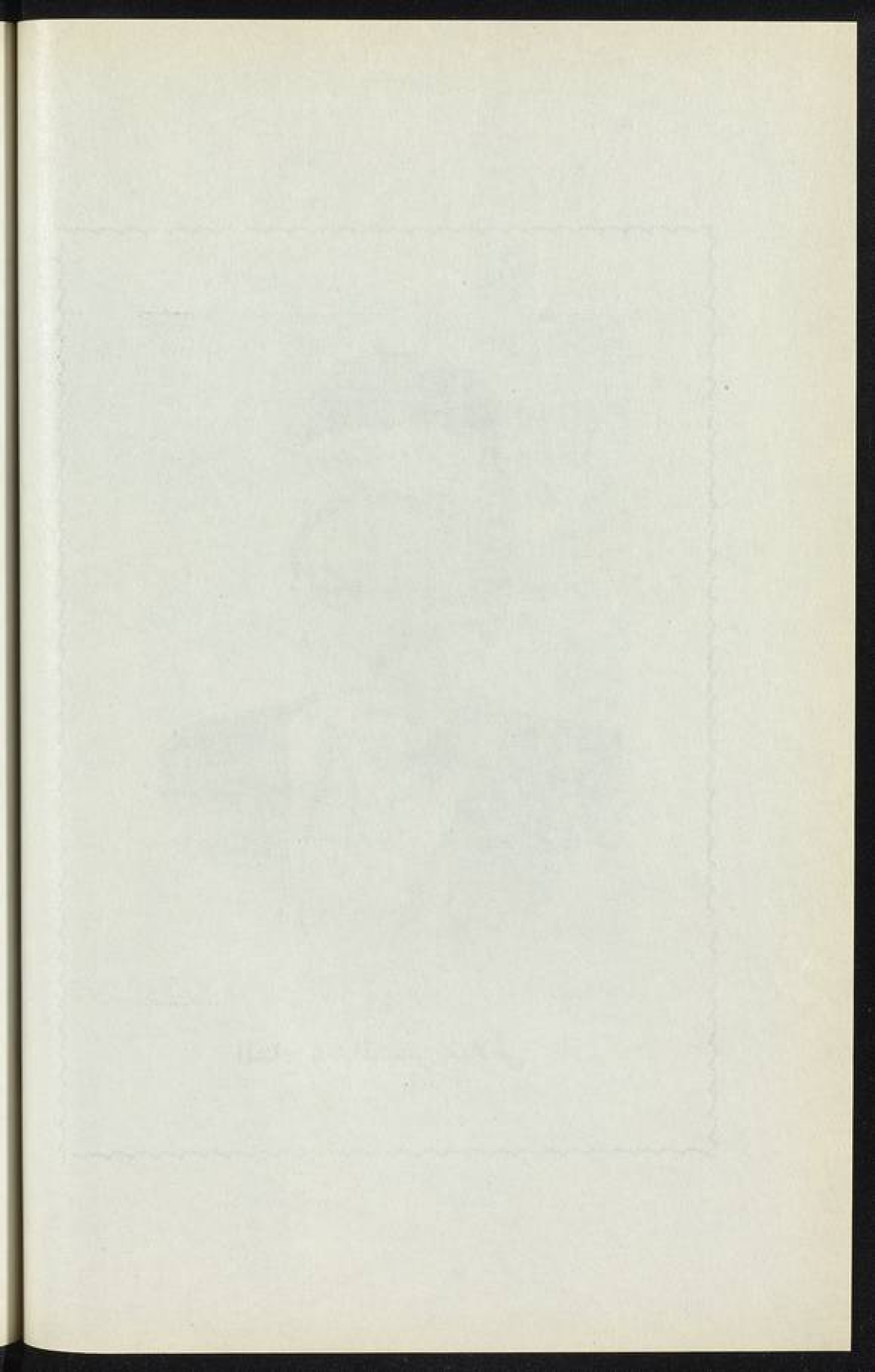
اقول لقد أخجلني الشيخ محمد رضا بذلك الاسلوب من العتاب الرقيق الذى قلما انمحى اثره من النفس لان للشيخ محمد رضا كجده الشيخ عباس الشيخ على اشعاعا خاصا كان يسلطه على المتحدثين اليه فيجذبهم اليه ، ولعل لتجدده فى احكامه الشرعية واطلاعه العلمى الواسع ، ولملكاته الادبية ، ثم لسلامة ذوقه ، بعض الاثر ان لم يكن كل الاثر فى هذا الاشعاع •

لقد كان من المعجبين (بالهاتف) ومن المتتبعين لها وقد اهدى للهاتف بمناسبة احتفال (النجف) بسنة الهاتف العاشرة ، لقد اهدى لها مجموعة من الكتب النفيسة ومبلغا من المال ، اما مجموعة الكتب فقد تسلمناها مع الشكر ، واما المال فقد ارجعته (لجنة تكريم الهاتف) اليه على اساس ان صاحب الهاتف لايتقبل هدايا المال من أحد •••• وكان الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء يقول مفاخرا بانه يعتبر (الهاتف) اشرق وجه يعبر عن الادب الواقعى ومن ارسخ القواعد فى التزام جانب الحق والحقيقة ، وكان يكرر هذا القول فى كل مناسبة ، فاذا تأخرت (الهاتف) عن ميعاد وصولها اليه قليلا ، ارسل من يشتريها له ، ويحملها اليه عاجلا ، ولقد استبطا وصولها مرة وهو يستشفى فى مصح (بحنس) بلبنان ، فكتب الى ابنه الشيخ على يسأل باستغراب عن اسباب تأخر الهاتف •••• ؟

لقد اكثرت عليه الزيارات فى ايامه الاخيرة من مرضه ، وكان لى فى شفائه كل الامل ، وكان يزيد املى ماكنت اراه منه فى كل مرة من طلاقة المحيا ، وكثرة الترحيب ، والاغراق فى البشر مما لايختلف شيئا عن حاله وهو فى اتم صحته ، ولكن صديقا لفت نظرى ونحن عنده : الى شبح الموت الماثل حول عينيه ، والجاثم على صدره ، وقال لى ونحن نخرج من زيارته : انني اخشى ان نفقد الرجل قريبا ، وكان كما قال الصديق ، فلم تمر بضعه ايام حتى نقل الى مصح (بحنس) بلبنان ، ثم وافته المنية هناك هو لم يزل فى اوائل سن الكهولة مكبا على ملكاته التى سمت به حتى جعلت منه واحدا يجلس الى الحكام كما يجلس الى الاذناب ، وجبينه ناضح بالطيبة والوداعة ، وثغره مشرق بابتسامة لايجهل قيمتها من يعرف قيمته •



الحاج عبدالمحسن شلاش



الحاج عبدالمحسن شلاش [1]

ادركت الحاج عبدالمحسن شلاش وشهرته كتاجر من كبار التجار ، وكعين من عيون النجف ، ملء المسامع ، فلقد قيل انه يمتاز على تجار الفرات وتجار الحبوب خاصة ، بحدة الذكاء ، وعمق التفكير ، وقيل انه كان من افهم التجار بمقتضيات التطور ، واسرع من غيره في فهم النظريات الاقتصادية ، يوم كان المتاجر بالحبوب لايفهم شيئا اكثر من انه يشتري الحب من فلان ، ويوم كان المتاجر بالتمر لايعرف اكثر من ان يجلب التمر من مكان معين ، او مكانين ، ليبيعه في مكان معـــين ، او مكانين ، فاذا حدثت بعض الطوارىء التي من شأنها تغيير محل البيع ، او الشراء ، او قلة العرض والطلب ، او زيادتهما ، ألفيت الحيرة تسود اغلب اولئك التجار الذين اعتادوا ان ينهجوا نهجا واحدا في عرضهم ، وطلبهم ، وفي شرائهم ، وبيعهم ، اما الحاج عبدالمحسن فقد كانت له ميزة ، هي وليدة خلق ذاتي فطري ، ومزاج خاص ظل يرافقه طوال عمره ، ذلك الخلق الذي من شأنه ان يدرس الامور ، ويطيـل في درس كل ظاهرة اقتصادية يشعر بان لها مساسا باموره التجارية ، فكثر لهذا السبب اتصاله بمختلف الطبقات ، من الفنيين ، والمهندسين ، والتجـــار ، وارباب الحرف ، وزادت بهذه الاتصالات خبرته التجارية ، ومعرفته الاقتصادية ، حتى انفرد في جميع جهات الفرات بسعة خبرته في عالم التجارة ، وكان اول من درس مشروع ارواء النجف من طريق الكوفة بواسطة المضخات قبل ما يقرب من خمسين سنة ، يوم كان اغلب التجار ، ومعظم الناس ، يسخرون بهذه الفكرة ، ولا يعتقدون

---

(١) الهاتف ـ العدد ٤٨٢ السنة الثالثة عشرة ١٣ شباط ١٩٤٨ .

ان مثل هذا المشروع مما يمكن تحقيقه ، وذلك لقلة اتصال هؤلاء التجار والناس بالعالم الخارجي ، كذلك كان الحاج محسن اول من فتح باب المساهمة لمد السكة الحديدية بين النجف والكوفة ، ولفت الانظار الى تجديد الافكار الاقتصادية .

نعم لقد ادركت الحاج عبدالمحسن وهو في اوج شهرته ، مال وافر ، وتجارة رابحة ، ومكانة مرموقة عند الحكومة ، والعلماء ، وسائر الطبقات نظرا لما كانت له من المزايا التي اشرت اليها ، ولانه كان وكيلا للبنك العثماني في النجف ، يدفع حوالات الحكومة العثمانية (لآل رشيد) في (حائل) عن طريق النجف ، ويقبل الكثير من الحوالات من مختلف الجهات من الخارج كاسطنبول ، وبيروت ، وايران ، والهند ، والخليج بالاضافة الى قبوله للحوالات في اغلب المدن العراقية ودفعها من قبله .

ولقد قيل ان البنك العثماني قد احتاج مرة - وذلك في ايام الاحتلال الانكليزي للعراق - الى مبلغ نقدي من الليرات العثمانية ، فسأل البنك الحاج محسن شلاش برقيا عما اذا كان يستطيع ان يدفع لحاكم الشامية السياسي المقيم في النجف مائة الف ليرة عثمانية نقدا على حساب البنك العثماني ؟ فابرق بالايجاب وسلم للحاكم مائة كيس اخرجها من بيته ..!!

وقد بلغني ان الحاج محسن سمع مرة - وهو يهم بدخول مجلس من مجالس النجف - مناقشة تجري عما يملك من نقود في صندوقه الحديدي وكان صاحب البيت يؤكد ان محتويات صندوق شلاش لاتقل عن ٢٠٠ الف ليرة ذهبية ، وهنا دخل الحاج محسن المجلس وصدى احتواء صندوقه على مائتي الف ليرة يرن في أذنه ، لقد دخل المجلس ضاحكا واشترك الحضار معه في الضحك لانهم احسوا بان الرجل كان قد سمع نقاشهم في ثروته النقدية وهو يهم بولوج الباب ، وما كاد يستقر شلاش حتى وجه لصاحب البيت هذا السؤال :-

- كم لك في هذا البيت الذي تقيم فيه ؟

قال الرجل :- لقد ولدت فيه وقضيت كل عمري ...

قال :ــ أتستطيع ان تخبرنى كم هو عدد السلالم التى تصعد بك من باحــة دارك هذه الى اعلى السطح وكم عدد السلالم التى تنزل بك من باحة الدار الى اعمق سراديبه ؟

قال :ــ لا اظنني الا راجما بالغيب اذا ما ذكرت لك عددا معينا .

قال الحاج محسن وهو يضحك :ــ وكيف جاز لك ان تقدر ما يحتوى عليه صندوق نقودى انا وهو فى بيتى؟ بينما انت عاجز عن ان تعرف عدد سلالم بيتك ؟

وكنت وانا صغير اسمع بتمنيات كثير من الامهات لابنائهن بان يوتيهم الله نصف ثروة او مثل ثروة (آل شلاش) ... وكنت طالما سمعت وانا صغير شيئا من هزو الهازئين ببعض الفقراء وتشبيههم على سبيل الهزو (بآل شلاش) فى وفرة الثروة .... وكثيرا ما كنت اسمع هذا الاسم (اسم آل شلاش) يردده اغلب الناس فى كثير من المناسبات كمقياس لضخامة الثروة ، واناقة اللباس وجلال الارستقراطية، فكان من بعض امنياتى ان ارى هذا الرجل ، لارى بعينى هذه الثياب الزاهيــة ، والعظمة الناطقة ، فى خطواته المتئدة التى يخطوها بين غلمانه المحتشدين حوله ، فلقد كان مضرب المثل فى خطوه ، ولبسه ، واكله ، وشربه ، وانى لاذكر الان كيف وقع عليه نظرى اول ما وقع ... وكيف وقفت منه وقفــة الحائر المندهش الذى لايدرى كيف يوفق بين ما سمع وبين ما رأى ...؟

هذا هو الحاج محسن انه يلبس كما يلبس اغلب الناس ، وقد اتخذ من باب خانه تختا لو ارغمت محاسب (الهاتف) اليوم على اتخاذه مقعدا لزواره لاعتبره اهانة ... وها هما اثنان على ما اذكر ، وقد جلسا على التخت نفسه يتحدثان اليه ، ويتحدث اليهما ، كما يتحدث سائر الناس من حيث سقوط الكلفة ، ثم قام هو وظل الاثنان جالسين غير عابئين بقيامه ... ثم دخل مكتبه ..!!

هذه اول مرة رأيت فيها الحاج محسن شلاش ، واول مرة اجد فيها البون عظيما بين ما سمعت وبين ما رأيت ، ثم ما ادرى كم مر على بعد ذلك حين توثقت الصداقة بينى وبين ابنه (عبود) ، ولكنى ألفيتنى اغدو واروح مع زمرة من الاصدقاء

الى بيت آل شلاش ، لنحظى هنالك بجلسة رومانتيكية بين عشرات الاصص لضروب الازاهير والورود ، ولم يكن يومذاك (هذا البيت) المتوسط بين الديوان الخارجي وبيت الحريم القائم اليوم قد بنى بعد ، وانما كان عرصة يلهو بها ابنه السيد عبود ، وابن اخيه الدكتور عبدالحميد بزراعة الورود في وسط العرصة المحـوطة بالاصص الضاربة حولها فى خطوط هندسية ، وكنا اذا مللنا هذا المجلس ، وما يدور حوله من احاديث متنوعة قمنا الى الديوان ، والى غرفة صغيرة لاتزال هى الغرفة المقابلة لمدخل البيت تماما ، حيث اعد فيها تخت ، وثلاثة كراسى او اكثـر ، وقـد زينت جدران الغرفة بصور كثيرة لطوائف كبيرة من ملوك ، وامراء ، وعلماء ، وادباء ، واصدقاء لآل شلاش ممن زاروهم ونزلوا فى ضيافتهم ، او ممن تعرفوا بهم فكانت هذه الغرفة بمثابة معرض فوتوغرافى كان له اكبر الاثر فى ترسيخ الذكريات ، وصور الحوادث التاريخية والاجتماعية فى الذهن ، وفى هذه الغرفة رأيت صورة الحاج محسن شلاش باللباس الرسمى وهو يحمل الوسام (النيشان) الذى انعم به عليـه السلطان عبدالحميد خان الثانى ، كما رأيت الحاج محسن فى صور مختلفة مـن مناسبات مختلفة .

ومرة اخرى لست ادرى متى ، وكيف كانت اول معرفتى بالحاج محسن ، ولكن وجدت نفس الزمرة التى كنت اغدو واروح معها الى بيت شلاش وقد بدأنا نألف مجلس الحاج محسن حين يتفق ان نكون فى بيته ، ويكون هو هناك ايضا ، فيمر بنا فى هذه الغرفة الصغيرة ونحن عند ابنه عبود ، وابن اخيـه عبدالحميـد ليجلس معنا قليلا ، او يستدعينا الى ديوان ضيوفه حين يكون عنده ضيوف ، فكنت موضع عنايته النسبية من حيث المناقشة وعرض خواطره الادبية وافكاره الاجتماعية ، فكان يقرأ لى شيئا مما كان يحفظ من نصوص لرسائل كتبها الشيخ جواد الشبيبى الى السلطان عبدالحميد ، والى الملك حسين ، والى الامام يحيى حميد الدين ، ويقرأ لى كثيرا من قصائد السيد جعفر الحلى المكتوبة الى بعض هذه الجهات ، وشىء غير قليل من نصوص ادبية قديمة من خطب نهج البلاغة ومن الصحيفة السجادية فلقـد كان

ميالا للادب وذواقة يستذوق قراءة الشعر والنثر ، وكان له مقام محترم عند اهـل العلم والادب ، وكان من ميله للادب وللادباء ان كان اول متصد لطبع ديوان السيد محمد سعيد الحبوبى ببيروت وقد طبعه طبعا لايزال على قدمه لايخلو من جمـال واناقة ، لذلك لم يكن من الغريب ان يحاول تصوير الوضع الاقتصادى فى العراق وتنظيم ميزانيته فى ارجوزة تجاوزت الخمسمائة بيت وقد ضمنهـا مايراه مـن التخطيط للنهوض بالعراق نهوضا اقتصاديا شاملا ، وعلى الرغم مما ادخل عـلى الابيات من تصحيح لغوى ونحوى وعروضى من قبل الادباء فان هذه الارجوزة لم تفقد صفة الاعراب الصحيح عن ذوق الحاج محسن وميوله الادبية .

ويستطيع المرء ان يستشف استعداده الفطرى ومدى تفهمه للامور فى الكثير من الشؤون وان خرجت عن دائرة اختصاصه ، ومن ذلك انه سـمعنى مرة وانا اشرح اسباب انتفاخ الكرة الارضية من وسط خط الاستواء وانقباضها وتقلصها من القطبين المعزوة الى دورة الارض السريعة وهى لم تزل بعد جمرة كما يقول الفلكيون الرياضيون ، قال وهو يبتسم :ـ

ـ ولم لا نعزو هذه الظاهرة ظاهرة الانقباض والتقلص فى القطب الى (قلـة الحرارة) ونعزو التمدد والانتفاخ بين مدار السرطان والجدى الى (شدة الحرارة) ؟ ولم اكن يومها من الاطلاع ومن الاحاطة بحيث استطيع ان ارد عليه بالجـواب الصحيح فسكت ... لقد كان حقا يحسن تصور الاشياء ، ويحسن طريق الاحاطة بالامور من جميع وجوهها واحوالها على قدر كبير بالنسبة لامثاله طبعا ، فلقد قيل لى انه وجه مرة الى جمع فى احد مجالس المطاية سؤالا قال فيه :ـ

ـ من منكم يستطيع ان يعرف بم يمتاز التين على أكثر اثمار الدنيا ان لم يكن على كل اثمارها ؟

فاختلفت الاجوبة فى العلل والاسباب ، وقال بعضهم انما يمتاز بما يحتوى عليه من مادة البروتين ، وقال بعضهم بل بما يحتوى عليه من عناصر التغذية الكاملة ، وقال البعض انه الثمرة الوحيدة الملائمة لكل الامزجة ، وقالوا شيئا مثل هذا ، ولما عجزوا عن الاجوبة الصحيحة ، قال الحاج محسن :ـ

ـ ان التين هو الثمرة التى لا نواة فيها حتى لبأمكانك ان تتناولها من الميزان وتضعها فى فمك دون ان ترمى منها شيئا ، قشرا كان ام نواة ، أو أية فضلة اخرى لذلك يحق اعتبار التين ثمرة اقتصادية لايذهب الثمن الذى تدفعه فيها ضياعا ..!!

واذا كانت القاعدة ان يرث الابناء صداقة الاباء فقد سارت الامور هنا بعكس القاعدة اذ انتقلت الصداقة من الابناء الى الاباء فاذا بى انا وجمع من اصدقاء عبود شلاش (الابن) نصبح اصدقاء حميمين للحاج محسن شلاش (الأب) ثم تتطور هذه الصداقة فتصبح صداقة عميقة ، كان من آثارها التفكير الجدى فى مواضيع وطنية اقتصادية عامة ، وكان منها ان تألفت شركة ذات رأس مال محدد للقيام بتجربة استخدام(زلال الزهدى) واستخراج سائل سكرى من التمر يقوم مقام السكر الجاف، وقد عهدت الى ادارة الشركة فأصبحت مديرا لها ... وقد رأيت ان من توسيع هذا المشروع المبادرة باستخدام التمر فى صنع بعض الحلويات ، والشكولاته ، والدعاوة للتمر دعاوة واسعة كان من جرائها قيام اغلب مقاهى النجف وبعض مقاهى مدن الفرات بتقديم الحليب والتمر الى الزبائن فى مقاهيهم وبيوتهم بدلا من الشاى والسكر ، وقد اسندنى الحاج محسن فى هذه الخطوة اسنادا يرجع اليه الفضل فى نجاح المشروع ، وكنا جمعا كان منهم السيد حسن زينى ، ومحمد رشاد عجينة ، والحاج على البهبهانى ، والسيد عبود شلاش ، وغيرهم ، وكل الغاية كانت غاية وطنية بحتة ، لان المال الذى وضع اساسا لهذا المشروع كان مالا قد وضع على سبيل التجربة ، ولقد استعنا يومذاك بالسيد عبدالرسول (الشكرجى) ـ وهو اليوم صاحب صيدلية النجف ـ بالنظر لخبرته فى صنع الحلويات ومعرفته بكيفية طبخها ، وبنينا لاجل ذلك معملا جهزناه بمختلف الادوات واللوازم لاستخراج زلال (الزهدى) واعداد التمر ليكون صالحا لصنع مختلف الحلويات ، كما شرعنا بوضع مقدمات لتوسيع هذه الشركة الوطنية واتخاذ فرع تجريبى للمنسوجات الوطنية ولاسيما نسج (اليشامغ) والمناديل البلدية ، وخطت الشركة خطوات سريعة ، وارسلت كميات من التمر بمختلف انواعه الى خارج العراق للاستعانة برأى الخبراء الكيمياويين فيما اذا كان من الممكن استخراج

مادة سكر جامدة يستعاض بها عن السكر واستخراج سائل لايتطرق الفساد اليه فكان الحاج محسن شلاش اول رجل فكر فى انتفاع العراق بتمره باقصى حدود الانتفاع ، ولما كان الحاج محسن ـ كما قلت آنفا ـ لاينظر الى الاشياء الا بمنظار واسع ومن جميع الجهات وبمختلف التصورات فقد راح يستعمل خبير شركتنا ، وهو السيد عبدالرسول (الشكرجى) فى تجاريب كثيرة قبل وصول آراء الخبراء الكيمياويين عن التمر من الخارج وما يمكن الافادة منه .

واذكر من تلك التجاريب التى قام بها الحاج محسن فى معمل شركتنا التجريبى انه قام بحمس نواة التمر على النار ، حتى اذا صارت كحبة القهوة بعث بها الى بغداد للتحليل ، والاطمينان من صلاحها لو اراد استعمالها بدلا من القهوة ، وقد قام فعلا بدقها وغليها على النار كما يفعل بالقهوة ، ثم اجرى تجارب بان خلط مسحوق النواة ـ وكان يشبه القهوة لونا وطعما ـ بالقهوة بنسبة الربع والثلث والنصف واكثر حتى جعل منها مشروبا لذيذا بعض اللذة ، وقدمها الى الضيوف دون ان يخبرهم باصلها وفصلها فكانت تجربة النواة هذه لم تخل من بعض النجاح او كثير من النجاح لو كان قد مشى بها الى النهاية ...

وكثر استخدام الحاج محسن لوسائل الشركة فى اقامة عدد من التجاريب ولم يكن احد منا بقادر على منعه من ذلك لانه كان قد اسهم بسهمين من اسهم الشركة المذكورة باسم ابنه عبود شلاش ، ولانه رجل له مقامه واحترامه فى نفوسنا ونحن لم نزل شبانا كاولاده تفترض فينا اطاعته والصدع باوامره ، ولكنه مضى فى تجاربه الخاصة بمعملنا واصبح خبيرنا السيد عبدالرسول الشكرجى يعمل له فى معملنا اكثر مما يعمل لشركتنا ، حتى استنفدت تجاربه الخاصة اكثر رأس مالنا الذى كنا اعددناه لتجارب معينة ، لذلك اضطررت انا لتقديم استقالتى من الشركة بعد ان اوضحت فى كتاب الاستقالة هذه الاسباب ، ولم يطل بقاء الشركة بعد خروجى منها اذ ما لبثت ان انحلت .

اما الحاج محسن فقد ترك التمر ومنتوجاته وتصنيعه وانصرف الى توسيع الحركة الصناعية الوطنية من طريق نسج (اليشاميغ) ، فكان اول من انزل الى

السوق هذه اليشاميغ باسعار زهيدة رخيصة سدت يومها نقصا كبيرا ، وكان المنتظر ان تعقبها حركة مصانع ميكانيكية واسعة خصوصا وانها قد نجحت نجاحا باهرا ولكن الامر قد وقف ثم ما لبث ان تقلص .

لقد كانت للحاج محسن مواهب مختلفة الالوان وصفات تسترعى الانتباه فى كثير من الميادين وقد ضاعت بسبب عدم اهتمامه بنفسه ، او عدم معرفته بما ينبغى عليه ان يعمل للافادة منها افادة كاملة ، او على الاقل ليصون بها نفسه من حاسديه والحاقدين عليه ، لذلك كثر اللغط حوله ، واختلفت الاراء فيه ، وهو على الغالب اكبر السبب فى هذا اللغط وهذا الاختلاف لانه كان يجهل طريقة الاعلان عما يقوم به ، وقد زاد طرز حياته الخاصة وما كانت تكتنفها من اهمال لنفسه فى المأكل والمشرب والملبس فى الطين بلة ...

وكنت انا فى طليعة اولئك الذين انتقدوا الحاج محسن شلاش ولربما نالوا منه بسبب احدى الحفلات التى اقيمت لمدرسة الغرى الاهلية فى النجف لجمع التبرعات ، وذلك حين وجدت جميع التجار والمدعوين لم يتوانوا ولم يبخلوا بتبرعاتهم حتى لقد دفع شخص – لم يرض بذكر اسمه فى قائمة التبرعات – مبلغا كبيرا كان يساوى كل تبرعات الحاضرين ، الا الحاج محسن شلاش الذى كان يجلس حينذاك فى الصف الثانى كما يجلس المدعوون العاديون ، فانه لم ينبس ببنت شفة ، ولم يكتب شيئا فى سجل المتبرعين ..!! فلم يكن حديث الناس يومها الا حديث هذا الرجل وهو الحاج محسن الذى كان يدعو الى مساعدة المدرسة ، بينما يحجم هو عن هذه المساعدة ...!! وكم كانت الدهشة عظيمة عندى وعند البعض حينما علمنا – ولكن بعد فوات الفرصة – ان صاحب التبرع الكبير الذى طلب ان يظل اسمه مجهولا لم يكن الا الحاج محسن شلاش نفسه ...!!

لقد دعانى مرة لتناول الغداء عنده ، وقال ان عندى طعاما قد اعد لى اعدادا خاصا ، واذ دخلت بيته وجدت اخاه الحاج رؤوف واولاده حول خوان حوى طعاما لا بأس به ، وقد جلس هو بعيدا عنهم ، فدعونى الى مشاركتهم ، فصاح بهم

الحاج محسن من مكانه قائلا :ـ انه مدعو عندى ••• ولا حاجة له بطعامكم ، وحين جيىء بطعامه الخاص الذى دعانى من اجله ، فلم يكن غير كبد مشوية ، وارغفة خبز ، ورارنجيتين او ثلاث رارنجات ••• وكان هذا كل الذى اشتهى هو ان يعدوه له غداء فى ذلك اليوم ، وقد عافت نفسه الالوان الاخرى ، فاقبل على الكبد بكل شهية ••• ولعل الذى يراه وهو يقبل على مثل هذه الاكلات ، ولا يرى طعام بيته لن يتركه دون ان يسلقه بالسنة حداد ، وان ناقديه من هذه الناحية كانوا كثيرين ، بينما كان يجهل جلهم ان الرجل قد يفضل فى كثير من الاحوال بعض المأكل الشعبية المختصرة وهو عند صديق ، او فى ناحية من النواحى ، اقول ربما كان يفضل ذلك على اشهى الاطعمة التى تطهى كل يوم فى بيته •

وانني اعرف ان بعض فلاحيه لايعيرون مأكله اهتماما حين كان يخرج الى زيارة ارضه فى القرية ، فلا يعدون له اكثر من سمكة مشوية بينما كانوا يرتبكون كل الارتباك حين كان يمر بهم اخوه الحاج رؤوف أو أحد ابنائه !! ذلك لان للحاج محسن مزاجا خاصا ، وحرية خاصة فى الطعام ، ولا ازال اذكر انه طرق بابى ذات ليلة والساعة كانت حوالى الحادية عشرة ، وتعجبت من مروره بى فى مثل ذلك الوقت فقال :ـ لقد كنت فى زيارة الشيخ عبدالكريم الجزائرى ـ وهو على مسافة ثلاث دور من بيتنا ـ وعند خروجى من دار الجزائرى استلفت نظرى ضوء بيتك من النافذة وانا مار فى الطريق وحسبت ان لديك زوارا رأيت ان اتم (السهرة) معهم عندك ••• ثم قال :ـ

ـ والان خبرنى هل تعشيت •••؟

قلت :ـ لقد كان ذلك مذ وقت بعيد ••••

قال :ـ وماذا كان عشاؤك ؟

فخجلت من سوء المصادفة وقلت له :ـ

ـ انه كان (ماشا) ولم يكن معه شىء من (مذهب الكلب) او مذهب الخنزير • • ومذهب الكلب اصطلاح نجفى كما يعرف الكثير ، وهو كناية عن الدبس

وقيل عن اللبن او البصل والله اعلم[1] » .

ورحت اتعثر باذيالي من الخجل وجئته بما كان عندنا من بقية عشائنا فاقبل على (الماش) بشهية كبيرة والقى على مسمعي محاضرة طويلة عريضة عن الماش ، وفوائده ، وقال ان الماش نعمة ربانية انعم الله بها على الفقراء ، فلولا الماش لماتت مدينة النجف التي قضت نحو الف سنة وهي لاتعرف الفواكه والخضر ، لقحالة الارض وفقر المدينة ، فجاء (الماش) يعوض جميع ما تتطلبه الاجسام من عناصر النمو المفقودة ، والتغذية الكاملة ، ومن يدريك - قال - ان لايكون في (الماش) شيء من المواد المنعشة التي تعود اليها هذه الاحلام اللذيذة التي يراها الانسان بعد اكلة الماش في النوم .

وعلى رغم شدة خجلي مما قدمت للرجل في تلك الليلة من بقية الماش غير المؤدم ، فقد كانت تغالبني ضحكة طويلة عريضة لتلك الفلسفة (الماشية) التي اسمعني اياها الحاج محسن شلاش ، وانا موقن بان عشاءه الذي عافه نفسه تلك الليلة ، والذي ظل ينتظره في بيته لم يكن يقل عن لونين او ثلاثة من الطعام ، بل لعله كان من انفس المآكل ولكن للحاج محسن خلق خاص ، وطبيعة حرة ، لايعرف قدرها الا الاحرار ، والا ضيوف الحاج محسن ، والجالسون على مائدته ، ولقد جلست الى مائدة آل شلاش مئآت المرات لاسيما في المناسبات التي يكون في ضيافتهم زوار من الاجانب ، او المعارف ، او المدعوين من أهل البلد والاصدقاء ، فوالله ما رأيت على مائدته شيئا يشير الى بخل وتقتير ، ولم اجد في اغلب الاحيان غير اجود المأكول ، واطيب الاطعمة ، واوفر الزاد ... ولكن مزاجه الخاص - كما قلت - قد جعل الناس يفهمونه على خلاف حقيقته ويروون عن تقتيره وبخله القصص والنوادر ، وصحيح ان الرجل لم يكن سخيا بالشكل المفهوم عن السخاء عند الناس ولكنه لم يكن مقترا وبخيلا بالشكل الذي كان يقوله الكثير من الناس .

لقد اسهم في الثورة العراقية اسهاما فعالا وانفق من كيسه كثيرا من المال ، وهو الذي دفع المبلغ المعين ثمنا لابرة المدفع التي سرقت من معسكر

(١) في غير هذا المكان من الكتاب ذكر آخر للماش ومذهب الكلب .

الهنيدى (معسكر الرشيد) اليوم وجيء بها الى الكوفة لاستعمالها فى المدفع الذى غنمه الثوار من الانكليز فى معركة (الرارنجية) والذى تم تدمير السفينة النهرية الحربية (فاير فلاى) الراسية أمام مدينة الكوفة بواسطته • ثم لحقه كثير من الاذى بعد ذلك اذ اقتحم جنود الاحتلال الانكليزى داره وسرقت بسبب دخول الجنود الى بيته نقود وحلى كثيرة ، ثم سجن ، وحوكم من قبل مجلس عسكرى انكليزى صارم •

والحاج محسن من المساهمين فى المشاريع المتنوعة ، وقد مد الكثير من المشاريع بالمال والمساعدة وهو اول من حمل (الحاج رئيس) على حفر جدول يمتد من الفرات الى النجف مخترقا مساحة شاسعة من ضهر الهضبة من طريق كربلاء ، وقد حضر الملك فيصل الاول تدشين هذا الجدول وانفق عليه ٣٠٠ الف ربية ثم مات (الحاج رئيس) قبل ان يتم المشروع فاخفق المشروع ووقف فى عرض الطريق ، ووجهت للحاج محسن انتقادات كثيرة وعزى اليه اخفاق هذا المشروع •

ولقد أبى اباء شديدا عن قبول الوزارة حين دعى اليها لاول مرة ، ثم تكررت عليه الدعوة فابى ••• ، وما زالوا به حتى قبل الوزارة ، ولقد حدثنى مرة عن استيزاره فقال :ـ لم اكن افهم معنى ما روى عن شخص كان قد عرض عليه منصب القضاء فى العصر العباسى فرفض قبوله وحين سئل الرجل عن سبب رفضه المنصب قال :ـ انما رفضته لانى كنت اخشى ذل العزل ••• لقد قال لى الحاج محسن ـ ولم اكن افهم هذا المعنى ـ معنى ذل العزل ـ الا عندما قدمت وزارتنا استقالتها ، فاذا بى وبعد ذلك الاباء الشديد الذى بدا منى حين عرض على الدخول فى الوزارة ، والذى حمل الملك فيصل عنى ان يصر على مساهمتى فى الوزارة •••، اذا بى استحيل الى شخص غريب ، كل همه ان يتمسك بالكرسى ، كتمسكه بدينه وكرامته واكثر •••!! وقال وهنالك فقط علمت معنى الخشية من (ذل العزل) الذى كان يتوقاه الرجل المذكور عندما عرض عليه منصب القضاء فى العصر العباسى وهناك فقط رحت امعن فى بلاغة تلك الرواية ومدى واقعيتها •

وراح الحاج محسن بعد ذلك يتقلب فى الوزارات ، وانا من الذين يعتقدون انه عمل للناس وهو خارج الوزارة اكثر مما عمل لهم وهو فى الوزارة ، ولست ادرى أهو لانه كان مقيدا محدود المجال ، ام لانه انشغل بمراسيم الوزارة وشؤونها فانصرف عن العمل الكثير فلم يستطع ان يفيد الفائدة المرجوة من امثاله .

ولقد خاض وهو وزير للمالية كثيرا من البحوث المالية ، وناقش وهو نائب فى المجلس النيابى ثم وهو عين فى مجلس الاعيان الكثير من القضايا الاقتصادية وكان له فيها رأى ذو قيمة ، ولقد رأيت الكثير من الدائبين على العمل ، والمولعين بمتابعة الاشغال بانفسهم ، ولكنى لم ار كالحاج محسن رجلا جادا فى اعماله ، لايهاب بردا ، ولا يخشى حرا ، ولا يعوقه مطر ، ولا تصرفه عاصفة عن تصميمه ، ومتابعة العمل الى ان ينجزه ، ولا اقول الى ان ينجزه على وجهه الاكمل لانى كثيرا ما كنت اختلف واياه فى بعض الاعمال ، وكنت اعلمه برايى وموضع اختلافى معه فيرمينى بالاستبداد ، على ان ابتكاراته كثيرا ما اثارت اعجابى به .

وانى لاذكر ذات مرة وانا اجتاز شارع السراى فى النجف ، وهو واقف يراقب البنائين فى اقامة اسوار ملك له يقع فى جوار خان المخضرات اليوم ، وهو ملك كان قد انتزعه من هضبة او تل على الاصح كان يمتد على طول الطريق العام ، وكان قد اقام فى وجه هذا التل عددا من الاساطين والاسس وتركها اعمدة قائمة منذ العهد العثمانى ، فما لبثت هذه الاساطين والاسس والاعمدة القائمة ان مالت على مرور الزمن ، فاذا بها تعوج وتميل على غرار برج (بيزا) بل واشد من ذلك ميلا ... وبقيت على هذا النحو ثلاثين سنة او اكثر .

اقول – انى لاذكر وانا مار من هناك انه رآنى ، فنادانى من بعيد ، وحين اقبلت عليه قال :–

– هل سبق لك ان رأيت هذا العدد من الاعمدة المائلة من قبل ؟

قلت :– نعم لطالما كنت اراها وانا مار ...

قال :– أتراها الان ؟ انها قد استقامت واعتدلت ... فكأنها لم تمل ولم تعوج

يوما ما ...

فنظرت فاذا بها كما قال وليس اثر للميل فيها مع انه لم يهدمها ، ولم يقمها من جديد ..!!

قال :ـ أتستطيع ان تحزر كيف اعتدلت هذه الاعمدة ؟

وحين اخفقت ، قال :ـ لقد اقمتها بالآلة التى يرفع بها سواق السيارات سياراتهم الى الاعلى حين يريدون انتزاع احدى عجلاتها ... لقد اقمتها (بالجك) وانا ادفعها بالتدريج ، واسوى البناء من تحتها حتى اعتدلت واستقامت ..!!

وكان الحاج محسن مومنا ، شديد الايمان بمقدساته ، وكان من ايمانه انصرافه الى تعمير كثير من الاضرحة المقدسة بقصد المثوبة ، وقد انفق على ضريح مسلم ابن عقيل ، وضريح المختار ، وبعض الجهات الاخرى مبالغ طائلة ، ومن ايمانه هذا كان التزامه بالاستخارة عن طريق (السبحة) التزاما شديدا ، فاذا ظفر بمن يعرف اصول الاستخارة ، راح يمطره بطلباته التى لاتنقطع بان يستخير ويظل يستخير له الى ما شاء الله ... وسألته مرة عما اذا كان يرى لكل أمر عدة وجوه فيستخير الله عن الاخذ باى وجه منها ؟ ام انه يستخير لامور مختلفة تعرض له ؟ فقال لى بل انه يستخير لامور مختلفة لايمت بعضها الى بعض بصلة فهو يختزنها فى ذهنه حتى تحين الفرصة ويجد من يحسن الاستخارة بالسبحة فيمطره بوابل من طلباته ، وقال انه يجد فى هذه (الاستخارة) اطمينانا بنجاح الفكرة التى تخالجه ، وحين رآنى اوافق على ان للاستخارة اهمية من ناحية اخرى غير ناحية الايمان المتغلبة عليه وهى السيطرة على التردد وحمل الاخذ بها من الموصوفين بالتردد على الاقدام والاستمرار فى العمل الذى كان قبل الاستخارة يقدم المتردد فيه رجلا ويؤخر اخرى ، انه حين سمع بتعليلى هذا وان لم يعجبه من عدم ايمانى بالاستخارة حمد لى هذا الرأى وقال انه رأى له قيمته الفلسفية ، وطلب منى ان ادلى برأيى هذا لمن يحاججه فى تمسكه الشديد بالاستخارة ، فقلت له ولكنك رجل قوى الارادة ، ورأيى هذا انما يفيد ضعاف الارادة الذين اعتادوا التردد فى امورهم ، اما امثالك فلا احسب ان الاستخارة ذات جدوى لهم ...

كان على رغم انصرافه الى الجد انصرافا يستنفد كل قواه الذهنية ، والفكرية، وكل ما اوتى من نشاط ، وحيوية فى الحركة والانتقال ، لقد كان على رغم ذلك رجلا ظريفا لايدع الفرصة تفوت دون ان ينتهزها فى انعاش نفسه بالنكات ، والدعابة ، وطالما اجتمع بكثير ممن عرفوا بهذا الظرف فى مقهى الحاج باقر ، ومنهم الحاج عبدالظاهر ، وطالما اثاروها عجاجة من الضحك والدعابة الصارخة ، وكثيرا ما يلجؤون الى نوع من النظم الدارج الشعبى المبدوء بحرف النداء (ايا) فيجىء هجاؤهم الفكهى على هذا النحو •

« أيا مداس خضره   أيا چنّك قندره »

ويكثر حينذاك النظم على هذا الاسلوب ، وعلى ما تمدهم به القريحة من هذا القبيل فيموج المجلس بالضحك ، ويبدع الحاج عبدالظاهر ، ويتعثر حين يندفع بعجلة ليهاجم الحاج عبدالرزاق شمسه ، او الحاج عبادى الحسين ، او الحاج عبدالمحسن شلاش ، والحاج مرزوق العواد ، وطائفة كبيرة امثال الحاج عيسى الخلف وغيره ، ولربما ادى الظرف بهم الى مخادعة الحاج عبدالظاهر لايقاعه فى داهية بقصد اثارة الضحك ، وكان الحاج عبد متسرعا وكثير العثرات ومن ذلك عثر مرة وهو يهاجم احد اترابه بمثل هذا البحر والروى فقد بدأ وهو يهزج قائلا :ـ

ـ أيا انت مداسى •

ولم يشعر الا وقد عثر به اللسان لتسرعه فاذا بالمصرع الثانى يجىء على هذه الصورة •

ـ أيا ••• راك براسى ••

فعج الجالسون بالضحك والتصفيق ، وتليوم والبعض من التجفيين يحذرون المتعثرين والمتسرعين فى الكلام قائلين :ـ

ـ حذار من عثرة الحاج عبدالظاهر •

وعلى ذكر الحاج عبدالظاهر اذكر ان الحاج محسن شلاش قد نصب له ذات يوم (مقلبا) فقد اتفق مع حكومة القضاء فى احد ايام العيد بان تبعث شرطة

النجف على الحاج عبدالظاهر وتخبره بان الامر قد صدر بان يرسل الحاج عبد مخفورا الى بغداد وان الشرطة سترسله مع حارس منها بدون ان تضع قيدا في يديه احتراما له ولاسرته الكريمة ...

وهكذا فعلت الشرطة وارسلت بالحاج عبدالظاهر الى بغداد ، وتولت بعد تسفيره اخبار اهله في النجف بان الامر ليس اكثر من مقلب دبّره الحاج محسن شلاش لمجرد التفكهة لكي يطمئن اهله .

وفي بغداد كان الحاج محسن شلاش والحاج عادي الحسين وبعض الرفاق ينتظرون وصول الحاج عبدالظاهر في احدى غرف محطة بغداد التي افرغوها لهم .

وهناك وبدون ان تتصل اصواتهم بخارج الغرفة استقبلوا الحاج عبد باهزوجة: (أيا) وبشيء كثير من قشور الرقي ، وعرف هنا الحاج عبد بالمقلب ولا تسل عن هياجه وثورته ، وقد سمعت انا الحكاية من الحاج عبد نفسه وقال لي :ـ لو لم اشفق على الحاج محسن ـ وكان يومها وزيرا للمالية ـ لمزقت له الكشيدة ، ولاخرجته من المحطة حاسر الرأس لذلك اكتفيت بشيء خفيف من اللطائف .

قلت له ـ وما كان هذا الشيء الخفيف ؟

قال ـ (انت تدري ، اكو شي غير الدمغات) ؟

وكان هذا لونا من الوان فكاهات طبقة خاصة من التجار ومن الذين اوردت اسماءهم هنا .

* * *

وفي احدى زياراته لدار الهاتف كنت مشغولا بأمر مستعجل فناديت فراش المكتب (حسن) قائلا :ـ

ـ أعد يا حسن للحاج محسن القهوة ...

ثم انهمكت في عملي ، وقد شجعني على ذلك خلق الحاج محسن شلاش نفسه ونفور طبعه من القيود والرسميات بحيث يحمل مجالسه على اخذ نصيبه

من حريته ، والاتجاه الى عمله غير عابىء بوجوده ، لذلك لم التفت اذا كان الفراش حسن قد سمعنى حين ناديته ؟ وانه قد جاء بالقهوة الى الحاج محسن شلاش ؟

وبعد مضى عدة ايام قام الحاج محسن بزيارة اخرى لمكتب (الهاتف) فناديت الفراش حسنا ان يعد له القهوة حسب العادة ؟ فاذا بالحاج محسن يعترضنى قائلا

ـ اذا كنت صادقا فى طلبك ، فغيّر اسم الفراش حسن باسم فراشك الحقيقى ، لاننى اشك فى ان يكون اسم فراشك هذا (حسنا) .

قلت ـ ولكن اسمه (حسن) فعلا ...

قال ـ لقد رأيتك تناديه قبل ايام ، وانا فى زيارتك بان يحضر لى قهوة فلم يحضرها حتى خرجت من مكتبك وانت مشغول دون ان اشرب القهوة ، فلم لايحتمل ان يكون بينكما شبه تواطؤ بان لا يأتى الفراش بالقهوة اذا ما ناديته (حسنا) ..!! وان يأتى بها اذا ما ناديته باسمه الحقيقى ...؟

وهنا قص على وهو يضحك القصة التالية :ـ

قال :ـ كان لرجل حديقة غناء فى ضواحى المدينة وقد حوت الوانا وانواعا من الورد والفواكه ، وكان اصدقاؤه يزاحمونه فيأتون به الى حديقته ليطعمهم منها ، وليهاديهم باقات من ورودها ، فيمتثل الرجل امرهم ، ويخرج بهم خارج المدينة ، حتى اذا اقبلوا على الحديقة ، طرق الرجل الباب ، ونادى باعلى صوته :ـ أن افتح الباب يا (حسن) ويظل يطرق الباب وينادى حتى يكل الاصدقاء وييأسوا ويوقنوا ان (حسنا) هذا قد ذهب لشأن من الشؤون ، وانه غير موجود فى الحديقة ، وحين يطمئن صاحب الحديقة من انصرافهم يطرق الباب صائحا :ـ

ـ افتح الباب يا فهد .

فيفتحها له ...

قال الحاج محسن كان ذلك لان الاتفاق كان قد جرى بينه وبين فلاحه ان لا يفتح الفلاح الباب حين يناديه (يا حسن) ويفتحه حين يناديه باسمه الحقيقى وهو فهد .

وقال الحاج محسن ... واذا كنت حقا تريد ان تسقيني فنجان قهوة فناد الفراش باسمه الحقيقي لانني ايقنت ان اسمه ليس (حسنا) ..

ولتواضعه وعدم اهتمامه بنفسه امثلة تثير الضحك وتروى عنها القصص ، ومن ذلك انه ركب القطار يوما من بغداد وكان يومها وزيرا للمالية فصادف ان يجيء ركوبه في احدى العربات التي كان قد استقلها موظف يدعى (ممدوح افندى) وهو يعمل امينا لصندوق لواء الديوانية ، ولم يكن (ممدوح)هذا يعرف ان الذى يشاركه العربة انما هو الحاج عبدالمحسن شلاش وزير المالية ، وهي الوزارة التي ينتسب لها السيد ممدوح ، او ممدوح افندى كما كان يسمى يومذاك ، وكلما عرف هو ان رجلا معمما بعمة من هذه العمائم التي يتخذها تجار ذلك العصر رمزا للتجارة والحرف ، وان مجالسه في المقصورة هذه رجل لايلائم ذوقه ، فقد كان ممدوح افندى قد شغل مكتب العربة بقنينة من الخمر ، واقداح واواني من (المزة) والنقل، ولا يبعد ان سيكون هذا سبب نفور وابتعاد بينه وبين هذا التاجر الذى صار جليسة في هذه العربة ... مما قد ينغص لممدوح افندى عيشه في هذا الطريق ... كما توسم ذلك .

وعرض ممدوح افندى على الحاج محسن حسب قواعد المحيط مشاركته فيما يشرب ويأكل وهو اشد مايكون غيظا وحنقا على هذه الظروف والمصادفات التي جمعت بينه وبين تاجر محافظ كهذا ... قائلا بشيء من الحنق :-

- تفضل چلبي اشرب ...

فقال الحاج محسن : سألبي طلبك في تناول النقل و (المزة) ، اما الخمرة فلن اشربها ، ولكن ذلك لايمنعك انت من ان تأخذ حصتك منها كاملة ، ثم اقبل الحاج محسن على تلك المستحضرات يأكل من هذه وهذه كما يلذه ويشتهيه ..!! فزاد ذلك من حنق ممدوح افندى خصوصا وقد تناول الحاج محسن القسم الاكبر من الدجاجة التي كانت تتوسط المائدة ...

وحين مشى السكر بممدوح قليلا وجه خطابه الى الحاج محسن وبنغمة من

الغناء ، وبشيء من الزراية والتهكم قال بلغته الدارجة :ـ

ـ امنين جاي الچلبي ؟

قال الحاج محسن :ـ لقد جئت من بغداد .

وعلى نفس النغمة والزراية تابع ممدوح افندي اغنيته قائلا :ـ

ـ ويروح وين الچلبي ؟

ـ قال انني اقصد مدينة كربلا ...

فاستمر ممدوح وهو يأتي بحركات استفهامية مضحكة يشرك فيها يديه وسحنة وجهه ويحيل كل وجوده الى استفهام مزر تحت تأثير الخمرة والحنق قائلا :ـ

ـ مشروب تشرب چلبي ؟ ...

قال ـ ليحفظك الله انني لم اشرب الخمر كما قلت لك من قبل .

قال ممدوح ـ شوية شوية چلبي ...

قال ـ ارجو المعذرة لانني لم اعتد شرب الخمر .

وتستمر اسئلة ممدوح افندي ومضايقاته وتهكماته على هذا النسق طويلا ، وفي هذه الاثناء يقف القطار عند احدى المحطات فيجيء خادم الحاج محسن شلاش وكان يستقل الدرجة الثالثة من القطار ، يجيء الى عربة سيده ويسأله عما اذا كان له شغل او أمر فيجيبه الحاج محسن بالنفي ، ويستغل ممدوح افندي مرور الخادم ويعود الى تهكماته سائلا ؟

ـ خدام عندك چلبي ؟

قال ـ ذلك من نعم الله وافضاله ...

وعلى رغم سعة صدر الحاج محسن وحلمه فقد برم بمضايقة ممدوح افندي وسئم من هذه التهكمات والزراية فاراد ان يستوضح عن هوية هذا الرجل فتوجه اليه سائلا :ـ

ـ وما اسم جنابك ؟

ـ فاعتدل ممدوح افندي وبشيء من الفخر والاعتزاز وبنفس النغمة اجاب :ـ

ـ ممدوح افندى چلبى •

قال الحاج محسن ـ وما هو عملك ؟ ووظيفتك ؟

قال ـ صندوق امينى چلبى •

فسكت الحاج محسن وعلم ان الرجل من الموظفين التابعين لوزارته التى يرأسها ، ولكن ممدوح افندى راح هو الاخر يسأل على اساس مقابلة التعريف بالمثل قائلا :ـ

ـ وشسم جنابك چلبى ؟

قال ـ انا عبدالمحسن شلاش •••

ولم يكد يلفظ اخر حرف من حروف (شلاش) حتى ترامى ممدوح افندى على قدمى الحاج محسن وهو يقول وبنفس النغمة السابقة ورويها •

ـ داخل على الله چلبى ••• مروتك اغاتى چلبى ••• وين آنه اولى چلبى •• سامحنى بالله چلبى •••

* * *

كان عمر الحاج محسن حين توفى ٦٨ سنة وانى على يقين انه كان يستطيع ان يعيش مالايقل عن عشرين سنة اخرى لو كان قد التزم بما يريد الطب ان يلتزم به ، ولكن النفس المجبولة على هذا النسق من الحياة والتى لاتعرف غير العمل ديدنا ، لاتخضع لناموس اسمه الطب ، او غير الطب ، فكان على رغم انحراف صحته فى السنوات الاخيرة دؤوبا على العمل ، وكان مثلا اخر للذين يقفون نفوسهم لمختلف المنافع ، فلقد كان مريضا ، وفى حالة غير مرضية ولكنه لم يتوان عن القيام بنفسه بدرس مشروع آبار النجف ، وكان يحذر النجفيين من مغبة المياه المتغلغلة فى أسس المبانى ، ويصدر فى ذلك الكراسات وهو لاينسى ان يتفقد اصدقاءه ومعارفه ، ويتبسط معهم بكل انواع التبسط فى كل فرصة وان لم تساعده حاله الصحية •

وقبل يوم واحد من وفاته منعه الطبيب من الحركة حين احس بضعف طارىء ينتاب قلبه ، ولكنه ابى الا ان يزور مسجد (السهلة) فى عصر ذلك اليوم فيقطع

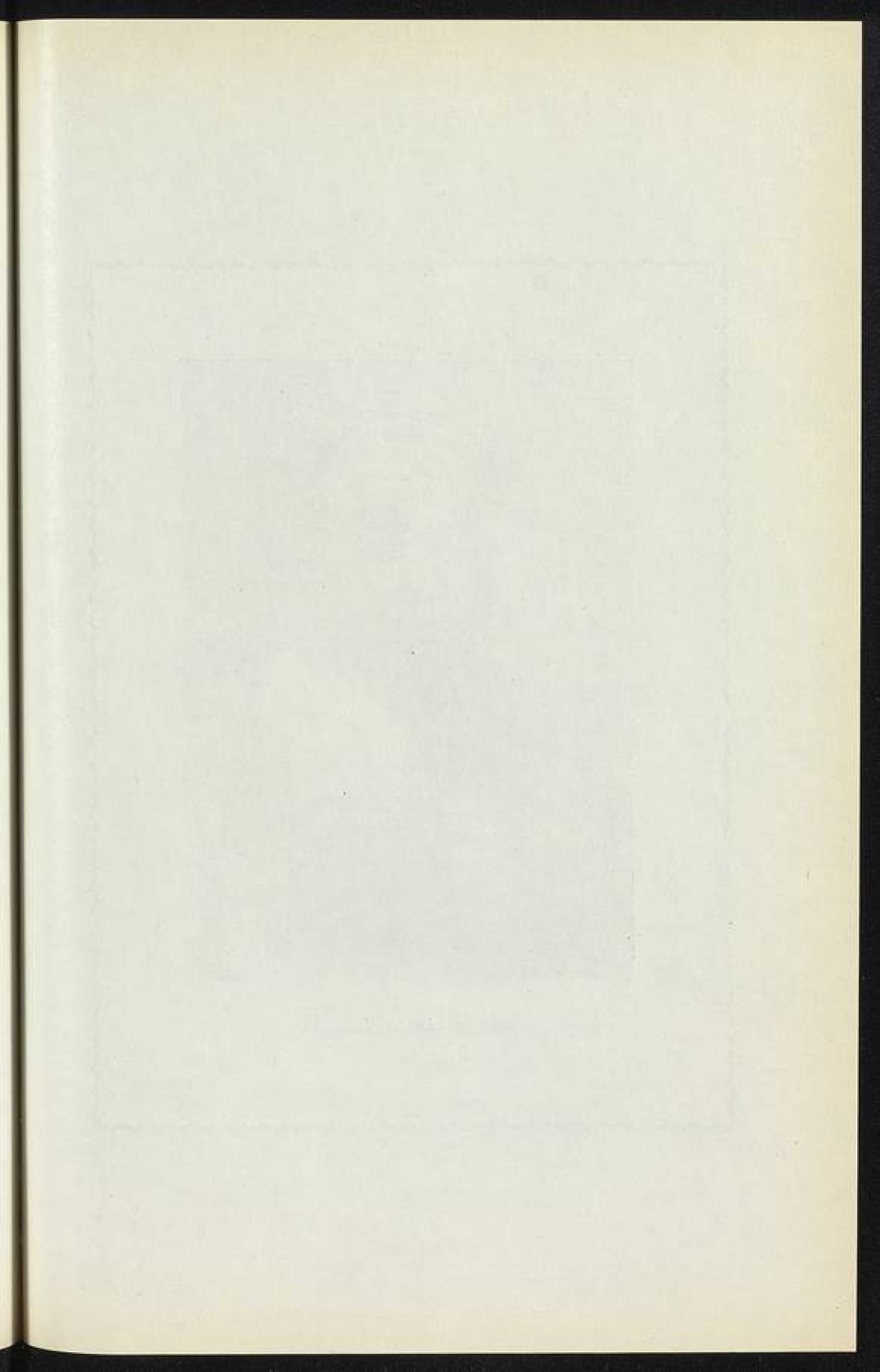
عشرة اميال بسيارة ولده (محمد) وحين مر في طريقه على (دار الهاتف) رغب ان ينزل ليزورني ، ولكن ابنه استمهله ليرى ما اذا كنت انا موجودا بدار الهاتف في تلك الساعة ام لا ؟

وكان من سوء حظي انني حرمت من رؤيته الاخيرة ، وكان آخر عهدي برؤيته قبل وفاته باسبوع او اكثر ولقد كان له بالهاتف صلة لن تنسى فقد اقرض (الهاتف) في أول تأسيسه قرضة مالية أبى ان يأخذ صكا بها الا بعد جهد كبير مني ، وحين حان موعد دفع المبلغ قال - انه كان يجب ان لايسترد هذه القرضة لولا علمه بمزاج الهاتف وترفعه .

مات الحاج محسن شلاش ، وانقطعت كل علاقاته بالمجتمع ، ومع ذلك فان علاقاته الروحية ، وذكرياته المفعمة بالخير والنبل والعاطفة لم تنقطع ، وسيظل كثير من عارفيه يذكرونه ماعاشوا اما (الهاتف) الذي يحوى كثيرا من مقالاته واخباره فسيظل الحاج محسن منه ملء العين ، وملء القلب ، ولقد ودعته عند مثواه بدمعة كان كل معناها : انني لن انساه - .



السيد سعد صالح



السيد سعد صالح [1]

لم يمر على هروب اخي الكبير عباس الخليلي المحكوم عليه بالاعدام من قبل المحكمة العسكرية البريطانية في الكوفة عقيب فشل الثورة النجفية سنة ١٣٣٦هـ والتي وضعت خطتها لتكون ثورة عراقية عامة فاخفقت ، اقول لم تمر شهور حتى التقيت (سعد صالح) لاول مرة في صحبة احمد الصافي الشاعر وانا جالس عند صديق لي في النجف كان يومها يشتغل ببيع السجاير ، وهو الشيخ مهدي زرندي الذي ترك بعد ذلك بيع السجاير وصار من الفقهاء والوعاظ ، وكنت اعرف (الصافي) معرفة جيدة من قبل ، لكثرة ما كنت اراه مع اخي ، اما السيد سعد فاني لم اكن رأيته بل لم اسمع باسمه من قبل .

ووقف الصافي جريا على العادة يسأل بالتلميح والاشارة عما اذا كنا قد عرفنا شيئا عن مقر اخي عباس ومصيره ؟ فقد كان الخوف يومذاك من السلطات البريطانية يعقد الالسن حتى ليحذر المتكلم ان يصرح بالاسماء ، والافعال ، وحتى كان الكثير من الناس يتفاهمون بالكنايات ، والرموز ، وحاول سعد ان يستوضح معنى هذه الكنايات من الصافي ولكن الصافي اومأ له بمواصلة السير ، وليس من شك ان الصافي قد افهمه في الطريق عمن كان يسأل مني ، كما لاشك انه عرّفه بي بعد مغادرتهما لي ، ذلك لان سعدا لم يرني بعد ذلك في السوق ، أو الصحن او الشارع ، الا وكان يسألني عن اخي ، واخباره ، ومن هنا عرفت انه السيد سعد جريو كما كان يسمى يومها منسوبا الى اسرته وهي اسرة من اسر النجف المعروفة ، كما عرفت ان السيد سعد هو الآخر من اصدقاء اخي وانه قد دخل في زمرة طلاب

---

(١) الهاتف ـ السنة الرابعة عشرة ـ ٢٥ شباط العدد ٥٣٢ .

العلم لدرس العلوم العربية وهو بعد ذلك من الاحرار الوطنيين الذين كانوا يعملون على قدر طاقتهم للتخلص من الاحتلال الانكليزي .

وكان السيد سعد يلبس يومها اللباس البلدي المتعارف من قباء ، وعباءة ، ويشماغ ، وعقال ، وهو اللباس الذي اعتاد ان يلبسه الكثير من النجفيين حتى ابناء العلماء ، والتجار ماداموا صبيانا وشبانا .

وحين بدأت ادرس انا الاخر العلوم العربية ، كان يلزمني درسي المرور بمدرسة (الاخوند) الكبرى في النجف كل يوم صباحا ، فكنت ارى سعدا من بعيد، ومن قريب ، فقد كان سعد يومذاك من مرتادي مدرسة الاخوند ، وكان للسيد سعيد كمال الدين هناك غرفة او غرفتان على ما اذكر ، كانتا مجمع الاحرار من الشباب ، وكان السيد محمد على كمال الدين من انشط المدرسين في تدريس (المقدمات) والعلوم العربية ، فكانت تجتمع عنده طبقات كثيرة لتدرس ولتقرض الشعر ، ولتساجل ولتتذاكر في الشؤون الوطنية ، وبث الافكار السياسية ، وانا وان لم اكن ضمن المترددين على هاتين الغرفتين ، لاني كنت من طبقة اصغر ، ومن المتأخرين مرتبة في الدرس عنهم ، ولكني كنت ارى الداخلين والخارجين من غرفة السيد سعيد كمال الدين في هذه المدرسة كل يوم ، وكان (سعد) من اكثر الداخلين والخارجين والمتصلين بهذا الوكر الادبي السياسي او (معقل الاحرار) كما كانوا يسمونه فيما بينهم ، ثم زادت معرفتي (بسعد) بسبب مداعباته لاستاذي الشيخ على الدشتي الذي لايتفق ان يمر عليه سعد ـ وكان الدشتي يجلس للتدريس في الممر العام ـ الا ويستفزه سعد بكلمة من المزاح يجيب عليها الدشتي حينا بمثلها ويعيي في اكثر الاحيان عن الاجابة فيكتفي بضحكة من ضحكاته الخاصة التي لم يسمع لها صوت ....

ونشبت الثورة العراقية ، وبدا بعض النشاط على هذه الطبقة من الشبان ، في الذهاب الى جبهات القتال ، والاياب منها ، ونقل المكاتيب من جهة الى جهة ، واصدار جريدة (الاستقلال) و (الفرات) فيتردد اسم سعد خفيفا الى جانب اسم السيد محمد على كمال الدين الذي عمل مع السيد محمد عبدالحسين في جريدة

(الاستقلال) ، وهي جريدة الثوار التي كانت تطبع بمطبعة الشيخ صادق الكتبي ، ولست ادري ان كان (سعد) قد حرر فيها شيئا ، ولكني كنت ارى انه يكاد لايتخلى عن ملازمة السيد محمد على كمال الدين في الجريدة ، كما كان يلازم قبلا السيد سعيد كمال الدين . وقد قرأ عليهما الدروس العربية وآدابها .

وحين انتكس الثوار في جبهة الفرات الايمن لاذ جمع كبير من الشباب الاحرار بالفرار ، وقد سمعت بطائفة من اسماء الفارين حينذاك ، وكان اسم السيد سعد من بين اولئك ، ولست في صدد وضع تاريخ لسعد ، او لتلك الحركة لكي اتبع كيفية فراره ، واتجاهه ، وانما اريد هنا – شأني فيما عرضت من هذه البحوث قبلا – ان اسجل ما احتفظت به ذاكرتي ، وما كانت له علاقة بذكرياتي الخاصة ...

ولم ادر الا وسعد طالب بدار المعلمين ، واقرأ احدى الجرائد ولعلها جريدة (الاستقلال) البغدادية لعبدالغفور البدري فاقرأ له مقاطيع من الشعر ، ويزور النجف بهيئة جديدة ، وبعمة خضراء ، فارى منه اشياء اخرى غير التي رأيت ، وسمعت من قبل ، فقد كان (الصحن) في النجف يومذاك ناديا يضم مختلف الطبقات من اساتذة العلم ، والادب ، والطلاب الوطنيين ، والاغراب ، فلا يكاد يدخل احد الغرباء الصحن ، حتى تتجه اليه الابصار ، من كل حلقة وكل جانب ، وتبدأ الاستفهامات ، والاجوبة ، والتعليقات تتراقص على الشفاه ، وعلى الحواجب ، ترى من هذا ؟...

واحيانا يرمز للغريب (بالطير) فيقال – شنهو من الطيور هذا الطير ؟ ومنذ كم هو هنا ؟ وما هي صفته وهويته؟ والى آخر مناحي الفضول الذي عرفت به النجف اكثر من غيرها .

وفي الصحن الذي هذا بعض مزاياه عرفت ان (سعدا) قد انهى دراسته بدار المعلمين ، وانه يشتغل مديرا لمدرسة الايتام ببغداد ، ثم معلما في المدرسة الجعفرية ببغداد ، وموظفا بالمالية ، وانه تلميذ في كلية الحقوق ، وان له صديقا حميما هو السيد صالح جبر ، وانهما يعيشان في فندق عند مبدأ الجسر القديم من الرصافة (وقد حل صدر الجسر اليوم في محله) وصار الفندق اثرا بعد عين وقد كان فندقا متواضعا ، يسكنه

الغرباء ، وتقوم فيه مكاتب بعض المحامين ، وكان منهم السيد داود السعدى ولعل مكتب جريدة (دجلة) وهى جريدة السعدى ، ومكتب جريدة (الرافدان) لسامى خنده كان فى نفس هذا الفندق على ما اذكر ، اجل لم اكن اعرف سعدا الى حين ذلك التأريخ الا معرفة محدودة ، لاتزيد على ما اشرت اليه ، والتى ظلت طويلا لاتزيد على السؤال عن احوال اخى منى ان التقانى فى الطريق ، أو السوق ، وحين جاء النجف ليشتغل محاميا بعد استقالته من وظيفته الادارية (وقد كان وكيلا لقائممقام) صرت انا احد الذين يترددون على بيته ، فقد فتح بيته للناس ، وجعل منه ديوانا ، وبدأت ترتاده مختلف الطبقات ، وكان هو اول محام نجفى تخرج من الحقوق ، وزاول المحاماة ، فاقبل عليه الناس يعهدون اليه بمهماتهم ، واامورهم ، وليس شىء كالمحاماة تعطى الفكرة الصحيحة عن شخص ان كان حسنا ، ام سيئا ، مستقيما ام غير مستقيم ، كبير النفس ، ام صغيرها ؟ ... وقد عرف الناس فى سعد شخصية ممتازة من حيث رعايتها للحقوق ، والتزامها بواجب المحامى الذاب عن حقوق موكله ، بكل معنى الذب ، وبدأت تحوط اسمه هالة من الاجلال والاحترام ، وكانت النجف قد شرعت تدب فيها الاختلافات ، فسعى الى ازالتها ، ووفق بين النزعات المختلفة ، فاذا به بين ليلة وضحاها يصبح شخصية لها شىء من الوجاهة ثم بدأ يزيد نفوذه على مرور الايام ، ويكبر فى العيون يوما بعد اخر ، وفسح له فى المجال ليعمل عضوا فى هيئة مدرسة الغرى ، ومدرسة الغرى اول ما اسست فقد اسست لغرض سياسى اكثر منها لاغراض علمية ، وكان الملك فيصل الاول يعتمد اعضاءها للعمل فى الحقل الوطنى ، ومن طريق هذه المدرسة صار لسعد شأن آخر فوق الشأن الذى اكسبته اياه المحاماة ، وصار لاخذ رأيه من لدن رجال اللواء ، والقضاء ، قيمة فى المهمات والطوارىء ، وزاد ترددى على بيته وبدأت اعرفه عن كثب معرفة قد تكون جيدة واكيدة ، ولعلى اول من عرف فيه بعض المزايا التى عرفتها دون ان يكون لاحد فضل دلالتى عليها ، لقد عرفته صادقا ، وهو يقدس الصدق ويفضله على جميع الصفات ، وعرفته جريئا ، وهو يعطى الجرأة كل ما ينبغى ان تعطى لتكون جرأة

محمودة ، وكان سعد يبدو خشنا ، وهو كذلك حينا لمن يعرفه وكذلك دائما لمن لم يسبق له التعرف به عن كثب ، وهناك كثير من الناس تنم وجوههم عن خشـونه ، وكبرياء ، وغرور ، حتى اذا اتصل بهم المتصلون عن كثب تغير رأيهم فيهم ، وعلى ان فى سعد شيئا من الخشونة الحقيقية ولكنه مع ذلك طريف ، وظريف بكل معنى الطرافة والظرافة ، حتى لقد يعجز ان يباريه الكثير من الظرفاء فى سوق النكتة ، والدعابة ، والمزاح .

جلس مرة يلعب الورق فى احدى الليالى وهو متصرف فى لواء الكوت وكان شريكه فى لعبه السيد (نافع) وهو أحد موظفى لواء الكوت يقابلهما شريكان على اساس المباراة ، فخسر سعد ونافع فى الجولة الاولى من اللعب ، ثم خسرا فى الجولة الثانية ، والثالثة ، وقبل ان يتما الجولة الرابعة قال سعد :ـ

لقد حضرنى بيتان فى شريكى السيد نافع وقبل ان يسـأل رأى السيد نافع ويستأذنه قرأ البيتين التالين مخاطبا شريكه السيد نافع :ـ

أجهدت نفسـك لاعبـا   لكن لعبـك كان ضائع
والضر طبعـك دائمـا   كذب الذى سماك (نافع)

* * *

وخاض سعد معركة انتخابات البلدية فى النجف ، وخاض معركة انتخابات المجلس النيابى لاول مرة ، فبرزت شخصيته لكل عين ، ولاول مرة توسم فيـه بعيدو النظر صورة الزعيم المنتظر ، وتنبئوا له بالمستقبل الباهر ، وقد آزره الشباب والشيوخ على حد سواء ، ولم ينفرد عنه فى تلك المعمعة الا بعض خصومه .

وكنت يومذاك اصدر جريدة (الفجر الصادق) فى النجف ، فدعوت الى تأييد رأيه فى انتخاب رآسة بلدية النجف ضد الحاج عبدالرزاق شمسة مرشح الحكومة حينذاك ، وأصدرت من الجريدة ملحقا بتأييد السيد سعد الذى كان يؤلف رأى الاكثرية من النجفيين فى ترشيح رئيس اخر للبلدية غير الحاج عبدالرزاق ، فشكر السيدسعد موقفىمنه واعتبر ذلك منقبيلالتضحية ،والسببهو انمبالغ كثيرة كانت

قد بذلت يومذاك من قبل الحكومة لمن يقف الى جانبهم كما قد اشيع بان محاولات كثيرة قد بذلت لايقاف جريدة (الفجر الصادق) على الحياد على الاقل اذا صعب استمالتها الى جانبهم فاخفقت تلك المساعى مع (الفجر الصادق) •

وكان السيد جعفر حمندى حينذاك حاكما فى النجف ، وقد قام المحامى على محمود الشيخ بتقديم شكاوى ضد السيد جعفر حمندى لدى وزارة العدلية متهما السيد جعفر باهاته له عند مراجعته المحكمة بخصوص موكلين له فى الكوفة ، وقال فى شكواه ان الحاكم اى السيد جعفر رمى اوراق دعوة موكليه بكل حنق وغضب وتحقير فى وجهه اى فى وجه على محمود الشيخ ، وتقدم ستة شهود من أهل الكوفة يشهدون ضد الحاكم على وقوع هذه الاهانة بحضورهم ، وكان اغلب الشهود من بعض الفلاحين الذين تعمموا (بالكشايد) واحتذوا (بالقنادر) ليظهـروا بمظهر التجار المحترمين وارسلوا الى وزير العدلية باعتبارهم من وجوه البلد و (چلبيتها) على ما قيل يومذاك ، وقد تناولت جريدة (الفجر الصادق) هذا الخبر بتعليق ساخر لاذع وسردت الحادثة على ما كان قد اتصل بها من اخبارها وعنونت كلمتها ونقـدها بالكلمة التالية ـ (شوية عقل يا أهل الكوفة) ، وكان من جراء ذلك ان اقام الشهود الستة الدعوى ضدى باعتبارى صاحب جريدة الفجر الصادق وطلب الشاكون رؤية الدعوى فى محكمة (طويريج) لان القضية كانت تخص حاكم النجف فلا يجوز رؤيتها من قبله ، وكان حاكم ابو صخير (ذيبان الضبان) من اصدقاء السيد حمندى ومن اصدقاء (الفجر الصادق) فلا ينبغى تحـويلها الى (ابى صخـير) وان كانت (ابو صخير) اقرب محكمة للنجف ، وجاء سعد يطلب منى توكيله فى هذه الدعوى فابيت ، وألح على كثيرا فما زدت الا اباء ، ولم يكن لابائى سبب الا لانى خشيت ان يعد موقف سعد هذا بمثابة رد الدين (للفجر الصادق) ازاء موقفها الحماسى فى انتخاب البلدية وتأييدها المطلق له ، وهكذا عرضت الدعوى على محكمة (طويريج) وصدر الحكم باداتنى من قبل الحاكم رشيد الصوفى ، وجاء دور التميز ، فلم ار فى هذه المرة مناصا من توكيل سعد فوكلته ، فتم نقض الدعوى ، واعيدت الغرامة ، وظللت اشعر له بالفضل ، وزادنى ذلك حبا له وايمانا بشهامته •

ويمر بعض الزمن فيقع بين سعد ومؤيديه من جهة ، وبين الشيخ محمد رضا الشبيبي من جهة ثانية ، شيء من سوء التفاهم وكانت لي بالشبيبي يومها صلة جد وثيقة ، وكنت من اكثر المنوهين باسمه ، والمدافعين عن رأيه في كل مناسبة كانت تمر ومن اكثر المتبعين لشعره ، وأدبه ، بحثا ، واستظهارا ، واستشهادا ، ومناقشة.. وهذا ما بدأ يغضب سعدا ويسؤوه لحد ما .

وقد عز على سعد وجماعته حينذاك ان يروني مندفعا الى جانب الشبيبي اندفاعة الشاب المتحمس المؤمن ، وشق عليهم ان يفسحوا لي المجال بينهم كما كانوا يفعلون فلم اشعر الا والوجوه تتغير بعض التغير ، ولعل هناك من حاول ان يخفف من غلوائي فلم ألن ، فكان ذلك سبب تجهم (سعد) في وجهي ، وكان ذلك سبب ابتعادي عن سعد ، وعن حضور المجالس التي يرتادها هو واصحابه ، ثم ما لبث ان ادى ذلك الى نفور ، ثم السعي لتحويلي من النجف ، وانا حينذاك مدرس في الثانوية الى ثانوية البصرة ونقل محمد مهدي الجواهري الى محلي في النجف ، وحين تمت استقالتي من (المعارف) ، وحين وقع شيء من سؤ التفاهم بين الشبيبي وياسين الهاشمي تصدت جماعة ياسين الى الشيخ الشبيبي متهمة اياه بانه كان يسعى لاثارة النجف وتكدير صفو الوزارة الهاشمية في هذه المدينة ، وقد ظنني سعد طرفا للشبيبي في النجف يكتب لي الشبيبي من بغداد ، واسعى انا هنا لتنفيذ آرائه على قدر امكاني واعمل لاستفزاز النجف بقدر ما استطيع ... وقد كاشفني يومذاك متصرف لواء كربلاء بهذا الامر ، واخبرني به الشيخ علي الشرقي بصورة خاصة فازداد بعدي عن (سعد) ولعلي وانا بعيد عنه قد طغت علي العاطفة فنسيت الكثير من مزاياه ، أو لعلي وانا بعيد عنه قد فاتني ان اعرف له مزايا اخرى كان يجب ان اعرفها اشباعا لرغبتي المتطلعة للمعرفة ، وليس لشيء آخر .

وساءت العلاقة بيني وبين الشبيبي في هذه المرة ، ولكن هذا لم يدنني من سعد ، ولم يدن سعدا مني ، فقد كان سعد سيء الظن وليس ممن يغير رأيه بسهولة وقد زاد ما جبلت عليه انا من خشونة واعراض لقد زاد ذلك شيئا من سوء ظنه

بى ، اذ كنت انا الاخر متجنبا فتح باب التفاهم ، والعتاب ، حتى مات ولدى(هاتف) وكان سعد يومذاك متصرفا للواء الحلة ، فابرق الى يعزينى ، وقد عجبت كثيرا لانى كنت اخال مثل هذه المجاملة ، والمطايبة ، بعيدة عن طينة سعد ، وقد رددت عليه جواب البرقية بكتاب احسب انه لم يخل من عتب على ماض عزوت اسبابه اليه وحده ، ثم شكرته كثيرا على تفضله ، وتعزيته ••• اما هو فقد عقب على تلك البرقية بزيارة قام بها للنجف فزارنى فى بيتى ، وزار آل الصافى فى بيتهم معزيا بوفاة السيد محمد رضا الصافى (والد الدكتور على الصافى) •

* * *

ودعيت لزيارة سوق الشيوخ من قبل صديقى الشيخ محمد حسن حيدر وكان السيد سعد متصرفا للواء المنتفك وفى اثناء مرورى بالناصرية ألح على السيد سعد بقضاء ليلة عنده ، التقيت فيها بعبدالله القصاب وكان يومها متصرفا للواء الديوانية فجاء الى الناصرية لمذاكرات خاصة بينه وبين السيد سعد بخصوص تاليف جبهة من المتصرفين فى وجه صالح جبر الذى كان وزيرا للداخلية ، وعند عودتى من سوق الشيوخ مررت بالسيد سعد بناء على ما قطعته من وعد على نفسى ، فاولم لى وليمة دعا اليها بعض الوجوه والادباء وكان بين المدعوين السيد سعيد كمال الدين ، والشيخ محمد حسن حيدر ، وبعض ادباء سوق الشيوخ ، وهناك فى بيت المتصرف جرت مساجلة شعرية بين السيد سعيد كمال الدين وبين الشيخ محمد حسن حيدر وقد حكم فيها سعد وسجل حكمه بابيات من الشعر ليست تحت يدى ، فكان مجلسا من أعمر مجالس الادب وقد بدا لى فيه سعد مكشوفا بطهارة قلبه ، وصفاء نفسه ، وقد ارانى هنا ما لم اكن قد رأيت من طيب السريرة والوداعة •

وهناك فى المنتفك طغى نهر الفرات ، وزادت نسبة الطغيان اكثر من كل سنة ، وكان الخوف على المدينة من الغرق يأتى من مكان يعرف (بابى جداحة) فراح يبذل سعد كل ما كان يملك من مجهود ليحول بين المدينة التى طالما غرقت حينما تبلغ مناسيب الماء هذا الحد واقل منه •

وكنت وانا بسوق الشيوخ فى هذه الدعوة التى اشرت اليها اؤكد للناس بان الناصرية لن تغرق مادام سعد على رأس هذا اللواء ، ولقد اقترحت على وجوه (السوق) وانا فى بيت السيد محمد والسيد عبد الصاحب السيد ادريس بان يبدأ هذا (القضاء) منذ الان بتقديم رمز يشير الى امتنانه من مساعى (سعد) ومجهوده فى حفظ هذا اللواء ومزارعه من الغرق فى تلك السنة ، على رغم تجاوز الطغيان حدود الخطر بدرجة هائلة ، وقد رأيت ان اسهم انا الاخر فى مثل هذا الرمز كواحد من أهل السوق ، وهكذا كان ، وقدم التصميم ، وصيغت قنطرة فضية تشير الى (ابى جداحة) واعد اطار فضى خاص لصورة سعد وفوض الشيخ محمد حسن حيدر للقيام بنظم أبيات مناسبة وكتابتها بخط فنى جميل تحت صورة سعد ، وتقديم الاطار والقنطرة والابيات باسم سوق الشيوخ الى سعد صالح .

وحين عدت من (السوق) الى الناصرية ـ وكان قد بلغ سعدا ما كنت قد اقترحته وجرى التصميم عليه فى السوق ـ لا منى على ما وقع منى وقال :ـ

ـ أتعلم انك قد اوقعتنى فى ورطة من حيث لاتدرى ...؟

قلت ـ لا احسب شيئا من ذلك قد وقع ...

قال ـ فاذا انهد سد (ابى جداحه) ، وانهار امام هذا الفيضان الخطير ، فاين موضع هذا الرمز ، والتكريم ، والشعر ؟

قلت ـ لن ينهد ولن ينهار ...

فهز يده وارسلها ضحكة استغراب ..!! وقال بما معناه :ـ

ـ ان (النجفية) لتلاحقك اينما ذهبت ـ لان النجف اذا اعتقدت بشىء حسبت ان ذلك واقع حتما ..!!

وانتهى الفيضان وسلم لواء المنتفك من الغرق ، وكانت اول سنة يسلم فيها هذا اللواء بجميع مزارعه منذ ٣٥ عاما وصيغت القنطرة ، وصيغ الاطار وكتب لى من الناصرية بان اكتب الى سعد بان يبعث بصورته لكى يتم ادخالها فى الاطار المصوغ لتقدم له مع الرمز على سبيل التكريم ، وقد كتبت اليه فجاءنى منه الكتاب التالى وهو واحد من عشرات مكاتيبه التى احتفظت بها كنموذج لتواضع لم يعرف عنه احد

شيئا الا القليل ، وفى هذا الكتاب يقرأ القارىء لونا من الوان انكاره لذاته بصورة لا عهد لنا بها ، ولونا من اخلاصه ، واحاسيسه المرهفة ، والتى تصلح ان تكون درسا من دروس الوطنية الصادقة ، وهو بعد ذلك صفحة من أدبه الرفيع الذى لو لم تغط السياسة عليه لرأى فيه ـ الذين لايعرفونه ـ اديبا المعيا يشار اليه بالبنان وهذا هو الكتاب :ـ

« تحياتى واشواقى

قرأت كتابك ، وابيات الاستاذ حيدر ، فوجدتهما يفيضان بالعاطفة النبيلة اكثر من فيضان (ابو جداحة) بالفرات العذب ، ومع انى لا استكثر عليكما كصديقين طغيان العاطفة ، الا انى استكثر هذه الضجة حول اسداد (ابو جداحة) ، والاسداد الاخرى ، فمثل هذا العمل يعد من الواجبات الصغيرة التى يقوم بها رجال الادارة ..!!

لاتعدنى يا اخى مبالغا اذا قلت لك انى اعتبر الثناء الكثير على العمل القليل ذما للعامل ، ولا تعدنى متواضعا اذا قلت لك بان محافظة الناس من الغرق باجبارهم على الاعمال الترابية اكثر ايام السنة لا اعتبره مفخرة ..!!

نعم لو تمكنا من تنظيم ارى بانشاء النواظم فى دلتا الفرات ، وعمل مجرى (ابى جداحة) ، وجسور الطريق الذى ينفذ منه هذا المجرى ، وتخليص المزارع من الغرق ، وتخليص الناس من الامراض التى يسببها الفيضان بدون تكليفهم بالاعمال الترابية الشاقة ، حتى فى الايام التى يجب ان ينصرفوا فيها لجمع محصولاتهم ، وتصفيتها ، اقول لو عملنا كل ذلك لكنا جديرين بالحمد والثناء ، اما والامر كما ذكرنا ، فلا مفاخر ولا مدائح ..!!

ارجو ان لاتذكروا شيئا فى صحيفتكم عن (الرمز) ، ولا عن كتابى هذا ، وسأفاتح الشيخ محمد حسن حيدر بشأن الاحتفاظ بالرمز ، وقد تقبلت ابياته الا بيتين منها بكل تقدير وامتنان .

اما رسمى ، فلا توجد لدى نسخة منه ، ولا احبذ وضعه بالاطار لو وجد ، فقد يكون فى ذلك ما يقلل من تأثير عاطفة الشاعر النبيل نحو صديقكم المخلص» .

سعد صالح

وقدم له الرمز والابيات المطبوعة ، وكنت قد بعثت الى سوق الشيوخ باحدى صور سعد التى كانت لدى على رغم التماسه بالاكتفاء بالابيات كما ورد فى كتابه وقد قام بتقديم الرمز والصورة وفد من سوق الشيوخ حضر خصيصا لهذه الغاية فى الناصرية ، اما الابيات فهى :-

عليك (لواء) الحمد شكرا يرفرف ... لانك فى دنيا العلا (متصرف)
بحزمك كافحت الحوادث وانجلى ... عن الشعب ليل بالكوارث مسدف
وقفت امام الخطب سدا ممنعا ... وذا موقف انى يحاكيه موقف
فلله ايام عليك عصيبة ... تهدد امالا لنا وتخوف
طغى الماء فيها والسدود ضعيفة ... وهمة ارباب المزارع اضعف
فقاومته حتى تثنى عنانه ... وكافحته حتى انثنى وهو اعجف
فيا (سعد) مازالت خطاك سديدة ... وما زالت الامال باسمك تهتف
بك الزرع لاقى من يرق لحاله ... ولم ير قبلا من يرق، ويعطف
اليك اتى (سوق الشيوخ) مكرما ... جهادك فى رمز عن الحب يكشف
يقدمه ذكرى لموقفك الذى ... سيبقى مدى الاجيال وهو مشرف

وجاء سعد من الناصرية الى النجف ليقضى فيها اياما من اجازته واقسم على ان لايخرج من النجف وفى نفس احد عليه معتبة أو موجدة ، وكان قد قضى قبل هذا مدة طويلة فى النجف بعد الفترة التى سميت بحركة (رشيد عالى) وفى تلك الاثناء جلس للناس فى بيته كما كان يجلس يوم كان محاميا مقيما فى النجف ، وجدد عهده باصدقائه ومحبيه ، فقد لاح له انه كان جافيا فى اعين الناس لطول ابتعاده عن النجف ، ولا يبعد ان يكون قد بلغه رأى البعض فيه انه رجل خشن ، بعيد عن الملاينة والمطايبة لزائريه ، وملتقيه ، فجاء فى هذه المرة من الناصرية ليطرد هذه الفكرة عن رؤوس الذين كانوا يرون هذا الرأى فيه ، فما ترك احدا الا وزاره ، وما ترك عاتبا الا ورفع عتبه بشيء كثير من الاعتذار ، ولعل للخصومة السياسية أو الاصح خصومته (لصالح جبر) يومذاك بعض الاثر فى اندفاعته هذه

وتلطيف مزاجه ، او انه كان يريد ان يقول بان اعراضه عن الناس ومخاشنته لهم اذا كان ذلك فيما مضى صحيحا ، فهو اليوم لم يعد ذلك الرجل الذى يستطيع أحد ان يقول عنه شيئا .

والحق ان سعدا كان قد اعرض زمنا عن النجف قبل اقباله عليه ، اما اليوم فان اقباله على هذا النحو تجاه الكبير منهم والصغير قد صار حديث الجميع ، فقد تفقد مرضاهم ، وزارهم فى بيوتهم ، واسهم معهم فى اعمالهم ، وخفف كثيرا من اثقالهم، وطالما صحبته فى زيارة عدد من الذوات ، وكنا ذات ليلة فى زيارة بعض العلماء والشيوخ ، وحين تم لنا ان نزور عدة بيوت سألنى :ـ اترى هنالك من يقتضى لنا زيارته بعد ؟ قلت ـ اذا لم تر بأسا فلنزر الشيخ قاسم محى الدين ... وهكذا فعلنا وقد كانت ليلة لم يزل يذكرها جميع من حضرها فقد كان فيها سعد مرحا ، وقد فاض مرحه حتى تجاوز الحد فاذا به يبدع فى ارسال النكتة ، واذا بظرف الشيخ قاسم المشهور تضيق دائرته امام ظرف سعد الواسع حتى كدنا ان لا نسمع للشيخ قاسم صوتا .!

وهكذا ظل ينتقل من بيت الى بيت ، ومن محل ، الى محل ، واتخذ من (دار الهاتف) مقرا له ، واستطاع ان يفيض عليها من المحبة ما اخجلنى امام نفسى حين كنت اذكر ايام الجفوة ، وكانت النجف قد بدأت تشعر بضعف ينتابها فى جميع نواحيها لاسباب كثيرة ليس هذا وقت حصرها ، أهمها كان ارتحال عدد كبير من كبار رجالها عنها اما بحكم الوظيفة ، او التجارة ، او الامور الاخرى ، وقد تناول هذا الارتحال او الهجرة على الاصح حتى رجال الادب وأهل العلم ، فاستطاع سعد خلال هذه الايام التى اقامها فى النجف ان يجدد لها امالها ، ويبعث نشاطها من جديد ويخفى عنها نقاط الضعف ، وغدت النجف تموج مرة اخرى بافكارها واعمالها ، ودب النشاط فى مفاصلها فنسيت كل مواطن ضعفها على الرغم من قصر اقامة سعد فيها ...

واعقبت هذه الزيارة من سعد زيارة اخرى جاءت مكملة لما بدأ به من عمل يزيده حبا فى النفوس ، وفى كل هذه الزيارات كنت من أكثر المتصلين به ، سواء

في بيته أو في (دار الهاتف) ، أو في بيوت العلماء ، والوجهاء ، وقد كثرت الولائم التي اقيمت على شرفه واشتدت اواصر الالفة بين قوم وقوم بسببه ، وزالت خصومات كثيرة بنتيجة هذه الاجتماعات ، والولائم ، وكثر المجون الادبي والمساجلات الشعرية ، وعادت للنجف بعض مزاياها في ارسال النكتة اللاذعة ، والنادرة المرتجلة وكانت والله من الذ الايام بل من احلى ما مر على النجف في تلك الاوقات من اطايب مجالسها بفضل سعد .

ولزم سعد بغداد بحكم نيابته في البرلمان ، وبحكم استيزاره ، فقلل ذلك من تردده على النجف ، ولكن سعدا ظل متصلا بالجميع من طريق الروح ، فبقي الناس الذين يعرفونه والذين لايعرفونه في سعد مأملا في قضاء حوائجهم ، وتسهيل ما يستطاع تسهيله لراحتهم فلم يفرق بين طائفة وطائفة ، ولا بين جنس وآخر ، وفي مدة جد قليلة أصبح اسم سعد لامعا في جميع الاوساط .

وانتقل (الهاتف) الى بغداد ، فعدت الى سالف عهدي به ، ازوره كثيرا في اوقاته العامة والخاصة ، ولم تكن له اوقات خاصة ، لولا المرض الذي لازمه منذ سنتين فاضطره الى ان يجلس مجلسا خاصا للاصدقاء حين لايكون بمقدوره ان يجلس للناس جميعا .

واصدقاء سعد نوعان حزبي ، وغير حزبي ، وكنت انا من اصدقائه غير الحزبيين ، وغير السياسيين ، ولقد كان يعلم بصلة كثير من اصدقائه بخصومه صلة وثيقة ، ومن اولئك كان سعد عمر ، فما اشار والله بشيء من هذا لاصدقائه ، ولا انكر عليهم مثل هذا الاتصال لان سعدا كان قد تغير - لقد تغير كثيرا - فلم يعد يهتم بمخالفة اصدقائه لارائه ولكنه طالما طرد البعض وشتم البعض من الذين كانوا يترددون على مجلسه وعلى مجلس خصومه فينقلون عنه حديثه لخصومه ، وينقلون عنهم حديثهم له ، واني لاذكر ذات مرة وقد كان سعد مدعوا عندي لتناول الغداء ، ان نال احد المدعوين معه من الشيخ علي الشرقي ، ولم يكن الشيخ علي الشرقي

حينذاك على حال مع السيد سعد ، وانا تربطني (بالشرفي) رابطة صداقة أكيدة يعرفها سعد ، فالتفت سعد الى المتكلم وهو يبتسم وقال :ـ والعاذرة ؟ (والعاذرة كلمة تنبيهية تقال لكي يتوقى الشخص ذكر أحد بالسوء اذا كان هنالك من لايرضيه مثل هذا الذكر السيء) .

ومعناها انه : اي عذر تقدمه عن نيلك من هذا الشخص وله صديق صميم بيننا ـ وهو يعنيني ـ؟ فرد عليه المتكلم قائلا وماذا يهم ؟

قال سعد :ـ اذا كان لايهمك انت لانك شبعان فاني والله جوعان واخشى ان ينتقم منا (الخليلي) بسببك ويحرمنا من الغداء ، وكانت لباقة منه صرفت الحديث الى ناحية اخرى .

وكنا ذات يوم ـ ونحن في النجف هو وانا ـ عند حسن محمد على حاكم صلح النجف يومها ، وكنا في غرفة المحكمة في النجف ولم يكن معنا نحن الثلاثة احد ، وقد انجر الحديث الى أمور خاصة استلزمت ان يسرد (سعد) تاريخ تصدع علاقاته الودية بصالح جبر وفي هذه الاثناء طرق باب الغرفة ودخل المحامي (فاضل عباس معله) فصرنا اربعة ، وظل سعد يروي القصة التي كان قد بدأها عما كان قد وقع بينه وبين صالح جبر ، لقد بدأ يرويها بحذافيرها ، ويستعرض موقفا يستدل منه على ان له بذمة صالح جبر مبلغا من المال لم يشأ ان يطالب صالح جبر به بعدما وقع بينهما من الجفاء ... ورجا سعد منا نحن الثلاثة ان نكتم مادار من الحديث عما يتعلق بدينه على صالح جبر لان وصول هذا الخبر الى صالح جبر مما يسيء الى سعد ... على ما قال .

وبعد بضعة ايام اتصل بي سعد بالتلفون من بيته في النجف ـ وكان قد ذهب الى بغداد وعاد الى النجف ـ وسألني بلهجة جافة خشنة قائلا :ـ

ـ الم تستطع ان تكتم القضية اسبوعا واحدا ؟

قلت ـ أية قضية تعني ؟

قال ـ او بعد هذا الافشاء مجال للتباله والتجاهل ؟

وهنا علمت ماذا كان يعنى ، فلم اتمالك نفسى ، وخففت اليه مسرعا ، وانا اشد ما اكون غضبا ، وهياجا ، لسوء ظنه بى وسألته :ـ

ـ أسمعتنى من قبل ناقلا عنك حديثا الى أحد ؟

قال ـ لا ... وارجو ان لاتذهب بك الظنون مذاهبها فقد كان ذلك منى مجرد سؤال لاغير ؟

قلت ـ لا ... ابدا ... انه لم يكن مجرد سؤال كما تقول ... وانما كنت تعنى امرا واقعا .

وتابعت الحديث قائلا :ـ ارأيتنى ناقلا لك عن أحد خبرا فيه شىء من معنى النميمة والوشاية بأحد ، وانت تعرف اننى اعرف عنك الشىء الكثير الذى قد لايجوز نقلـه ؟

قال ـ لقد قلت لك كلا ...

قلت ـ فالذى لاينقل لك شيئا عن أحد لاينقل عنك شيئا لاحد .

قال ـ لقد قلت لك انه مجرد سؤال فلا تذهب بك الظنون هذه المذاهب .

ولم ادر اكان قد قنع فى وقته حقا بانى لم اكن انا الذى اوصلت الخبـــر الى (صالح جبر) ولكنى علمت من سعد بعد زمن بانه قد عرف الذى نقل القصة الى صالح جبر وسماه لى ، وما كان من صالح جبر الا ان اسرع وبعث بالمبلغ الى سـعد صالح ...!!

* * *

وسعد ظريف ، ويتقن النكتة كل الاتقان واذا احسن احد التنكيت اسـتقبله بالاستحسان حتى وان دارت على سعد الدوائر ، وان لهجة استحسانه غالبا هى كلمة (جابها) (اى انه اتى بها فى محلها) وهو يرسل هذه الكلمة عند سماعه النكتة المرتجلة البليغة ، وانى لاذكر ذات ليلة وقد خرج جميع زواره من بيته ولم يبق غـير (تومان عدوه) ولم يكن سعد فى تلك الليلة على حال من الرغبة فى اطالة السهرة فطلب من (تومان) التعجيل بالخروج من البيت قبل ان يداهمه احد من الزوار الذين

يخجل من الاعتذار اليهم وتلزمه المجاملة بالبقاء الى جانبهم ، فاستمهله (تومان) ريثما يتم له (ف) سيكارته ، وتدخينها ، وفى تلك الاثناء قدم زائران محترمان على سعد وما كادا يجلسان حتى تكلم (تومان) وقال :ـ انها نعمت الصدفة، لان سعدا فى شوق لا حياء جانب من هذه الليلة بالسمر والاحاديث وانا جد مشغول فى هذه الليلة وقد اعتذرت اليه قبل مجيئكما راجيا ان يطلق سراحى فلم يقبل ، وقد ارسلكما الله نعمة له لتقضيا معه ليلة ارجو ان تكون سعيدة ، كما ارسلكما لى نعمة لاننى سأستطيع بواسطتكما ان اذهب لشأنى .

اما سعد فقد خنقته الضحكة ، وحين هم (تومان) بالخروج توعده سعد بالهمس وهدده قائلا :ـ

ـ ارجو ان لايكون الصبح بعيدا يا تومان ... فقال تومان ـ لعننى الله ان لم اخرج فى هذه الليلة من المدينة ولتتواجه الوجوه بعد شهر وكان بامكان سعد ان يروى لزائريه القصة ، ولكنه كان يحاذر من أحد زائريه وقد كان سريع التأثر ان يعتبر هذه القصة بمثابة طرد له وذلك لمزاج خاص عرف به ذلك الشخص ، فظل سعد يتثاءب وظل زائراه يتثاءبان الى ماشاء الله ...!!

وعرضت علبة السجاير الجديدة لشركة النصر التى اتخذت صورة سعد على الغلاف شارة ورمزا لها لقد عرضت هذه العلبة على السيد جواد الحيدرى وهو عند سعد فلم يعرف السيد جواد صورة سعد ، وظنها صورة رئيس الشركة كما لم يستطع السيد جواد قراءة كلمة سيكارة (سعد) المطبوعة عليها بالخط الكوفى وظن ان المكتوب (ساعة أو ساعد) فقال السيد جواد للذى قدم له العلبة ـ قال له :ـ الم يكن الافضل ان تصدر هذه العلبة مجردة من هذا (البجم) المنحوس . فقال سعد ـ ولقد قلت لهم والله ذلك قبلك فلم يوافقوا ، بل ارادوا ان يحققوا فى سيجارتهم الشطر المشهور (يكفيك شاهد منظرى عن مخبرى) وانت اعرف بقيمة سيجارتهم ... قال هذا ... وضحك الجميع ...

وقال مرة للسيد حسين كمال الدين على اثر مولود جديد ولد له (وكان

السيد حسين كمال الدين قد التزم بقافية الميم فى تسمية ابنائه كعصام ، وسهام ، وهمام ، وسلام) لقد قال له السيد سعد : اخشى يا سيد حسين ان تنتهى جميع هذه القوافى الميمية والسجعات لكثرة مواليدك ويصل بك الامر الى (الصخام ، واللطام) •

وقيل له مرة ان شرطيا سريا يتخطى امام داره ليتجسس عليه وعلى زواره الداخلين عليه والخارجين منه ، فقابل سعد فى اليوم الثانى مدير الشرطة وسأله عن ذلك ، فانكر المدير ان يكون ثمة شيء من هذا القبيل ، فعاد سعد الى بيته واوصى خدامه بان يستعدوا لنكتة عملية ، وهى ان يتجسسوا على الجاسوس ، حتى اذا راوه اليوم يفعل ماكان يفعل كل يوم فليقبضوا عليه وليدخلوه الى الدار ••• وكان كما اراد وكانت نكتة عملية اذ وضعت رجل الجاسوس فى (فلقة) اعدت خصيصا لذلك الجاسوس وكانت كل ضربة تنزل على قدمى الجاسوس تعقبها هتافات من (صلوات) الخدم ، وسعد يراقب الامر من بعيد ويضحك ، ولم يعد يرى احد لجاسوس شبحا حول بيت السيد سعد بعد ذلك ••!!

وسعد شاعر ، وخطيب ، وله شعر كثير اغلبه يصور نزعاته الوطنية وقليل منه فى النواحى الاخرى وقد وضع لمدرسة الغرى اناشيد وطنية جيدة كانت تنشدها المدرسة الى وقت قريب •

ولقد انشده مرة المستر (كرملى) ونحن فى قارب بدجلة ابياتا بالانكليزية تضمن تمنياته الطيبة للعراق وشعبه وتمنى فى شعره ان يظل العراق دوما فى رخاء من حيث ارضه ، وبساتينه ، ومزارعه ، ورد عليه سعد مرتجلا بثلاثة ابيات بالعربية تتضمن نفس التمنى للانكليز ، وقد قال فيها ان هذه التمنيات مجرد الفاظ ينبغى ان يرد عليها بالالفاظ ، وحينما تكون التمنيات اعمالا فانه سيرد عليها بالاعمال ، وقد كتبت ابياته الثلاثة وكدت ادسها فى جيبى ولكنه طلبها منى ليدخل تعديلا عليها وما كاد يأخذها منى حتى وضعها فى جيبه ولم يعدها الى ، ولقد رثى نفسه قبل ان يموت باسبوعين بقصيدة فى نحو ستين بيتا سماها (بالاشباح) ولما كان لايستطيع ان يمسك القلم بيده فقد كان ينظم الابيات ويحفظها ثم يتلوها على من يحضر ليكتبها عنه ، وقد كتب شطر منها بقلم حسن الاسدى وشطر اخر بقلم محمد على كمال الدين ، وشطر

بقلم ابنته (سلمى) وهذه ابيات منها :ـ

الاشـــباح (١)

ابـوارق الامـال والالام	لوحى لعلك تكشفين ظلامى
فلقد بدا شبح الهموم على الدجى	حلكا ركاما قام فوق ركام
يوحى الى نفس الكئيب كآبة	خرساء تخلع مهجة الضرغام
متوسـطا شبحين ذاك لمحنـة	الوطن الاسير ، وذا لفرط سقام
فلعلتى شبح رهيب كالردى	ولموطنى شـبح جـريح دام

وسعد زعيم من زعماء السياسة المحنكين دون اقل شبهـة ، ومقـامه السياسى معروف لدى الجميع ، وقد طغت السياسة عليه حتى لم يعد لمن يعرف سعـدا عـن كثب ان يتبين فيه شيئا غير السياسة ، وهو رجل كان من القابلية والليـاقة بحيث يستشف كثيرا من الحوادث ، ويتكهن بكثير من العواقب قبل حدوثها ، وله اراء جد صائبة ينفرد بها بين مئات السياسيين فى هـذا البلد ، ويقـدرها له الـذين عالجوا المشاكل السياسية عندما خبروا بواطنها ، فقد اوتى حظا كبيرا مـن الذكاء والفطنة وان لاصابته الهدف وحسن قيامه بما يعهد به الى نفسه فى اشد الاوقات حراجة ، الاثر الكامل الملموس ، ولعل ذكاءه كان ابرز خصـلة مـن خصاله الغريزية ، وقد يغضب سعد على امر ، او شخص ، وان غضبـه وان كان مأمون العواقب ولكنه ليس من السهل انتزاعه لشدة وقعه من ذهن المغضوب عليه ، فسعد على رغم ابتعاده عن الانتقام ، واطمينان المغضوب من العاقبة عند مقدرة سعد منه ، فان لون اعراضه لن يتحمله المغضوب عليه ، بل يود لو انه انتقم منه لكان خيرا له من هذا الاعراض والاهمال ، ولعل هذا اللون من الغضب قد افقده بعض اصدقائه ، واشهد انه عرف فى نفسه ذلك فجنبها على قدر الاستطاعة هذا المحظور .

ولقد قال لى يوما وهو وزير للداخلية وكانت جـريدة (الشعب) تـاوؤه بصورة خاصة لان خصومة سعد لصالح جبر السياسية كانت قد بلغت اوجها حينذاك

---

(١) وقد نشرت القصيدة فى الصحف بعد وفاته .

وكانت جريدة الشعب وصاحبها يحيى قاسم من اشد اصدقاء صالح جبر ومؤازريه لقد قال لى سعد ـ والله لو مات ـ وهو يعنى بذلك يحيى قاسم ـ قال والله لو مات فلن اكسبه شرف اغلاق جريدته ....

وسعد حين يرسل الرأى السياسى يرسله مدعوما بالادلة التى لاتقبل التشكيك ، فهو يعتمد المنطق فى جميع تفكيره ومن طريق المنطق يسعى للظفر .

وكم رأيته وهو متحمس لرأى ثم لايلبث ان يعود لينقضه من اساسه حين يبدو له رأى آخر سواء كان هذا الرأى له أو لغيره ممن يسمع به ، مادام يلمس فيه الحجة الصائبة ، لذلك كان سعد ابعد ما يكون عن العناد فى آرائه السياسية وكانت سلبيته فى القضايا الوطنية منطقية معقولة ، ولعل لجرأة سعد اثرا كبيرا ايضا فى شخصيته لاتقل عن مواهبه وقابليته السياسية والادبية ، والجرأة فيه قديمة ترافقه منذ الصغر وبسبب هذه الجرأة دون غيرها فقئت احدى عينيه على يد اسماعيل هرندى وهما طفلان يلعبان ففر اسماعيل هرندى خشية بطش اهل سعد ، وسويت القضية على طريقة ذلك العصر ، وكان لجرأة سعد أثر محمود فى بروز اسمه ، وفرض شخصيته ، فقد كان للجرأة بعض سيئاتها فى حنق البعض عليه خصوصا حين تتجاوز هذه الجرأة الحد وتكون صراحة اكثر مما تطيق هضمها النفوس . كل هذا قدكون من سعد رجل سياسة لايشق له غبار .

وصادق سعدا كثير من الرجال على اختلاف نزعاتهم من حزبيين وغير حزبيين، وبالامكان القول ان كثيرا من اصدقائه قد صادقوه تحسسا بمنزلته ، وحبا بروحه ، واعجابا برجاحة عقله ، وتعلقا بمبادئه القومية العربية ، وكان عبدالوهاب محمود وعلى ممتاز الدفترى وكامل الجادرجى وعدد آخر من غير الحزبيين من اكثر الملازمين لمجلسه فى ايامه الاخيرة وقلما زرته ولم اجد عددا من هؤلاء وامثالهم يخوضون واياه مختلف الشؤون كانهم فى ناد لايؤمونه الا ليغذوا انفسهم بما يطيب ، وما ينبغى ان تتغذى به النفوس الحرة التى لايقيدها اى قيد ولا يمنعها مانع من ان تقول ما تحس به ، واشهد انهم بروابه كاصدقاء فانس بهم ، وامتلات نفسه

من مودتهم واعجابهم به ، وولائهم له ، واشهد ان لهؤلاء ولبعض الاصدقاء الحميمين غير من ذكرت الذين كانوا يزورونه غبا كل الاثر فيما بدا عليه من جلد اكثر مما كان يتحمل مريض يعاني آلام مرضه سنتين كاملتين ، فقد كان يتناسى بوجود الاصدقاء مرضه ، وقد كان الدكتور عاصم الجيالي ، وصديقه الدكتور مهدي الصندوق الذي قد يرافق الجيالي بعض الاحيان لمعالجة اسنانه اثر محمود على نفسه .

وآخر زيارتي لسعد كانت قبل وفاته بخمسة ايام ، وقد كان كل من ذكرت هناك كما كان الدكتور احمد الجلبي ورأيت سعدا انشط ما يكون في حديثه وأكثر ما يكون مرحا ، وكان الحديث يدور حول هندسة الدور الحديثة ، وشكا هو وتبعه الدكتور الجلبي في الشكوى ، لقد شكيا مما كانا يعانيانه من حمامي بيتيهما وقالا انهما لايستطيعان ان يسخنا حماميهما الا بعد ان يفتحا احدى الحنفيات ويتركاها مفتوحة تصب الماء مادامت النار تشتعل في الاتون ..! والا انفجر خزان الماء ..! وتناولا في حديثهما المهندس السيد محمد الحسني بالدعابة وعزوا اليه عن طريق الفكاهة هذا الخلل لانه هو الذي بنى لهما بيتيهما مع العلم بان ليس هنالك من علاقة بين هندسة البناء ومد الانابيب ولكن الدعابة كانت قد تحكمت في نفس سعد تحكما قويا ، وجر حديث السيد سعد الى ذكر (اسطه خاچي) وافاض في التنكيت ، وابدع في تلك الليلة ابداعا عظيما ، واسطة خاچي هذا بناء نجفي معروف ، قيل انه لايبني جدارا ويتمه حتى يتنبأ بسقوطه في موعد معين خلال اسبوع أو أقل من ذلك ...!! وحين يسأله الناس متعجبين عن صدق تنبؤه حينما يرون الجدار وقد انهار - انهم يسألونه عن السر فيجيب الاسطه خاچي قائلا :- « البناية بنايتي وانا اعرفها » .

وكان سعد قد احس بدنو اجله في ايامه الاخيرة ، وكان قد بلغ سعدا ان السيد مرزا القزويني قد زاره وكان سعد نائما ... وقيل له انه ربما كان قد جاء من الحلة الى بغداد لحضور تشييع (سلمان البزاز) فشاء ان ينتهزها فرصة لزيارة سعد . فقال سعد :- بل الاصح انه اراد ان يشيع جنازتين في آن واحد (وهو يعني بالجنازة الثانية نفسه .)

قلت لقد احس بدنو اجله فى الايام الاخيرة على رغم انه لم يحدث له شىء جديد غير ما كان يحدث له من قبل ، والدليل على ذلك هو احضاره اخاه السيد طلب وابن عمه السيد حسين جريو من النجف لتسجيل وصيته قبيل وفاته بيومين فقط ، وقد كان جلدا ، وحين طفرت من عين اخيه الدموع لامه على البكاء قائلا :ـ « ان الموت مصير لابد منه وان الانسان يجب ان يهيىء نفسه لقبوله بالحسنى» وكان من شعوره بدنو اجله هو تصديه لرثاء نفسه فى آخر أيامه وهو لم يفعل ذلك من قبل ولم يتحدث به . وعلى ان سعدا كان جلدا فقد بدا عاطفيا فى أيامه الاخيرة ، اذ راح يستعرض الكثير من اصدقائه القدماء ومن الذين حالت بينه وبينهم الحوائل السياسية او غير السياسية ، مما كان هو نفسه السبب فى الجفاء او كانوا هم السبب فى ذلك ، لقد بدأ يستعرضهم بالحسنى ... ويذكرهم بالخير ... ويغض النظر عن كثير مما وقع لهم معه فلا يذكر الا اطيب ايامه معهم ... وكانوا كثيرين ... وكان يستعرضهم واحدا واحدا فى بلدانهم ، وديارهم ، وكان منهم اموات ، والكثير منهم احياء ، ولم يكن ذلك عن عاطفة وحدها ، وانما كان يمازجها شىء من الفلسفة التى ترى ان الواجب يقضى بان لايحتفظ الانسان بغير الذكريات الطيبة من الماضى ... اما السيئات ، فيجب ان لايفسح لها المرء فى المجال حتى ولو باشغال جانب صغير من نفسه ... ووالله لقد اعتذر حتى لخادميه محمد ، وسلمان ، وسمعته يرثى لهما ويذكر انهما قد سهرا كثيرا من أجله ... وتعذبا كثيرا فى سبيله ، كما اعتذر الى جواد موسى مما كان قد سبب له من اتعاب فى اثناء ملازمته له فى سفره الى اوربا للمعالجة ، ومما قد يكون قد ند منه شىء فى هذا السفر فى حق جواد موسى الذى كان يحب سعدا كثيرا ، وشعر سعد منذ سنتين ، وكان مرضه يتطلب ان يكون بعيدا عن التفكير والهم ، وكان ذلك ـ على واحد مثل سعد ـ عسيرا ، وقد تحدث ذات ليلة ولم يكن عنده أحد سواى ، وتطرق الحديث الى راحته فقال :ـ لقد سعى كثيرا الى الراحة فلم يوفق ، واذا ما استطاع ان يبتعد عن اجواء التفكير ، وانشغال البال بالمزعجات ، فان ماكان يتلقى من الكتب والرسائل ، ومن احاديث زواره ، كاف ليجعله سابحا فى عالم

ليس له نهاية من الاخيلة المزعجة والهموم .

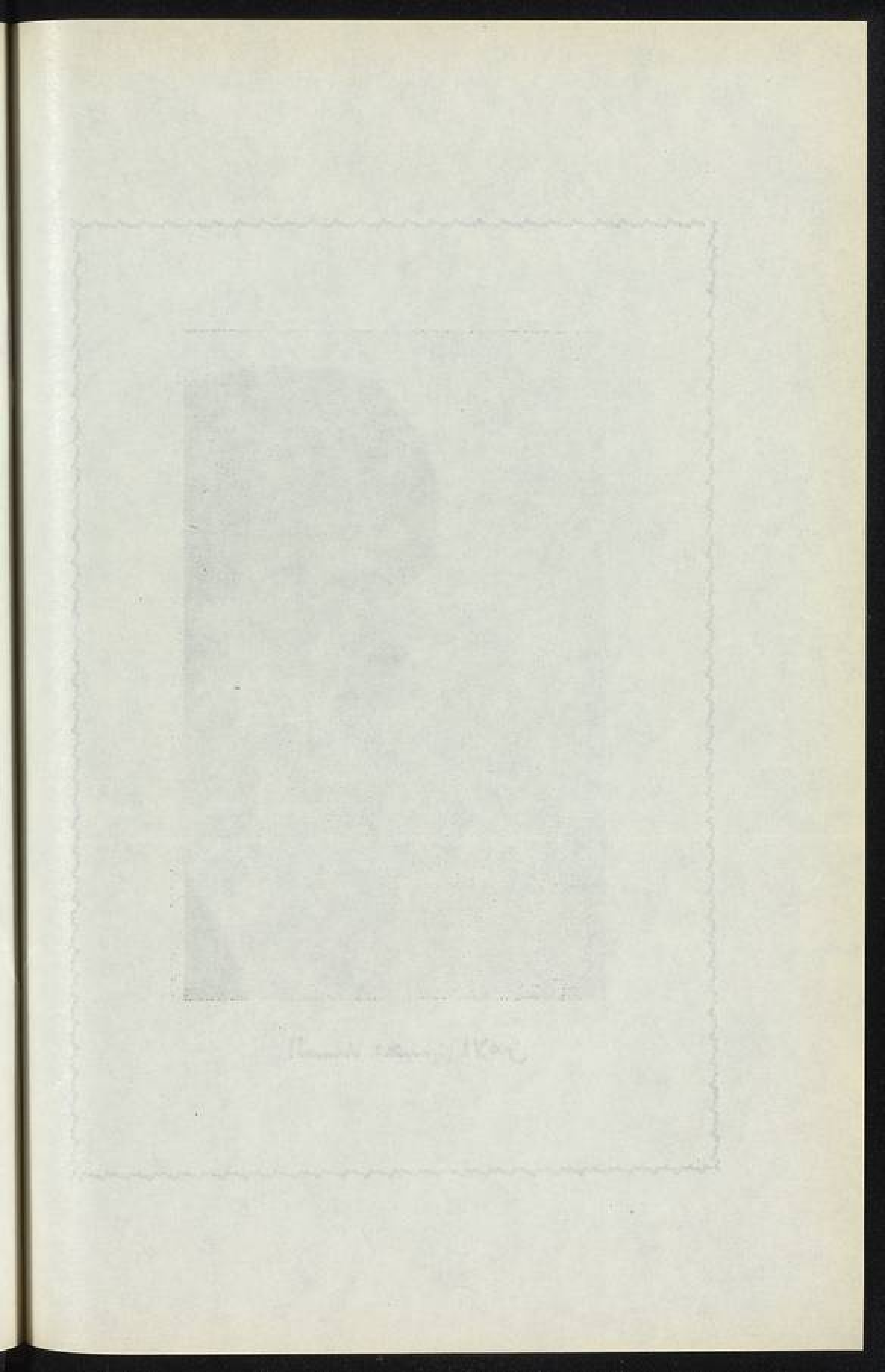
وقيل ان دواء سعد منحصر فى تركيب جديد اكتشف حديثا بامريكا وهو كفيل ببناء ما كان يتهدم من الاعصاب وما كان يضمر من العضلات وينطفى من جمرتها يوما بعد يوم وهو المرض الذى كان يشكو منه ، وكتب الى امريكا وطال الانتظار ، وقد وصل الدواء المجرب الذى انحصرت المعالجة به ، لقد وصل فى اليوم الذى فارق سعد الدنيا .

واحس سعد بعد منتصف الليل بان حاله ليست على مايرام ، فسئل عما اذا كان بحاجة الى طبيب ؟ فقال ما مضمونه ليس هناك من فائدة فقد قضى الامر ، وكان سعد مالكا شعوره الى آخر لحظة من حياته وعلى رغم مابدا عليه فى ايامه الاخيرة من رقة فى العاطفة ، ولين فى الطبع ، وشفقة على اولاده الصغار وزوجته ، وهو يرى انكسارهم ونفاد صبرهم وسيل دموعهم فهو لم يدع احدا يرى دموعه ويشهد ضعفه الذى خلفه المرض .

لقد كان سعد بارزا فى حياته ، والذين برزوا وماتوا كانوا كثيرين ولكن امثال سعد كانوا اقل من القليل فهو نسيج وحده من حيث مواهبه الخاصة ومن حيث وطنيته وتوفر ملكات الزعامة السياسية فى نفسه تلك المواهب التى استدرت دموع اصدقائه وغير اصدقائه على حد سواء حزنا عليه ، وشعورا بالخسارة الفادحة ، فكانت فاجعة البلاد به عامة ، وراح ولم يكسب من دنياه غير هذا الشعور ، وهو كل ثروة الذين يعيشون للناس ، وتوفى قبل اوانه ، فى الوقت الذى اوشكت الزعامة الوطنية والسياسية ان تنحصر به .



السيد محسن الامين



السيد محسن الامين[1]

المفروض عرفا - ولسنا ندرى من الذى فرض ذلك العرف - هو ان يكون العالم الروحانى رجلا جافا خشنا تدل على ذلك ما كله ، وملابسه ، وافكاره ...!! وسواء كان هذا المفروض حقا ام باطلا فقد وجدنا اكثر العلماء الروحانيين يعيشون على هذه الوتيرة ، ويتهيبهم اكثر الناس لجفافهم ، وعدم فهم افكارهم ، ولترفعهم عما يحوط الناس ويكتنفهم ، اما الذين انطبق عليهم تعريف المؤمن من هؤلاء الروحانيين وهو ان المؤمن يكون هشا بشا فقد كانوا قليلين ... ومن هذا القليل كان السيد محسن الامين العاملى ، فقد طرق اسمه اذنى منذ اول ادراكى بانه رجل عالم مجدد ينزع الى تيسير الامور ، ويدعو للتبسط ، فمالت نفسى له ، وقرأت بعض توجيهاته وافكاره هنا وهناك ، فدلنى المقروء على روحانية من صنف آخر غير ما كنت قد الفت ان ارى فى النجف على الغالب ، لذلك هفت نفسى اليه ، وتقت الى رؤيته ، وكلما ازددت قراءة لافكاره ، ازداد ايمانى به كعالم افهم ما يقوله ، واعرف ماذا يريد ان يقول ، وكم كنت وانا صبى أمر على المسجد الهندى ، ومسجد الخضراء ، ومسجد الطوسى ، واخيرا الصحن الشريف فى النجف ، فاسمع العلماء يتدارسون ويتباحثون ، فكان ذلك عندى كالرطانة واذا كان ذلك حقا باعتباره درسا من الفقه والاصول الذى هو فوق مستوى ادراك الرجال فضلا عن الاطفال ، فاين الحق فى هذا الكلام الذى يتداولونه فى مجالسهم ، ويرسلونه تعبيرا عن اغراضهم ؟ انه لايزال رطانة من الرطائن ، لايستطيع ان يتفهمها كثير من الكبار ، وجميع الصغار على الاطلاق ، ولكن قد ينطلق من بين هذه الرطائن التى

---

(١) الهاتف - السنة السابعة عشرة - العدد ١١٤٣ - ٩ مايس ٩٥٢ .

ينطق بها العلماء كلام مفهوم بعض الاحيان لدى جميع الكبار والكثير من الصغار فترتاح اليه النفوس ، وينفذ الى القلوب ، ولم نعرف سبب هذا الاختلاف ، حتى قيل لنا ان هذه اللغة المفهومة كلها او بعضها ، والروحية التى تدفع بها وتزينها انما هى لغة المتجددين من العلماء وروحيتهم فكانت آثار السيد محسن الامين من هـذا الوصف فى الطليعة •

ومن الحق ايضا ان اقول - ان هذا الذى سمى بالتجديد لم يكن جديدا وانما كان هو القديم الذى شرحه غير واحد من شراح الفلسفة بل كان اللب والاساس من الدين ، ومن العلوم الاجتماعية ، ولكن الذى اخرج العلماء على قواعد الايمان ، وانحرف بهم عن الطريق الذى يفرض على المؤمن ان يكون هشا بشا هو الـذى اخرجهم على مغزى التشريع ، وقواعد الدين ، وانتحى بهم ناحية هى واصـول الدين الصحيح على طرفى نقيض ، فاذا بنا لانعرف منطوقهم ، ولا محمولهم ولا ما يهدفون اليه فيما يخص المجتمع وليس فيما يخص بحوثهم العويصة •

وما لنا وهذا الان ؟ وكل ما اريد ان اقول هو ان اول ما جذبنى مـن السيد محسن الامين كان هذا الذى يقـوله السيد محسن فيفهمـه الناس ويتحسسون بخطره وقيمته •

وازددت معرفة روحية به عن طريق ابى •• فقد كان ابى زميله فى الدرس مدة طويلة ، وصديقه مدة اقامة السيد محسن فى النجف طالبا للعلم ، ثم علمت ان للسيد محسن اندادا من العلماء ، وهم الاخرون كانوا ينفذون الى النفوس بدعواتهم الاصلاحية ، واحاديثهم الشهية ، والفرق بين السيد محسن وغيره هو ان السيد محسن لم يكتف بالكتابة والتوجيه والارشاد بل راح يعمل على قدر الطاقة لتنزيه الدين من الشوائب ، والقضاء على كل تعقيد يوسع الخرق ، ويسعى فى العمل على تنشئة جيل صالح منذ ان بعث به (الشيخ محمد طه نجف) الى دمشق ليكون هناك المرجع الروحانى ، والامام المرشد ، وقد توجه اول ما توجه الى تأليف كتب أدبية ، اخلاقية ، مدرسية ، وتأليف كتب خاصة بتاريخ سيرة الحسين (ع) وقد عـرض لهذه السيرة عرضا مجردا من كثير من الشـوائب والاكاذيب عـلى قـدر الامكان

لاتخاذها مصدرا لخطباء المنابر الحسينية ، والزم الخطباء بمراعاة خطته فى المأتم الحسينية واول عمل قام به بعد ذلك هو تحريم الضرب بالسيوف والسلاسل فى يوم عاشوراء ، ومقاومة الذين يستعملون الطبول ، والصنوج ، والابواق ، وغيرها فى تسيير مواكب العزاء بيوم عاشوراء فكان ذلك اول ذريعة اتخذها مخالفوه وخصومه لمهاجمته ، وقد ايدهم فى نشاط الحملة ضده كونها جاءت متفقة ورغبة العوام (السواد) كل الاتفاق لذلك اتسعت الحملة ، وكان المجتهد الشيخ عبدالحسين صادق فى (النبطية) ، والامام السيد عبدالحسين شرف الدين فى (صور) ممن خالف دعوة السيد محسن الامين ، فبعثت هذه المخالفة فى نفس السيد محسن روحا جديدة زادته حماسا وثورة فى وجه القائلين بجواز الضرب بالسيف على الرؤوس فى يوم عاشوراء ، وحمله الغضب على اصدار (رسالة التنزيه) التى بنى احد اسباب غضبته على الرواية القائلة (من اغضب ولم يغضب فهو حمار) وكانت غضبة مضرية ، أدت الى مشاكل كثيرة ما كادت تبدأ فى (جبل عامل) بلبنان ، حتى انتقلت الى العراق ، وتحولت من مشكلة اصلاحية ، الى مشكلة شخصية ، وقد كان لآل صادق وآل شرف الدين ، ولآل الأمين ، اصدقاؤهم ، ومؤيدوهم فى النجف فاندفعت كل جهة الى هدفها بكل نشاط ، واتجه الجميع الى كبار العلماء يستفتونهم فى أمر الضرب بالسيف كمظهر من مظاهر الحزن على ابى عبدالله الحسين (ع) ، فافتى (السيد ابو الحسن) الاصفهانى بحرمة الضرب بالسيف ، وقال ما مضمونه «ان استعمال السيوف والسلاسل والطبول والابواق وما يجرى اليوم من امثالها فى مواكب العزاء بيوم عاشوراء باسم الحزن على الحسين انما هو محرم وغير شرعى»[1] .

وافتى الميرزا حسين النائينى والامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وجميع كبار العلماء بشرعية الضرب ..!! وجوزوا تلك المراسيم ، وكان (السيد ابو الحسن) لم ينفرد بعد بالزعامة الروحانية ، بل كان فى طريق انفراده بها وكان وقوف منافسيه ـ وقد اجتمعت فتاواهم على خلافه ـ مما يوخر وصوله الى مركز

(١) ـ رسالة السيد ابى الحسن الفارسية ـ الطبعة الاولى .

الزعامة الدينية الكبرى ، فقد تلقى اغلب الناس الفتاوى المخالفة للسيد ابى الحسن المؤيد للسيد محسن الامين بشيء من الارتياح ، وزاد من هياج انـــاس فى وجـه السيد محسن الامين تبنى الخطيب الشهير السيد صالح الحلى فتاوى العلماء وشنه الغارة الشعواء على السيد محسن الامين وكان السيد صالح من مشاهير الخطباء الذين قلما تجود الطبيعة بامثالهم من حيث اللباقة ، والخبرة ، والجرأة[1] فصرخ بالناس وهاجهم ضد السيد محسن الامين وانقسم الناس الى طائفتين على ما اصطلح عليـــه العوام (علويين) و (امويين) وعنى بالامويين اتبـــاع السيد محسن وكانوا اقليـة لايعتد بها ، واكثرهم كانوا متسترين خوفا من الاذى ... واتخـذ البعض هــذه الدعوة وسيلة لمجرد مهاجمة اعدائه واتهامه اياهم (بالاموية) ... فكثر الاعتداء على الاشخاص .. وأهين عدد كبير من الناس ، وضرب البعض منهم ضربا مبرحا .. وبلغت الجرأة بالسيد صالح الحلى ان يتطاول على السيد ابى الحسن ويتناول السيد محسن بالسب والشتم ، وتجاوزت به الجرأة كل حد حتى قال فى السيد محسن قولته المنكرة :

يا راكبا اما مررت بجلق　　　فابصق بوجه (امينها) المتزندق

وقد قيل ان البيت المذكور كان لاحد (العامليين) وقد نسب الى السيد صالح الحلى لانه كان الصق به من غيره لما هو معروف به من جرأة وعدم مبالاة .

ومثل هذه الجرأة وان كانت قد اثارت نفـوس الغيـارى ، وهاجت قرائح الشعراء المدركين والعارفين حقيقة الاصلاح فانها لم تفعل ولا بقدر الذرة فى نفس السيد محسن الكبيرة خصوصا وكان قد استعرض مواقف النبى محمد (ص) وآل البيت فى دعوتهم الاصلاحية فيما الف من كتب مدرسية ساق فيها الشواهد والامثلة لما ينبغى ان يكون عليه الداعى الى الاصلاح من استعداد لتقبل جميع صنوف الاذى وضروب العذاب وقد احسن الشيخ مهدى الحجار وقـد كان من (الامويين) فى الطليعة حين قال من قصيدته يخاطب السيد محسن :

تأس يا (محسن) فيما لقيت بما　　　لاقاه جدك من بغى ومن حسد

---

(١) مرت اشارة اوسع من هذه عن السيد صالح الحلى فى استعراض ايام السيد ابى الحسن .

وبدافع اعجابي بالسيد محسن ، وانطباعاتي عنه منذ الصغر ، وايماني بصحة دعوته ، اصبحت (امويا) ، وامويا قحا في عرف الذين قسموا الناس الى امويين ، وعلويين ، وكنت شابا فائر الدم ، كثير الحرارة ، فصببت حرارتي كلها في مقالات هاجمت بها العلماء الذين خالفوا فتوى السيد ابي الحسن والذين هاجموا السيد محسن ، ولما كنت يومذاك موظفا فقد نشرت مقالاتي في الجرائد بتواقيع مستعارة ، وتبعني في عملي هذا عدد من (الامويين) على حد ذلك الاصطلاح ثم ما لبثنا ان تعارفنا نحن (الامويين) وكان الشيخ محسن شرارة في الطليعة من اولئك المتحمسين لمبدأ السيد محسن الامين الاصلاحي ، ولست اذكر شيئا كثيرا مما مر ، الا انني كنت قد احسنت الدفاع عن السيد محسن بقلمي ، ولساني ، حتى لقد هددت بالقتل والاعتداء حين انكشف امري للبعض .

وكنت اجد في كثير من الاحيان رسالة او اكثر وقد القي بها من تحت باب الدار وهي تتضمن الى جانب التهديد بالقتل شتائم بذيئة تدل على خسة ، وجبن ، فكنت أسعى لالتقاطها قبل ان يعرف احد عنها شيئا ، ذلك لان لي أما كانت ملتهبة العاطفة ، وكنت اخشى ان يصل اليها خبر التهديد فتجن وتنغص علي حياتي ، وكان لي من حسن الحظ من يدفع عني الشر ، ومن الحق ان اشير هنا بالثناء الى الشيخ عبدالكريم الجزائري ، فقد كان ممن ذب يومذاك هو والزاهد الناسك الشيخ علي القمي والفقيه الشيخ جعفر البديري فقد ذبوا عن السيد محسن بحرارة ودافعوا عن رأيه دفاعا جريئا وكان ذلك سببا لاتصالي الوثيق بالشيخ عبدالكريم الجزائري ولكن التيار كان جارفا ، والقوة كلها كانت في جانب (العلويين) ، وكان هؤلاء (العلويون) واتباعهم يتفننون في التشهير بالذين سموهم (بالامويين) ، وبلغ من الاستهتار ان راح حملة القرب وسقاة الماء في مأتم الحسين بيوم عاشوراء ينادون مرددين : (لعن الله الامين ــ ماء) بينما كان نداؤهم من قبل يتلخص في ترديدهم القول (لعن الله حرملة ــ ماء) فابدلوا الامين بحرملة نكاية ، وشتما ، وبعد عدة سنوات ، وحين أثرت هذا الموضوع ، موضوع تحريم الضرب بالسيوف في جريدة الهاتف ، هاجت النجف ، وماجت ، وكادت تحدث هناك فتنة ، وهنا تحول النداء

علـى اماء فى المآتم الحسينية الى المناداة باللعن على افواه سـقاة الماء صارخين (لعن الله الخليلى ـ ماى) •

ولا تسل عن عدد الذين شتموا ، وضربوا ، واهينوا بسبب تلك الضجة التى احدثتها فتوى اسيد محسن الامين يومذاك وكان السبب الاكبر فى كل ذلك هـو (العامليون) اعنى ـ اهل جبل عامل ـ الذين كانوا يسكنون النجف طلبا للعلم وكان معظمهم من مخالفى السيد محسن •

وممن دافع عن اسيد محسن خارج النجف كان السيد مهدى القزوينى فى البصرة ، وكان السيد هبة الدين الحسينى الشهرستانى فى بغداد الذى ساعدنا نحن الذين تولينا الكتابة والدفاع عن السيد محسن مساعدة فعالة ، على ان دفاع هؤلاء لم يكن مستغربا حينذاك بقدر ماكان يستغرب دفاع الشيخ على القمى ، ودفاع الشيخ جعفر البديرى لبعدهما عن روح التجدد •

وقد اثار هذان الاخيران فى ذبهما عن السيد محسن دهشة جميع الاوساط واستغرابهم •

اما السيد محسن نفسه فان لرده على خصومه اسلوبا خاصا ينهج به نهج خصمه فى الرد من حيث الطريقة لامن حيث الشتيمة ، وانه ليبدع فى العرض على ذلك النسق وبشىء كثير من الانسجام والتبسط حتى ليدخل بـكلامه الى قلوب قرائه بدون استيذان ، ولاعجب فقد كان اديبا بارعا وشاعرا اجاد فى كثير من مواضيع الشعر •

فمن امثلة ردوده ان بعض صحف بـيروت كانت قد نشرت له تحريمـه لشج الرؤوس بالسيوف ، والضرب على الصدور ، واستعمال المزامير والطبول فى مواكب الامام الحسين (ع) ، فانبرى له أحد كبار الروحانيين المتسترين مفندا ومكفرا ومشهرا به فى رسالة مستقلة طبعها وقد جاء فى بعضها قوله :

«ومن فواجع الدهور ، وفظائع الامور ، وقاصمات الظهور ، وموغـرات الصدور ، ما نقلته بعض جرائد بيروت فى هذا العام عمن نحترم اشخاصهم مـن

المعاصرين الوطنيين (يريد به السيد محسن) من تحبيذ ترك المواكب الحسينية ، والاجتماعات العزائية بصورها المجسمة فى (النبطيه) وغيرها ، فما ادرى أصدق الناقل ام كذب ؟ فان كان صادقا فالمصيبة على الدين جسيمة عظيمة ....

وقد راعى السيد محسن فى رده اسلوب منتقده فى سخرية مؤدبة جميلة اذ قال :

« ان هذا التهويل وتكثير الاسجاع لايفيد شيئا ولو اضيف اليه اضعافه من قاطعات النحور ، ومجففات البحور ، ومفطرات الصخور ، ومبعثرات القبور ، ومهدمات القصور ، ومسقطات الطيور ، بل ان من فجائع الدهور ، وفظائع الامور ، وقاصمات الظهور ، وموغرات الصدور ، اتخاذ الطبول والزمور ، وشق الرؤوس على الوجه المشهور ، وابراز شيعة اهل البيت واتباعهم بمظهر الوحشية والسخرية امام الجمهور ، مما لايرضى به عاقل غيور » .

وقد اخذ بعض هؤلاء الخصوم من الروحانيين على السيد محسن محاربته لهذه البدع من التطبيل والتزمير ولبس الاكفان والضرب بالسيف والسلاسل فقالوا معترضين عليه :

« أبكى السماء والارض بالحمرة والدم ولا يبكى الشيعى بالدم المهراق من جميع اعضائه » .

فرد السيد محسن على هؤلاء بما يلى :

« اننا ما رأيناكم أهرقتم دما طول عمركم للحزن من بعض اعضائكم لتهرقوه من جميع اعضائكم ، فلماذا تركتم هذا المستحب المؤكد تركا ابديا ، وهجرتموه هجرا سرمديا ، ولم يفعله احد من العلماء فى عمره ولو بجرح صغير كبضعة الحجام ، ولماذا لم يلبسوا الاكفان ، ويحملوا الطبول والابواق ، وتركوا هذه المستحبات يفوز بها العوام والجهلة دونهم ؟ » .

واستطاع السيد محسن ان يوجه مساعيه توجيها عمليا فيحول بين ارباب المآتم الحسينية وبين القيام باية حركة تنافى والشريعة الاسلامية على قدر امكانياته وفى ضمن حدود تفكيره ، حتى الخطباء ، خطباء المنابر الحسينية استطاع

السيد محسن ان يفرض اطاعته على كثير منهم فيحصر خطبهم ضمن دوائر معينة من الموعظة ، والارشاد ، وقراءة سيرة (الحسين) ، وتاريخ شهادته ، بعد ان كانت الفوضى قد عملت عملها فيهم حتى بلغ من تصرف الخطباء ان صاروا يروون الكثير من الاخبار المفقة ، والروايات المدسوسة على المنابر ، وهى اخبار ، وروايات ، ربما كانت اقرب الى الكفر منها الى الاسلام عند علماء الشيعة المدركين والواقفين على فلسفة الاسلام .

أما النجف وسائر المدن الاخرى فقد قابلت دعوة السيد محسن ، وفتوى السيد ابى الحسن ، برد فعل قوى ، شديد ، ظهر اثره فى أول شهر محرم من تلك السنة ، فقد ازداد عدد الضاربين بالسيوف والسلاسل ..! وازداد استعمال الطبول والمزامير والصنوج والابواق ..! وكثرت الاهازيج والاناشيد التى تتضمن النقمة والتحدى لتلك الحركة الاصلاحية ... فخاف (الامويون) واختفى الكثير منهم طوال العشرة الاولى من (المحرم) وبعدها بايام ، وانسحب البعض من الميدان كرها او اختيارا ...

وبلغ السيد محسن خبر هذه الضجة ، كما بلغه خبر الذين ذبوا عن رأيه ، ودافعوا عن حركته ، وظهر لى من شكره لى وثنائه على يوم التقيته لاول مرة : انه كان قد عرف كل شيء عن الحركة فى العراق وفى النجف وهو فى دمشق ، فلقد كنت قد اصدرت (جريدة الفجر الصادق) وكنت يومذاك فى ريعان الشباب وشدته، وعصبيته ـ كما قلت ـ وكنت جريئا بقدر ما كانت تقتضيه طبيعة الشباب المؤمن بحقه ان لم اكن اكثر ، فكانت لى مع السيد صالح الحلى مواقف مشهورة ملأت بها (جريدة الفجر الصادق) واستطعت ان انتقم للاصلاح الدينى منه انتقاما ضج منه السيد صالح الحلى وهاج ، وضج معه انصاره ، وهاجوا . فهددوا ، واوعدوا ، ولكنى لم ابال بالتهديد ، والوعيد ، ولم يخفنى الابراق ، والارعاد .

ومن الحق ان اذكر ان اندفاعى فى تحدى السيد صالح على تلك الصورة من الجرأة التى لم يقدم عليها احد من اقرانى لم يكن وليد جرأتى الذاتية وحدها وشبابى

الفائر وحده ، وانما كان لها ما يسندها ـ كما اشرت ـ من الامور المشجعة ، فقد كان (الحاج عطية ابو كلل) يؤيدني في موقفي لعدة اسباب ، والحاج عطية كان اكبر زعيم يهابه المتشدقون بقوتهم ، والمغرورون بسلاحهم ـ وأن اهم اسباب تأييد الحاج عطية لموقفي من تلك الجرأة التي سجلت منها جريدة الفجر الصادق جزءا غير يسير ، هو ان الحاج عطية كان من مقلدي (السيد ابي الحسن) اضافة الى ان للحاج عطية صلة صداقة جد متينة باسرتي ، حتى كان من مظاهر تلك الصداقة انه خرج من بيته ذات يوم على اثر مشاجرة جرت بينه وبين اولاده وأهله زعلان غاضبا وعلى كثرة بيوت ارحامه ، واصدقائه ، فانه لم يقصد بيتا غير بيت عمي الميرزا كاظم الخليلي وقد مكث فيه عدة ايام لم يترك اولاده فيها طريقة لم يسلكوها لكسب رضاه ، حتى رضي وانتقل الى بيته ، هذا فضلا عن اتفاق كان قد جرى بيني وبين الحاج عطية على ان نقوم ببث الدعاوة لحمل (المواكب) ووفود المدن على ان يتخذوا من يوم ٢٨ صفر من كل سنة ـ وهو يوم وفاة النبي ـ يوما من الايام الدينية الرسمية لكي يقصد الزوار من جميع الجهات مدينة النجف على غرار ما يفعلون في زيارة (كربلاء) في يوم (الاربعين) وهذه الحركة وان لم تخل من نكاية للنجف بمدينة كربلاء لسبب ليس هذا محل ذكره ولم يكن باعثها الاول منفعة النجف ولكنها كانت حركة لها اهميتها الروحية ، والسياسية ، والاقتصادية . بالنسبة لمدينة النجف تلك الحركة التي كان الحاج عطية بطلها الاول والاخير ، وقد تكللت بالنجاح ، ومنذ ذلك اليوم والنجف تغص بالمواكب والوفود لزيارتها في هذه المناسبة حتى لزم الامر ـ لكثرة الازدحام ، وكثرة المواكب ، ان تستدعي الحكومة قوة احتياطية من الشرطة للمحافظة على الامن والنظام لهذا اليوم من كل سنة ..!! وللان والكثير لايدرون بان محدث هذه الحركة كانت (جريدة الفجر الصادق) وكان الحاج عطية (ابو كلل) ، وقد اصبح عشرات الالاف يؤم النجف في كل سنة من مثل هذا اليوم .

اقول ـ كان كل هذا مما يسندني ، ويشجعني اكثر للوقوف في وجه السيد

صالح الحلى ، الذى كان الجميع يخشاه ويتهيبونه بالاضافة الى ماكنت انال من تأييد (الامويين) وان كانوا قليلين يومذاك .

ولكى تتكلل الحملة على السيد صالح بالنجاح ، ويتم الانتقام لدعوة السيد محسن الامين الاصلاحية قامت (جريدة الفجر الصادق) بالدعوة للخطيب الشيخ محمد على اليعقوبى الذى يسكن الحيرة (الجعارة) يوم ذاك ، ليحل محـل السيد صالح الحلى فى مهمة الخطابة فى المآتم الحسينية ، فلقيت الدعوة اقبالا غير قليـل بالنظر لما كان يتمتع به اليعقوبى من مواهب ومميزات ، وشعر الناس بعد وقت قصير بما كانت تترك (مجالس) اليعقوبى من لذة فى نفوسهم ، ونجحت الفكرة ، واصاب السيد صالح الحلى شىء كثير من الفشل والانكسار ، وبان اثر هذا الانكسار والفشل على السيد صالح اكثر حين لمس انصار الحركة الاصلاحية ، ضعف السيد صالح وانكساره ، وبدا الجو يتغير ، فلم يعد يتردد اسم (الامويين) كثيرا كما كان يتردد من قبل ...!!

وزرت دمشق مصطافا لاول مرة وكان اول عمل عملتـه ان قمت بزيـارة السيد محسن الامين ، وكان يسكن بيتا الى جوار (المدرسة المحسنية) وجاء عنده ذكر الحركة الاصلاحية فافاض (السيد) كثيرا فى وصف العلل والاسـباب التى تؤول الى فشل تعميم الاصلاح ، وما يسود الناس من فوضى وقـال ان الحـركة الاصلاحية بحاجة الى أيد فعالة لازالة الموانع والعراقيل لكى تتمـكن مـن انتشال هؤلاء الجهلاء من جهالتهم .

وقد اعطى الدعاوة ، والعظة ، والارشاد ، والجرأة اهمية كبيرة ، وقال اننا يجب ان نعد للاصلاح خطباء ماهرين ، وحين جاء ذكر السيد صالح الحلى وهـو العدو الاول والاكبر لحركة السيد محسن الاصلاحية قال عنه السيد محسن بهذا المضمون الذى أكاد أورده بالنص :

«ان السيد صالح الحلى هو احسن خطيب عرفته المنابر الحسينية ، وانا اود ان نعد الخطباء على غراره اذا ما اردنا ان ننبه الناس ونوقظهم ، ونوجههم توجيها صحيحا ...!!» .

ثم اضاف قائلا :ـ « اما موقفه ضد الحركة الاصلاحية وضدى انا بالذات ، فله تفاسير خاصة لايجوز ان تصدنى عن قول الحقيقة ••!! » •

ودعانى السيد محسن فى تلك الزيارة لحضور مجلس من مجالس المآتم الحسينية تقام فى تلك الليلة بدمشق فقلت له :

ـ اننى اشكو التخمة لكثرة ما حضرت هذه (المجالس) وما سمعت من احاديثها •

قال ـ ولكنك ستسمع فى هذا المجلس مالم تكن قد سمعت •••• وسترى خطباء جددا اعددتهم لمثل هذا ، وانا اسعى لاعداد المزيد منهم •••

ثم قال ـ « وانى الزمك بالحضور فى هذه الليلة فاياك ان تتخلف» •••

ولكنى خرجت ولم اعد ••

وبعد يومين او ثلاث زرته فى بيته المذكور فلامنى على عدم حضورى (المجلس) فى تلك الليلة ••• وأكثرت من زيارتى له مدة اقامتى فى دمشق وقد علمت انه ينوى القيام بجولة فى بعض الاقطار الاسلامية كالعراق ، وايران ، للوقوف على المصادر التاريخية النادرة لكى يعول عليها فى اخراج موسوعته الكبرى (اعيان الشيعة) •

وجاءت الاخبار تنبىء ان السيد محسن قادم الى العراق فاختلف انصاره فى امر هذا القدوم فمنهم من رجحه ، ومنهم من لم يرجحه ، ذلك لان الفتنة فتنة (الامويين) و (العلويين) لم تكن قد خمدت بعد تماما • وان رد الفعل وان كان قد بدأ اخف من السابق ولكنه لم يكن بحيث يستهان به او تتجاهل عواقبه ، وقد كتب البعض الى السيد محسن ينصحه بتأجيل قدومه الى وقت انسب وذلك خشية ان يلقى مالا يليق به من الاعراض ، والتنديد ، والتحرش ، بصفته البطل الاول فى تلك الدعوة التى مست السواد فى الصميم ، ولكن السيد محسن كان جريئا وكان غير هياب ، فتحرك من دمشق ••• ولست ادرى كيف ؟ كيف انقلب الوضع مرة واحدة ؟ وكيف دبت فى النفوس روح جديدة !؟ فاذا بالجماهير كلها تتحرك ، وتستعد لاستقباله ، وجاءت اشارة (السيد ابى الحسن) بوجوب التهيؤ لاستقبال

السيد محسن ملهبة لشعور الناس ، فاذا به يستقبل استقبالا لم تشهد النجف نظيرا له في كل المناسبات الماضية .!؟ واذا بالسرادق الكبير ـ وهو اكبر ما تملك النجف ـ يقام خارج المدينة ... فلم يبق عالم ، او تاجر ، أو وجيه ، او وضيع ، دون ان يخرج الى استقباله على نحو من الجلال الذى لا يوصف ... واذا (بكلو الحبيب) وهو من الزعماء ، ومن وجوه الطبقة التى يسمونها (بالمشاهدة) والمعروفة باستخدامها السلاح فى حل مشاكلها ، اذا (بكلو الحبيب) الذى كان اكبر دعامة (للسيد صالح الحلى) واكبر خصوم (السيد محسن الامين) اذا به يدنو من السيد محسن ، ويأخذ يده ، وينهال عليها بالتقبيل ، مرة بعد اخرى ، وهو يقول ويردد هــذا المضمـون ـ «لعن الله من غشنى فصورك لى (امويا) فها هو ذا وجهك النورانى يشع بالايمان فاغفر لى سوء ظنى ، واعف عنى ، فانما كان الذنب ذنب اولئك المغرضين المارقين الذين شوهوا الحقائق وقالوا عنك ما قالوا » .

وكان وجه السيد محسن يشع بالايمان حقا ، وكان بهيا وفى غاية البهاء ، فقد كانت له جاذبية ، وسحر ، يشعرك بنفس وادعة بعيدة عن التعقيد ، لاغموض فيهـا ولا ابهام ، فلا يكاد يراه الرائى الا وأحبه ..

ونزل فى ضيافة السيد ابى الحسن اول مانزل ، ثم انتقل الى بيت الشيخ خليل مغنية على ما اذكر وقد زرته هناك وكان محله غاصا بطبقة كبيرة ، ومن بينهم عدد ممن كان قد تالب عليه ، أو كان يؤلب الناس عليه الى عهد قريب ، ولكنهم ما كادوا يرونه حتى ذابوا امامه كما يذوب الثلج امام شمس الصيف الســاطعة ، وبالغ الحاضرون فى استقبالى وجاملونى وانا ادخل مجلسه سترا لمواقفهم النابية ، وخوفا من ان اشير ـ وانا العارف بفعلتهم ـ الى ماكانوا يبذلون من مجهود ومساع للنيل من السيد محسن والحط من شانه ، وكان معظمهم من (العامليين) كما قد اشرت الى ذلك .

وبولغ فى اكرام السيد محسن والاحتفاء به ، وكثرت الولائم والدعوات التى اقيمت تكريما له ، وفرضت (شخصيته) نفسها على خصومه فرضا ، فبالغـوا هـم

الاخرون في تكريمه ، وتبجيله ، ولم يخرج من النجف حتى سقط اسم (العلويين) و (الامويين) نهائيا من سجل الاستعمال ...؟!

وانهمك مدة اقامته في العتبات باستنساخ طائفة من الكتب الخطية وتتبع المصادر اللازمة لموسوعته (اعيان الشيعة) وقد اجتمعت به عدة مرات ، وكلفني بتهيئة عدد من تراجم اسرتي فاحلت امر ذلك الى محمد الخليلي الذي كان اخبر مني بهذا الموضوع وادرى .

وسافر الى ايران وطاف باكثر مكتباتها العامة ، والخاصة ، وعاد من زيارة ايران والعتبات الى سوريا ليتفرغ لتأليف (اعيان الشيعة) وما لبث ان اصدر بعض الاجزاء فنفدت ، وفي صيف احدى السنين جرى ذكر هذه الموسوعة في الشام وانا ماثل بين يديه ، فقلت له ـ لقد حوت موسوعة (اعيان الشيعة) الى جانب اللب كثيرا من القشور ، وكم كان جميلا لو كان سماحة (السيد) قد اخرجها مغربلة نقية صافية .. فقال لي ما مضمونه :

« لقد مرت عدة قرون ولم يتصد احد لمثل هذا المشروع ، وقد تصديت انا وجمعت ما جمعت ، فاذا كان ثمة بينكم من يصلح للعمل فليتقدم ، وليتول هذه الاجزاء بالغربلة ، وليخرجها خالصة فلقد سعيت كثيرا ولقيت عناء جما ، في سبيل الحصول على المصادر والمعلومات اللازمة ، وليس هنالك من مشقة لمن يتقدم الآن منكم لعزل ما تريدون عزله وانتقاء ما تريدون انتقاءه ولنر أحقا انكم عاملون ، ام انه الفضول ...؟ » .

وكان الحق كما قال ، فلقد كان فضولا بحتا ، والا فاين اولئك ـ وانا منهم طبعا ـ اولئك الذين كانوا ينتقدون (اعيان الشيعة) لاحتواء مجموعتها على الكثير مما لم يكن مقتضيا ؟

ولماذا لا يتصدون الى تنقيته او تلخيصه وليس ذلك عليهم بعسير ؟

وخير مؤلفات (الامين) عندي هو (ابو فراس الحمداني) فقد ضرب به مثلا رائعا لاحدث اساليب التأليف من حيث الدرس والتحليل والاستنتاج . فانت حين تقرؤه لاتصدق ان كاتبه رجل روحاني قضى عمره بين الكتب الصفراء القديمة اكثر

مما قضاه فى قراءة الكتب المشرقة الحديثة • فقد ابدع فى العرض والتحليل ، واستخلاص الرأى ابداعا غاية فى الكمال ، وسرعان ما خرج الكتاب من الطبع حتى نفدت نسخه ، وكان سوق القاهرة من أكبر الاسواق التى استنفدته •

وزرته فى صيف سنة اخرى بدمشق ، وقد جاء فى ضمن الاحاديث حديث العراقيل التى طالما وضعها فى طريقه المتزيون بزى رجال الدين والمتلبسون لباسه وهم ابعد من يكونون عن الدين ومفهومه ، واهدافه فقال :

ـ اننى رجل اومن بالعمل كثيرا ، وقد جئت الشام اول ما جئت ولم يكن للعمل قيمة ، فسعيت لجمع القلوب ، وتأليف الافكار ، وعملت على توحيد الكلمة ، ودعوت الى نبذ الخصومة ، والى العمل فيما يصلح شأن الناس بدون تفرقة ، وكانت دعوتى عملية ، اقول عملية ، لاننى سعيت من طريق العمل لازالة تلك العراقيل ، ورفع سوء التفاهم ، وجمع الكلمة ، وكنت اكثر ما اخشى فانما اخشى اولئك الذين يعتمدون الاقوال وحدها فى تسديد خطى المجتمع اولئك الذين افسدوا التوجيه بما غذوا به الناس من نظريات ، وافكار غير عملية وغير مجدية •

ثم قال :

وحين مر الشيخ عبدالكريم الزنجانى بدمشق ورغب فى المكوث هنا بعض الايام رأيته يميل الى صعود المنبر فى الجامع الاموى ليلقى محاضرة دينية ، فخشيت ان تزيد محاضرته متاعبى فيخلف لى بعض المشاكل التى كنت قد تغلبت عليها بعد عناء طويل ، لانى لم ادر ما الذى كان سيقوله ، فسعيت جهدى لصده فلم افلح ، وصعد المنبر وخطب ، وانى احمد الله اذ لم يثقل الرجل كاهلى فى خطابه بما كان قد اثقله غيره من المحسوبين على الدين ، الذين يرسلون القول جزافا دون التفكير فيما اذا كانت النتائج لتلك الاقوال عملية ومجدية ، ام غير عملية وضارة • كما قد تعرف انت بعض اولئك ؟

وكان قد ثقل كاهله حقا من جراء تلك الحملات الشنيعة التى شنت فى وجه دعواته ، ومن جراء ما كانت تفيض به كتبهم ، وخطبهم ، ورسائلهم من الافكار

والاراء غير العملية والبعيدة عن التطبيق ، والمخالفة للهدف الذى يرمى اليه الشرع ، ولعل دعوة السيد محسن الامين العملية الى الاصلاح هى ابرز صفاته على الاطلاق ، فهو لم يكتف بمحاربة البدع فى قضية المواكب الحسينية ، بل عمد الى تأسيس المدرسة المحسنية للبنين ، ومدرسة اخرى للبنات ، وسعى لوضع كتب مدرسية ، تهذيبية للتربية والتوجيه ، وقد تجاوزت هذه المؤلفات العشرات ، وبلغ من أمر اتجاهه العملى ان حمل عددا ممن عثر بهن الحظ من المنحرفات اللواتى أبحن عفتهن ، وتجردن من عصمتهن لقد حمل عددا منهن على العودة الى حظيرة العفة ، وأمر باخراجهن من دور الدعارة والمبغى ثم دفع ببعضهن الى ازواج شملوهن بالعفو والغفران فعشن شريفات ، ورزقن باولاد صالحين ، ببركة مساعيه العملية .

كثيرون اولئك العلماء الذين خبرتهم عن كثب ولكنى قلما وجدت كالسيد محسن الامين زعيما روحانيا كبير النفس ، عالى الهمة ، نبيل القصد ، سليم الذات ، اغرم بالاصلاح العملى وتحمل فى سبيله العذاب والمشقات ، هذا زيادة على ما ملك من خبرة علمية واسعة ، وطول باع فى الفقه ، والاصول ، والتاريخ الاسلامى ، والعربى ، فقد كان من كبار المجتهدين ، ومن فحول العلماء ، وله فى الشعر والادب يد جد طويلة وكان من الافذاذ الذين قلما تجود الطبيعة بامثالهم ..

وكان آخر رؤيتى له فى صيف ١٩٣٩ ، وقد وجدته كعادته بين طائفة من الاوراق والكتب المبعثرة هنا وهناك على الارض تحوط ثلاثة اطراف مجلسه وكان معى صديقى الاديب الفلسطينى عبدالغفار كاتبه ، الذى التقانى مصادفة فى دمشق ، وعرف رغبتى فى زيارة (الامين) فابدى هو الاخر رغبته فى ان يمتع عينيه بهذه الزيارة لاول مرة كما قال : وفى هذه المرة كان السيد محسن هو الذى يفتح باب داره فى وجهينا ويقوم بتقديم قدحين من شراب الليمون بنفسه لنا ، على رغم اصرارنا عليه بملازمة محله ، ذلك لان القائم بخدمته كان قد بعث فى شغل ولم يعد ، والاغرب من ذلك اننا وجدناه اشد ما يكون انهماكا فى الكتابة وهو محموم!! وعجبنا كيف يقوم باعماله الكتابية وهو محموم منذ نهار امس على ما علمنا ؟ ولكنه كان يستزيد مع ذلك النشاط ، ويدفع بنفسه دفعا الى العمل ، على رغم شيخوخته..!!

فيقوم بمراسيم الضيافة لزائريه بنفسه ، كما لو لم يكن لديه من يقوم على خدمته ؟ ثم يفنى نفسه وسط تلك المجاميع من الكتب ، والاوراق التى تحيط به ، وفى ضمنها كتب خطية تحتاج قراءتها الى امعان وانعام تامين .

واعترضته وقلت - ان عليه واجبا تجاه نفسه لاسيما وقد اصبحت هذه النفس ملكا للمجتمع فلا ينبغى ان يفرط فيها وينهكها بالعمل فى الاوقات الاعتيادية ، فكيف به وهو محموم منذ نهار الامس ؟

فقال وهو يحدق الينا -

قال - من عجائب التجارب اننى اجد فى عملى ، وانا منحرف الصحة ، شيئا غير قليل من السلوى ، وراحة البال ، حتى لقد كدت احصر أمر علاجى فى وعكتى وما ينتابنى من مرض اعالجه بالدأب على العمل ، والاغرب من كل هذا اننى وجدت نشاطى فى العمل يمشى بنسبة طردية مع المرض حتى لقد استطيع ان اقول اننى انتجت اجود ما انتجت من البحوث والمؤلفات وانا منحرف الصحة ...!؟ .

وانتقل الحديث الى الامزجة والعادات فقرط مسامعنا بطائفة من الاخبار والنوادر والطرائف عمن شذوا فى خلقتهم وطبائعهم وامزجتهم وكان كما قال - لم يعقه مرض ، ولم يقعده حادث عن مواصلة البحث ، والتنقيب ، والتأليف ، وكان يعانى فى مرضه الاخير شيئا كثيرا من الضعف ، حتى لقد عسر على جسمه ان يودى وظائفه الطبيعية من تناول الاغذية ، والنوم بالقدر اللازم ، اما الذى لم يطرأ عليه اى تغير يذكر فهو اقباله على المطالعة ، والبحث والتأليف ، ثم هذا المزاج المرح الرائق الذى قلما شوهد عند الروحانيين كما شوهد عند السيد محسن فهو مزاج ظل يرافقه الى ساعته الاخيرة .

مر ذات يوم (بشتورة) قادما من بيروت الى الشام فوقفت السيارة هناك ونزل سائق السيارة لتزويد سيارته بالماء بينما ظل السيد محسن داخل السيارة وكان قد حسر رأسه ووضع عمامته الى جانبه ، والمعروف عن اشتورة وزحلة انهما من اشهر المدن التى تجيد عصر الخمور وتتاجر بها ، وكثيرا ما يعرض باعة الخمور والعرق

خمورهم على المارين ، واستلفتت هيئة السيد محسن وهو داخل السيارة حاسر الرأس احد باعة العرق وظنه من الاعيان والامراء المحافظين العريقين فدنا اليه وعرض عليه بضاعته قائلا له : ان لديه عرقا لم تصعده للان آنية بمثل هذه الجودة والطعم والنكهة ... فهو من اعلى الاصناف والذها وارخصها .

وليس من شك ان هذا البائع لو كان قد عرض عرقه - بمثل ما عرض - على روحانى آخر لاقام هذا الروحانى الدنيا واقعدها ولعد ذلك اهانة ما بعدها اهانة ، واذا تجلد ولطف مزاجه ، وغفر للبائع جهله فهو على الاقل سيقابله بشيء من التجهم ، والاستعاذة ، والزراية ، والاعراض عنه بشيء كثير من الاستهزاء والاحتقار ، ولكن السيد محسن توجه للرجل بوجه بشوش ، وانطلاق وبشر وقال :

- من المؤسف انا قد اعتدنا تموين انفسنا بالعرق فى كل سنة ابتداء من اول الموسم ..!!

لقد كان يذكر من النجف صورا لم تمر على بال وكان لايكاد يلتقى باحد من النجفيين وهو فى الشام الا وسأله عن الكثير من الناس والكثير من الامور التى ألفها يوم كان يدرس العلم فى النجف ، وقد قال لى مرة انه يقرأ الهاتف من ألفها الى يائها فتمر عليه فيها اسماء ذات علاقة جد كبيرة بماضيه وذكرياته العزيزة ، وقال لى مرة انه لايتصور ان احدا يستطيع ان يعى معنى القناعة بمختلف صورها مالم تكن (النجف) من اهم ما يمر على عينيه من اشرطة الحياة . وصورها العامة ، وقال لى انه يتذكر شخصا ضخم الجثة بدينا كان يفترش الارض مما يلى باب الفرج من الصحن الشريف فى النجف فيعرض للبيع مفاتيح واقفالا وسكاكين ، ومحابر خزفية وسبحا وخرزا ، وكلها من القديم الصدىء والعتيق والنفايات ولست ادرى من اين يجمعها ويشتريها ليبيعها على طالبيها من المحتاجين الفقراء بارخص الاثمان ، وكنت ارق عليه - قال السيد محسن - فارغم نفسى وارغم اخوانى العاملين على ان يشتروا منه بعض الحاجات وان لم يحتاجوا اليها ولم يكن حالنا ونحن طلاب علم بالحال المجردة من التقتير ، وقد ابتعت منه مرة سكنا صغيرة لبرى القلم وهى لم تزل عندى الان تذكرنى بهذا الرجل البدين الضخم الجثة والبشوش الضحوك الذى

لايستر جسمه غير ثوب وعباءة خفيفة وعمامة بيضاء هي هي نفسها في الشتاء والصيف فكنت افكر كيف يستطيع رجل كهذا ان يقتات ويقيت اهل بيته من عمل محدود كهذا ؟ ولكنها القناعة التي قلما وجدت لها حدا في مدينة (النجف) .

فقلت للسيد محسن - ان الرجل المذكور لم يزل حيا وهو على ما وصفت من رقة الحال وضيق الرزق ، وقد استوقفني مرة عنده صديق انحنى على معروضاته ليبحث عن حاجة معينة بين تلك الاكوام من الخرز ، وقطع الزجاج والمسامير المختلفة والمفاتيح والاقفال ، وكان هذا الصديق معروفا بالدعابة والظرف فراح يداعب الرجل ويداه تبحثان بين تلك الاكوام من المسامير وقطع الحديد عما كان ينشد ، وسأله - وهو يشير الى بطرفه ليوجه انتباهي اليه - لقد سأله مازحا :

- ما هي اعز امانيك من دنياك ؟

قال - موتة مريحة ...

قال الصديق - ما اسهلها طلبة ، وما ايسرها ؟

قال الرجل - وكيف ؟

قال الصديق - ادع الله ان يميتك بالشكل الذي تريد وهو يفعل ...

قال - انه لايفعل .

قال الصديق - الم يقل الله عز وجل « ادعوني استجب لكم» .

قال - اذا استجاب الله دعاء الناس جميعا فانه لن يستجيب لي دعائي .

قال الصديق - وما هي هذه الذنوب الجسيمة التي اقترفتها حتى ضعضعت ايمانك بالله في استجابة دعائك ؟

قال - وهو يضحك - ليس هنالك ذنب او جريرة ، ولكني معتقد ان الله اذا استجاب دعائي واخذني اليه فانه لن يستطيع ان يظفر ببغل او حمار بمثل ضخامتي وقناعتي وهو دائب يوصل الليل بالنهار كدا وعملا ليقيت ثمانية عشر فردا من افراد العائلة التي ينوء بقوتها كاهلي ...

وهنا انفجر السيد محسن بالضحك ، لقد ضحك طويلا وظل يضحـــك ، وحملني سلامه الى الرجل القانع وقال لى ذكره بي فاني احسبه غير ناس .

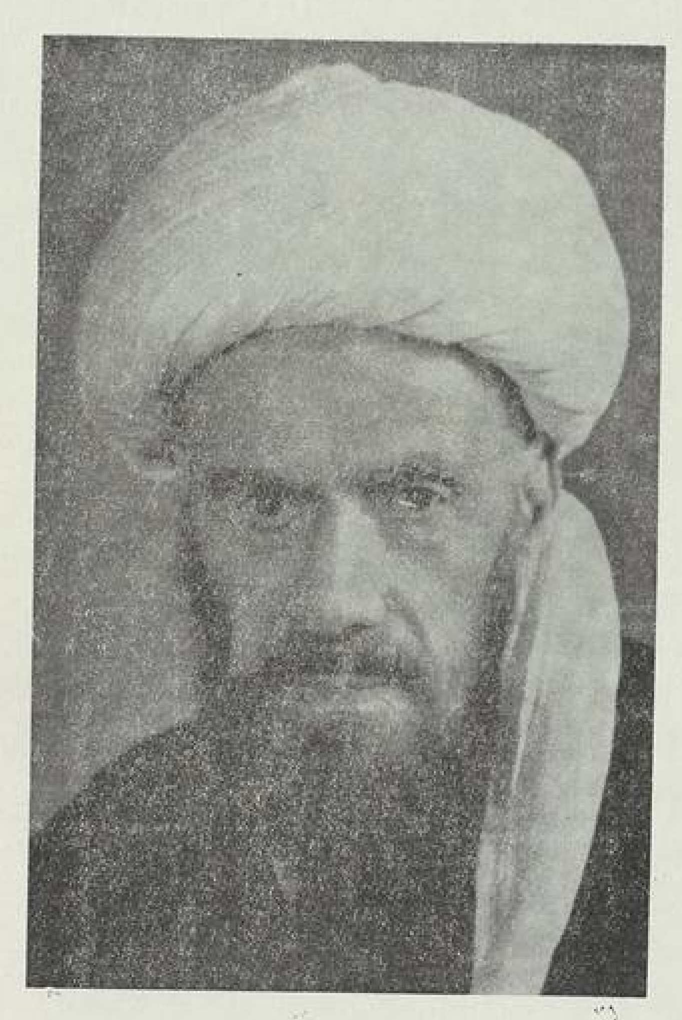
ثم قال : ولم ازل اذكر رجلا من رشت كان يدرس العلم في النجف وكان اهله من الاغنياء وكان يتناول منهم بين آن واخر مرتبا يضمن له عيشا مرفها وحياة رتيبة ، هذا فضلا عما كان يتلقى منهم من المنسوجات الحريرية والرز الكيلاني الفاخر فكان يقسم كل هذا بينه وبين عدد من طلبة العلم الفقراء ويساوى بينه وبينهم قانعا بما يسد منه الرمق ولا يحتفظ من ذلك الرز المعروف بجودته باكثر من (طبخة) أو طبختين ليدعو عليها بعض رفاقه في بعض المناسبات من الاعياد .

واذكر من اهل القناعة في النجف رجلا هو الآخر من طلاب العلم ، وقـد كان فقيرا معدما حتى بلغ من عوزه ان راح يصوم بعض الشهور من السنة ليوفر على نفسه الطعام والشراب والتدخين بعض التوفير ، وعلى رخص التبغ وتوفره حينذاك فلم يكن بوسع الرجل ان يشتري منه شيئا ولو كان من اردأ انواعه فكان يعمد الى العيدان التي ترمى بها باعة التبغ بعيدا ، فيأخذها منهم ويسحقها ثم يشحنهـا في (سبيل) له كان قد صنعه بنفسه من الطين ، وقد اضطره الاحساس بالجـــوع ان يقصد - وفي خفية من الناس - بين آونة وأخرى احدى آبار النجف القديمة في خارج المدينة فكان يصطاد فيها طيرا من طيور الحمام التي تعشش بكثرة هناك ، كان يصطادها بطرق شاقة قد تكلفه بعض الاحيان تمزيق ثيابه او خدوش يديه ورجليه ، ويأتي بهذا الطير - بعد ان يذبحه هناك وينتف منه ريشه - الى غرفته في مدرسة الشيخ مهدي ، وهناك يطبخه في خفية من الناس ، لان مس هذه الطيور فضلا عن ذبحها قبيح اذا لم يكن حراما في نظر جميع العوام بدون استثناء ... وكان هذا الرجل شاعرا واديبا وكان على رغم عبوس الايام وتجهمها ومعاكستها له قانعـا ضحوكا لايعرف الجزع الى نفسه سبيلا ...

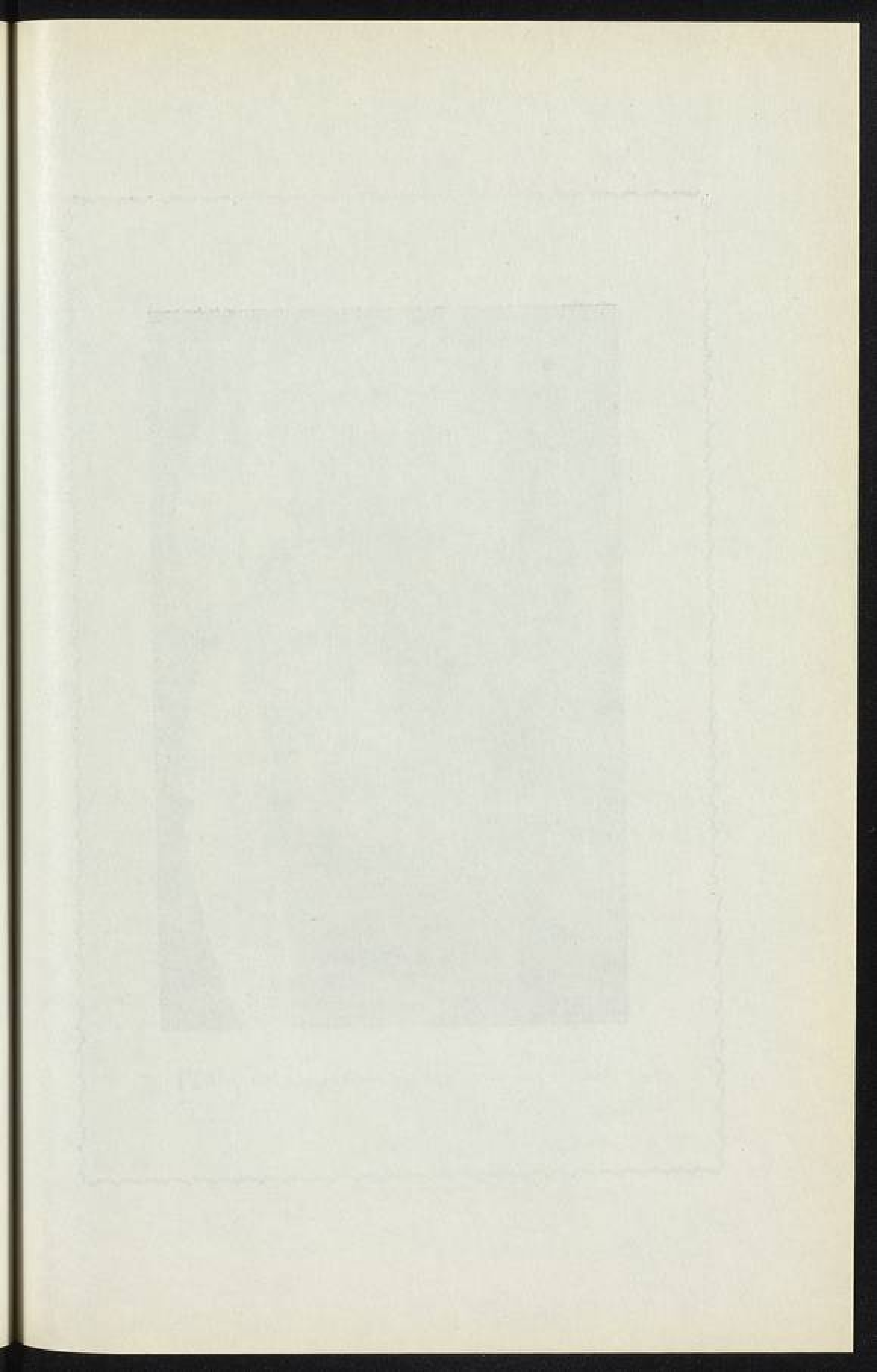
وكانت آخر رؤيتي للسيد محسن في الفندق بدمشق حينما تفضل فشملني بالطافه في رد الزيارة ، وحين خرجت لتوديعه الى الشارع لم ادر انني القي عليـــه نظرة لـن

تتكرر بعد هذا ، وانني افارق وجها لن اسعد برؤيته ورؤية امثاله مدى العمر .

لقد كان سراجا وهاجا ، بل كان منارا يهتدي به التائه ، والفرق بينه وبين الكثير من العلماء المرشدين العاملين ، هو ان اكثر اولئك قد نفعوا الناس ماداموا احياء ، اما السيد محسن الامين ، فقد نفع الناس في حياته ، وضمن لهم النفع في مماته وذلك بما خلف لهم من آثار علمية جليلة وآثار عملية مشهودة .



الامام محمد الحسين آل كاشف الغطاء



الامام محمد الحسين آل كاشف الغطاء[1]

لم تكن شهرة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء يوم وعيت تتجاوز شهرة استاذ من افاضل الاساتذة ، وقد رأيته اول مرة وهو يباحث عددا من طلاب العلم فى الحجرة الواقعة فى الزاوية من الركن الجنوبى الشرقى من الصحن الشريف فى النجف ، وما زلت اذكر اول ملتقاى اياه ، واتصور هيكله حينذاك ، فلقد كان رجلا طويل القامة ، اسود اللحية ، حلو التقاطيع ، تدل ملامحه وهو يدخل الحجرة ويخرج منها على شخص كثير الثقة بنفسه ، وكثير الاطمينان من مقدرته ، ثقة واطمينانا خالصين من أية شائبة من شوائب الغرور والعجرفة التى عرف بها بعض اساتذة العلم ، وكلما فهمت - وانا فى مبتدأ الطريق من دراسة الادب - هو ان الشيخ محمد الحسين من اساتذة العلم المرموقين ، وانه فوق ذلك كاتب مبدع ، وشاعر بليغ ، ولكننى كنت قد سمعت باسم اخيه الاكبر المرجع الروحانى الكبير الشيخ احمد كاشف الغطاء (والد الاستاذ عباس كاشف الغطاء مدير البنك اللبنانى المتحد الحالى) قبل ان اسمع باسمه ، وكنت قد رأيت الشيخ احمد وهو يصلى بالناس كل يوم فى الصحن قبل ان ارى الشيخ محمد الحسين ، وكنت قد سمعت باسم ابيهما الشيخ على آل كاشف الغطاء قبل ان اسمع باسميهما ، فلقد كانت لابيهما الشيخ على آل كاشف الغطاء شهرة كبيرة كسبها من سفره الى اسطنبول ومقابلته السلطان وكبار الوزراء ، والقادة ، والعلماء ، واقامته فى اسطنبول زمنا طويلا .

وان رؤية اسطنبول ، ومقابلة السلطان ، والوزراء ، والقواد ، والقضاة ،

---

(١) جريدة الايام العدد ١٣٥ - ٢٣/٩/١٩٦٢ .

ورجال العلم في ذلك اليوم لا يعد له في هذا اليوم شيء حتى الطواف بالدنيا كلها والتعرف بجميع شخصيات العالم من الميكادو الى الباندیت نهرو فخروشيف فالملكة اليزابث فادیناور وكندي وكل رجال الدنيا وشخصياتها ، فلم يكن يجيء ذكر الشيخ على كاشف الغطاء الا وتفغر الافواه اعجابا بهذا الرجل الذي رأى كل هذا، واجتمع بكل هؤلاء القادة والرجال ...!!

وزاد احترام الانكليز له في اثناء الاحتلال ، واعتبارهم الاسناد والاوراق الموقعة من قبله اوراقا رسمية لها حكم اسناد الطابو وحكم الاسناد المصدقة من كاتب العدل ..!! قد زاد هذا شيئا من احترام الكثير من الناس له وان كان احترام كهذا من جانب الانكليز قد قلل بعض الشيء من شأنه عند الاحرار والوطنيين .

وهنالك شيء آخر له قيمته في شهرة الشيخ علي ثم في نشأة ولديه - الشيخ احمد الذي صار بعد ذلك مرجعا من اكبر المراجع الدينية وزعيما كاد ينفرد بزعامة الشيعة وحده ، ثم تلاه أخوه الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء الذي صار هو الاخر من اكبر الزعماء الروحانيين بعد اخيه - الا وهو المكتبة ، فقد كان للشيخ علي كاشف الغطاء مكتبة انفردت بالكثير من الكتب العربية المفقودة وضمت مئات من الكتب النادرة التي بذل الشيء الكثير للحصول عليها ، وكانت تعتبر المكتبة الاولى في الشرق من حيث جمعها للنادر والمفقود من الكتب ، وعلى الرغم مما بيع منها بعد وفاته فهي اليوم لاتزال في عداد المكتبات المهمة وان كان مجموعها لايزيد على بضعة الاف كتاب جمعها بشق الانفس كما يقولون ، ولقد روى فيما روى عن حرصه في اقتناء الكتب انه بينما كان منهمكا مرة في نقل كتاب خطي في أحد الجوامع باسطنبول اذ جاءه أحد الضباط للقبض عليه بناء على أمر السلطان عبدالحميد الثاني متهما اياه بالتواطؤ مع (ابي الهدى) في تدبير مؤامرة سياسية نمت عليها قصيدة نسب نظمها الى ابي الهدى ، وابو الهدى هذا كان من اقرب المقربين الى السلطان عبدالحميد .... ولكن الشيخ علي قال للضابط :

- كل من حدثك باني سأترك عمل استنساخ هذا الكتاب قبل ان اصل الى

نهاية الفصل الذى يستلزم الانتهاء من استنساخه نحو ساعة أو اكثر فلا تصدق ذلك ...

وهكذا اضطر الضابط بداعى الاحترام ، الى الانتظار حتى يتم الشيخ نقل هذا الفصل من الكتاب ، وبعد ان قبض عليه انكشف الامر عن بطلان تلك التهمة واطلق سراح الشيخ على وابى الهدى واجزل له العطاء من السلطان ومن صديقه ابى الهدى .

لقد كان الشيخ على يجمع كتبه على هذا النحو من الحرص والتهالك ، حتى اتم جمع تلك المكتبة النفيسة الثمينة .

وكان لهذه المكتبة شأن كبير فى مد ذينك الاخوين العالمين الكبيرين بتلك الثقافة الواسعة فى أول نشأتهما وقبل انفصالهما عن ابيهما ، وكان لتلك المكتبة صدى كبير فى الاوساط العلمية ، وعلى رغم حرص الشيخ على على تلك الكتب فقد كان لايتوقف عن اعارة الكتاب للكثيرين ممن يعرف ومن طريق اعارته بعض الكتب النادرة لوالدى استطعت ان اعرف اصل هذا الشيخ وفصله ، وشيئا عن بيته ، وآله ، واستطيع ان اوكد بان الشيخ على لم يكن يمتنع عن اعارة الكتاب حتى للمشكوك فى اهتمامهم بالكتب ، والمحافظة عليها ، وكان من اولئك الشاعر محمد مهدى الجواهرى الذى اعتاد ان يستعير بعض الكتب منه ، ويعيدها اليه سالمة صحيحة ، ذلك لان الشيخ على لايمتنع اذا ما تأخر ميعاد اعادة الكتاب ان يبعث بخادمه فيجر المستعير اليه جرا ، ولن يمتنع من ان يلقيه ارضا ، وينزل فيه ضربا ، بتلك العصا الغليظة التى كان يستعين بها فى مشيته .

واذكر مرة - والشىء بالشىء يذكر كما يقولون - ان الشيخ هادى الخضرى قرأ للشيخ على كاشف الغطاء بيتين من الشعر يتضمنان طلب جبة أو قباء ، فاستحسن الشيخ على البيتين ، ونادى الخادم فجاء له بجبة من جبيه والبسه اياها ، وبعد يومين وهو يقلب الصفحات فى كتاب (نفحة اليمن) استقصاء لموضوع كان قد شغل باله ألفى البيتين مسطورين هنالك !! وعلى رغم ان الوقت لم يكن مناسبا فقد بعث خادمه يدعو الشيخ هادى فى تلك الساعة من الليل اليه وحين جاء به انهال عليه بعصاه والشيخ هادى يستغيث ويطلب معرفة السبب ...!!

قال الشيخ على – وقد انهك يده الضرب – اريد ان اعرف مأتى هذه الجرأة التى تحملك على ان تسرق بيتين من نفحة اليمن وتنتحلهما لنفسك لتستجيزنى عليهما جبة ؟

فقال الشيخ هادى – ولكن من قال لك اننى انتحلت البيتين ؟ ان الامر ليس اكثر من انى قرأت عليك البيتين متمثلا فاكرمتنى جبة ... فعلام كل هذا الغضب وهذه الشدة ؟

ولعل اول باب فتح لشهرة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى خارج النجف كان عن طريق المراسلات التى جرت بينه وبين أمين الريحانى تلك المراسلات التى تتضمن تبادل آراء فى ردود اعجبت جميع قراء العربية على اختلاف نحلهم ، ثم جمعت وطبعت باسم (المراجعات الريحانية) ، وعلى انى قرأت هذه المجموعة فى ذلك الوقت البعيد ، فلم يزل يعلق بذهنى شىء غير قليل منها .

وعلى ان الشيخ محمد الحسين كان اقل تقيدا بالتقاليد من العلماء الروحانيين الاخرين وأقل مراقبة للرأى العام وأكثر العلماء جرأة فقد حاول التهرب من مقابلة أمين الريحانى فى اثناء زيارته للنجف مراعاة للسواد الذى كان يعتبر الريحانى ملحدا ، او ممالئا للانكليز على الاقل ، او لشىء آخر تبادر الى ذهن الشيخ فرأى الشيخ ان من الصلاح الاعراض عنه .

ومع ذلك فقد تمت هذه المقابلة ، ووقع نظر الريحانى على مسودات اوراق كانت امام الشيخ ، فسأل عنها فقيل له – انها مسودة رسالة للشيخ تتعلق بالفرائض الدينية من صلاة ، وصوم ، وحج ، وغير ذلك ، فقال الريحانى يخاطب الشيخ بهذا المعنى :

« .. ان الذى اعرفه هو انك لم تخلق لهذا فانت ارفع شأنا من ان تقضى وقتك بمثل هذه الامور وتعاف اصلاح المجتمع .. » .

وحين هم الريحانى بالقيام من عند الشيخ قال : « لقد كان الامام كاشف الغطاء من اعز اصدقائنا فافسده الدين علينا » .

وظل الناس يتحدثون عن زيارة الريحانى للشيخ طويلا ، وعما دار بينهما من

احاديث ادبية ، واجتماعية ، ودينية ، عامة ، وخاصة ، ولكن الشيخ لم يسلم من النقد والمؤاخذة من لدن الكثير من اولئك المتعصبين الجامدين الذين كانوا لايرون من حق الروحانيين ان يصادقوا اشخاصا من غير دينهم ، وعلى غير طرائقهم •• ، ومع ذلك فلم يعدم الشيخ الجماعات التى كانت تؤمن برسالته ، وتذب عنه ، وتدافع عن مثل مصادقته للريحانى وتأسيه بصداقة الشريف الرضى والسيد المرتضى للصابىء التى كان من امرها ان رثياه بتلك المرثيتين المعروفتين ••••

وهذا اللغط قد نبه الكثير ممن لم يكن منتبها بعد الى مقام الشيخ محمد الحسين ، وعلو كعبه ، ولاول مرة يلتفت الناس الى ان روحانيا من طراز جديد سيتبؤا مقام الزعامة الروحانية ، وذلك قبل ان يتاح لهم ان يسمعوا فتاواه ، ويشهدوا أحكامه ، وان كانوا قد شهدوا شيئا من هذا التجديد عند اخيه الشيخ أحمد من قبل •

وتأيد رأى اولئك ، كما اتسعت دائرة شهرة الشيخ اكثر واكثر حين انعقد اول مؤتمر اسلامى فى القدس ، وحين توحدت الفرق الاسلامية من الوفود وغير الوفود على اختلاف مذاهبهم فائتمت به فى صلاتها فى ذلك المسجد الكبير ، واقبلت الصحف وحتى الصحف الاجنبية تتوسم فى هذا الاتحاد ـ اتحاد المذاهب والطوائف الاسلامية تحت زعامة كاشف الغطاء ـ خطورة كبيرة ، وتتوقع ان يضمن المستقبل خلق زعماء روحانيين من طراز الشيخ محمد الحسين يستطيعون ان يقضوا على الكثير من الاختلافات الطائفية خصوصا لما كان لخطبه البليغة الرنانة من الاثر العميق فى النفوس •

وحين عاد الشيخ محمد الحسين من المؤتمر الاسلامى كانت شهرته العامة بالاضافة الى شهرته العلمية كاستاذ برع فى تدريس العلوم الدينية براعة جعلت طلابه يمتازون على الكثير من طلاب الدين فى اتساع افكارهم ، وتحرر عقائدهم ، تحررا نسبيا وعلى الاخص فى طريقة اجتهادهم اقول كانت هذه الشهرة قد شقت له طريقا لا حبا بين طرق زعماء الدين الملتوية •

وعرف الشيخ محمد الحسين عن طريق التجديد فى الاجتهاد والفتاوى وسعة العلم وعن طريق الادب الذى كان قد مكنه من الشعر والنثر تمكينا قويا وجعل منه فذا من الافذاذ ، ولكنه كبشر لم يستطع ان يتجرد عن العاطفة التى كانت تتحكم فيه احيانا فقد كانت بينه وبين السيد (ابى الحسن) الاصفهانى الموسوى ـ وكان (السيد ابو الحسن) حينذاك قد انفرد بزعامة الشيعة فى مختلف جهاتهم انفرادا كاد ان يكون مطلقا ـ لقد كانت بينه وبين السيد ابى الحسن حزازات ليس هذا موضع شرحها ، وقد حملته هذه العواطف اى حملت الشيخ على ان يتناسى ولو لحين فكرة التجديد ، ومبدأ الاجتهاد الذى يجب ان يتمشى فيه العقل والنصوص الدينية جنبا الى جنب ، فمضى يناوىء اتجاه (السيد ابى الحسن) الذى كان قد ايد السيد محسن الامين فى تحريم شج الرؤوس بالسيوف ، وادماء الصدور باللطم ، والضرب عليها فى يوم عاشوراء ، اذ كان السيد ابو الحسن قد اعتبر ضرب الظهور بالسلاسل ، وشج الرؤوس بالسيوف واللطم على الصدور ، ودق الطبول والصنوج ، مما كان يجرى فى ايام عاشوراء بدعة من البدع التى يحاسب عليها الله ، ومع ان مثل هذا التحريم كان من مبادىء الشيخ محمد الحسين وكان مما يتفق واتجاهاته الاصلاحية ولكن العواطف كانت قد عملت عملها فلم يؤيد السيد ابا الحسن فى فتاواه وقوبلت فتاوى السيد بحملة قوية من الحملات الرجعية التى غذاها خصوم السيد ابى الحسن واستغل السيد صالح الحلى سكوت الشيخ وعدم تأييد السيد أبا الحسن فى حملاته المختلفة على (السيد ابى الحسن) تلك الحملات التى عملت عملها فى وقتها ، ولكن (السيد) ما لبث ان استظهر عليها حتى تلاشت مع الزمن ، الا انه لم يستطع ان يلغى (التطبير) والتزمير ، والتطبيل ، ودق الصدور الذى بدأ يتضاعف يوما بعد يوم حتى يومنا هذا .

وكنت يوم ذاك الى جانب السيد ابى الحسن ، بل اننى لم اكن قد تعرفت بالشيخ محمد الحسين عن قرب بعد ، وان كنت اعرف ان أبى من اصدقائه ، وقلما كان يتخلف عن زيارته ، اما هو فقد رأيته فى بيتنا عدة مرات ، وأكثرها كان على أثر زلة قدم أبى فى الحمام التى كسرت بسببها ساقه فلازم الفراش قبل ان يجبر الكسر

مدة طويلة مكنتني ان ارى فيها الشيخ محمد الحسين عن كثب وهو يتفضل بزيارتنا عدة مرات ، ولا اكتم القارىء ، لقد كنت اشعر بعدم الميل اليه يومذاك بسبب موقفه من حركة السيد (ابى الحسن) الاصلاحية ولم اكن ادرى ان الانسان لايستطيع ان يعرف نفسه بعض المعرفة الا بعد زمن طويل ، وحين اصدرت جريدة الفجر الصادق تحاشيت على قدر الاستطاعة تأييده ، وصرت اهاجم السيد صالح الحلى الخطيب الشهير الذى شن غاراته على السيد ابى الحسن – مستندا على تأييد الشيخ – وكانت مهاجمتى للسيد صالح حقة ولكنها كانت قاسية عبرت عن طيش الشباب وحرارته وغروره لحد كبير .

والحقيقة ان مصاحبة السيد صالح الحلى للشيخ واستناده عليه قد الحق بسمعة الشيخ محمد الحسين بعض الضرر ذلك لان السيد صالح قد اشتهر – حقا أم باطلا – بكونه رجلا زمنيا يستجيب لعواطفه الآنية دون الالتفات الى المصالح العامة، والدواعى العقلية ، والفكرية ، ثم هو بعد ذلك جرىء فى الحق والباطل ، جرىء فى الجد والهزل ، وقد يسلك فى مزاحه مسالك وعرة ملتوية ليس هذا محل شرحها ولقد صادف مرة ان مر السيد صالح بحرم الامام على (ع) والشيخ محمد الحسين يصلى بالناس فى الرواق ، ومن عادة الشيخ محمد الحسين ان يجهر فى الصلاة ويتلو الايات مفخمة مضخمة بعض التفخيم والتضخيم ، وما كاد السيد صالح يسمع الآية الكريمة (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) متلوة على فم الشيخ بذلك النحو من الاداء المفخم ، المضخم ، حتى قال يخاطب الشيخ مازحا وهو مار من امامه :

– انك يا سيدى كسمك ابى خريزه (السردين) والله لو ظللت انفخ فيك دهرا لما كبرت ، ولما صرت حوتا قبال السيد ابى الحسن ، فعلام هذا التفخيم والتضخيم للرحمن الرحيم مالك يوم الدين؟!! .

وحين اتيح لى بعد ذلك ان اتصل بالشيخ – وان اكون مغمورا بالطافه بحيث بلغ من دالتى عليه ، ومن اللطف الذى افاضه على ، ان صرت لا امتنع ان امشى معه فى صراحتى الى أبعد حد ممكن اذا لم استطع ان امشى الى النهاية – اقول وحين اتيح

لى ذلك لم أخف عنه ماكنت اشعر به فى السابق من عدم الميل اليه واسباب ذلك ، وقد ازددت حبا له بل كدت اعبده عبادة حين رأيته يجبينى بهذه الآية ولا يزيد عليها قائلا :

ـ « عفا الله عما سلف » .

وكررها مرتين ... وهناك تجسمت لى طهارة نفسه ، وتجلى لى صدق ايمانه ، وابتعاده عن التدجيل وكان بامكانه لو اراد ان يورد لى الف عذر وعذر من الاعذار المعقولة عن مواقفه السالفة لفعل ولكنت قد قنعت ...

وشخصان لم ادع غيرهما (عما) لى ، وان لم يكونا لى عمين حقيقين ، احدهما الشيخ عبدالكريم الجزائرى ، وثانيهما الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ، وهما الاخران كانا لايفضلان لقبا او نعتا ينعتاننى به غير العمومة ، فاذا ما قلت لاحدهما مثلا ـ كيف ترى (يا عمى) ان يكون الامر الفلانى ؟

رد على قائلا سيكون كذا وكذا (يا عمى) ...

وعلى رغم خروجى على حدود هذا الادب فى بعض الاحيان لاسيما حينما اكون غاضبا وحين أتغافل عن استعمال هذا النداء واخاطب الشيخ محمد الحسين بالخطاب المتعارف قائلا له ـ يا شيخنا ! ويا مولانا ويا سيدى .. فانه لم يغير خطابه ولم يرد على بغير ماكان يرد قائلا : يا عمى ....

وحين نجحت الحركة القبلية فى الفرات التى تزعمها هو فى اواخر سنة ١٩٣٤ وفى أوائل سنة ١٩٣٥ والتى استغلها ياسين الهاشمى وجماعته من العشائر التى كانت قد التفت حول الشيخ محمد الحسين وفى طليعتهم كان الحاج عبدالواحد الحاج سكر ، والسيد محسن ابو طبيخ ، تلك الحركة التى اطاحت بوزارة على جودة الايوبى اولا والمدفعى ثانيا ، وجاءت بوزارة الهاشمى كاد الشيخ محمد الحسين ينجرف بتيار الحزبية وكاد يستكين ، ويستسلم ويتناسى زعامته الدينية من حيث لايدرى فقد استطاع زعماء العشائر وكلهم كانوا من الحزبين ان يجروا الامام الى جانبهم فيحققوا بذلك الاطاحة بحكومة المدفعى وعلى

جودة الايوبى خصوصا وقد لقوا من جانب الشيخ عبدالكريم الجزائرى تأييدا كبيرا ، وكان ما عرف عن الامام كاشف الغطاء من طيبة القلب ، وسماحة النفس ، والاعتقاد ببراءة الذمة ، ما ساعد على اختفاء اغراض هؤلاء الشيوخ الحزبية وانطلاء اغراضهم هذه عليه فقد بدوا انهم لايريدون الا الاصلاح الذى يدعو اليه الامام كاشف الغطاء ، حتى اذا جاء الهاشمى الى الحكم تكشفت النيات ، واذا بهم يحاولون جر الشيخ الى تأييدهم بصفتهم الحزبية ... ولم يبق منهم على اخلاصه وعهده الا القليل وكان من هذا القليل الشيخ خوام العبدالعباس ...

وكنت يومذاك لا ازال فى ريعان الشباب ، وكنت حاد المزاج ، وكنت اصدر جريدة الراعى ، ولم تزل فىّ بقية من تلك الحرارة التى ادرت بها جريدة الفجر الصادق الهائجة الصاخبة من قبل ، فهجت ، ودفعتنى الغيرة على مقام الشيخ ، ومركزه ، فجئته وانا احرق الارم غيظا ، وقلت له ــ ماذا تعمل يا سيدى بنفسك ..؟ اتريد ان تتنازل عن الزعامة الروحية الى ياسين الهاشمى ..؟

فتجهم وجهه وقطب جبينه وقال :

ــ ولكن ما الذى ترانى عملت ياعمى ؟

قلت ــ وما الذى تريد ان تعمل ؟ فلقد اصدرت ذلك (الميثاق) تحت تأثير نفر استغلوا طهارة نفسك وكان ينبغى ان لاتثق بهولاء وان تحتاط والان تريد ان تندفع فى تأييدك لياسين الهاشمى اكثر من السابق لتمكنه من التنكيل بالطرف الاخر من الاحزاب والعشائر ...؟ (وكنت فى ثورة لاتوصف من الهياج) والميثاق الذى اشرت اليه هو مواد وشروط بلغت نحو ١٤ شرطا على ما اذكر ، لم تخل من تطرف كان يجب ان يخرج بشكل آخر ، وقد حسن وضعه بتلك الصيغة نفر من المتطرفين كانوا قد جاؤوا من بغداد وسائر جهات الفرات ، وكان ابرزهم ذيبان الغبان الذى صار نائبا فى المجلس بعد ذلك ، وقد طبع هذا الميثاق ووزع على الجماهير فى حينه وكانت المواد والشروط تدعو الى التجزئة والانقسام والى امور ليس هذا محل ذكرها وذكر كيفية وضعها وطبعها .. وكان اغلب رؤساء العشائر تؤيده ليس لشىء الا لغرض الاطاحة بالوزارة والاتيان بياسين الهاشمى .

واحسست ان الشيخ بدأ يهدأ فقال :

ـ ولكن من قال لك (ياعمى) اننى سأمضى فى تأييدى لياسين الهاشمى الى هذا الحد الذى تقول ؟

قلت ـ ليس من اعتراض ان تمضى فى تأييد من تريد من الساســة لو كنت سياسيا ، اما وانك زعيم روحانى فلا يسوغ لك باى وجه من الوجوه ان تميل الى جهة دون جهة وانت فى هذا المركز من الزعامة الروحانية .

ولست ادرى أأنا الذى وقفته بعد ذلك حيث وقف ؟ ولكنى ادرى ان خطتــه قد تبدلت ، وقد سبب هذا التبدل ارفضاض اولئك الزعماء عنه خصـوصا بعـد ان عجزوا عن ضمان تأييده لهم ، وكان ان اصدر السيد محسن ابو طبيخ كتابا باسم (المبادىء والرجال) عرض فيه بالامام ، فكان ذلك من الادلة على اختــلاف النيات والاهداف فقد كان الامام يريد شيئا ، وكان اولئك يريدون شيئا آخر ظل مضمرا فى صدورهم حتى قامت الوزارة الهاشمية .

اقول ولست ادرى أأنا الذى وقفته حيث وقف ، ولكن الشيخ قد تبدل ، وقد لحقنى بسبب هذا الاتصال وبسبب سفرى الى الشامية الشيء الكثير من المضايقات ، وقد بدأت السلطة تطاردنى منذ تلك الساعة ، ونالنى من حقد رشيد عالى الكيلانى ، وسوء ظنه اذى كبير ، وقد سحب امتياز جريدة الراعى منى ، وعطلتها الحكومة الى الابد ، ولم يدع صالح حمام ـ وكان يومها وكيلا لقائمقام النجف ـ وسـيلة مـن وسائل التنكيل الا واستعملها معى ومع بعض اسرة الجريدة القلمية ، وكان موسى كاظم نورس يومذاك مأمورا لدائرة بريد النجف ، وكان من اسرة الجريدة القلمية فى الطليعة ، ومن السواعد التى قامت جريدة (الراعى) ثم (الهاتف) على تأييدها الادبى وشد ازرها ، وكان صالح حمام قد ناوأ موسى كاظم نورس مناوأة قوية لعدم تمكين نورس اياه من الاشراف على المخابرات التلفونية والبرقيات كما كان يريد وذلك لعدم وجود نص قانونى يخول القائممقام مثل هذا الاشراف ، وصادف ان اتصل بى داخل الشعلان تلفونيا من بغداد طالبا منى السعى لدى الشيخ محمد الحسين بالاسراع فى اجابة كتابه الخصوصى الذى كان قد بعث به الى الشيخ فكان صالح

حمام يتحرق لمعرفة ماهية هذا الكتاب ومضمونه ، وما كان قد جرى بيني وبين داخل الشعلان من حديث بالتلفون مع انى انا نفسى يعلم الله لم اكن اعرف اى شىء عن هذا الكتاب وفحواه ، ولم اكن فى الامر اكثر من وسيط ظن بى داخل الشعلان الخير فكلفنى بمتابعة كتابه عند الشيخ واشتدت الخصومة والشكاوى الرسمية السرية بين صالح حمام وموسى كاظم نورس وانتهى الامر باستظهار موسى كاظم عليه فظن صالح حمام ان لى فى هذا الاستظهار يدا فزاد ذلك من غضبه ، وراح يهاجم الراعى ، وصاحبه ، بكل ما يملك من مجهود سرا وعلانية •

وعلى ان (الشيخ) قد جمع نفسه ، او هو قد بدا يجمع نفسه ، ولكن الجهة الثانية وهى الجهة المعارضة لياسين الهاشمى وجبهته قد سخطت على (الشيخ) ووصمته بالحزبية ، وكان معظمها يتألف من قبائل الشامية ، وكان علوان الحاج سعدون يومذاك على رأسها فخسر الشيخ فى يومه الجبهتين ، ووقعت بينه وبين البلاط الملكى جفوة ، واحسب انها هى التى حملته على ان يقول عن الملوك ما تضمنته مقطوعته الشعرية التالية ، اما الانكليز فكان يكرههم ، ويندد بهم اينما اتسع له ذلك، وله فيهم اقوال كثيرة ربما كانت على خلاف رأى ابيه الشيخ على •

ومن اقواله الكثيرة ما يلى :

كم نكبة تحطم الاسلا	م فيهـا والعـرب
والانـكليز اصلهـا	فتش تجدهم السبب
بل كل ما فى الارض	من ويلات حرب أو حرب
هـم اشـعلوا نيرانهـا	وصيروا النـاس حطب
واستخدموا ملوكنـا	لضربنـا ولا عجب
فملكهـم بفرضهـم	كـان والا لا نقـلب
هم نصبوا عرشا لهم	فى كل شعب فانشعب
واسوأة •• ان حدث	التاريخ عنهم وكتب

ولقد شاع آنئذ ان هذه القبائل التى يرأسها علوان الحاج سعدون والتى

كانت تميل لجبهة المدفعي ستغزو القبائل التى يرأسها الحاج عبدالواحد الحاج سكر التى ناصرت ياسين الهاشمي واتت به الى الحكم وكانت من احلافه •

وقبيلة (آل فتله) تنشطر فى جنوب الكوفة الى شطرين ، احدهما يقيم فى (المشخاب) ، وهذا الشطر واحلافه يؤلف جبهة قوية ليس من الهين اخضاعها ، اما الشطر الثانى فهو الذى يقيم فى المهناوية وهو محاط بقبائل مناوئة له ، وعلى أثر هذه الاشاعة كان لابد ان تتأثر - اول ما تتأثر - قبيلة آل فتلة التى تسكن المهناوية (الشامية) بالنظر لقلة عددها وسط تلك القبائل المناوئة لها ، وكان الجو قد اكفهر ، واوشكت الواقعة ان تقع يوم جاءنى عبيد آل عبدالسادة وهو أحد مشايخ آل فتلة (المهناويه) وخال اركان العبادى ، لقد جاءنى هو والسيد هاشم الزاملى فى نحو الساعة الحادية عشرة ليلا وبسطا لى القضية وقالا ان الامر فى غاية الخطورة فاذا وقعت الواقعة بين العشائر المتخاصمة وقعت البلاد فى حرب اهلية لايعرف مداها غير الله ، وقالا لى انهما لن يبرحا من بيتى حتى يطمئنا باننى استطعت ان احمل الامام الشيخ محمد الحسين على التدخل فى الامر ، وكان الشيخ محمد الحسين قد بدأ يشيح بوجهه عن تلك القبائل التى قامت - أول ما قامت - على تأييده وبدأت هى الاخرى تتنكر له ، وهنا تركت السيد هاشم وعبيد آل عبدالسادة فى بيتى وجئت الشيخ فى ذلك الوقت من الليل ، وشرحت له الكيفية ، وطلبت منه ان يوفد من قبله شخصا الى الشامية لمعالجة الحالة والحيلولة بين هجوم قبائل الشامية احلاف المدفعي على آل فتلة احلاف الهاشمي •

واصر الشيخ على ايفادى انا من قبله رسولا الى الشامية ، وعبثا حاولت التملص ، ولكى يحملنى على الموافقة حملا طلب من جعفر الاعسم ان يرافقنى فى هذه المهمة ، فسرت معه برسالة من الشيخ وانا مكره ، ولم يصبح الصباح حتى كنا فى الشامية ، وكان اجتماع الشيوخ والرؤوساء فى بيت الحاج رايح ، وادلى كل واحد من الشيوخ برأيه فى القضية ، وكان مرزوق العواد اصلبهم عودا ، وأشدهم حماسا ، وقد اتهمنى هناك بانى انما يهمنى من الامر هو مايهم آل فتلة

ـ بصفتي صديقا لهم ـ وليس للمصلحة العامة في مجيئي اليهم اصبع او شأن ، وساءني في ذلك المجلس ما جوبهت به من لدن مرزوق ، ولكن علوان الحاج سعدون والحاج رايح قد طيبا خاطري ، وأكدا لي ان الجميع سيحترمون امر الشيخ ، ولن تبدر منهم نحو هذه القبيلة أية بادرة ورجوا ان ابلغ الشيخ بان اقل ما ينتظرون منه هو التخلي نهائيا عن تأييد سياسة ياسين الهاشمي ذلك لانهم لم يكونوا قد اعتقدوا بعد تماما بان الشيخ كان قد كف عن التدخل ، وانه ليس على صفاء مع اولئك ، خصوصا عندما تجلى له اي للشيخ ان الجماعة التي ايدها كانت ترمي الى هدف حزبي ليس له دخل بما كان يهدف هو اليه من الاصلاح الشامل وانهم قد قلبوا له ظهر المجن •

وفسر ذهابي الى الشامية عند الحكومة تفسيرا غير صحيح ، وجاء في تقرير (القضاء) والشرطة ، انني كنت الوسيط الوحيد بين علي جودة الايوبي وجميل المدفعي ـ اللذين كانا يعملان متحدين ـ من جهة ، وبين الشيخ محمد الحسين وبين هذه العشائر من جهة ثانية بقصد اثارتها ، وهياجها في وجه وزارة الهاشمي ، فكان من نتائج ذلك تعطيل جريدة (الراعي) ، وملاحقتي من قبل الحكومة كما مرت الاشارة الى ذلك ، والمضحك في الامر هو انني لم اكن يومذاك اعرف السيد علي جودة الايوبي ، ولم التق به ، بل لم ار وجهه •• والغريب انني لم يتفق لي الاجتماع به الا في سنة ١٩٥٨ أي بعد اربع وعشرين سنة من هذا الحادث ••!! حين اتصل بي تلفونيا مبديا اعجابه بكتابي (كنت معهم في السجن) الذي قال لي انه لم يتسن له ان يقرأه الا في هذه الايام فاحب ان يتفضل بتسجيل اعجابه ، وهنا تمت المعرفة بيني وبينه ••!! لاول مرة عن طريق التلفون •

أما جميل المدفعي فانه لم يتفق لي التعرف به ، والتحدث اليه الى ان مات ••• ولكن من يستطيع ان يقنع الشرطة ؟ ومن يستطيع ان يبدل عقلية الحكومة وطراز تفكيرها ••؟؟

قلت ان الشيخ محمد الحسين كان طيب القلب ، نقي السريرة طاهر النفس ، فكانت هذه الصفات تساعد كثيرا على تقبله الاقوال ممن يضع ثقته فيهم •

ولقد استطاع صالح حمام ـ وقد كان قائممقام النجف حينئذ ـ لقد استطاع ان يكسب ثقته وان يفهمه عنى بانى لم اذهب الى الشامية الا لاغراض سياسية تخصنى ... ونسى الشيخ رحمه الله انه هو الذى اوفدنى ، وانه هو الذى الح على فى الذهاب الى الشامية واننى كنت مكرها فى الامر ، لقد نسى ذلك كله فراح يحوقل ... ويظهر العجب ... وقد بلغتنى حوقلته فانقطعت عنه سنة كاملة أظهر لى فيها العطف الكثير ، وحاول ان يعرف سبب القطيعة حتى تم ذلك عن طريق الشيخ قاسم محى الدين الذى تعهد للشيخ بان يحملنى اليه حملا وان يجعلنى كما كنت اولا ـ مشمولا بلطفه وعطفه ، وأكد لى هناك الامام انه لم يتقبل من صالح حمام اقواله فى وكل ما فعلت اقوال صالح انها اثارت عنده الدهشة والاستغراب ..!! ولكنه لم يصدق ماقيل وكان يريد ان يعرف الاسباب التى حملت الحكومة على ان تقول فى ما قالت ولكننى انقطعت عنه ...

وكان من تأثير صالح حمام على الشيخ ان حمله حين تضعضعت ثقة الحكومة (بحمام) وكثرت شكاوى الناس منه ومما استعمل من اساليب للضغط على الحريات ، والتدخل فى شؤون البلد ، بسبب ما استمد من قوة صالح جبر وسعد صالح وثقتهما فيه فى اول الامر ، لقدحمل صالح حمام الشيخ كاشف الغطاء على ان يبرق للحكومة برقية هذا نصها :

« صالح ، صالح للبلاد »

هذا فى الوقت الذى كان الشيخ قد امتنع من الاتصال بالحكومة وكان غاضبا عليها ..!!

وتذكرنى تورية اسم (صالح) باسلوب الشيخ الذى قلما خلا من البراعات الفنية التى يتضمنها الجناس والتورية وسائر ضروب البديع وهو يرسل ذلك عفو الخاطر وبدون قصد كلون من الوان سرعة البديهة الطبيعية .

ولقد كنت حاضرا المجلس الذى ضمه وضم الاستاذ أحمد أمين فى النجف ، وكان الشيخ قد ناقش أحمد أمين وعاتبه على ما اورد فى كتاب (فجر الاسلام) عن الشيعة ، ثم انتقل الحديث الى الشعر فسأل أحمد أمين الشيخ عن تاريخ نظمه لاحدى

قصائده التى تخص زيارته لمصر ، وكانت قوافيها (عينيه) وكان من تلك القـوافى (ابزوغ وانزوغ) قائلا :

- متى كان هذا (ابزوغ وانزوغ) الذى اوردتموه فى قصيدتكم عن مصر؟

فقال الشيخ - لقد كان ذلك قبل بزوغ (فجر الاسلام) ونزوغه •

فضحك احمد أمين وأقسم انه لم يرد بهذا السؤال التعريض والغمـز ، فأيده الشيخ وقال - وانه هو كذلك لم يقصد الا الدعابة •

ولقد كتب الشيخ مرة الى السيد عباس شبر موصيا اياه بشخص امى قروى ولكنه كان كريم النفس أبيا ومعروفا بالشهامة ، قائلا : « انه أبى ولكنه امى» •

ومن البراعات الادبية التى اتصف بها أدبه هو الايجاز ، فقد كان يحسـن فن الايجاز ويتقنه لحد يثير الدهشة ولقد رويت لفنون ايجـازه نصـوص ذات قيمة فى معرض الامثلة •

وسئل مرة وهو يتسلق جبل (صافى) الرابض على صدر مدينة (جباع) بلبنان، وكان على القمة من هذا الجبل مدفن ولىّ يسمى (باصافى) وقد كثرت فيه الاقوال والاحاديث ، ورويت عن معجزاته الروايات ، وهو محل يرتاده الكثير بقصـد الزيارة والمثـوبة ، وبقصد التمتع بتلك المناظر الزاهية الجميلة من فـوق مدينـة جباع •

لقد سئل الامام الشيخ محمد الحسين وهو يتسلق هذا الجبل باتجاه مرقد (صافى) لقد سئل عن حقيقة هذا الولى وقيمته القدسية ، وكان التعب قد اعيا الشيخ وهو يصعد فقال وهو يضحك :

- « يا صافى ما اكثر اتعابك ، واقل ثوابك »

وكان ايجازه هذا كافيا لتجريح تلك الاقوال والشهادات بقدسية الولى(صافى) ومعجزاته ، وقيمته الدينية ، وظل اهل جباع يفرغون فى مسامع الصاعدين الى (صافى) بقصد التقرب الى الله ظلوا يفرغون فى مسامع الصاعدين قول كاشـف الغطاء : -

« ياصافى ما اكثر اتعابك واقل ثوابك » •

وتمكنه من الشعر لايقل عن تمكنه من النثر ولربما حوت رسائله الخاصة الكثير من شعر المناسبات الذى يرسله عفو الخاطر كما حوت الكثير من صنوف البديع والجناس والتورية المرتجلة وهى رسائل تعبر عن الاساليب الادبية التى تجمع بين الشعر والنثر فى الجيل المتقدم ولم يترك لنا منها صورا لانه لم يتعود ان يجعل لرسائله مسودات ، لذلك حرص الذين رافقهم التوفيق بمكاتبته على رسائله هذه التى تعد من ازخر الاثار الادبية بالفن ، والبراعة الدالة على منتهى ما يتصور الانسان من مقدرة تحكيها عصارة فن مليىء بالابداع ، وافكار غاية فى السمو ، مع انه ليس غير أدب مرتجل يسيل به القلم كما يسيل العسل من الانحاء اذا فتحتها وكثيرا ما جمعتنى الصدفة به وهو يحبر رسالة الى احد فاستغل هذه الفرصة وانقل من تلك الرسائل شيئا حتى اجتمع عندى شىء غير قليل من هذه الصور الحية ، وهذه احدى رسائله التى كتبها لامين خالص حين دعاه ليقضى اياما من الصيف عنده فى الشمال يوم كان امين خالص متصرفا بكركوك اثبتها هنا كنموذج لما كان يفيض به ادبه المرتجل على الورق بدون مسودة ، وكصورة من اروع الصور الفنية ، وازخرها بالمعانى والافكار لادب الجيل الماضى الذى ظل ينسج على منواله الكثير من علماء الادب حتى اليوم •

«سلام شائق ، ودعاء وامق ، وتحية مخلص

وردنى كتابك الكريم ، وكنت انتظره انتظار العليل للشفاء ، او الارض المجدبة لماء السماء ، فاعاد لنا تلك الذكريات الطيبة ، والسويعات المنعشة ، التى هى صفوة العمر ، بل هى العمر ، وما نسيناكم فاقول بكتابكم ذكرناكم ••• ولكنى -

ذكرتكم ذكر الزلال على الظما — فلم انتفع من برده ببلال

اسائل عمن لا احب وانما — اريدكم من بينهم بسؤالى

واطوى على حر السعير جوانحى — واظهر للعذال انى سالى

ولا والذى عافاكم وابتلى بكم — فؤادى ما مر السلو ببالى

اما دعوتكم لنا ان نزوركم ، فهى دعوة اخ شقيق ، بل دعوة ولد بار ، لاب أبر ، وما احوج هذا الجسد النحيف الذى صار كعود الخلال ، او من عالم المثال ،

فما احوجه الى المتع بتلك المناظر البديعة التى نوهت عنها بكتابك الذى التقط الفاظه من تلك الازهار ، وقوة معانيه من تلك الصخور والاحجار ، ورقة اساليبه من نسمات هاتيك الاسحار ، وما الازهار الا سجاياك ، وما الانهار العذبة الا طباعك ، وما الاقاح والشقيق والعبهر الاحديثك ، وقديمك ، وما الخمائل الا تلك الشمائل .

نعم ما احوجنى الى التمتع بالمنعشات الثلاثة ـ بلادك ، ورؤياك ، وحديثك ، ولكن أنى لى بان تسعدنى الظروف والاقدار بهذه الامانى والاوطار « وكيف يطير مقصوص الجناح؟ » .

وانا ـ:

اهم بامر والليالى كانما	تطاردنى عن نيله واطارد

نعم ايها العزيز

ليهنك عيش با(لشمال) منعم	فبعدك عيش (بالجنوب) منكد
بودى لو أنى ازورك ساعة	لعلى منها نظـرة اتزود
ونعماك فى تلك الورود فاننى	على حسك البلوى اقوم واقعد
رضينا بان تبلى الليالى جديدنا	اذا كانت النعمى لكم تتجدد

وانت ايها الاديب اللبيب تعلم انى لست من الشعر ولا قلامة ظفر ، ولكنها اشجان تهيج فى الفكر ، فتملى على اليراع تلك الشذرات التى هى من ذوب الفؤاد ، وصبابة القلب ، جرت على عفو الخاطر ، وجرى القلم ، ولعلها دون ما تجنه الجوانح وبعض ما فى النفس » .

وبعد كل ذلك فاكثر مايعجبك من الشيخ هذا الجلد والصبر على العناء والاجهاد ، فهو بالاضافة الى كثرة مراجعيه والوقوف على بابه ، وخروجه للصلاة بالناس ظهرا وعشاء والقائه سلسلة من البحوث فى كل مساء فان معدل ما يتلقى فى اليوم ليتراوح بين خمسين او ستين رسالة ، وقد يتجاوز المعدل فى بعض المواسم المائة رسالة تأتيه من مختلف الاقطار الاسلامية ، وحتى من الاقطار الافريقية ،

والاميركيين ومعظمها استفتاءآت شرعية ، ومسائل اجتماعية ، وأدبية ، كان يقرؤها جميعا ويجيب عليها بنفسه وكان الكثير من تلك الاجوبة يكتبها على نفس الرسالة ، ويعيدها الى صاحبها ، وكنت ارى بعض هذه الرسائل حين تتاح لى الفرصة ، فاستأذنه فى نقلها الى قراء الهاتف ، وقد نقلت قطعا ادبية رائعة من اجوبته فى الكثير من المناسبات فى جريدتى وكان بين تلك الرسائل والاستفتاءات رسائل من مختلف المذاهب والاديان ، وكثير منها كانت ترد اليه من رجالات العلم والادب المسيحيين المقيمين بلبنان والمهاجرين منهم ، وكان يجيب على كل منها فى حدود مستواها ، ومضمونها ، لذلك قل العلماء الذين تم الانتفاع بهم فقها ، وادبا ، واخلاقا ، من امثال الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ، ثم هو من الجرأة بحيث لايهاب احدا ولا يحترم قوة فى الوجود اذا ما تنكبت طريق الحق والمنطق ، واذا ماعرض له ان يغير ويبدل ويعدل فليس ذلك على حساب التهيب ، والخوف ، وانما على حساب المصلحة التى تبدو له ، والمقتضيات التى تعرض امامه والا فهو ابعد الناس عن تهيب الرأى العام او السلطة الغاشمة ، وقد نمت هذه الجرأة مع نموه وحسبت لها الحكومة فى مختلف ادوارها حسابها الكامل .

اردت ذات يوم ان اقوم بدعوة منظمة لتهذيب خطباء المنابر الحسينية فى جريدة الهاتف ، فقد بلغت المهزلة حدا لايطاق من جراء صعود عدد من اشباه الاميين المنابر الحسينية ، والاتيان باحاديث ملفقة مكذوبة على الله ، ورسوله . واوليائه ، وجئت الى الشيخ مستفتيا عن رأيه فى هؤلاء الذين يرقون المنابر على هذه الكيفية ، والذين كثيرا ما يسمعهم الشيخ بنفسه ، فرأيته يكاد ينفجر غيظا ، وقد صب جام غضبه عليهم ، وعلى الذين يستقرؤونهم فى بيوتهم وهم يعلمون شأنهم ، ويعرفون عجزهم فاستكتبته ، فكتب لى رأيه فيهم ، واعتبر الاصغاء الى مثل هؤلاء الخطباء وحضور مجالسهم والاستماع الى خطبهم من الامور المحرمة التى لايجيزها الشرع بوجه من الوجوه ، وقد حدد فى هذه الفتوى مؤهلات الخطيب وواجبه تحديدا جيدا دون ان يهتم بالرأى العام وما يمكن ان ينتهى اليه الامر .

ولما كنت اعلم بخطورة المهمة التى اقوم بها نظرا لكثرة عدد هؤلاء الذين

سيصبحون خصوما للجريدة ، اندفعت اعد العدة وابحث عن الكتاب والمساعدين الذين يمكن التعاون معهم فى هذه الحملة وتهيأت لى اسباب الحملة عند بعض المفكرين من الروحانيين ، وكانت جماعة (منتدى النشر) فى طليعة المؤمنين بالفكرة، وكان الشيخ محمد الشريعة ، اشدهم ايمانا ، واجرأهم فى الصرخة ، وكانت جمعية منتدى النشر قد تهيأت لذلك فى فتح صف من صفوفها المدرسية لاعداد خطباء تتوفر فيهم هذه الشروط ، ولقد رجحت انا ان استعين بعد ذلك فى هذه الصرخة التى نويت ان اصرخ بها بخطباء المنابر المثقفين ثقافة عالية ، وممن لن يكونوا مشمولين بفتوى تحريم صعودهم المنابر ، وكنت احسب ان الخطيب الشهير الشيخ محمدعلى اليعقوبى سيكون فى مقدمة هؤلاء الذين يمكن الاستعانة بهم فى هذه الحملة ، ولكن شيئا من (ابرودة) حينذاك كان مستحكما بينى وبين اليعقوبى حمله على ان يطلب مواجهة الشيخ محمد الحسين ويقنعه بان يسحب منى تلك الفتوى التى لو كانت قد نشرت لاضافت حسنة اخرى الى حسنات الشيخ محمد الحسين الكبيرة والكثيرة العدد فى ميدان الاصلاح الدينى ، والاجتماعى ، وقد لقى الشيخ محمد على اليعقوبى نفسه من اولئك الزعانف المحسوبين على رجال المنابر ، والذين دافع عنهم اليعقوبى الامرين فيما بعد ، وقد جوزى منهم بما جوزى سنمار ، ويستطيع المرء ان يعلل موافقة الامام كاشف الغطاء بسحب الفتوى منى بمختلف التعليلات والاسباب ماعدا الخوف من الرأى العام ، ذلك لان الامام فى سنيه الاخيرة قد برهن على انه لايهاب سلطة ، ولا يخشى مجتمعا ، ولا يهتم بتهديد •

والشيخ كاشف الغطاء اول داع للاصلاح الدينى ، والاصلاح الاجتماعى ، واول مجتهد اتقن اداء مهمة الاجتهاد ضمن حدود الامكان ، لذلك كان من الغريب ان يعدل عن رأيه ، ويسحب الفتوى منى •

ومشت جمعية المنتدى فى أمر اصلاح خطباء المنابر وفتحت صفا خاصا للخطباء وكانت للشيخ محمد الشريعة وقفته التى لاتنسى ، واحدثت هذه الوقفة ، ضجة كبيرة فى وسط النجف لم يعبء بها الشيخ محمد الشريعة ولم يلن ، ولم

يتضعضع ، وتبلورت الضجة والنقمة على جمعية المنتدى حتى صارت ثورة فلم يزد الشيخ محمد الشريعة ذلك الا ثباتا واستهزاء بالتهديد الذى لقيه ، ولم يكن الشيخ محمد رضا المظفر ، عميد المنتدى حاضرا فى النجف يومها فاصاب اعضاء المنتدى امام تلك الثورة شيء من الخور فقرروا ايقاف حركتهم الاصلاحية بالاجماع ولم يعارض هذا القرار الا الشيخ محمد الشريعة .

ولو كان المشروع قد نجح لكنا قد حصلنا على عدد اكبر من نظراء الخطيب الشيخ احمد الوائلى والخطيب السيد جواد شبر وغيرهما ممن انجبتهم جمعية منتدى النشر .

* * *

اقول ان الشيخ محمد الحسين كان اول داع للاصلاح الدينى والاصلاح الاجتماعى ، وكان يتمتع بسليقة قل ان تمتع بها زعيم روحانى فى استنباط الاحكام ، فلقد لامنى حين سمعنى اخطب فى حفلة تأبين السيد ابى الحسن الاصفهانى حين قلت « ان السيد ابا الحسن كان اول مجتهد حكم بطلاق امرأة معدمة من زوج كان قد حكم عليه بالسجن خمس سنوات» . فقال لى الشيخ محمد الحسين « بل انا الذى كنت اول من حكم بطلاق امرأة من زوج مسلول وكان ذلك قبل حكم السيد ابى الحسن بسنوات» فيكون الشيخ بناء على ذلك اول من اخذ الحق ـ حق الطلاق المفروض ان يكون بيد من اخذ بالساق ـ من الرجل وطلق الزوجة دون اخذ موافقة الزوج ، فسألته عن المسوغ ؟ عن المسوغ الشرعى لا المدنى طبعا الذى يبيح له اصدار مثل هذا الحكم بينما لم يسبق لاحد من الائمة فضلا عن العلماء من استطاع ان يفتى بمثل هذا او ما يشبهه ؟

فاجابنى بكل ثقة وصرامة قائلا : « ان المجتهد مشرع يا عمى ؟ » ..!!
ومن هذا يستبان ان الشيخ كان يعطى الاجتهاد حقا لم يعطه احد قبله من الفقهاء .

ومع ذلك فقد كانت له اراء شرعية لم يتح له ان يخرجها على رغم جرأته فلقد

قال لي مرة وانا أسأله عن الامام الثاني عشر (صاحب الزمان) والخصائص المذهبية الواردة عنه لقد قال لي :

« ان الاعتراف بوجوده على هذا النحو ليس من الضروريات» ••!!

ومن هذه الآراء ايضا انكاره (للرجعة) وقد اورد ذلك في الطبعة الاولى من كتاب (اصل الشيعة واصولها) ثم اضطر الى اغفال ذلك في الطبعات الاخرى بسبب الضجة التي احدثها رأيه هذا على ماقيل •

ولكني اعتقد ان ذلك كان قبل عدة سنوات وقبل ان ترسخ قدمه في ميدان الزعامة اذا صح ، لاني وجدته اجرأ الزعماء في السنين الاخيرة •

وقال لي مرة اذا كانت في الاسلام احكام لاينبغي ان تتبدل وتتغير على مدى الايام ، فان هنالك احكاما تستلزم التبديل والتغيير اذا تطلبها العقل ، والمنطـــق ، والمستلزمات الشرعية ، ولكن الكثير من المجتهدين ـ تعوزهم السليقة ليجروا مثل هذا التبديل ، والتغيير ، فتظل تلك الاحكام جامدة وبعيدة عن الهدف الذي يرمي اليه الشرع •

وقال خذ مثلا وصية الميت التي يوصي فيها بانفاق ما يخصه من ثلثه عـــلى بناء (السبيل) وهو محل لعرض الماء مجانا للشرب في طريق القوافل ، وفي مداخل المدن ، كما كان يفعل المسلمون في العصور السابقة اجابة لحض الدين عليه ، وطلبا للمثوبة قال : فهل من المعقول او هل من الشرع ان تنفذ وصية الميت بعد ان توفرت اليوم مياه الشرب في كل مكان ، واصبحت وسائط النقل من السرعة والسهولة بحيث يفطر الانسان صباحا في البصرة ويتغدى ظهرا في القاهرة هل من الشرع ان تنفذ هذه الوصية لمجرد أنها وصية يجب على الوصي تنفيذها ؟

وقال : لقد كان بناء المساجد في العصور الاسلامية السابقة ، من اقرب المقربات الى الله ، يوم كان المسجد محلا لاداء الصلاة ، ومدرسة يقوم فيها الطلاب بتلقي العلوم ، ومنتدى يجتمع فيها المسلمون في كثير من المناسبات وملجأ للغرباء الذين يفدون على المدينة ، ويوم كانت ابواب المساجد بمثابة الجرائد تلصق عليها الإعلانات، عن فقدان حاجة ، او العثور على حاجة ، وغير ذلك من الاغراض ، فهل يمكن إن

تكون المثوبة في بناء هذه المساجد ـ اذا زاد عدد المساجد عن الحاجة ـ هي عين المثوبة بعد ان فتحت المدارس الكافية ، وتأسست المستشفيات وبنيت الاندية ، وتكاثرت المرافق الاجتماعية والمؤسسات التعاونية ، لو ان رجلا اوصى بان ينفق من ماله الخاص به (اى من ثلثه) على بناء مسجدين او اكثر في المدينة ؟

قال انني لا اعتقد ان المثوبة الحاصلة اليوم من تأسيس (سبيل) للماء ، وبناء مسجد ، هي عين المثوبة السابقة ، فالاسلام يوم كان يحض على اقامة المساجد وتعميرها كان يبتغي منها كل تلك الفوائد التي ذكرت وأكثر من نشر دعوته والتبشير بسننه العادلة ، وايصال صوته الى الغافلين عما يرمي اليه الاسلام الصحيح من هدف عملي في حياة الانسان العامة ، لذلك .. (قال الشيخ) .. لذلك قد حملت مرة احد الاثرياء من رؤساء العشائر وكان قد جاءني ليأخذ رأيي في بناء مسجد في قريته ، وكان فيها مسجد آخر لقد حملته على ان يبني بعض الغرف في مصح (حمانا) ويهديها مجانا للمسلولين العراقيين ، وقلت له ان الثواب في ذلك عند الله اكثر واكبر مادام في قريته مسجد يكفي لاداء المهمة كما تحققت ، وقد علمت انه بنى غرفة او غرفتين في مصح (حمانا) ، وان افاضة المساجد عن الحاجة ـ كما قال الشيخ ـ هو الزائد الذي قيل عنه انه كالناقص ، وهو الذي يلزم المجتهد باعادة النظر في الحكم ، ولقد تسبب من عدم ادراك الناس ، وعدم تصدى المجتهدين لافهام بناة المساجد ، ان كثر عدد هذه المساجد واصبح الكثير منها مقفلا ومهملا ولحق من جراء ذلك شيء من الاهانة بالطقوس الاسلامية فضلا عن ضياع المال وانفاقه سدى .

ولم اجد شخصا يعدل عن رأيه بالسرعة التي يعدل الشيخ محمد الحسين عن رأيه حين تتضح له الحقيقة ، ويتجلى له الحق ، وكثيرا بل واكثر من الكثير الذي رأيت فيه الامام يدلي برأي خاص كان يؤمن به منذ زمن ثم لم يكتف بتغيير رأيه وانما راح يدل الاخرين على المواطن التي لم يصب فيها من قبل ، واذا تبجح الكثير بما قد اصابوا في كثير من الاراء فانه ليسرد لك في المناسبة كثيرا من المواقف التي التبس فيها عليه الامر .. ! وهي صفة لزبدة العلماء المحققين .

زرته ذات ليلة بمستشفى الكرخ ببغداد فالفيت عنده جمعا من المشايخ والوجوه وكانت صحته مما تسمح بالجلوس للناس وقد وجدت الجمع يخوض فى بحث كتاب (وعاظ السلاطين) للدكتور على الوردى الذى كان قد صدر منذ ايام قريبة ولم يترك أحد من الجالسين شيئا لم يقله عن افساد الوردى لافكار الناس ، وكفره ، واستهزائه بالدين والائمة الذى تضمنه كتابه على حد رأيهم ، وكان الشيخ يحتدم غيظا ، ويحوقل ، ويستعيذ ، وقد علمت ان ارشد العمرى كان عند الشيخ منذ دقائق فافرغ الشيخ غضبه فى اذن العمرى ، ولم يترك العمرى الشيخ حتى وعده وعدا اكيدا بأنه سيتخذ جميع الاجراءآت الممكنة فى حق الدكتور على الوردى وفى حق كتابه هذا اذا ما اصبح الصباح •••

وكنت قد فرغت من مطالعة الكتاب المذكور فى ذلك اليوم ، او اليوم الذى قبله ، فانبريت الى القوم افند ادعاءهم ، واروى للشيخ آراء الوردى على حقيقتها ، وكان ردى على اولئك المتحمسين فى هجومهم على الوردى عنيفا وكان دليلى او قل تأثيرى على الشيخ قويا ، بالرغم من اننى كنت واحدا ، وكانت الحاشية التى احاطت الشيخ جمعا كبيرا • وفيهم بعض الشعراء والادباء اللبقون المعروفون فلقد قلت للشيخ :

ـ او لم تنعتنى باكثر مما استحق من نعوت ادبية فنية كدت ترفعنى بها الى الضراح الارفع ؟ ـ وكان الشيخ قد كتب مقدمة كتابى « عندما كنت قاضيا » المطبوع فاضفى على وعلى جريدتى ـ الهاتف ـ بالشىء الكثير مما لا استحق من ثناء وصفات سواء فى طبعة الكتاب الاولى او الثانية ؟ ـ

قال ـ بلى •

قلت ـ تناس كل ذلك ياعمى ••• واعتبرنى قارئا يحسن فهم ما يقرأ على الاقل ••• وانا اوكد لسيدى العم اننى قرأت الكتاب من الفه الى يائه فلم اجد فيه شيئا ولا شبه شىء مما يقول هؤلاء القوم ، وانا واثق بانك لن تخرج بغير هذه النتيجة او باقل مما خرجت بها انا حين يتسنى لك الاطلاع على الكتاب بنفسك •

فانطلقت اسارير الشيخ هنا ، وهدأ •• ولم اتركه حتى حملته على ان يوفد احدا فى تلك الليلة الى ارشد العمرى ليخبره بانه كان قد تسرع فى طلبه بمعاقبة الدكتور الوردى لانه لم يكن قد قرأ الكتاب بعد ••• وعلى انى لم اسمع رأى الشيخ بعد قراءته كتاب الوردى ولكنى كنت واثقا بانه سيؤيدنى فى الكثير مما قلت عن هذا الكتاب اذا ما اتم قراءته ، ذلك لانه لم يوجد بين كبار علمائنا المتأخرين من كانت له مثل هذه الاحاطة الفقهية ، والادبية ، وحسن السليقة التى عرف بها الشيخ كاشف الغطاء ، فقد كان بدون شك اكبر علماء عصره الروحانيين ، وكان افضلهم فى جميع مراتب الاجتهاد ، ولكن امورا خاصة تتعلق بشؤون الزعامة هى التى لم تجعل الانفراد فى زعامة الشيعة اليه وحده ، واموراً تخصه نفسه هى التى لم تدعه ان يشغل المكان اللائق به كاكبر زعيم روحانى فى العصر الاخير •

وفى اثناء الحرب الثانية كان على رأس مديرية الدعاية والنشر السيد كمال عبدالمجيد وكان قد حرم جريدة الهاتف ـ لسبب ليس هذا محل ذكره ـ من تخصيص حصة لها من الورق بينما كانت لجميع الصحف حصص معينة ، فكنت اشترى ورق الصحف من السوق السوداء ، ومن الصحف التى كانت تشترى (البند) من حصتها بنصف دينار او اكثر قليلا • فاشتريه انا منها بتسعة دنانير ••• حتى اشتريت مرة البند الواحد بأحد عشر دينارا ••• ولم ادع (الهاتف) يتوقف عن الصدور فكان (الهاتف) يعانى ازمة شديدة حملت السيد (ابا الحسن) الزعيم الروحانى الاكبر على ان يخص الهاتف بمقدار من الورق الذى جلب له لكى يطبع به رسالته الدينية ، ويبدو ان الامر قد بلغ الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء فبعث لى بمبلغ من المال مصحوبا بالرسالة التالية :

« عزيزى اعزك الله بعزه ومدك بعنايته

انت تعلم ان صحيفتك الغراء منذ فجر نشئتها الى اليوم تصلنا تباعا ، ونحن وان كنا نساعدها بالمساعدات الادبية من تنويه ، وتحبيذ ، وغيرها ، ولكن لم يتفق لنا طول تلك المدة من مساعدتها مساعدة مادية ، وعلى اثر ازمة الورق ، وغلاء الاجور ، كنت اود ان اضع لى فى تلك المائدة اصبعا ان لم تكن يدا ، لذلك تجاسرت

(كذا) بتقديم هذا المبلغ الضئيل ، ولك الفضل في قبوله (كذا) ولا يحسب مولاي (كذا) ان لهذا علاقة بأية قضية ، فالله شهيد انه من خالص ما في يدي ، وكن على ثقة بان دعائي ، ودعايتي ، هي خير لك من اضعاف هذا المبلغ قل ام كثر ، والله يحفظك ويرعاك بدعاء ابيك الروحاني البار » .

٣٠ شعبان ١٣٦١ محمد الحسين

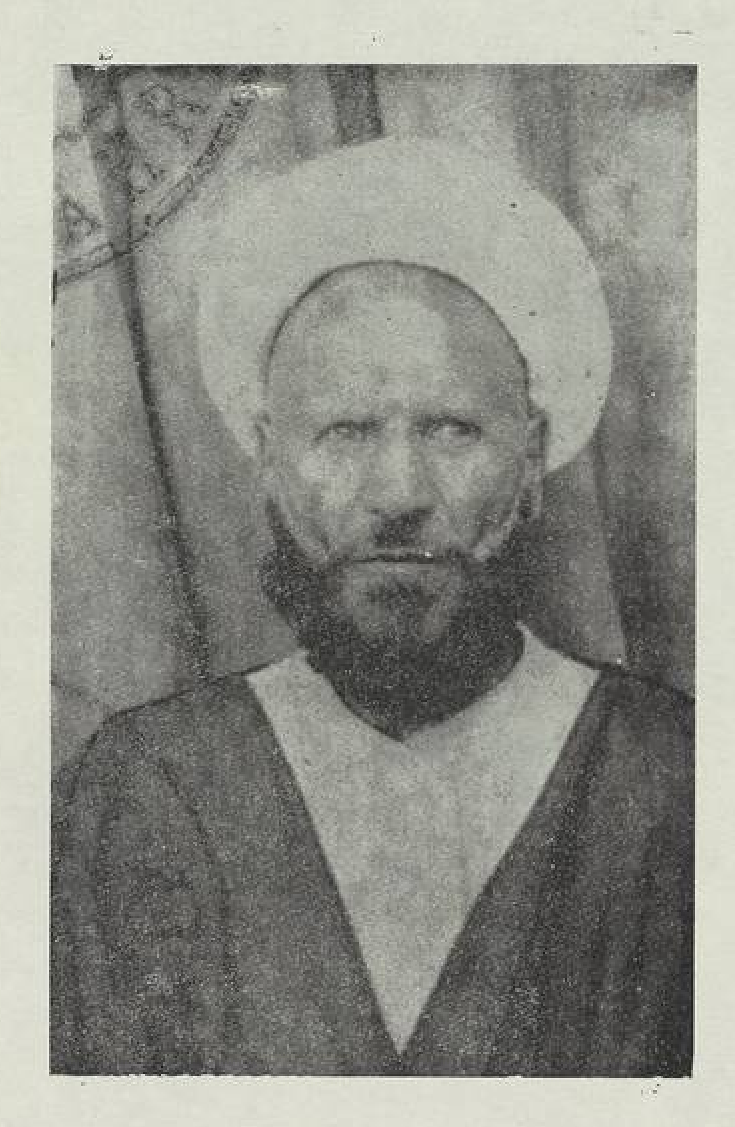
وقد زرته بعد تسلمي المبلغ والرسالة بساعة واحدة ، ولاول مرة أقبل يده ، لانني لا اذكر اني قبلت يد احد غير يدي ابوي واخي الكبير حين بدأت اشعر ، لقد قبلت يده لاني لم اجد وسيلة تحمله على قبول استرجاع المبلغ مني بغير هذا النحو من الالتماس الذي عبرت فيه له عن غاية امتناني ، وشكري ، ورجوت منه اعفائي عن قبول المبلغ ، ولم ازل به حتى وافق على ذلك مكرها ، ومرة اخرى قبلت يده حين تفضل وزارني في بيتي على أثر تصميمي على الانتقال (بالهاتف) الى بغداد ليحول بيني وبين هذا التصميم ، فكان تقبيل يده بمثابة آخر ما في كنانتي من وسيلة في الرجاء منه بتركي وشأني ، ولقد لقيت من لدنه الشيء الكثير من الرعاية ، والعطف طوال السنين التي اتيح لي فيها التشرف بالاتصال به وهي رعاية وعناية قلما لقيها شبه متمرد مثلي ، من زعيم روحاني كبير مثله .

لقد كان الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء نسيج وحده علما ، وأدبا ، وفنا وكان زعيما روحيا فذا ومصلحا كبيرا سيظل التاريخ زمنا طويلا يبحث عن نظير له بين جماعة الروحانيين فلا يوفق وقلما شوهد شخص يجمع بين عدد غير قليل من زعامات انفرد بها في العالم الاسلامي والعالم العربي ، فقد كان زعيما روحيا ، واسع الاطلاع تخرج الكثير من العلماء على يديه ، وكان منهم السيد محسن الحكيم المرجع الروحاني الاكبر اليوم ، وكان خطيبا قل نظيره من حيث بلاغة الكلام ، وفصاحة اللفظ ، ونفوذ معانيه الى قلوب مستمعيه ، وكان زعيما من اكبر الزعماء في عالم الادب ، شعرا ، ونثرا ، ثم هو بعد ذلك محدث بارع ، ماخلا حديثه من

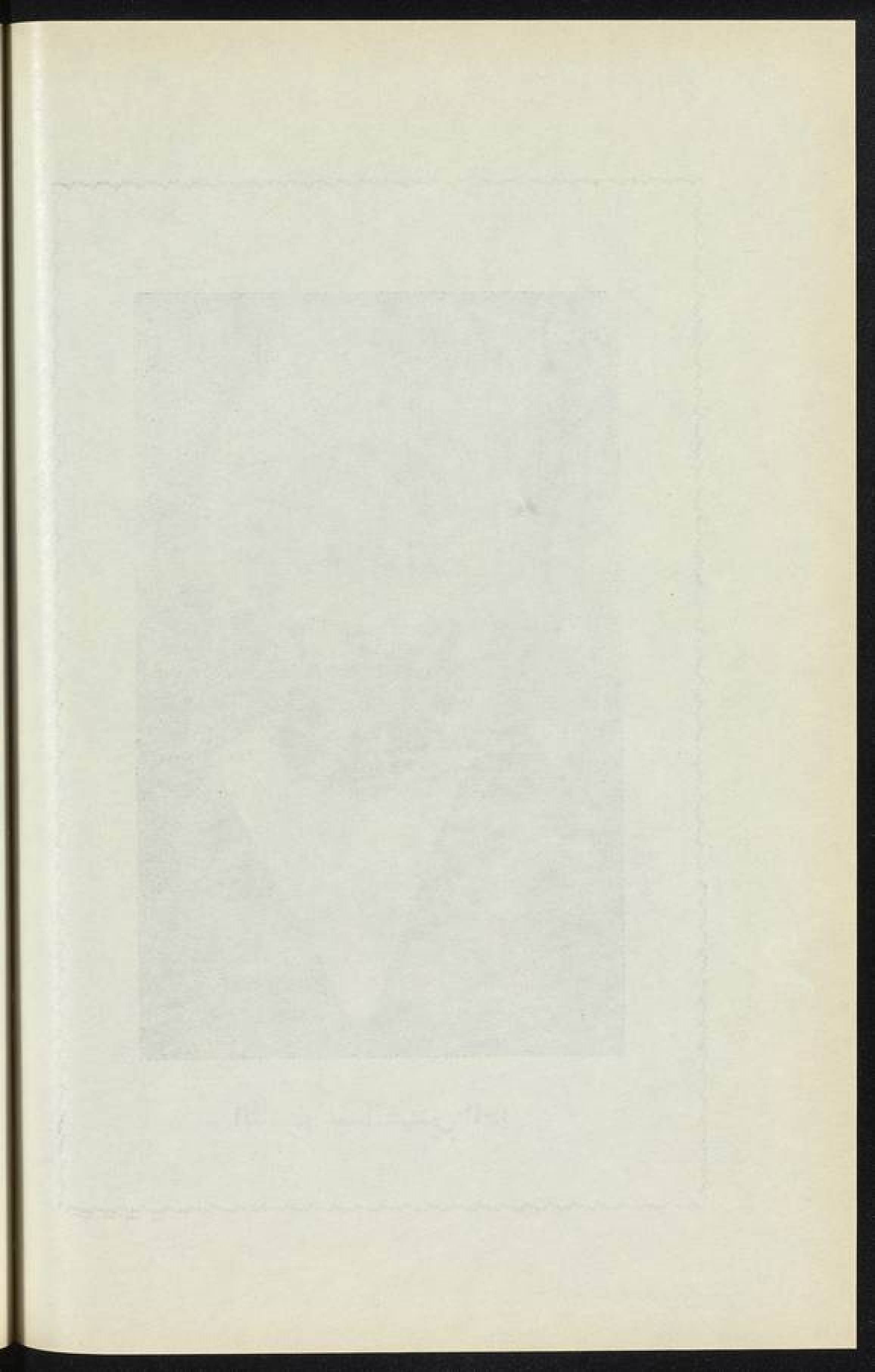
الملح الادبية ، وانكت الفنية ، اما الشخصية فحدث عنها ولا حرج ، ولقد انجبت اسرة كاشف الغطاء عددا كبيرا من نوابغ اهل العلم والادب ولكن الشيخ محمد الحسين كان من انبغ من انجبت النجف فی تاريخها الطويل العريض •

وافته المنية وانا اصطاف في ايران ولم تغنني تلك العيون الثرة التي هطلت على ثراه من دموع المسلمين الذين حضروا تشييعه الذي قل مثيله في التاريخ •

اجل لم تغنني تلك الدموع الغزيرة الثرة عن ان اذيب قلبي فاسكبه من بعيد قطرات ظلت وستظل رمزا لكآبة عميقة ، وحزن ممض ، وجرح لايندمل •



الشيخ عبدالحسين الحلي



الشيخ عبدالحسين الحلي[1]

كانا اثنين ذانك اللذان يحملان نفس الاسم ونفس النسبة . ولم يكن الفرق بين الاسمين يزيد على اضافة اسم عبد الى الحسين وتجرد الثاني من هذه الاضافة . وعلى رغم التفاوت بين الشخصين في العمر وفي منحى التفكير والاتجاه . فقد التبس الامر على الكثير ممن لم يعرفهما فظن ان الشيخ حسين الحلي هو الشيخ عبدالحسين الحلي ، وانهما اسمان لمسمى واحد . وكنت انا من هؤلاء الذين التبس عليهم الامر . ولا ادري بالضبط متى بدأت أميز بين الاسمين . ولا متى عرفت كلا منهما المعرفة الكافية ، وكلما دريت به هو اني صرت بعد حين اعرف اين موضع الشيخ عبدالحسين الحلي من هذا الرهط . فكنت انظر اليه نظرة اكبار واعجاب نلقيتها من ابي . ومن اخي الاكبر ومن اعمامي . وممن الفت التقاءهم في المجالس . ثم مالبث هذا التلقين الطبيعي ان صار اساسا بنيت عليه عقيدتي غير الاختيارية ثم عقيدتي الاختيارية .

وعلى الرغم من وجود عدد غير قليل من فطاحل الادب يوم وعيت ، وعلى رغم امتلاء ذهني بأسماء طائفة منهم من الذين رأيتهم كالشيخ جواد الشبيبي . والسيد رضا الهندي ، والشيخ عبدالرضا الشيخ راضي ، والشيخ هادي الشيخ عباس ، والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء والشيخ عبدالكريم الجزائري ، او الذين لم ارهم كالشيخ آغا رضا الاصفهاني . والسيد محمد سعيد الحبوبي من المعاصرين ، وعلى الرغم من عدم ترك هؤلاء اي مجال لذكر اشخاص آخرين لبعد صيتهم ،

---

(1) مجلة العرفان – صيدا – مجلد السنة ١٩٥٧ .

وامتداد شهرتهم ، فان الشيخ عبدالحسين ـ وكان اصغر اولئك سنا ومن الطبقة التي تليهم ـ لم يعدم الوسيلة الادبية التي يستلفت بها الانظار الى نفسه مع وجود اولئك الجهابذة • واعلام الادب في دنيا العربية •

وسواء صح هذا ام لم يصح فاني اؤكد أنني كنت قد سمعت بإسم الشيخ عبدالحسين كاديب يوم كانت سماء الادب مزدانة بتلك الشموس ، ومضيئة بتلك الكواكب ، ولم تكن يوم ذاك مدارس منتظمة ذات صفوف مرتبة ، ولا شهادات ذات سمات معينة ، ولا امتحانات يتعين بواسطتها درجة الشخص وفضيلته • وكل ما كان هنالك ان كانت حياة عملية يشخص فيها المرء بجميع مواهبه معكوسا على العيون ، والقلوب ، والادمغة ، في شعره ، ونثره ، وتفكيره ، واتجاهاته ، فاذا بها لوحة مكشوفة لاتكاد تعرض عليها الصورة حتى يبين منها ما يعجب ومالايعجب ، وما يمكن ان يرسخ في الذهن او مالايمكن من الذي يذهب جفاء •

واللوحة هذه او المحك الذي تتميز به المواهب هو فيما تسنح من فرص احتفالات الاعراس ، والافراح ، واحتفالات المآتم ، والذكريات ، ومجالس التندر ، والدعابة ، وما تفيض به الرسائل التي يبعث بها الغائبون عن النجف الى المقيمين فيها ، فتنشأ من كل ذلك فكرة عن الشاعر ، والناثر ، والمتحدث ، لاتلبث ان تجول في اذهان خاصة حتى تعم اذهان العامة ، ويظل يتناقلها الجميع ثم تأتي الايام عليها بالشواهد المؤيدة ومن هنا تحصل الشهرة لمن يستحق الشهرة •

وكان الكثير من المتأدبين يحفظون الشيء الكثير من نوادر اعلام الادب ، وبنات افكارهم ، ويتحدثون بها متأدبين ومتندرين ، والدليل على شهرة الشيخ عبدالحسين الادبية في ذلك اليوم هو ماكان يتنقل قراء الادب من آثاره الادبية الى جانب ماكانوا يتناقلونه لكبار الاعلام • وأني لأذكر للان نادرة ادبية حفظتها له وانا في اول شبابي واول عهدي بمعرفة اسمه والتميز بينه وبين الشيخ حسين الحلي •

فقد روى عن احد اغنياء النجف الذي طالما كان يستخدم مواهب بعض الادباء بما كان ينفقه عليهم وما كان يقيمه لهم من ولائم ودعوات كسبا للشهرة • لقد روى

ان هذا الغنى الغبى عاد مرة من زيارة العتبات فدعا جمعا من الادباء بهذه المناسبة وكان من ضمن مدعويه : الشيخ عبدالحسين الحياوى . والسيد محمد حسين الكيشوان ، والشيخ عبدالحسين الحلى ، وغيرهم ، وهنالك نثر عليهم مجموعة من الخواتيم النفيسة التى جاء بها على سبيل الهدية والصوغة ودعا كل واحد لاختيار خاتمه بشرط ان يقول شيئا من الشعر بهذه المناسبة فكان ان تناول كل شخص خاتمه ، وقال شيئا ، اما الشيخ عبدالحسين الحلى فقد ختم المجلس ببيتين تناقلهما جميع الادباء والمتأدبين يوم ذاك لما فيهما من جمال التعريض والتورية فى مجال الدعابة وظل البيتان حديث القوم زمنا طويلا وهما :

القى الخواتيم لنا فانتثرت   حتى تنافسنا عليها معه

فلا تسل عنا فكل واحد   ادخل فى (خاتمه) أصبعه

كذلك كنت احفظ له بعض التشابيه الرائعة فى ذلك الدور البعيد وقبل ان اشب وادرك مما كان يجرى على السنة المعجبين ومن ذلك كان قوله واصفا :

اطلع لى قده وخده   فخلت غصنا عليه ورده

وهى تشابيه واوصاف توفر فيها كل ملكات الشاعر المبتكر المبدع فى ذلك اليوم ، فضلا عما يتصف به هذا الشعر من السلاسة والانسجام والعذوبة .

وحين تقدمت بى السن الفيت الشيخ عبدالحسين يتسنم عرشا آخر غير عرش الشعر والادب ، وان ملكاته فى التحقيق والبحث كانت موضع اعجاب الجميع ، بحيث لم يستطع اكبر العلماء والمؤلفين من معارفه الاستغناء عن القاء نظرة منه على مؤلفاتهم قبل دفعها للطبع ، سواء كانت هذه المؤلفات تخص علم الفقه او علم الاصول او تخص التاريخ الاسلامى او علم الرجال . او تخص اللغة وتاريخ الادب ، فكان الشيخ عبدالحسين موسوعة عجيبة ، ودائرة معارف غرف منها الكثير من العلماء .

وحين عثر على النسخة الخطية المشوهة من ديوان مهيار الديلمى لم يجدوا من يمكن الركون اليه فى اكمال مانقص منها وتصحيح ماوقع فيها من الغلط . ورد ما خرج منها عن القواعد الى حظيرته غير الشيخ عبدالحسين حين تم الاقدام على طبعها ببغداد .

ولقد نقل لى الشيخ محمد السماوى قال ان النسخة الخطية كانت من حيث رداءةالخط والتشويه بحيث كانت تتعذر على غير الشيخ عبدالحسين قراءتها وتصحيحها• وقال لى السماوى : وصادف وجودى فى الكاظمين فاستعان بى الشيخ عبدالحسين ذات ليلة على قراءة بعض فصول النسخة للاطمينان من صحتها قبل دفعها للطبع • ولقد اعتذرت عن المبيت معه فى الخان • لان الفصل كان شتاء • ولانى كنت شديد الاحساس بالبرد فلم تكن عينى لتغمض قبل التأكد من ان ثقل عدد اللحف التى تلقى على قد بات يقيد لى كل حركة من حركاتى « والحق ان الذين عرفوا السماوى يؤيدون مبلغ احتياطه وخوفه من البرد حتى ليظن ان ثقل ما عليه من الالبسة قد يتجاوز ثقل جسمه مرة ونصف مرة او اكثر وان الفرو الذى لايسقط عن كتفيه طوال الشتاء هو فرو مخصوص زاد وزنه على اثقل انواع الفراء ...!!» •

وقال السماوى : ولكن الشيخ عبدالحسين الحلى أكد لى بأن الخان الذى يدعوني للمبيت فيه معه ، يعمل فى جانب منه نداف قد لايقل عدد اللحف التى عنده عن عشرين لحافا ولم يزل بى حتى قنعت • ووالله لقد اراني من جلده • ومن سرعة خواطره • ومن استنباط ما شرد من ذهن المحققين العجائب وهو يراجع نسخة الديوان ويقلب رأيه فيه •

واقسم انى تجاوزت فى اعجابى به ـ يقول السماوى ـ حد الغبطة وقضينا ثلثى الليل ونحن نحقق ونصحح ، وحين نمت بدأ يلقى على من اللحف اثقلها حتى اشرت له من تحت اللحاف بالاكتفاء •

وعند الصبح ـ قال المرحوم السماوى ـ وعند الصبح • لم اجد من اللحف الا اللحاف الاول الذى كان يغطى جسمى مباشرة اما تلك الاثقال الملقاة على فلم تكن لحفا وانما كانت اجلالا للحمير ، وقد القى الشيخ عبدالحسين على منها ما استطاع ، ذلك لان الشخص الذى كان يعمل فى الخان لم يكن ندافا كما قال بل كان جلالا يخيط اجلال الحمير كما فهمت فى الصباح ...!!

* * *

واول تماس لى بالشيخ عبدالحسين الحلى كان فى سنة/١٩٢٩ وكنت اصدر

يومها جريدة الفجر الصادق • وكنت قد ازمعت النية على نشر ترجمة لرسالة كان الفها بالفارسية الزعيم الروحانى الميرزا حسين النائينى قبل ان يصبح مرجعا دينيا كبيرا ، وكان قد نقلها صالح الجعفرى الى العربية لتنشر تباعا فى الفجر الصادق وكان الجعفرى يومها من محررى الفجر الصادق • وكانت هذه الرسالة عنوانا للحضارة الاسلامية التى تنظر الى الامور - فيما يتعلق بثقافة المرأة والرجل ، وفيما يتعلق بالحرية والعمل ، وفيما يتعلق بالمسؤوليات - نظرة مستقيمة تدل على منتهى النضج والاعتدال مما يعبر عن رأى (النائينى) المصلح المدرك الذى يفهم مقتضيات المسلم المعاصر فهما صحيحا ولكنه حين بدأ يخطو الى الزعامة الدينية وجد ان هنالك مجالات واسعة سيستغلها خصومه لمهاجمته بسبب هذه الاراء التى تضمنتها رسالته ، والتى تتنافى دعوتها مع الزعامة الروحانية التى يؤيدها الرجعيون والجهلة تأييدا مجردا من كل تفكير حر مستقيم •

فسعى النائينى الى جمعها • وبذل على ماقيل يومذاك لشراء كل نسخة مالايقل عن ليرتين ذهبية • وهو مبلغ جد كبير كثمن لرسالة لم تزد صفحاتها على عشرات الصفحات • وهذا ما حفزنى على نشرها فى جريدتى والاشادة بها وتوجيه الناس الى مطاليبها ولكن هذه المحاولة قد حملت (النائينى) على بذل مجهود كبير للحيلولة دون نشرها • وكان من هذا المجهود قيام الشيخ عبد الحسين الحلى بالتوسط لسحب الرسالة من قلم التحرير وحمل الجريدة على العدول عن نشرها •

ولاول مرة اجلس الى الشيخ عبدالحسين فى مقبرة آل الحلاوى فى الصحن الشريف مدة ساعة اشرح له رأيى فى تخطئة هذه الاساليب ، وابسط له مذهبى فيما تخلف مجاملة العوام من قبل العلماء من الاثر السىء فى المجتمع ، وابدى له معارضتى وتصميمى على المضى فى ترجمة الرسالة ونشرها • وكم دهشت • وكم تعجبت حين رأيت هذا الرجل الذى بعثه (النائينى) ليقنعنى قد بدأ يؤيد رأيى • وينفخ فى من روحه • ويضرب لى المثل على ان هذا الدين لايقيمه الا الحق والا الصراحة وقال :-

لقد انتفع الاسلام من صراحة السيد جمال الدين الافغانى ، وجرأة الشيخ محمد عبده اضعاف ما يمكن ان ينتفع احد من مجاراة الرأى العام ، ومجاملة العوام ثم قوى فى عزمى وصار يقص على بعض الامثلة التى تزيد من قوة ارادتى ومضى فى عقيدتى وروى لى بعض الخواطر الادبية بلغة وبنبرات هادئة . وكلمات موزونة كأنه كان امام ند من انداده . لا تلميذ صغير من تلاميذه . ولقد كان هو هذا طوال ما رأيت ... كان مجموعة من تواضع . وموسوعة من علم وأدب وتأريخ . ولست ادرى ما الذى قال للنائينى وما الذى قاله له النائينى ولكن الامر سوى معى من طريق الشيخ جواد الجواهرى الذى ارغمنى على العدول عن نشر الرسالة ارغاما ... ليس هذا موضع شرحه .

وبعد زمن علمت بان الذى قال بأن الشيخ عبدالحسين كان من جماعة السيد كاظم اليزدى . وانه من خصوم دعاة الحرية (والمشروطة) لم يكن يعرف عن الشيخ عبدالحسين الا حضوره بحث السيد كاظم . اما اختلافه معه فى الرأى والعقيدة فلم يعرف احد عنه شيئا . ولا ادل على ذلك من ملازمة الشيخ عبدالحسين للشيخ عبدالله المامقانى مع انه كان يختلف واياه اختلافا كليا فى كثير من الامور ، ولكن هذه الملازمة لم تناف مع هذا الاختلاف الاساسى ...

وقوى اتصالى به . وكان لاحد ابناء عمى وهو الشيخ سعيد مأتم حسينى يقيمه فى كل سنة فى بيته مدة عشرة ايام يحضره عدد غير قليل من فضلاء النجف واعلامها . وحين يرفض عقد المجلس من كل ليلة يتأخر بضعة انفار من اولئك الفضلاء ويتحول مجلسهم الى مجلس ادبى خاص ، وكان الشيخ عبدالحسين من حضار هذا المجلس . وفى هذا المجلس عرفت للشيخ عبدالحسين اشياء كثيرة لم اعرفها من قبل . لقد قل من يدانيه فى ملكة ارجاع المسائل الى مصادرها . كما قل من يجاريه فى مناقشة التشريع من ناحية الفقه ، وفيما يحفظ ويستظهر من الشواهد العلمية والادبية . ويمتاز على العدد الكبير من تلك الحوزة بما كان يضفيه على المناقشة والاوصاف من جمال الاستعارات والجناس وحلاوة الصياغة . وأنى

لاذكره مرة وهو يناقش الشيخ جعفر البديرى فى مسألة فقهية استنبط لها الشيخ عبدالحسين من المفاهيم ما يغاير رأىّ (البديرى) مغايرة اساسية • وحين احتدم الجدل واحتدام الجدل عند الشيخ عبدالحسين حركة للجذع مستمرة بين الانحناء قليلا وبين الاعتدال ، ثم توجه نحو اليمين ، وتوجه نحو اليسار ، ثم بسط الكف على الارض • فاذا انتهت المناقشة بالظفر ، خمدت هذه الحركات رويدا رويدا ، وعاد الشيخ عبدالحسين الى وضعه الطبيعى • والا فلابد انه قائل شيئا ، وبهذا الشيئ اعتاد ان يختم المناقشة فلا ينبس بعدها بكلمة فى اصل الموضوع ، اقول وحين احتدم الجدل بينه وبين الشيخ جعفر البديرى ورأى انه غير قادر على ان يغير للبديرى رأيا قال له أسمعنى يا سيدى الشيخ :ـ

ـ ان فقهك عتيق • عتيق وكفى •

ولم يكن أحد يعرف ان من الفقه ماهو جديد وما هو عتيق ولكن الادباء من امثال الشيخ عبدالحسين كثيرا ما يوجدون مالم يوجد ، ومنذ ذلك اليوم صار الفقه جديدا وعتيقا ، وظل الفقه العتيق يرمز الى الافكار الجامدة التى تعجز عن تسخير الاذهان لاستنباط المعقول من الامور واصبح اصطلاحا عند الكثير •

ولم يبق من لم يعرف للشيخ عبدالحسين الحلى قيمته العلميـــة ومقـــامه الادبى الرفيع حتى البقال حين كان يقف عليه الشيخ ليشترى شيئا كان يطفح وجهه بالبشر لالشىء الا لان الشيخ عبدالحسين قد اشترى منه شيئا ، وحتى العوام كانوا يعرفونه من مشيته الرتيبة وهو قابع بعباءته فيسلمون عليه ويأخـذون يده بقصـد التقبيل على الرغم منه • وحتى الشباب والطامحون كانوا يفهمون بان لهم بين علماء الدين عالما اقل ما يقال عن علمه ان فقهه جديد على حد تعبير الشيخ عبدالحســـين نفسه • وانه لم يؤخره عن الزعامة الدينية الا عدم التزامه بما يلتزم به المرشحون للزعامة فكان لايمتنع ان يناقش الصغير والكبير • وان يعلن عن رأيه بدون توقف وحذر ، وان يدخل حلبة ليس له فيها من ند ونظير ، لانه لم يفكر يوما ما بالزعامة الروحية • ولو كان يفكر فيها لتجنب حتى نظم الشعر •

وكان من مفاخر اهل العلم والادب ان يذكروا انهم تتلمذوا على يد الشيخ عبدالحسين • او تتلمذوا على تلاميذه • وكان من مفاخرهم ان يذكروا بأنهم قرأوا شعرهم في مجلس كان من متصدريه الشيخ عبدالحسين الحلي • وان قصائدهم قد حظيت منه بالاستعادة • بل كان اكثر من هذا •••• فقد طالما كان حكما بين جهتين في مسألة فقهية • أو مسألة أدبية • او قضية تاريخية ذات علاقة بالفلسفة الروحية او التحقيق الادبي • وكان اكثر من هذا كله ايضا ••• لقد كان حكمه الفصل فيما يعرض عليه فلم يستأنف حكمه مستأنف • ولم يميزه مميز •

اجل انه لم يبق من يجهل مقام الشيخ عبدالحسين العلمي والادبي من كبير أو صغير عالم او جاهل • اما الجهة التي ران عليها الجهل • وعشى عنها الغباء فجهلت حق الشيخ عبدالحسين فهي جهة الحكومة فقط •

لقد كان لي قريب شاب عرف بشدة الكسل بين اقرانه حتى لقد كان يتثاقل والله ان يتناول اللقمة من الخوان ويدنيها من فمه ••!! وهو نفسه يدرك هذه الاحوال وكثيرا ما تحدث قائلا : لا احسبني لشدة كسلي قادرا على ن اقوم بادنى خدمة لاقرب شخص مني اذا ترك الامر لي وحدي ، وقد قال لي قريبي الكسول هذا يوم تم تعيينه موظفا في الحكومة ، لقد قال لي وهو يضحك مازحا :

ـ لم اكن اعرف مدى غباوة الحكومة ، وبلادتها ، وعدم ادراكها ، الا يوم قبلت تعييني موظفا في ملاكها •

اما انا فلم اعرف مدى غباوة الحكومة وبلادتها الا يوم قررت ان تجري للشيخ عبدالحسين الحلي امتحانا لكي تعينه قاضيا شرعيا في محاكمها ، ولم اعرف مبلغ جناية الحكومة على الحق والعدل والقضاء الا يوم اعلنت الحكومة ان الشيخ عبدالحسين الحلي لم يجتز الامتحان بالنجاح المطلوب ••!!

ولست ادري ايجوز ان يجري احد امتحانا لاديسون في الكهرباء ؟ ولمدام كوري في طبيعة الراديوم ؟ ولماركوني في الراديو ؟ فاذا جاز هذا جاز لاحدنا ان يعطي لنفسه حق اجراء امتحان للشيخ عبدالحسين في الفقه وفي القضاء الشرعي •• ومالنا وهذا ؟ وانما اريد ان اذكر بان الشيخ عبدالحسين قد ساءت احواله المادية

كنتيجة لعدم رضوخه للتقاليد ، ونتيجة لعدم مجاراته المحيط الذى كان يفرض عليه فروضا غير ملائمة لجبلته وحيويته ، وزادت الايام فى سوئها حتى اضطر لبيع مسكنه ، وحتى تنازل عن كتبه ، وكانت له بال الشبيبى - وبالمرحوم الشيخ جواد الشبيبى خاصة - صلة قوية نسجها الادب الرفيع الذى يتحلى به الشيخ عبدالحسين ويتحلى به بيت الشبيبى . فرأى آل الشبيبى ان يعرضوا عليه القضاء الشرعى ... واشهد انه على رغم حاجته الشديدة يومها للمال وعلى رغم فقد انه كل رجاء فى تحسن وضعه المالى فقد امتنع عن اجابة الطلب ، وكان له الحق ان يمتنع . ذلك لان القضاء الشرعى العراقى فى دور الاستقلال لم يكن قد شهد من قبل ولن يشهد من بعد ندا للشيخ عبدالحسين ، ولان نزول الشيخ الحلى على نظام (الروتين) الحكومى وقبوله دخول الامتحان كان لايخلو من منقصة لامثاله ، ولكن آل الشبيبى أصروا . وما زالوا به حتى استقدموه من النجف الى بغداد ، وحتى ارغموه على دخول الامتحان الشكلى ، وتم كل شىء ، وظهرت النتيجة بانه لم يستطع اجتياز الامتحان بالنجاح المطلوب ..!! وكثر يومذاك الحديث عن السبب الذى آل اليه الامر على تلك الصورة ، وكان الشيخ على الشرقى حينذاك رئيسا لمجلس التميز الشرعى . والشائع المعروف انه كان كل شىء فى هذا الامتحان ، وكانت بين آل الشبيبى وبين الشيخ على الشرقى جفوة طال امدها ولم تزل حتى اليوم فاتهم انصار الشبيبى الشيخ على الشرقى بما آل اليه الشيخ الحلى ، ودافع الشيخ على الشرقى بكونه تلميذا من تلاميذ الشيخ عبدالحسين ، وانه درس عليه شطرا غير قليل من حياته المدرسية فليس من المعقول ان يوقع بالشيخ عبدالحسين من اجل خصومته لآل الشبيبى . وكثر يومها اللغط والحديث وصار الناس صفين متعارضين بين متهم ، وبين مدافع ، فما رأيت والله ايمانا فى تلك الازمة والنفس فى اشد انفعالها لما وقع ، يحاكى ايمان الشيخ عبدالحسين الحلى ، ولا نفسا اكثر هدوا فى تلك العاصفة ولا صدرا اوسع حلما . من نفسه ومن صدره . وقد تلقى تلك الصدمة بصبر ما مثله صبر . وبحلم عز نظيره فى مثل هذه المعامع بينما ظلت قضيته تدوى فى اندية النجف طويلا .

ومثل هذا الموقف النابى ، المخجل من الحكومة كان موقف النجف واكثر . تلك المدينة التى نهلت من فيض الشيخ عبدالحسين نحو خمسين سـنة كأستاذ لمعاهدها وكركن من اركان أدبها الرفيع وكعميد من عمداء الفقه والبحث والتحقيق . تلك المدينة التى تساوى العالم والجاهل . والكبير والصغير فى معـرفة الشيخ عبدالحسين بحقيقته . لا ادرى كيف رضيت لنفسها ان تراه يغادرها الى البحرين بصفة رئيس للتميز الشرعى دون ان تحـرك النجف ساكنا ؟ وهى تعـلم ـ اى النجف ـ ان الشيخ عبدالحسين قد افنى زهرة عمره فى سبيل عزتها العلميـة . وشهرتها الادبية . وهو عمر لو قضى الشيخ عبدالحسين بعضه ـ والبعض اليسير منه ـ فى مصلحة خاصة لبنى لنفسه ما بنى . وعمر ما عمر . وكانت التبعة تقع فى الدرجة الاولى على الزعماء الروحانيين . وكان بوسع هؤلاء الزعماء وحـدهم ان يحولوا بين الشيخ وبين السفر من اجل العيش ، وكان المسؤول الاكبر فى ذلك السيد ابو الحسن الزعيم الروحانى الكبير .

وانى لاذهب الى ان موقف اهل بغداد مع عبدالوهاب المالـكى فى القـرن الرابع الذى حمله ضيق ذات اليد على السفر الى مصر ، والذى اجتمع حـوله العلماء والفضلاء ليحولوا بينه وبين الهجرة فقال انه لو وجد من يدفع له كيلا مـن الباقلاء فى اليوم لعدل عن الهجرة . فبكى الجميع ولكن لم يظهر احد اسـتعداده لسد هذه الخلة ، اقول اننى لاذهب الى القول بان موقف بغداد فى القرن الرابع مع عبدالوهاب ـ على نبوه ـ كان ألطف بكثير من موقف النجف مع الشيخ عبدالحسين فى القرن العشرين .

وكانت لى بآل الشبيبى صلة وثيقة ، وكان لهذه الصلة الفضل فى توثيق اتصالى بالشيخ عبدالحسين بل ليمكن اعتبار هذه الصداقة منى للحلى مدينة لتلك الصلة بال الشبيبى اكثر من غيرها اذ هى التى زادت علاقتى وثوقا بالشيخ الحـلى حتى تحولت الى صداقة متينة نشطت منذ اول يوم وصوله الى البحرين . وقد ظفر الادب الرفيع منها بخير مجهوده من الشعر والنثر . اما الشعر فقد ضمت جريدة (الهاتف) منه اغلبه ان لم يكن كله . واما النثر فانى محتفـظ لـه باضبـارة من اروع

الرسائل وابلغها وقد حكى الكثير منها ادق الاحاسيس وكشف عن اتجاهات ليس بامكان احد ان يكشفها مالم يكن من الموهوبين ، واعتقد ان دراسة هذا الشعر والنثر والتصدى لعرض حياة الشيخ عبدالحسين الادبية قد تكون ذات فائدة كبيرة فى دنيا الاداب الحية ، اما هو فأنه لم يجن من علمه وأدبه الرفيع شيئا وهو حى ، أفيمكن ان يجنى منه شيئا وهو ميت ؟

اقول لقد توثقت هذه الصداقة بينى وبينه حتى كتب لى مرة من البحرين يقول :

(... وانى آمل ان لا ابقى خائبا دائما من رسائلكم الخاصة التى تبهج نفسى وتزيدها نشاطا . وبالله اقسم وما علىّ يمين : ان عمدة ما استفيده من الهاتف هو تجدد ذكرى صاحبه آنا فآنا ، ثم تغذية الروح بما يجرى به ذلك اليراع السيال من محرره لما فيه من أدب جم . وفن نافع .. واخلاق جميلة ...) .

وراح يغمرنى بعواطفه ويبعث فى (الهاتف) من روحه الادبية ما يقصر القلم عن وصف اثره فى رفع مستوى هذه الصحيفة ، وصارت لاتمر مناسبة دون ان يستغلها ليفيض بأدبه على الهاتف وصاحبه فيضا لايعرف قدره ، ولا يدرك مداه إلا الادباء والا الذين نهلوا من معين (الهاتف) وصاروا شعراء وكتابا عن طريقه ، وما معين (الهاتف) الا عدد من نوابغ الشعراء والكتاب المجلين وكان الشيخ عبدالحسين الحلى فى طليعتهم ، فهذا هو يبعث للهاتف بقصيدة من البحرين ضمن رسالة خاصة ويعنونها بكلمة (الود) مهنيا ، بمناسبة عيد رمضان من سنة ١٣٦١ ، ويقول فيها :

حى اوطانى اذا سعدت	بالتحايا الغر اوطان
واصيحابا عهدتهم	وهم فى الله اخوان
لهم فى كل مكرمة	اثر بالفضل ملآن
كيف يخفى فضلهم وله	بينهم من لطفه شأن
(يا خليلى) انت لى وكفى	بك عمن لى قد كانوا
انت فى مرآك منشرح	لى ومن ذكراك سلوان

لك ودي لا ارتياب به ما وراء الحس برهان
اعرب (الراعي) (لهاتفه)[1] عن مزايا بك تزدان
ومعان للكمال غدت هي روح وهو جثمان
انما (الراعي وهاتفه) لشتات الفضل ديوان
وهما سفر فان فكهت نفس من يهوى فبستان
لك يولي العيد بهجته وهي الطاف واحسان
فاستق الاقداح فيه اذا صح ان اليوم نشوان
وخذ الافراح منه وما هو الا بك جذلان
واستمعها من فمي نغما للتهاني هي الحان
لك اهديها محبرة وعليها (الود) عنوان
كعقود الدر فصلها بديع الصنع مرجان
كل عقد لاتوازنه دلة تهدى وفنجان

وهو يريد بالدلة والفنجان هنا تلك الدلة التي اهداها لي السيد مير علي والفنجان الذي اهداه لي الشيخ جواد فسام في أبيات من الشعر حملت عددا من ائمة الشعر حينذاك على مباراتها ومجاراتها حتى كان من تلك المباراة والمجاراة قلادة ازدان بها جيد الشعر ، وكانت قصيدة الشيخ الحلي عين القلادة [2].

وزادت افضاله الادبية حتى راح يقرظ اذن (الهاتف) بما يرينا من العقود التي حوى (الهاتف) الشيء الكثير منها مما يصلح ان يكون نواة دراسة ادبية عميقة لائمة الشعر والادب في النجف ، ولابد للقارىء ان يلمس حتى في المناسبات الخاصة ، مزاجه واتجاهاته ، ومنحى تفكيره ، فهو حين يقرض كتاب (في قرى الجن) مثلا وهو احد مؤلفاتي القديمة فانما يقرضه بما يستوحى منه وما يحب ان

---

(١) الراعي ، والهاتف ، الجريدتان اللتان اصدرتهما انا في النجف ، ثم انتقلت الهاتف بعد ذلك الى بغداد .

(٢) يجد القارىء بعض الامثلة من قصيدة الدلة في غرض لايام السيد مير علي والشيخ محمد حسن حيدر من هذا الكتاب . المؤلف

يكون له من الاثر فى نفسه ، وما قد يستنبط منه من القواعد ، كقوله من أصل قصيدة بهذا المعنى :ـ

بنى المنهدم الجن ورحنا نهدم المبنى
تنقلنا مع الايام من وهن الى وهن
واخلدنا الى الارض ولكن بغية الدفن
غنينا نحن بالراحة والراحة لا تغنى
وما الراحة للانسان الا العمل المضنى

واشهد انه راح ضحية تفانيه فى خدمة العلم والدين والادب • وكان صاحب رسالة ادبية لاتحسب انه قد خلق لشيئى غيرها ، وانه ليهيجه الموضوع الادبى الخلقى اكثر مما يهيجه اى شيئى فى الدنيا حتى وان كان ذا مساس بحياته المادية

وقد كان يسكن بالقرب من بيته شخص يبيع الخضروات ما رآه مرة فى الطريق الاوخف اليه واخذ يده وطبع عليها قبله حارة وقال :

«عمى الشيخ عبدالحسين يمته تصلى حتى نصلى وراك؟» فاجابه الشيخ ذات يوم «انت ابدى" وانا اصلى وراك» فقفز (الخضرواتى) كالمدفع وهو يستغفر قائلا :

ـ استغفر الله يا شيخنا استغفر الله •••

وهذا الجواب وحده من الشيخ (انت ابدى وانا اصلى وراك) يدلك كم هو راغب عن الجاه والزعامة ، وعازف عن الشهرة وجازم منذ اليوم الاول على عدم ترشيح نفسه للزعامة الروحية حتى ليرضى بان يأتم ببائع المخضرات فى سبيل ان يترك لشأنه • ويعيش غير مقيد •••!!

ولقد كان للهاتف يوم باسم (يوم الهاتف الادبى) وهو يوم الاثنين من كل اسبوع وقد جرت العادة ان يجتمع الادباء فى هذا اليوم بمكتب الهاتف ويبدأ احدهم بتسجيل ما يتداولون فيه من احاديث ونقاش فينشر ذلك فى الهاتف تباعا ، ثم حدثت هنالك امور تعطل بسببها هذا اليوم وسحبت من الجريدة اخباره ووقائعه ، ولقد كان لتعطيل هذا اليوم صدى فى نفوس بعض الادباء ، ولكنه كان فى نفس الشيخ عبدالحسين عاصفة • وعاصفة هو جاء اكتسحت كل شيئى امامها وقد ظهر

اثرها فى قطعة نثرية رائعة وقصيدة شعرية اروع منها ، بعثها من البحرين جاء فيها :

فقدت سبعين عاما لم تزد كربى	لها كفقدى(ليوم الهاتف) الادبى
قد كان لى سلوة عما اكابده	ـ اعاذك الله ـ من هم ومن وصب
قالوا أتبدل عاما من سواه ولا	والله مالى بذاك العام من ارب
سئمتها صحفا ليست مطهرة	ولا بأيدى كرام سادة نجب
ما كنت انفقت فى يوم بها ذهبا	فكيف اتلف فيها وقتى الذهبى
ولم تكن راحتى يوما بها وكفى	ان لايكون بها فى ساعة تعبى

وكل القصيدة على هذا النمط وهى دليل على ما كان يعطى الادب من أهمية . وما كان يريد ان يكون الادب وتكون الصحف عليه من جلال وكمال ومنفعة . وكان برا بالنجف . وكان متفانيا فى حبها ، وكان يرى ان السعادة تحل بين تلك الاجواء الادبية التى تحكيها مجالسها . فمن هناك . فمن البحرين كان يكتب لى سائلا عن كل جزئية وكلية حتى عن (پاچه) الشيخ محمد چيوان والمشاركين فيها والتى عقد الهاتف عنها فصلا وعلق عليها البعض تعليقات ادبية فكهية فى حينها ، وكان يتعقب ندوة (الصفوة) التى كان يترأسها السيد على بحر العلوم ، والتى اعتادت ان تجتمع فى كل يوم اربعاء ببيت السيد مير على أبى طبيخ وتتحول هنالك الى ندوة علمية لغوية ادبية . فكان يكتب لى سائلا عنها ، مستفهما عما يدور فيها من نقاش ادبى ، ومن طرائف شعرية ، وكان يتعقب حركة (جمعية منتدى النشر) خطوة فخطوة وان له الفضل الكبير على النجف ـ فى خلق المناسبات الادبية . وانعاشها بعد ان طرأ على أدب النجف شيئ غير قليل من الخمول ، والفتور والركود بسبب انتقال طائفة من رجالات ادبها عنها . كآل الشبيبى . والشيخ على الشرقى . واحمد الصافى ومهدى الجواهرى واحست النجف على أثر مغادرة الشيخ عبدالحسين الى البحرين بالفراغ الكبير ، وبالخلة التى خلفها فى جميع النفوس ، وظلت ذكراه ملء القلوب ، وراحت الايدى تتخاطف كل عدد من اعداد الهاتف الذى يحوى شيئا عن خواطره .

وعند قيامه بالزيارة الاولى للعراق قادما من البحرين استحالت النجف كلها

الى مهرجانات أدبية حتى ضاقت اوقاته بالدعوات الكثيرة . وامتلاء بيته بكبار العلماء ورجالات الادب ، واسمعته النجف قصائد فاضت بالحب والاخلاص والتجلة لمقامه العلمي . واحتفت به احتفاء قل نظيره ، وقد طال بطول ايامه التي قضاها هنا .

وحين رجع الى البحرين لقي في الطريق شيئا غير قليل من عدم الراحة وحين وصوله الى البحرين مرض مرضا شديدا وقد كتب لي على أثر ذلك يقول :ـ

«... واشد من كل مالاقيت اذية هي الوحشة التي لازمتني في البحرين ، فليتني لا رأيت العراق من قبله . اوليتني لم اجد فيه نعيما مما يلذ من موجودات العراق ...»

وبادلته النجف عين هذا الشعور فقد أحست بوحشة اكبر . وبألم أمض . وتمنى كل واحد لوان الشيخ عبدالحسين لم يقدم النجف . ولم يجدد عهده بها . وطفح الشعوران شعوره وشعور النجف على الكثير من صفحات الهاتف .

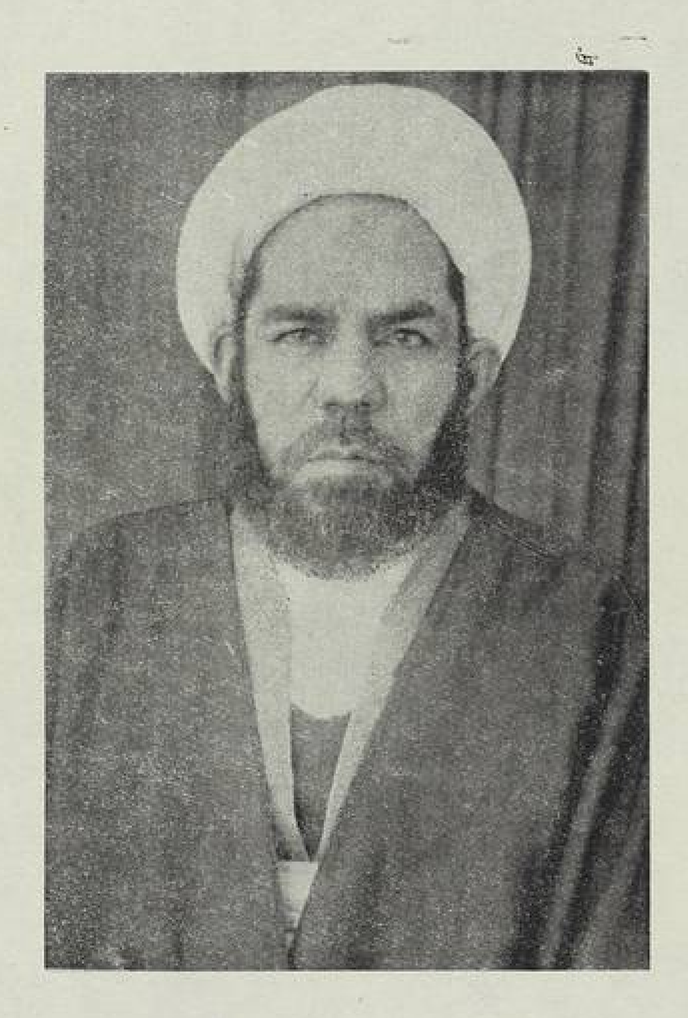
وساءت صحته . واعتل جسمه . اما الذي لم يسؤ ولم يعتل فهو شعوره ، واحساسه ، وقلمه ، وقد ظل تفكيره خصبا يفيض بالحيوية . لقد ظل كما وصفه هو من قصيدة عامرة بقوله :

تطلعت من المربأ	الى العود الى المبدأ
وسرحت به طرفا	حديد الطرف لايخسا
وفكرا لم يزل يخطو	ولكن قلما يخطأ
حديدا لم يكن ينبو	اذا شم ولم يصدأ

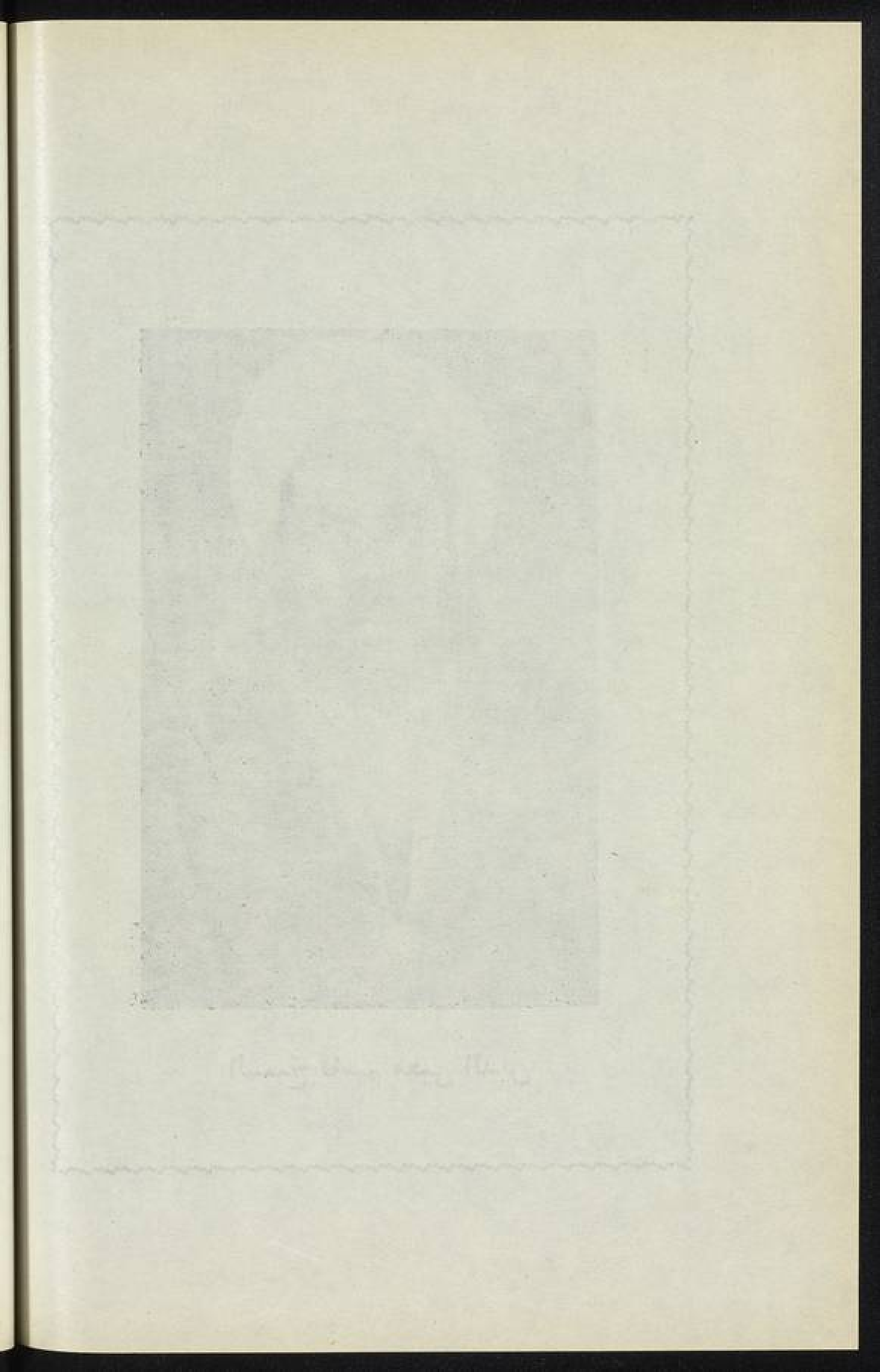
وحدث بيني وبينه ما يشبه الجفاء وليس هذا مورد ذكره ـ فانقطعت مكاتيبي عنه . وانقطعت مكاتيبه عني . ولكن ذلك لم يمنعه من ان يقصدني ببغداد قصدا ـ وكان قد جاء من البحرين ليقضي اياما في النجف ـ فغمرني بلطفه ، وشملني بعطفه وطواني بحلمه . ورأيت في هذه المرة شبح الموت ماثلا في ضعفه وهزاله . وهالني ان أراه في هذا الضعف . وفي هذا الهزال وقد اهدى لي آخر صورة له وقال انها الصورة المفضلة عنده لانها تحكيه وهو في شتاء العمر ...!!

ولم يكتب لى بعد ذلك ان أراه • وكانت الهاتف قد تعطلت عن الصـــدور • فحرمت • وحرم القراء • وحرمت النجف فى فترة هـذا التعطيل من التمتع بذلك الادب الساحر • والعلم الزاخر • والمثل الاعلى للخلق الرضى والقلب الطاهر •

وكانت وحشة اخرى شعرت بها النجف تفوق ما سبق لها من شعورها بغيبة الشيخ عبدالحسين • ذلك لأن هذه الوحشة لن يزيلها من الذهـــن مزيل مادام الشيخ عبدالحسين قد مات فى البحرين !! • وبموته انطوت صفحة من المع صفحات العلم والادب فى هذه المدينة المقدسة فوالهفتى على تلك الذكريات الحبيبة •



الشيخ قاسم محيي الدين



الشيخ قاسم محى الدين [1]

تعود بى الذكرى الى ايام الطفولة وانا صبى العب مع الصبيان فى آخر الشارع او فيما يلى آخر الشارع من محلة العمارة فى النجف ،وفى هذا الشارع كان يقوم بيتنا كما يقوم بيت الشيخ امان محى الدين (والد الدكتور عبدالرزاق محى الدين) • وكنت ارى بين مرتادى هذا البيت شابا يلبس (اليشماغ) ومن فوقه عقال احمر داكن • ولا يستلفت النظر لولا مشية خاصة يخيل الى الرائى انه يجر قدميه فيها جرا • ويميل فيها نحو اليمين ونحو الشمال اذا ما اسرع فى خطواته ، ولولا انف كبير كان اكثر بروزا من عقاله الذى كان ينفرد بلونه الاحمر الداكن بين مئات « العقل » فى ذلك اليوم • ثم رأيته بعد ذلك غير مرة عند اخى فى مدرسة اسرتنا آل الخليلى ، ثم عند اخى فى بيتنا ، فعرفت انه الشيخ جاسم محى الدين • وانه يسكن فى الطرف الاخر من محلة (العمارة) وبالقرب من (السور) ، وانه ابن اخت الشيخ امان محى الدين ، وانه يقوم بزيارة خاله بين آونة وأخرى لمحض الزيارة أو لارتياد مجلسه ، والتمتع بما يدور فيه من الاحاديث الادبية والعلمية ، فقد كان لخاله الشيخ امان ديوان تحضره طبقة من أهل الفضل والادب ، ويمتد بعض الاحيان الى منتصف الليل ، ثم تزوج الشيخ جاسم ابنة خاله وما زلت اذكر خروج العروس الى بيته ، واذكر صفا من طلاب العلم الذين قاموا بالزفاف وقد لحنوا التسبيح تلحينا راقصا جميلا يهز السامعين • فكان البعض منهم ينشد وهو فى حال اشبه بالرقص أو الدبكة صارخا بنغمة حلوة خاصة :ـ الله • الله •

---

(١) جريدة اليقظة ـ ١٩٥٦/١١/٣٠ •

فيجيب الاخرون بتلك النغمة وعلى رويتها ولحنها :ـ سبحان الله .

وقد ظللت مدة طويلة وانا اردد هذه الاهزوجة الجميلة بلحنها ، ونغمتها ، كلما ركضت ، او صعدت السلم ، او هبطت منه ، وقد صار تردد الشيخ جاسم على بيت خاله بحكم هذه المصاهرة اكثر واكثر .

ولم ادر كم مضى حينما بدأ اسم الشيخ جاسم يتردد على المسامع ، ولكني الفيت ان صورة ذلك الشاب ـ المعقل ـ المتردد على ذلك النحو الى بيت خاله بدأت تغيب عن الذهن ، وتحل محلها صورة لشخص فى عمة بيضاء ، وجبة نقية ، وعباءة خفيفة تدل على شيء من الاناقة النسبية ، وانه كان يجلس للدرس ويتحلق حوله عدد من الطلاب الذين يدرسون المقدمات ، والادب العربى ، وبعض الفنون التى اختص بها الشيخ جاسم ، وانفرد من دون انداده واترابه من طلاب العلوم العربية والدينية بتدريسها حتى اشتهر بذلك . وحتى تكاثر عدد طلابه الذين بدأوا يدرسون عليه المقدمات والعروض منها بصورة خاصة ، ولم يتفق الا للقليل ـ من شباب ذلك اليوم الذين شقوا طريقهم فيما بعد وكان لهم شأن فى الفقه ، وفى الشعر ، والادب ـ من لم يأخذ بالنصيب الوافى او القليل من الدرس على يدى الشيخ جاسم محى الدين فى النجف ، ومن اشهر هؤلاء كان الشيخ محمد كاظم الشيخ راضى ، والشيخ محمد رضا المظفر ، ومحمد مهدى الجواهرى ، وسلمان الصفوانى والدكتور عبدالرزاق محى الدين ، وصالح الجعفرى .

وكان الشيخ جاسم وحيد امه ، ولم يكن لها غيره ، فعنيت به كثيرا ، وفتحت له بيتها ليتخذ منه ديوانا على غرار ديوان خاله ، ومجلسا يسمر فيه طلاب العلم والادب من امثاله . فكان يقضى اوقات الفراغ فى بيته لاهيا بقرض الشعر والمساجلة فى النظم . ومزاولة التقفية ـ وهى نوع من انواع التسلية الادبية المعروفة فى النجف اذ ينشد المنشد بيتا من القصيدة ، وحين يصل الى نهاية البيت يقف منتظرا نطق الاخرين بالقافية التى يكونون قد عرفوها بالقرينة والسياق وقلما كانوا يخطئون فى التقفية (١) .

(١) لقد جاء وصف التقفية فى مواضع اخرى من هذا الكتاب وصفا كاملا .

واشتهر مجلس الشيخ جاسم محيي الدين بمثل هذا اللون من الادب والتسلية، وبدأ يؤمّه الكثير من انداد الشيخ ، وزملائه ، وتلاميذه ، وصار للشيخ جاسم بعض الشأن عند اهل العلم وارباب المجالس . فلقد كان جريئا ، وكان فصيحا ، واذا اجتمعت الجرأة والفصاحة عملتا الاعاجيب . وكان الى جانب ذلك يستظهر الكثير من الطرائف العلمية والنوادر الادبية وكان يبحث عنها في الزوايا والخبايا ويفتش عنها في جميع المظان ليستشهد بها في اماكنها ، ويأتي بالجانب الساحر منها عندما تجيء المناسبة ، وقد دفعت به هذه الرغبة الى ان يحفظ طائفة كبيرة من الامثال ، والنصوص ، والاقوال ، وطائفة كبيرة من شعر القريض والشعر العامي حتى كان اشبه بخزانة نفيسة من الطرائف والبدائع الادبية .

والى جانب ذلك كان يحفظ الشيء الكثير من صور المشاكل ، والمسائل الفقهية العويصة ، وطرق حلها عند البعض دون البعض ، ويحفظ تاريخ الكثير من القضايا التي اهملها التاريخ ، كما كان يروي عددا من القصص الممتعة التي كان ينفرد بنقلها وكيفية حبكها ، واذا اضفنا الى ذلك سخاءه وكرم نفسه وحبه للناس ادركنا سبب تجمهر الادباء والمتأدبين حوله وكثرة عدد طلابه الذين كان يسخرهم لكثير من الاغراض فيلبون اوامره بطيبة خاطر ، ولما كانت حالته المادية يومها حالة ضيقة ، ضنكة ، بحيث لم يكن من السعة ليستطيع استخدام احد للقيام بشؤونه كان يعهد الى طلابه بان يستنسخوا له بعض الكتب ، ويفرشوا له مجلسه ، ويجلدوا كتبه ، وقد ظل يستخدم طلابه هؤلاء لمختلف الاغراض حتى بعد اجتيازهم مراحل التلمذة ، وحتى بعد بلوغهم مراحل الاجتهاد ، وذلك لما عرف به من قوة الشخصية ، وما كان يتبع من اساليب تحملك شئت ام ابيت على تنفيذ الكثير من اوامره .

وكان صالح الجعفري ، والدكتور عبدالرزاق محيي الدين يلقيان من العناء والمشقة اكثر مما يلقاه الاخرون ، فيما كانا يقومان به من ملء الجرار بالماء ، ومن فرش ديوانه ، ومن وقوفهما في خدمته الخاصة والعامة .

وقد تعرضت جريدة الهاتف ذات مرة الى هذين الاديبين في سياق

محاكمات أدبية كانت تعقدها جريدة الهاتف بين آونة وأخرى على لسان الادباء فكانت تقيم الدعوى على صفحاتها من قبل البعض ضد البعض ، وقد فرضت الجريدة اقامة الدعوى مرة من جانب (الجعفرى) وزميله عبدالرزاق محيى الدين على الشيخ جاسم ، ووجهت الدعوى توجيها ادبيا فكهيا ثم اوقفتهما مرة كمدعين ، ومدعى عليهما مرة اخرى ، وقد ظلت تلك المحاكمات موضع تندر الكثير من القراء .

وطالما ابدى الشيخ قاسم اسفه ـ وذلك على سبيل الدعابة طبعا ـ لقد كان يبدى اسفه لانى لم اكن من ضمن طلابه الذين قرأوا دروس العربية عليه قائلا :ـ

ـ ان الانتساب له ، وتلقى الدروس عليه ليعد مفخرة للطالب ، وان الذين لم يكتب لهم ان يأخذوا العلم منه لم يكتب لهم التوفيق .! (انه كان يقول ذلك مازحا) وقد قال لى ذات يوم :ـ

ـ ليس عليك من بأس اذا لم تتلق علومك العربية على ، ولكن هل هنالك بأس لو عرفتنى بأستاذك الذى درست عليه العلوم العربية ؟

قلت له ـ انه الاستاذ عبدالمنعم العكام ، فضحك الشيخ جاسم وقال :ـ الم اقل لك ان من الخير لو كنت تجيب حين تسأل : بأنك قد درست على ؟

قلت ـ وما الضائر فى قولى الحقيقة بانى قد درست على الشيخ عبدالمنعم العكام ؟

قال ـ ان استاذك هذا كان من ابلد تلامذتى ، ولكنك استنكفت ان تتصل بى مباشرة وتقول بأنك درست على بينما لم تستنكف ان تتصل بى من طريقه ..!!

ولم يمر بعض زمن حتى لمع نجم الشيخ جاسم ، وكان له فى قصبة (القاسم) من لواء الحلة محبون زادوا على مرور الزمن خصوصا بعد ان اصطبغ الشيخ جاسم بصبغة العالمية و (الوكالة) ، وبعد ان ايدته المراجع الدينية فكان عالما تلزمه ظروفه بقضاء بعض الوقت من كل سنة فى تلك النواحى من قصبة القاسم ، واصبح بعد ذلك يدعى بالشيخ قاسم .

وفى قصبة (القاسم) مدفن الولى (القاسم) سليل الائمة الاطهار ، وقد قعد الشيخ قاسم للناس هناك كما يقعد فى النجف وعمر مجلسه بالزائرين وبالضيوف الذين

كانوا يفدون الى ضريح (القاسم) للاستتابة بزيارته فينزلون فى ضيافة الشيخ قاسم، وجل ضيوفه هناك كانوا من فضلاء النجف وادبائها ، وقد قضى الخطيب السيد صالح الحلى وعدد من تلامذته فى بيت الشيخ قاسم فى قصبة (القاسم) اياما وصلت اخبار نكتهم الادبية وقصصهم الى اقصى مدن الفرات ، وللان وأهل القاسم يذكرون تلك الايام التى قضاها السيد صالح فى ضيافة الشيخ قاسم وما طعموا به الادب من ملح ولطائف •

وقد قصد مرة السيد احمد الموسوى الهندى زيارة الامام الحسين ، ومن هناك عرج على زيارة (القاسم) ونزل فى ضيافة الشيخ قاسم ، ثم اتم رحلته بزيارة الكاظمين، وعاد الى النجف وكتب للشيخ قاسم محيى الدين شاكرا له حسن ضيافته وموجها له هذين البيتين :ـ

الهى لك الحمد اذ قد قضيت — لى الفوز مكتملا (بالحسين)
ويسرت لى شرف الانتقال — من (القاسمين) الى (الكاظمين)

* * *

وكثير هى المناسبات التى بعثها وجود الشيخ قاسم فى النجف ، وفى (القاسم) لقرض الشعر والمساجلات الادبية •

وحين يبلغ الشيوخ من رجال الدين مرحلة العالمية يتغير الشىء الكثير من اخلاقهم وسيرتهم ، فاللحية يجب ان تطول اكثر ، والعمة يجب ان تكبر اكثر ، والضحكة يجب ان تتقلص وتتجمع فلا تزيد على ابتسامة خفيفة ، اما الكلام فيجب ان يقل او يقتصر اكثره على الحمدله والحوقلة والاستغفار ••• واما المشية فيجب ان تكون موزونة ، رتيبة ، ثقيلة ، ولكن الشيخ قاسم وقد وصل مرحلة (الوكالة) قلما التزم بكل هذا او باكثره ، فكان كثير الدعابة والمزاح ، بشوش الوجه دمثا ، حتى ليشق عليك ان تفارق مجلسه ، او ان تطول غيبته عنك ، او غيبتك عنه ، بمقدار ما يشق عليك الجلوس عند امثاله ممن تهيئوا للزعامة الدينية ، أو ممن كانوا وكلاء للزعماء أو أقل من الوكلاء • وانى لاعرف رئيسا روحانيا انقادت له الامور حتى كان من أكبر المراجع الدينية ان لم يكن اكبرها ، ولم اعرف انه قد اتفق لهذا الروحانى

ان ضحك أو ابتسم ، وقد وضعت على لسانه روايات اذا لم تصح فهى تلائم وضعه كل الملائمة ، فلقد قيل عنه انه سأله السائلون مرة :

ـ هل اتفق لكم يا مولانا مرة أن ضحكم ٠٠٠؟

ـ فأجاب على ما يزعم الرواة ـ لقد اجاب قائلا :ـ

ـ ولم لا ٠٠؟ فقد يتفق ذلك بعض الاحيان ٠٠٠؟!

اما مشية الشيخ قاسم فهى كما كنت رأيتها وانا طفل صغير هى ٠ هى ٠٠ لم تزد ولم تنقص ، فهو يخط الارض بقدميه ، ويمشى فى بعض هزة نحو اليمين ، وفى بعض هزة نحو الشمال ـ وهذا فى النهار طبعا ـ لان الشيخ قاسم كان اعشى لايخرج فى الليل اذا ما استثنينا أيام شبابه ٠ وقد قيل عنه انه رأى سوادة ذات ليلة فسلم عليها ، ولكنه ظهر بعد ذلك ان تلك السوادة كانت حمارا ٠٠ وقيل انه كان يستغل عشاوته فيمضى فى دعابته ومزاحه لحد بعيد ، فهو حين يرى الشيخ كاظم السودانى مثلا ، يتظاهر بانه لم يعرفه ويروح محدقا اليه وسائلا :ـ أأسطه بعرور هذا ؟

وأسطه بعرور عامل بناء ، خلق منه الشيخ قاسم شخصية فكهة مضحكة ، وكان للشيخ قاسم خادم امى قروى اسمه (مشكور) فسماه بالشيخ مشكور ، وحين اعترض المعترضون عليه قال :ـ

ـ ان خادم المشايخ يجب ان يكون شيخ الخدام ، فما هو وجه استكار لقب (الشيخ) على الشيخ مشكور ؟ فضلا عن ان هناك كثيرا ممن يحمل لقب (الشيخ) بيننا وهو اقل فضلا من الشيخ مشكور ٠٠!!

اجل ان الشيخ قاسم لم يتغير على الوجه العام ولكن هنالك حالات كانت تلزمه بان يكون اقل دعابة ، واقل مزاحا ، وأقل تحدثا فى غير الفقه والحديث الشريف ، وذلك حينما يكون فى مجلسه اناس لايستطيعون ان يسمحوا للعلماء بان يكونوا على تلك الصفة من الانطلاق ، ففى مثل هذه الاحوال يضطر الشيخ قاسم الى ان يكون على خلاف سجيته وطبيعته ، وكانت بين الشيخ قاسم وبين حضار مجلسه علامة يرعاها هؤلاء كل الرعاية عندما يكون فى مجلسه شخص لاينبغى ان يضحكوا امامه

ضحك الادميين ، او يظهروا امامه بمظهرهم الحقيقي البعيد عن الرياء ، وكانت العلامة هذه هي ان يمد الشيخ قاسم يده الى لحيته كمن يريد ان يمسدها او يريد ان يستغفر ربه ، ويرفع رأسه الى السماء ويقول في شبه تنهدة او آهة :ـ

ـ يا مستعان يا الله ٠

وهنا يقيد اصحابه انفسهم ، فيمسكون عن الدعابة والمزاح والانطلاق على السجية وأخذ الحرية التي اعتادوا ان يأخذوها كاملة في مجلس الشيخ قاسم الخاص ٠

واذكر مرة ان كان الشيخ محمد علي الجعفري شقيق صالح الجعفري يناقش قضية اضطرته الى دخول جدل عنيف في بيت الشيخ قاسم ، وكان يحضر ديوانه آنذاك رجل كان من المناسب ان لايطول هذا الجدل امامه ، فراح الشيخ قاسم يرفع رأسه الى السماء ويمد يده الى لحيته ممسدا ويكرر القول :ـ

ـ يا مستعان يا الله ٠٠٠ يا مستعان يا الله ٠

فقال الجعفري ـ لاتربك نفسك يا شيخي ، فانني لن اعبأ (بالمستعان) وغير المستعان ، ولن اسكت حتى اثبت للجالسين خطأهم ٠ وكان ان امتثل الجالسون لامر الشيخ ، ونزلوا على رأي (الجعفري) ، وكفوا عن المناقشة ، فاضطر الجعفري ان يكف هو الاخر ٠

واتسعت دائرة الشيخ قاسم محيي الدين ، وطاب مجلسه بالعلماء والادباء ، وبعد صيته ، وتجاوز النجف ، وحين سافر الى لبنان لاول مرة جاء معه بشاعر زجلي معروف بالارتجال يسمى (ابا سطام) وانزله عنده ، وجمع في بيته شعراء الزجل من النجفيين وفتح في وجوههم باب المساجلة بالمديح مرة ، والمهاجاة اخرى ، وظل بيته عدة ايام كسوق عكاظ مزدحما بالمشاهدين من كل جانب حتى لم يعد لاحد موضع قدم للوقوف في داره ٠

ومثل هذه المساجلة جرت بينه وبين عدد من علماء جبل عامل الذين درسوا العلم في النجف ، وعدد من ادبائهم حين زار تلك الربوع فكانت مساجلات ومباريات قلت نظائرها ، وقد اشارت اليها مجلة (العرفان) في بعض اعدادها ، وعلق

عليها الكثير من الادباء ، واكثر ذلك كان قد جرى بينه وبين الشيخ محمد رضا الزين فقد اخذ الزين – في بعض ما اخذ على الشيخ قاسم – في معرض سماجة اللفظ عند العراقيين قولهم :–

(منجاسة ، ورازونة ، وعتوى ، وبز ونة ، ومناك) فاخذ الشيخ قاسم على اللبنانيين والعامليين قولهم –

(جمطاسة ، وطنجرة ، وتطرطش اواعيك ، وهونيك) .

ودخلت هذه الالفاظ وغيرها في الشعر ، فكانت منها قصائد عامرة حفظها الكثير من ادباء النجف وادباء النبطية ، ونشر الكثير منها في مجلة (العرفان) والبعض منها نشره (الهاتف) في بعض المناسبات .

وكان للشيخ قاسم مجلس خاص يقتصر ارتياده على طبقة محدودة ، كان منها الشيخ محمد رضا المظفر والشيخ محمد كاظم الشيخ راضي ، ومحمد الخليلي ، والسيد هادي فياض ، والشيخ محمد جواد الشيخ راضي والسيد محمد جمال الهاشمي ، واشخاص آخرون لسنا في صدد حصرهم ، وفي هذا المجلس كان الشيخ قاسم ورفاقه يتبسطون اكثر ، ويتمتعون بحرية كاملة في لهوهم الادبي البريء الذي لو اتيح لجامع ان يجمع الوانه لكان منه سفر فني ممتع لادب النجف الحر المشرق .

واني لاذكر يوما وقد تم الاتفاق فيه على ان يزور جمع من هؤلاء الرفاق بيت السيد محمد جمال الهاشمي ليلا وان يلهوه بالحديث على قدر الامكان ريثما يتسنى للشيخ محمد الشريعة ان يفك رباط خروف كان للسيد محمد جمال فيسلمه لخادم آل الشيخ راضي ، ويذهب به هذا الى بيت الشيخ قاسم محيي الدين حيث يكون هنالك الشيخ عبدالجليل العادلي بانتظاره لذبحه وطبخه .

وهكذا كان ، وخف الرفاق الى بيت السيد محمد جمال الهاشمي فرادا كأنهم نيسوا على ميعاد ، وتكامل العقد بعد ساعة من الموعد ، ونصب السماور الكبير وادير كؤوس الشاي ، واستعد الهاشمي للقيام بالخدمات اللازمة ، ولكن البعض اقترح عليه ان يتلو عليهم قصيدة (الغدير) وكانت من قصائده الجديدة

التي اخذت ماخذها من مستمعيها عند انشادها قبل ايام ، فجاء بها الهاشـــمي وبدأ يقرأ وبدأ الجمع يستعيد ويكرر الاستعادة ليشغل الشاعر عن الالتفات الى غرضهم ، وحذرا من ان يصل صوت الخروف ـ والشيخ محمد الشريعة يفك رباطه ـ الى مسامع الهاشمي اقترح البعض ان يهتفوا بالصلاة عـلى محمد كلمـا قرأ السيد محمـد الهاشمي بيتا ، او كلما سمعوا للخروف صوتا ، حتى وان جاءت هذه الصلوات في غير محلها وفي غير مناسبة ...

وعندما احس الجمع بان الشيخ محمد الشريعة قد اوشك ان يخرج بالخروف الى باب الدار ، وانه على وشك ان يفتح الباب خشوا ان يصل صوت قرقعة المزلاج الى مسمع الهاشمي فيحس ويفسد التدبير ، فقرروا ان يهتفوا بالصلوات سبعا متوالية ردوت تلك الغرفة الواسعة بتلك الاصوات المفخمة :ـ اللهم صل على محمد وآل محمد . اللهم صل ... الخ .

ودعي السيد محمد جمال الهاشمي الى تناول الغداء في اليوم التـالي في بيت الشيخ قاسم ، وقد طهى الشيخ عبدالجليل من لحم الخروف انواعا من الاكلات ، وتليت في ذلك النهار بعض المراثي الشعرية المرتجلة للخروف المذبوح ، كما قدمت للهاشمي قطع من اروع الشعر على سبيل التعزية والمعذرة والاستغفار .

ولست انسى يوما دعينا فيه الى بيت الميرزا صالح الخليلي في الكوفة ، وقد تم هنالك عقد اتفاقية الحقت ببروتوكول في عشرات من المواد بين الشيخ قاسم والسيد احمد الهندي على ان يضعا حدا للتهاجي الادبي للخشوم ، فقد كان قد مر عليهما نحو عشرين سنة وهما في تهاج لم يعرف الادب نظيرا له في عالم المرح والظرف سواء بالشعر او بالنثر ، وان المعاهدة الخشمية التي وضعت والتي نشرتها جريدة (الهاتف) هي الاخرى قطعة ادبية رائعة تضيق هذه الممحة الخاطفة بايرادها هنا ، فقد عرف كل من الشيخ قاسم محيي الدين والسيد احمد الهندي بضخامة الانف بحيث قل من يحاكي انفيهما حجما وشكلا .

ولقد بلغت هذه المباراة الخشمية بين الشيخ قاسم والسيد احمد اقصى حدود الروعة من حيث الجناس ، والبديع ، والتورية ، ويؤسفني ان لا اســـتحضر الآن

ما نظمه الشيخ قاسم عن انف السيد احمد الهندى لعدم استطاعتى القيام بتفلية اضابير الرسائل والاثار الادبية فى الوقت الحاضر ، ولعلى فاعل ذلك فى مناسبة اخرى ، وهذا بعض ما قاله السيد احمد الهندى فى انف الشيخ قاسم وهو يكفى للدلالة على البراعة الفنية الادبية والمقدرة الكافية على التلاعب بالمعانى والالفاظ :ـ

قال السيد احمد فى بعض ما قال عن خشم الشيخ قاسم :ـ

سمتك امك (جاسما) فصرف الـ ـقدر المتاح فصرت تدعى (خاشما)

قاسمت هذى الارض كل جبالها بعظيم انفك فلنسمك (قاسما)

ولكم حسمت مشاكلا يا قاسما يا حاسما ، يا خاشما ، يا جاسما

وللتفنن عاد الهندى فاختصر تلك الابيات بما يلى :ـ

سمتك امك (جاسما) وأراه صحف (خاشما)

قاسمت هذى الارض كل جبالها يا قاسما

ولكم حسمت مشاكلا فدعيت فينا حاسما

يا حاسما ، يا خاشما ، يا قاسما ، يا جاسما

وكانت المعاهدة الخشمية التى تم بموجبها الصلح والقاء السلاح بين محيى الدين والهندى ، تحتوى على مواد وشروط غاية فى الادب والدعابة والفكاهة ، فكان من موادها ان يتعهد الطرفان بان يتجنبا ذكر الخشوم لفظا ومعنى فى كل حديث لهما فلا يصح ان يقولا لاحد ـ ولو فى عرض الكلام ـ (على رغم انفك) ولا يصح ان يوردا فى عرض كلامهما اسما (لخشم الدّلة) او (خشم الطبر) او طير (ابو خشوم) مثلا كما لايصح ان يناقشا قول القائل بان الانفولنزا انما هى (انف العنزه) بل عليهما ان يرفعا حاجبيهما الى الاعلى علامة النفى وعدم الموافقة ، واذا اراد المتعاهدان ان يحتشما احد المتواضعين من الناس فلا يجوز لهما ان يقولا له الكلمة المألوفة وهى (محشوم) وذلك لئلا يتبادر الى الذهن بان المقصود هو (المخشوم) وهو تعريض ربما يعيد الحرب الى حالتها الاولى ، ومثل هذا حوت المعاهدة الخشمية الشىء الكثير من المواد المنشورة فى الهاتف .

وفى تلك الجلسة بالذات تلا الشيخ محمد رضا المظفر والشيخ محمد كاظم

الشيخ راضي والشيخ محمد جواد الشيخ راضي ، والميرزا محمد الخليلي ، والميرزا صالح الخليلي مقاطيع وابياتا مرتجلة ضمنوها شيئا من التعريض بخنسي الطرفين المتعاهدين واتخذ كل واحد من الحاضرين بطلا له رمز به الى الشيخ قاسم او السيد احمد الهندي فكانت اول جلسة للادب الرمزي الفكهي الرفيع وقد استهل الميرزا محمد الخليلي مقطوعته المرتجلة بما يلي :ـ

لكل قوم بطل في الزجل　　وبطلي في زجلي (مشتني علي)[1]
مشتني علي حدينه حلو طلي　　يا ما احيلاك (ولك) مشتني علي

ولم انس يوم قرأ الشيخ قاسم على هذه الزمرة من الرفاق الف بيت من الرجز الذي نظمه في سلالة بيته وهم يتناولون طعام الغداء عنده ، فانصرفوا من بيته وقد بيتوا له امرا وهو ان يأتوه ان حان الغد بعدد من الاراجيز والقصائد يهاجمونه فيها ويتناولون سلالته التي اوصلها بالسند الى ابينا آدم بالهجاء على سبيل المزاح وهكذا فعلوا ، وكان لتلك القصائد رنين ، وكان لها دوى وقد نشر (الهاتف) عنها شيئا في وقته وما عدا هذه المناسبات الادبية كانت هنالك مناسبات كثيرة لايتسع لذكرها صدر هذا المختصر من الحديث ، وكان من اهمها الحلبة الادبية المنعقدة في بيت الشيخ علي ثامر ، وكانت قصيدة الشيخ علي ثامر التي تلاها ابنه [2] والتي تناول فيها الشيخ قاسم وتناولني انا بهجاء غاية في الروعة من حيث قيمته الادبية .

* * *

وليس كالشيخ قاسم من يفهم قول النبي القائل ـ احب من دنياكم ثلاثا ـ (النساء ، والطيب ، وقرة عيني الصلاة) .

فقد بلغ تمسكه بالعطور مبلغا كبيرا ، وكان يستعمل عطر الورد بصورة خاصة ، ويحمل منه قنينة صغيرة ، وقد يحمل قنينتين واكثر في جيبه ، وكان يؤدي

---

(١) ومشتني علي هذا كان طباخا في النجف معروفا بضخامة الانف ، وقد استعرضه الناظم هنا رامزا به الى احد المتخاشمين المتعاهدين ، محيي الدين والهندي .

(٢) هو الدكتور محمود ثامر .

صلاته على احسن نحو تؤدى به الصلوة ، لا لكونه من وكلاء العلماء وأئمة الجماعة الذين يأتم به عدد كبير عندما تستدعيه الظروف ان يكون فى ناحية (القاسم) بل لان طبيعته وطبيعته وحدها ، هى التى تحمله على ان يذوب فى صلاته فتشعر بانه قد كاد يتجرد عن كل شيء غير التفكير فى ربه عند قيامه بالصلاة .

اما النساء فقد بلغ من حبه لهن ان تزوج عدة زوجات ، وقد جمع بين اثنتين واكثر ، ولم يكن بمانع لديه لو تسنى له من الوجهة المادية ان يتزوج كل شهر بواحدة ..!!

وقد نزل محمد على (الحومانى) ضيفا عليه مرة فمضى يصف للشيخ قاسم كل يوم احدى بناته من حيث جمالها ولطفها وظرفها وكونها آية من الايات وهو يعنى الشيخ قاسم بالزواج منها ، والشيخ قاسم يزيد انتعاشا وابتهاجا وعناية بالحومانى ، وسألت ذات يوم الحومانى :-

- أأنت جاد فيما تقول ؟ بان تزوج ابنتك الفتية المثقفة من الشيخ قاسم ؟

قال - لا ... وانما عرفت نقطة الضعف فى الرجل فاردت ان اظفر باكبر قدر من عنايته من هذا الطريق ...

وسألت الشيخ قاسم على انفراد :

- أأنت واثق من ان الذى يقوله (الحومانى) صحيح ؟ وانه قادم على زواج ابنته منك ؟

قال - والله ما رأيت أحدا اظلم منك واقسى ، فلقد شق عليك ان ترانى منتعشا بوصف الحومانى الجميل ، ونشطا بهذا الخيال المفرح فرحت تنغصنى بمثل هذا السؤال ! ان الحومانى لن يعطينى ابنته ، وهو لايعلم اننى اعلم بانه لن يفعل ذلك، فدعه كما يظن ، ودعنى كما احب .

وتستدعينى المناسبة ان اذكر ان محمد على الحومانى الشاعر كان من رجال الدين المعممين ، ومن الذين تلقوا علومهم فى النجف ثم سافر الى اميركا الجنوبية حينما كتبت الجالية الاسلامية هناك طالبة ايفاد مرشد روحانى يتولى معالجة طقوسهم الدينية وارشادهم الروحى وزود بالتوصيات والشهادات من المراجع الدينية ولكنه

اخفق هناك فى اداء وظيفته كمرشد دينى ، لا بل اثار سخط العلماء الروحانيين عليه بسبب سلوكه الذى اعتبرته المراجع الدينية منافيا ، فعاد من اميركا خاسرا ، وكان الشيخ قاسم محيى الدين من حملة لواء النقمة عليه ، وصادف ان التقى الشيخ قاسم محيى الدين فى بيروت بمحمد قره على ، ومحمد قره على هذا من المعجبين بالحومانى ، ومن الذابين عنه فى تلك الحملة التى انتهت بملازمة الحومانى لبيته مدة غير قصيرة بسبب غضبة رجال الدين عليه ، وهنا فى بيروت اصطدام الرأيان المتعارضان فى شخص محيى الدين وقره على بخصوص الحومانى اصطداما حادا حمل محمد قره على على ان يستخف بالشيخ قاسم محيى الدين وان يقول له اين هو - اى الشيخ قاسم - من الحومانى ومقامه وشأنه ..!! وهذا ما رواه لى الشيخ قاسم محيى الدين ، وقد اسرها فى نفسه الحانقة على الحومانى وعلى قره على .

وجاءت الفرصة الذهبية ، لقد جاءت الفرصة التى يستطيع الشيخ قاسم محيى الدين ان يعرب فيها لمحمد قره على عن مقام الحومانى وشأنه بالنسبة له ، فقد اقتضت المصلحة ان يقصد الحومانى مدينة النجف ، ويلتمس مختلف الوسائل ليغسل بها ما علق بذهن العلماء عنه وينال شيئا من الثقة ليستعين بها فى جولة له فى ربوع الشرق وفى آسيا الجنوبية ، وكانت المصلحة تقضى ان ينزل فى ضيافة الشيخ قاسم وان يمهد لهذا النزول ببرقية يبرقها الدكتور عبدالرزاق محيى الدين من بغداد الى الشيخ قاسم يطلب منه ان ينسى حنقه على الحومانى وان يعنى بضيفه ويساعده على قضاء مهمته بحيث لايخرج الحومانى من النجف الا وهو راض .

وبرّ الشيخ قاسم بضيفه ، ولكنه هول له الامر ، وبدأ يعدد له هفواته فى اميركا ، وذنوبه الكبيرة التى ستجعل يد الشيخ قاسم قاصرة عن ان تمده بالمساعدة المطلوبة ، ولكنه ... قال الشيخ قاسم : سيجرب وسيلة واحدة يؤمل ان يكون فيها شئ من النجاح وهى ان يتقدم الحومانى تائبا عما سلف مما نسب اليه حقا ام باطلا ، وان تجرى هذه التوبة على يد الشيخ قاسم نفسه وبمحضر من رواد ديوانه فى احدى الليالى الخاصة ليشهد مجلس التوبة اكبر عدد من رجال العلم والدين والادب .

وهكذا تاب الحوماني على يد الشيخ قاسم محيي الدين ، وجاء الشيخ قاسم محيي الدين في اليوم الثاني طالبا مني ان اكتب كلمة ضافية عن توبة الحوماني في جريدة (الهاتف) ففعلت ، وقرأت المسودة عليه فتدخل حاذفا فقرة ومدخلا فقرة أخرى في المقال ، ومازال يغير ويبدل حتى استقام المقال كما اراد هو ، والحق انه لم يطلب مني شيئا غير ما وقع ولكن بشيء من المبالغة •

وحين صدر الهاتف ، لم يترك الشيخ قاسم محيي الدين احدا من معارفه في لبنان الا وبعث له بنسخة من الهاتف لكي يثبت لمحمد قره علي مقام الحوماني من مقامه •

وليت الشيخ قاسم قد اكتفى بهذا ، وانما راح يلح على ان توبة كهذه لن تقبل من الحوماني وهو حليق اللحية • فاضطر الحوماني الى اطلاق لحيته ، وبعد مرور شهر والحوماني لم يزل في ضيافة الشيخ قاسم ، وكانت لحية الحوماني قد نمت قال الشيخ قاسم للحوماني : لم يبق الا شيء واحد وهو ان تستعمل الخضاب بقصد المثوبة لتدلل على انك لم تكتف بالقيام بالواجبات من الامور بل رحت تعنى بالمستحبات منها حتى استعملت من الخضاب الوسمة ، والحناء •

وجاءني الشيخ قاسم يقول :-

- ان لي عندك حاجة ؟

قلت - أمرك يا سيدي •

قال - ان تبحث لي عن مصور يستطيع ان يصورني مع الحوماني ويظهر لحيته بخضابها [١] •

قلت - لا اعهد مصورا يعمل هذا الا بالريشة ، ولكن ماهو الغرض من كل هـذا ؟

قال - ان الحوماني سينتهي من مهمته قريبا فاذا ما غادر النجف فلا تنتظر ان يبقى شيئا من لحيته •

قلت - وهب ان الامر كان كذلك ؟

---

(١) لم يكن الفلم الملون قد عرف يومها في الاوساط الفنية بعد •

قال ـ وهو يضحك من ابن اثبت لمحمد قره على قيمتي حين يقول لى اين انت من الحوماني •

ولم يرتح الحوماني من الشيخ قاسم كما لم يرتح مني على الرغم من انه لم يكن قد بدأ شيء مني ، ولكن ألم اكن انا الذى كتبت مقال التوبة ؟ ثم الم اكن انا الذى دعوت المصور ليأخذ هذه الصورة فى مكتب الهاتف ؟ ثم الم اكن انا المنفذ لرغبات الشيخ قاسم ؟ فكان من حقه والله ان يحقد على ، وان يحنق ، وان يثور ، وقد ظهر ذلك كله فيما كتبه عني وعن الشيخ قاسم محيي الدين فى كتابه (وحي الرافدين) وان حاول ان يخفي فيه السبب •



الشيخ قاسم بين المؤلف والحوماني

والشيخ قاسم محيي الدين ظريف وطريف ، ظريف فى كل شيء ، وطريف فى كل موضوع ، وله تخريج ، وتعليل ، وتعليق كثيرا ما يسترعي الانتباه ويخلب الافكار فى الكثير من المواضيع ، ومن اظرف ما كان يعلل به الشتيمة التى تباني عليها بعض الاباء عندنا فى شتم ابنائهم حين يقول الاب لابنه فى ساعة الغضب : « يا ابن الكلب ، او يا ابن الخنزير ، او يا ابن الحمار» وغير ذلك مما تعود الاباء ان يطلقوه على ابنائهم هنا دون الالتفات الى مغزى تلك الشتيمة ، اقول ان من اظرف تعليقات الشيخ قاسم على مثل هذه الشتائم انه كان يقول :ـ

ـ ان المفهوم من قول الاب لابنه : « يا ابن الكلب ويا ابن الخنزير» لايعني المفهوم اللفظي او السطحي الذي يتبادر للاذهان ، وانما يريد الاب بهذه الشتيمة ان يقول لابنه : « انك لاتستحق يا ولدي ان تكون لي ابنا ، وانما انت تليق بان تكون ابن كلب او ابن خنزير» وهو تخريج حلو لاولئك الذين اعتادوا ان يكيلوا مثل هذه الشتائم لاولادهم .

ومن اطرف تعليقاته على معجم (مختار الصحاح) حين سئل عن رأيه فيه قال :

ـ في قصبة (القاسم) لم يكن لدي من كتب اللغة غير (مختار الصحاح) فما بحثت مرة عن كلمة ووجدتها فيه ، فيهيجني ذلك ويحملني على البصق في صفحاته حتى لقد امتلأت النسخة التي امتلكها من مختار الصحاح على مرور الزمن بصاقا ولكم بعد ذلك ن تقدروا فائدة مختار الصحاح ...

* * *

واهتم في سنواته الاخيرة بمكتبته واسبغ عليها لونا من الوان الفن في جمعها ، وتنسيقها ، وتنظيمها ، وسعى ان يجعلها موضع اهتمام الباحثين من حيث احتوائها على النادر غير المألوف من الكتب التي كان يعرف كيفية الاهتداء الى جمعها ، فقد كان لديه كتاب خطي قديم يحتوي على كثير من الاساطير ، وكان يتضمن صورا لخطوط الانبياء كخط (آدم) ابي البشر وخط (نوح) ... وخط ادريس ... وخط النبي شيت .. الخ !؟ وقد تكاثر طلاب الطرائف ، وهواة الاساطير على قراءة هذا الكتاب ، ودفع له فيه ثمن باهظ لشرائه في الوقت الذي كان قد اشتراه من سوق (الهرج) بما يعادل ربية ونصف ربية على ما اذكر ثم جلده تجليدا فخما وعني به عناية زادت من فضول الفضوليين في الاطلاع عليه وهو يعلم انه كتاب ليس له أية قيمة من حيث الواقع والحقيقة ، ولكنه كان كتابا ثمينا لانه كان يصور مقدرة مؤلف في العصور السالفة يستطيع ان يضع من عنده خطوطا وارقاما غير متشابهة وينسبها للانبياء .

ومن غرائب مكتبته كتاب خطي يقع في ثمانية وعشرين مجلدا ضخما

اشتراه الشيخ قاسم من مخلفات (قربون على) وقربون على هذا كان عاملا عند حلاق فى المدينة تعلم على يده كيف يختن الاطفال ، وكيف يعالج القرع ، وكيف يصنع بعض المراهم لمعالجة البثور والدمامل وغير ذلك ، وكان (قربون على) ذكيا اذ ما لبث ان استقل بدكان خاص به ، ثم ما لبث ان حول هذا الدكان الى محل عيادة واشتغل بالطب ، ورويت عنه المعجزات ، وكنا نعرفه جيدا ، وكان الشيخ قاسم فضلا عن كونه لايؤمن بطبه فانه طالما اتخذ منه موضوع تفكهة يروى على لسانه المعجزات الطبية المضحكة على سبيل المزاح •

وقد ارتأى (قربون على) ان يضيف الى شهرته كطبيب فى العهد العثمانى شهرة مؤلف فى الطب ، فتصدى الى تدوين تجاربه الطبية فكتب ثمانية وعشرين مجلدا اورد فيها وصفات تضحك الثكلى فى معالجة جميع الامراض ولاسيما معالجة الباه وكيفية صنع المراهم الخاصة التى اعتبرت من مبتكرات (قربون على) واكتشافاته •

وحين مات (قربون على) وعرضت مخلفاته للبيع اشترى الشيخ قاسم منها هذه المجلدات الثمانية والعشرين بمبلغ اربعين ربية وجلدها تجليدا فخما وسماها (دائرة معارف قربون على) واستكتب احد الخطاطين فكتب له هذا الاسم على كل جلد ، ثم صف تلك (الدائرة) فى رف مستقل كتب عليه اسم (دائرة معارف قربون على) وكان يرشد المستطلعين الى نقاط خاصة منها ليقرؤوها ويمتعوا انفسهم بقرائتها والتعليق عليها ، وقد ارتفع ثمن هذه الدائرة بعد ذلك وصارت لها قيمة لا من حيث واقعها وانما من حيث قابلية مؤلف يستطيع ان يضع ثمانية وعشرين مجلدا فى بحوث ليس لها اصل وفرع من قبل ، فكانت هذه المجموعة على غرار كتاب (خطوط الانبياء) من حيث الندرة •

والى جانب هذه الغرائب كانت مكتبته تحتوى على امهات الكتب والمراجع بمختلف انواعها ، وقد بيعت كلها ليتخذ من اثمانها مبلغا يساعده على معالجة نفسه من مرض السرطان فى اوربا ، وكان احب تلك الكتب الى نفسه المرحة السمحة المشرقة هى تلك الغرائب التى طالما أنس بها وأنس بها اصدقاؤه فى اوقات الفراغ والاستجمام •

والشيخ قاسم اديب فقيه حضر الدرس على الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء والسيد ابى الحسن الاصفهانى واجيز منهما ، وله مؤلفات ودراسات ، منها تعليق على (كفاية الاخوند) فى علم الاصول ، ومنها تعليق على طهارة (الرياض) فى الفقه ، كما ان له عددا من الكتب الخطية فى مختلف العلوم العربية ، وقد طبع له ديوان شعر باسم (العلويات العشر) كما طبع له ديوان شعر آخر باسم (الشعر المقبول) ، وله ديوان شعر كبير لايزال مخطوطا ، واغلب شعره مبدوء بالغزل من النوع المألوف فى الاجيال الماضية ، ومختوم بمدح ال البيت او بمرائيهم ، واحسن ما خلف هو كتاب (البيان فى غريب القرآن) وقد صدر منه الجزء الاول فى سنة ١٩٥٥ وظلت اربعة اجزاء منه مخطوطة .

وكتاب البيان هو عبارة عن حصر الالفاظ الغريبة من القرآن الشريف ، وشرحها شرحا مبسطا ، سهلا ، فى ارجوزة من الشعر السلس اذكر منها على سبيل المثال قوله :ـ

وفسروا القثاء بالخيار	او ما يضاهيه من الاثمار
وقيل مطلق الحبوب (الفوم)	او قمح ، او خبز ، وقيل الثوم
(بأووا) بمعنى(انصرفوا) اورجعوا	وهى لغير الشر ليست تسمع
(والصابئين) من هم قد خرجوا	عن دينهم وفى سواه ولجوا

وكل هذه الارجوزة على هذا النمط من الشعر السهل المبسط تفسيرا للغريب من الفاظ القرآن .

ومن هذا وغيره يلمس القارىء قدرته على صياغة الشعر بحيث يجعله من السلاسة كالنثر فى باب التعريف والشرح والتبسيط .

* * *

وجاءت الحرب الثانية وكثرت حاجة الناس عند الحكومة من طلب اجازات واستحصال بطاقات للاعاشة وتعهدات اعمال ترابية وعمرانية فانتفع الكثير بالشيخ قاسم ووساطته عند رجال الحكومة الذين كانوا يزورونه فى جميع المناسبات مجتازين

تلك الازقة الوعرة الضيقة حتى يصلوا الى بيته ، وقد يطيلون الجلوس عنده فيطول انتفاع الناس بهم ويبدأ الشيخ قاسم بنسج المقدمات اللبقة الجذابة التى يلج منها الى موضوع الحاجة فلا يجعل متصرف اللواء ، او قائممقام القضاء ، او مدير الناحية يقوم من مجلسه حتى يحقق له وساطته •

وهكذا كان الشيخ قاسم من جانب آخر يقضى حاجة الناس عن طيب خاطر ، ويتصدى على قدر ما يستطيع ان يجعل قاصده راضيا مسرورا ، فقد كان على جانب كبير من الطيبة والسماحة وحب الخير ، ولكنه لقى الشيء الكثير من عنت حاسديه والحاقدين عليه ، فوالله ما تناول احدا بسب ، ووالله ما مس احدا بثلب ، بل كان يسعى ان يكون رقيقا ، رفيقا ، لينا ، حلوا ، على قدر ما تحمل هذه الكلمات من معنى فقد كان له صدر خلا من كل شيء حتى فى السر ، وهذه طبيعة النفوس المكشوفة الوادعة البسيطة •

* * *

ومهدت العمل للانتقال بجريدة الهاتف من النجف الى بغداد ، وقد احس الشيخ قاسم على حد تعبيره بوحشة كبيرة وقال انه سيشعر بفراغ كبير اذا ما تحقق هذا الانتقال ، وستشوب ايامه الصافية كثير من شوائب الكدر ، لذلك راح يسعى بكل طريقة للحيلولة دون هذا الانتقال ، وهيأ لى جماعة من اقرب الاصدقاء الى ليحملونى على العدول عن تحقيق هذه الفكرة وفى طليعة العلماء الذين زارونى لهذا الغرض فى بيتى كان الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء الذى كان يرى بقائى فى النجف امرا واجبا ، وكان منهم الشيخ عبدالكريم الجزائرى ، وفى مقدمة الاشخاص الذين حملهم الشيخ قاسم على الوقوف فى وجهى باذنين كل مجهود كان الصديق الحاج مصطفى الصراف ، وكان سعد عباس على دوش وغيرهم ممن يعرف مقدار حبى لهم وحبهم لى ولكنى كنت قد صممت ، وكنت قد شرعت بالتمهيد واعداد المقدمات المقتضية لهذا الانتقال فلم يكن فى وسعى العدول عن ذلك التصميم • وابتعدت عن الشيخ قاسم ولكن روحى كانت ترفرف حوله وحول ذلك المجلس البهى الذى كان يحكى صفحة من انصع صفحات النجف وابهاها واروعها •

ولقد تلقيت منه اول رسالة تفيض بالشوق ، وتعج بالشكوى مما بدأ يحس به من وحشة ، وفراغ وقد عنون رسالته بهذا البيت :

فما وحقك ما طابت مجالسنا — من يوم فارقتنا يا درة النجف

وبدأت انتهز الفرص ، فازور النجف بين آونة واخرى ، وكنت اقضى وقتا طيبا عنده ، فيلح على بالبقاء ولو ليلة اخرى ، او وقتا قصيرا آخر ، أو ساعة عابرة على الاقل ، وكان ينتهز هذه الفرصة فيدعو الخاصة من اولئك الرفاق ، ويعملها (صحنية) يجمع فيها كل صديق غداءه فى بيت الشيخ قاسم فيمتد خوان كبير يحوى غالبا شيئا من طبيخ الماش وهى الاكلة النجفية العامة ، وتحلو هنالك النوادر الادبية ، ويكون هو المجلى دائما لما عرف به من سرعة البديهة ، وسرعة الخاطر ، وحلاوة النكتة التى قلما كان يجاريه فيها من العلماء والادباء المعروفين بحسن السليقة .

وهذا مقطع فى وصف جانب من تلك (الصحنيات) التى مرت علينا فى بيت الشيخ قاسم وقد اقتطعته من ارجوزة لى كانت قد تناولت موضوعا فى حلبة من حلبات الادباء ليس هنا مجال لذكرها :ـ

وكيفما كان فولى البرد	وجلس الاخوان واستعدوا
حول خوان مد من قماش	قد زانه صحن طبيخ الماش[1]
وكاسة من لبن لذيذ	اشبه ما يكون بالنبيذ
والدبس ما بينهما ينادى	اياكم ان تكفروا بالزاد
لست انا (مذهب كلب)[1] جان	مذهب كلب ، كل من سمانى
فاكل الرفاق فى شهية	ولطعوا الصحون والصينية ..الخ

(١) وفى مواضع اخرى من هذا الكتاب قدورد ذكر الماش وطبيخ الماش ، وهى اكلة نجفية تتألف من الرز وحبوب الماش ، ويؤدمونها اما بالبصل ، او اللبن ، او الدبس ، ولكن الدبس اشهر ما عرف به من ادام ، وقد مل النجفيون هذا الادام لكثرة استعماله خصوصا وقد كانت النجف قاحلة ومعدمة فلم يكن فيها من الخضرة واللحوم قبل بضعة قرون واكثر الا القليل ، فاطلق النجفيون على الدبس صفة (مذهب الكنب) فكل (مذهب كلب) من الماكول فى مصطلح النجفيين هو الدبس على الاكثر .

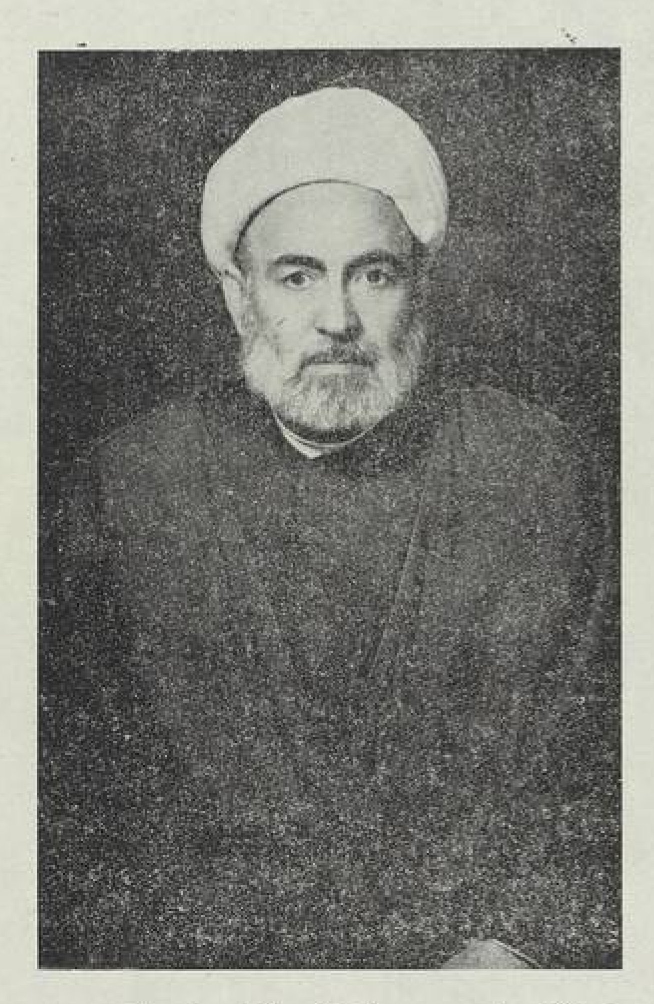
وألهتنى الدنيا فقلت زيارتى للنجف ، ولم اعد ارى الشيخ قاسم الا قليلا ، وفى فترات محدودة ، وذات يوم دق جرس التلفون فى بيتى واذا بالمتكلم يخبرنى بان الشيخ قاسم هنا فى بغداد ، وانه مريض ، فخففنا اليه انا والصديق امين خالص واجريت له عملية استخراج الحصى من المثانة ، وظللنا ندلف اليه فى كل فرصة من كل يوم وهو نزيل المستشفى ، وقد عنيت به وزارة الصحة عناية فائقة حتى شفى من عمليته وعاد الى النجف ، ولكن الشك الذى تسرب الى ذهن الجراح كاظم شبر من وجود بعض الاورام فى المثانة الدالة على السرطان قد تحقق ، فما لبث ان عاد الشيخ قاسم الى بغداد وقد اشتد عليه المرض فلم يجدوا له علاجا ، ولم يرجحوا له اجراء عملية ، وكانت حالته المادية قد ساءت اكثر ، خصوصا وقد انهار جانب من داره فكأن هذا الانهيار كان نذيرا لانهيار شيء اسمى وافخم ، واعظم ، واضطر لرهن داره لدى المصارف بغية بناء ما انهدم منها ثم اضطر لبيع تلك المكتبة النفيسة لينفق ثمنها على معالجة نفسه ، وسافر الى فينا مستشفيا ، وهنالك خدعه بعض الاطباء الدجالين وابتز منه ما كان قد هيأ ودبر من المبالغ واجرى له عملية استئصال جزء من المثانة فخيل اليه انه قد شفى او انه قد صار فى طريق الشفاء ، فكتب الى اصدقائه من هنالك يبشرهم بنجاح العملية ، ويخبرهم بانه عائد اليهم فى ظرف شهر او اقل من ذلك . وقد كتب لى رسالة بهذا المضمون وزاد بان بعث لى بقصيدة نظمها فى وصف (فينا) وفتياتها يقول فيها :ـ

طبعت على حسن الطبيعة	فى عجائب من صور
فالماء من شمس الضحى	بردا تصبب كالمطر
بلد تخال سماءه	فى ارضه ـ عند النظر
لله من ظبياته	فى الحسن ازرت بالزهر

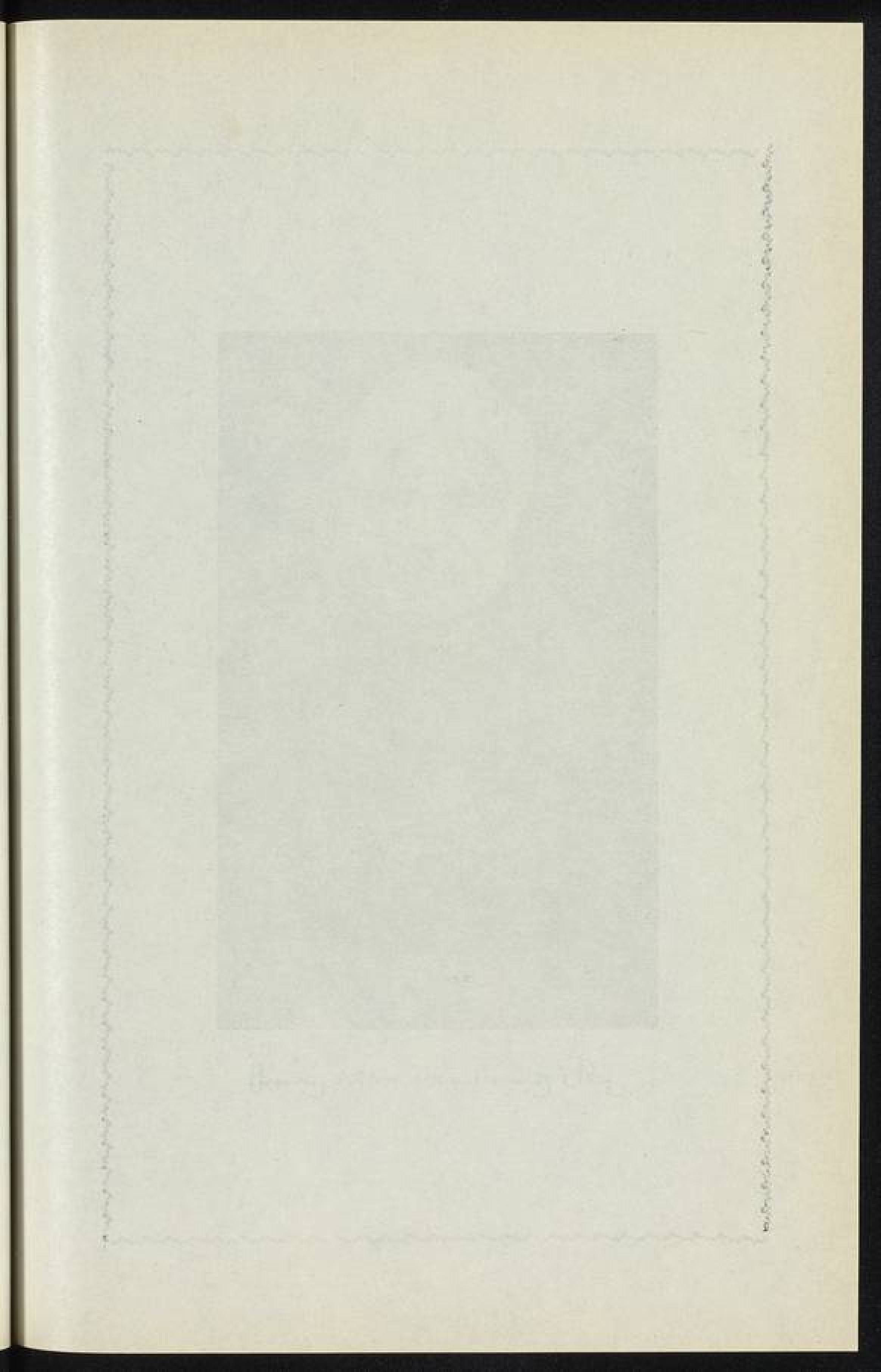
وكتبت له مهنئا وقلت له فى رسالتى ان على اذا ماعاد الى النجف معافى لاقيمن شهرا كاملا عنده فى النجف ، ولاقيمن المهرجانات الادبية مهرجانا بعد مهرجان واعيدها ليالى كالسابق واكثر ، ولم ادر ان الاقدار تجيء به الى النجف وهو فى

آخر مراحل حياته ، ثم يحول ضغط الدم عندى الذى يلازمنى منـــذ زمن دون حضورى النجف وهو فى ايامه الاخيرة • وقد كتب لى قبل وفاته باربعة ايام يقول لى ان صحته تفتقر الى الدعاء الى الله وانه فى شوق ما بعده شوق الى رؤياى •••

مات الشيخ قاسم محيى الدين وبموته انطوت صفحة لامعة من صفحـــات الفضل والادب ، ونقاوة الضمير والظرف ، ولحقت بالفضيلة خسارة كبيرة لاتعوض خسارة لم يكن احد يقدر مداها قبل ان يموت هذا الرجل ، وحين مات انهار آخر بيت من بيوت النجف التى عرفت بذلك النحو من الجمـــع بين الفضيلة والادب والمرح الذى عرفت به النجف فى الاجيال الماضية ، وان ذكراه لتصابحنى وتماسينى فى يقظتى ومنامى فتنكد على عيشى بما تبعث فى نفسى من اسى لفقدانه وفقدان تلك اللذة الروحية التى ذهبت بذهاب الشيخ قاسم ولن تعود •



الشيخ محمد كاظم الشيخ راضي



الشيخ محمد كاظم الشيخ راضي [1]

لم تكن الشهرة وقفا على الكبار دون الصغار ، وذلك لان الشهرة مظهر من مظاهر الامتياز والشذوذ ، فحيثما كان الامتياز والشذوذ في الخلق او المزاج أو الاستعداد أو الرأى والعمل ، كانت الشهرة على قدر ما تستدعيه الامتيازات لا فرق بين رجل وامرأة وكبير أو صغير .

وكان لاطفال (آل الشيخ راضى) فى النجف شهرة اكتسبوها بصفتهم ابناء اسرة لها مقام جليل ، وشأن كبير بين الاسر العلمية والادبية ، وقد زاد قيمتها ظهور غير واحد من هذه الاسرة بمظهر الزعيم الكبير لمدينة النجف فى مختلف الادوار وكان آخرها دور الثورة العراقية ، ومطالبة الانكليز بالجلاء الذى لعب فيه (الشيخ عبدالرضا الشيخ راضى) دورا مهما فى اشعال نار الثورة فى وجه الانكليز فكان من أكبر زعماء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ التى انتهت باستقلال العراق ، فلا غرو ان يرث الشهرة اولاد الشيخ راضى وهم صغار ، بل ويرثها خدمهم وعبيدهم فيقال : ان هذا هو ابن آل الشيخ راضى ، وان هذا هو العبد المملوك لآل الشيخ راضى ، وحتى الجيران كان الكثير منهم يعرفون بجوارهم لآل الشيخ راضى ، فكيف اذا مشت الى جنب هذه الشهرة شهرة اخرى تولدت من ميزة بعض هؤلاء الاولاد فى الملكات الطبيعية والفطنة والذكاء ؟ ولقد كان لى ـ وانا طفل ـ بعض الاصدقاء من اطفالهم شدتنى اليهم الزمالة ونحن طلاب فى المدرسة ، وجذبتنى منهم مزايا ساحرة بالاضافة الى ما كانوا يتمتعون به من شهرة الاسرة وكان من هؤلاء الشيخ محمد طاهر الشيخ راضى الذى امتاز وهو طفل صغير بشىء آخر غير ميزة نسبته

(١) مجلة النجف ـ ٢٤ مايس ١٩٥٨ .

لهذه الاسرة ، وغير ميزة ذكائه وفطنته ، فقد كان يعلو رأسه طربوش من جلود الحملان ذات الصوف المجعد الاعشم ، ولم يكن يومذاك من يلبس مثل هذا (الكلاو) كما يسمونه الا عدد قليل من الاولاد المدللين اذكر منهم الاخوين (مجيد الصراف وحسين الصراف) وادى الحاج رضا الصراف ، اما بقية الاولاد فاما ان يكونوا من لابسى القلانس المعروفة (بالعرقچين) أو من لابسى (اليشماغ) وحده ، او اليشماغ والعقال معا ، او العمائم على اختلاف الوانها ، واغلب الاولاد المعممين هم من ابناء العلماء ، اما المدن العراقية الاخرى فلم يكن اعتمام الصغار بالعمائم مألوفا عندها ، لذلك ربما كان هذا مثار دهشة عندهم ، ولقد حدثنى صديق ممن كتب عليه ان يعتم بالعمة وهو ابن سبع سنوات قال :ـ

« كنت فى رفقة ابى ونحن نجتاز احد ازقة بغداد وانا لم اتجاوز من العمر سبع سنين ، وكانت تعلو رأسى عمامة ربما كانت اثقل نسبة مما يطيق رأس واحد مثلى ان يحمل ، وما كدنا نمر على زمرة من الاطفال اللاعبين فى عرض الطريق حتى نهض احدهم فاغرا فاه من الدهشة وصاح :ـ

ـ «شوفوا ها العالم شكداته ؟ »

اى هلموا لرؤية هذا الطفل الذى بلغ رتبة العلماء وهو لم يزل صغيرا بهذه السن .

اما اكثرية الاولاد ومنهم اولاد آل الشيخ راضى ومن هؤلاء الشيخ محمد كاظم فقد كانوا من لابسى العقال فى طفولتهم . وان الذى يمكن الصغار من النابهين الممتازين من الشهرة انما هى الدواوين على الغالب ، فالكثير من الزعماء ومشاهير النجف ـ كما هو الحال فى اغلب المدن والقصبات العراقية ـ يجلسون للناس فى بيوت خاصة ، او اجنحة منعزلة عن البيوت او فى غرف مستقلة تعرف فى النجف باسم (البرانى) فيضطر اولادهم بحكم احترامهم لابائهم الى ملازمة مجالس ابائهم فى دواوينهم والظهور للناس والاصغاء لما يجرى فى هذه الدواوين من احاديث وقصص وشعر ونثر يساعد كثيرا على الاسراع فى نضج هؤلاء الاطفال ويتيح لهم الفرص بعض الاحيان لاظهار مواهبهم ، فيعرف الممتاز من اولئك من اجوبته

وتعليقاته ورد الكلام بما يناسب المتكلم على قدر المستطاع ، لذلك كثيرا ما رافقت الشهرة النابهين من ادباء النجف وعلمائها منذ عهد الطفولة .

وكان لآل الشيخ راضي عدد من الدواوين في عصر واحد ، وكان للشيخ عبدالرضا الشيخ راضي ديوان عامر يرتاده كبار العلماء وفحول الشعراء والادباء ، وكانت للشيخ عبدالرضا ملكات متعددة يرجع اليها الفضل الاكبر في نشأة اولاده : الشيخ محمد كاظم وأخيه الشيخ محمد جواد وكثير من ابناء هـذه الاسرة نشأة ممتازة من حيث دماثة الخلق ، ورهافة الحس ، وامتلاك ناصية الادب ، ونفـاذ البصيرة فكان الشيخ محمد كاظم بحكم ملازمته لديوان ابيه كثير الاحتكاك بمختلف الطبقات من رجال العلم ورجال الادب الذين يغص بهم ديوان ابيه فضـلا عـن انكبابه على الدرس وطلب العلم .

وكانت هذه الدواوين او المجالس ـ كما قلنا من قبـل ـ محك الملكات والمواهب اذ كثيرا ما تكون ميدان اختبارات للذكاء والقابليات ، ولقد عرف الكثير من اولاد آل الشيخ راضي وهم صغار عن طريق هذه الدواوين حتى أخرسهم ـ ، وهو عبدالغني الشيخ جعفر وكان أخرسا ـ لم يعدم الوسيلة التي يبرهن فيها عـلى انه موهوب ، وانه ممتاز ، وقد نقلت عن طفولته وشبابه قصص تثير الدهشة .

ومما نقل عنه انه ادرك يوما بثاقب بصيرته ان صبيا قد دخل ديوانهم برفقـة أبيه وهو أخرس مثله ، فمشى اليه عبدالغني وقعد الى جنبه ، ثم بـدأ الحـديث بينهما بالاشارات ، ولم يحس المجلس الا والصبي الاخرس الزائر يضع سبابته في اذنه ويطلق صوته بتمتمة طويلة عالية هزت الديوان كما لو كان يغني مقـاما مـن الدشت العالي ، او البنج گاه ، اما عبدالغني الاخرس فقد قفز من مكانه بعد انطلاق هذا الصوت من جليسه ، واما الصبي الاخرس فقد جمد لاتجاه الانظار كلها اليه ، ونودي عبدالغني للسؤال عن القضية ، وعبدالغني يحسن التعبير بالاشارة لحـد انه يستطيع ان يقص على الجمهور قصة طويلة ذات فصول ، وهو فوق هذا يكتب الكثير من الاسماء ، ويرسم رسوما تبهر العيون ، لقد سئل عبدالغني عن القضيـة فقال بلغته الخاصة :ـ

ـ حين علمت ان الصبى الذى ولج ديواننا اخرس مثلى ملت اليه بطبيعتى ، ثم ما لبثت ان اكتشفت انه ساذج بسيط قليل الذكاء ، فقلت له لنغن انا واياك ، فقال انه لايستطيع ان يطلق صوته فى هذا الجمع ، فقلت ان الحاضرين جميعا لايسمعون فدهش وصوب انظاره الى وجهى ليرى ما يرتسم عليه فوجدنى جادا ، فقال لى ولكن فلتغن انت اولا :ـ

قال عبدالغنى ـ فوضعت سبابتى اليمنى فى اذنى ، وفتحت شدقى ، وحركت لسانى دون ان اطلق صوتا ، فظن الصبى اننى قد غنيت ولم يسمعنى احد ، وحين جاء دوره اندفع يغنى بأعلى صوته فكان الذى سمعتم ورأيتم ....

وسواء صحت هذه الحكاية أو لم تصح ، وسواء كان لها نظائر كما يروى البعض او لم يكن ، فانها لم تكن تروى لو لم يكن لعبدالغنى من المؤهلات التى تسوغ للراوين ان يضعوا مثل هذه الروايات على لسانه او ينسبوا قصة غيره له .

وحتى الذين لم يتح لهم من آل الشيخ راضى ان يتعلموا تعليما كافيا لم يخل بعضهم من مظاهر تشير الى مواهبهم .

قال الشيخ عبدالرزاق الشيخ راضى (وهو يحاول تعريف طبقة الشيوخ من الروحانيين ويسعى لحصر صفاتهم فى اقصر جملة واوقع مفعول) .

قال ـ (وهو يحدث السائل عن هذه الطبقة الروحانية) :ـ

« والله انهم ـ يقصد المشايخ من الروحانيين ـ ليستطيعون ان يقنعوا الحمار بان يحجم عن أكل الشعير والبرسيم اذا ارادوا » .

والقارىء فى غنى عن لفت نظره الى ما تحمل هذه الجملة القصيرة من معانى كبيرة وكثيرة ... تكفى لتصور مدى القدرة التى اراد ان يصفهم بها الواصف .

* * *

سأل مرة الميرزا محمود الخليلى مازحا ـ وهو أحد اعمامى وقد عرفت اسرته اى أسرتى بكثرة الاطباء منهم فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ـ لقد سأل الميرزا محمود على سبيل المزاح الشيخ عبدالرضا الشيخ راضى ، او قيل انه سأل الشيخ جعفر الشيخ راضى معرضا بسرعة توثب ابناء (آل الشيخ راضى) الى مقام

الامامة والصلاة بالناس ـ وكانت هذه الاسرة قد عرفت بكثرة علمائها في القرنين الاخيرين ـ قائلا :

ـ « أأنت ترى كيف يقفز بعض ابناء اسرتكم في الزعامة الدينية ؟ كأن العلم مخزون في السفط ، فاذا مات احد افراد آل الشيخ راضي مد الاخر يده الى السفط ففتحه وتناول العلم منه واصبح عالما في اليوم الثاني بكل سهولة وبدون اي تعب ؟ » .

فاجابه الشيخ عبدالرضا ـ وانت أترى كيف يقفز بعض ابناء اسرتكم في ميدان الطب ، فكأن الطب موضوع على الرف فاذا مات أحد افراد اسرتكم مد الاخر يده الى الرف فتناوله واصبح طبيبا في اليوم الثاني بكل سهولة وبدون اي تعب ..؟

* * *

والشيخ عبدالرضا جمع الى غزارة علمه وفقهه أدبا رفيعا ، ورجاحة في العقل والتفكير ، وتجلت قيمته فيما حرر من بحوث فقهية منها كتاب في (الوصية) وآخر في (النكاح) وفي هذين الكتابين يجد القارىء اراء جديدة في الاستنباط والتعليق تدل على أحكام فقهية محكمة ، والتفاتات بارعة اختص بها بين العلماء ، ومع ذلك فقلما شوهد شخص من طرازه وطراز الشيخ عبدالكريم الجزائري من حيث وفرة الادب ، والتبسط ، والتواضع ، وفوق ذلك فهو سريع البديهة ، بارع النكتة ، وقد رافقته هذه البراعة من صغره فكانت تفيض بالمرح منذ الطفولة وبقيت تفيض الى آخر ساعات موته ، ولقد حدثني مرة فقال :ـ

ـ كنت وبعض اترابي من طلاب الادب ونحن في اول درجة من سلم الشباب نعقب الشعر والشعراء كلما حدثت مناسبة شعرية ، ومناسبة الشعر في النجف هي الزواج ، والوفاة ، والقدوم من السفر وغير ذلك من أمور [1] ، فاذا تزوج شخص ، او توفي شخص من ذوي الجاه انبرى الشعراء لاستغلال هذه المناسبة للتنفيس عن كروبهم ، وللمباهاة والمفاخرة بملكاتهم الادبية ، ولم تزل النجف للان ممتازة بهذه الظاهرة ، وكان المتأدبون والادباء يرتادون تلك المجالس ليسمعوا

(١) لقد اشير الى هذه المناسبات في اكثر من محل واحد من هذا الكتاب .

الشعر ، وليجربوا مواهبهم ، وقابلياتهم الشعرية فى (التقفية) والتقفية هى السبق فى معرفة القافية قبل انتهاء كل بيت من الشعر واعلانها قبل الاخرين .

وقال الشيخ عبدالرضا ، وكنا نتنافس فى النطق بالقافية عاليا ، لنلفت الينا الانظار ، وكان شاب من اولئك الشبان الذين يحسنون التظاهر بالمعـــرفة ، كان يعرف كيف يختطف من افواهنا القافية فيعلنها بصوت اعلى من اصواتنا ليلفت لنفسه الانظار ، بينما ليس له منها شىء او بعض شىء ، بل انه كان ابعد مايكون عن فهم الشعر وموازينه وقوافيه .

وقلت لرفاقى ـ قال الشيخ عبدالرضا ـ سأكفيكم شره ان هو ضايقنا بعد اليوم .

وجاء يوم تبارى فيه عدد من فحول الشعراء فى قصائدهم ، وتبارى فيه عدد من الادباء والمتادبين فى تقفياتهم ، وجاء هذا الشاب الغبى الوقح ودس نفسه بيننا كما كان يفعل من قبل ، وكانت القافية باء مفتوحة على وزن (يبابا) و (شعابا) فتقفف من افواهنا بعض قوافينا وصرخ بها فى ذلك المجلس مستغلا حياءنا ونحـــن فى مقتبل الشباب ، فتواصينا ان نهمس بقافية لاتنسجم مع تلك القافية البائيـة وعيناها بيننا فكانت (بليدا) فلقفها من بين شفاهنا وصرخ بها صرخة مدوية قبل ان يصـل منشد الشعر الى القافية فكانت نكتة تلك السنة ....

لقد زرت الشيخ عبدالرضا فى مرضه الاخير قبيل وفاته بيوم أو يومين ، وكان يحيط به بعض ارحامه وزواره وهو مضطجع فى سرداب بيتهم الكبير ، وكنت قد سمعت بخطورة مرضه وخوف الاطباء عليه ، ولكنى لم المح اى شىء يدل على تلك الخطورة فى اثناء عيادتى له ، فلقد كان وجهه يفيض بشرا ، وكان ترحابه بعواده وهو سقيم لايقل عن ترحابه بزواره وهو سليم ، ولم اعرف ان النفس متى كبرت استوت عندها الظروف والاوقات الا بعد ان مات ، اذ لم تطل حياته بعد ذلك الا يوما أو يومين ....

* * *

ونشأ الشيخ محمد كاظم فى رعاية هذا الاب وفى رفقته فتأثر به لحد بعيد ،

وانطبع بطباعه من حيث النهج والسيرة وطيب النفس والمرح وخفة الروح بالاضافة الى ترسم خطاه فى طلب العلم والاقبال على دراسة الادب والاحاطة به من جميع اطرافه . وقد ملك سليقة وذوقا انفرد بهما فى عالم دراسته الروحية وكان اديبا من طراز خاص يجمع بين صحة التركيب وبراعة الفن وسرعة البديهة ، وعلى رغم انه كان يتجنب الاندماج فى زمرة الشعراء فقد كانت شاعريته معروفة لدن رجال الادب ، وقد شهدت له بعض المناسبات الخاصة شعرا ينم عن اوسع الملكات فى عالم الادب ، فلقد جمعنا ذات مرة مجلس عامر بمن حضره من العلماء وأهل الادب وتطرق القوم الى بحور الشعر واوزانه فانكر البعض من الحاضرين على الشيخ محمد كاظم ان يكون هنالك من الشعر ما يقوم شطره على كلمة واحدة ...!! فروى هنالك الشيخ محمد كاظم الشيء الكثير من الشعر الذى قام شطره على كلمة واحدة بدون زيادة وكان من ذلك ابيات لشوقى منها .

أعجميـــة بذ ّت العرب

وعجب الحاضرون لهذا الالتفات ولكثرة مايروى من الشواهد العابرة ، ولهذه الملكة الادبية التى لايفوتها شيء من دقائق الادب ، واذكر انه جاء مرة ذكر البحور الشعرية التى تصعب فيها الاجادة فى النظم واداء غرض الشاعر مالم يكن الشاعر متمكنا من قول الشعر وسبكه تمكنا كليا وكان بحر (المديد) مما تطرق اليه القوم من البحور ، والمديد المبتور خاصة الوارد على وزن (فاعلاتن فاعلن فعلن) فمضى الشيخ محمد كاظم وجاء، فى اليوم الثانى بقصيدة عصماء طويلة نظمها على هذا النحو وابتدأها بقوله :ـ

طال ليل المسهد المغرم فمتى تنجلى ليـالى الهم ؟

مل جنباى مضجعى سأما ساهر الليل كيف لم يسأم ؟

فى مثل هذه المناسبات ينظم الشيخ محمد كاظم ويبدع ، ولا يضيع القـارىء ابداعه فى الشعر حتى ولو كان بيتا او بيتين ولقد كان للسيد عبدالله المقرم الساكن فى قضاء طويريج (مشروع) يتعلق بدائرة الرى ، وكان صديقى السيد حسن الرفيعى

يوم ذاك مهندسا اري في طويريج ، فلم يحصل الاتفـاق في الرأى بين السيد عبدالله المقرم والسيد حسن حول ذلك (المشروع) ، وبلغ الشيخ قاسم محيي الدين خبر مجيء السيد حسن من طويريج الى النجف زائرا فكتب لى مع السيد عبدالله رسالة يطلب مني التوسط للسيد عبدالله عند السيد حسن لانجاز مشروعه ، ثم استكتب الشيخ محمد كاظم لكى يضم صوته الى صوت الشيخ قاسم فكتب لى الشيخ محمد كاظم البيتين التاليين في ذيل رسالة الشيخ قاسم محيي الدين :ـ

يا حسن الخلق ومقياس العلى ... وخاطر لكل (مشروع) حسـن

فكن بعون الله خير شـافع ... ما بين (عبدالله ، والسيد حسن)

* * *

وعلى ذكر الشيخ قاسم اذكر انه ضمنا ذات يوم ونحن عنده ، مجلس حافل ببعض الادباء والعلماء ، وقد تلا علينا الشيخ قاسم اب بيت من الرجز في نسب آل محيي الدين اوصل فيها نسبهم بآدم ابى البشر على الطريقة القديمة وعلى نحو انساب (سبائك الذهب) نما مر جميع الحاضرين على ان يأتى كل واحد منهم في اليوم الثاني بقصيدة يتناول فيها ناظمها هذه الطريقة من سرد الانساب بالهجاء على سبيل الدعابة والمزاح[1] وكان معنا الشيخ محمد كاظم الشيخ راضى بل كان من المؤيدين لهذا الضرب من المزاح والمجون الادبي .

واصبح الصباح واجتمع القوم في بيت الشيخ قاسم نفسه حول خوان ألفته (الصحنية) وهى الطعام العام الذى يسهم فيه المجتمعون بصحون طعام يأتون بها من بيوتهم[2] وقرأ القوم هنالك اشعارهم فكانت كلها عبارة عن هجـوم رائع جاء كآية من آيات أدب المجون وصورة حية من صور ادباء النجف حين يهزلون ، وحين يسخرون ، وحين جاء دور الشيخ محمد كاظم القى هنالك مقطوعة تـناول فيـها الهاجمين على الشيخ قاسم بالتنديد وفي هذه المقطوعة سخر من كل واحد منهم ،

---

(١) اشير اليها اشارة خفيفة في معرض الحديث عن الشيخ قاسم .
(٢) لقد مر ذكر الصحنية وتعريفها في مواضع أخرى من هذا الكتاب .

ووقف الى جانب الشيخ قاسم وقفة اذهلت القوم وعرفوا انها كانت دسيسة أدبية ، وكانت بحق من أروع الشعر الزاخر بالنكت والتفنن فى الفر والكر على الجمع ، وكان مجلسا من ازهى مجالس الادب فى وقته ، ومن المؤسف ان يتسلم الشيخ قاسم كل تلك القصائد والمقاطيع فلم نعد نعرف عنها شيئا غير ارجوزة لى كنت قد طلبتها منه ونشرتها فى (الهاتف) تحت اشرافه وبرضى منه اذكر منها على سبيل المثال ما يلى :

اسمع حديثا من احاديث العرب   وقصة غريبة من النسب
فى ذات يوم والهواء بارد   والماء بل وكل شىء جامد
ضمت جماعة من الاخوان   وليمة فى غاية الاتقان
أقامها لهم صديق فاضل   وبحر جود ضاع منه الساحل
فاشعل الفحم لهم نيرانا   وكيف الجو لهم الوانا
فمن دخان عاقد فى الحجره   سحائبا مصفرة محمرة
الى لهيب يختفى احيانا   ويعتلى فيطرد الدخانا

وتمضى الارجوزة فى وصف الجو ووصف الوليمة الى ان تنتهى بالقول :

فشكر الرفاق هذا الكرما   لصاحب البيت ومن له انتمى
وعطروا مجلسه بالحمد   وفاح عطر مدحهم كالند
وكلما زاد مديحهم له   اغتر وغير الغرور شكله
فلم تعد تسمع منه ها هنا   الا انا انا انا انا انا
انا ابن شالخ انا ابن شفتى   اما المسيح الروح فابن اختى
انا ابن اخنوخ الهزبر القرم   والبحترى الشاعر ابن عمى

وتمضى الارجوزة فى مزاحها ومناقشتها النسب على هذه الطريقة الساخرة من الدعابة الى ان تقول وهى تعنى الشيخ قاسم محيى الدين :

لو قال انى ابن يدى ورجلى   اعزو اليهما كريم اصلى
لكان من احسن اصل اصله   واطيب الفصل يكون فصله

. . الى آخر هذه الارجوزة المنشورة بكاملها في جريدة الهاتف كلون من الوان المجلس المذكور في ذلك اليوم •

* * *

وتعرفت بالشيخ محمد كاظم منذ الصغر ، واشتدت اواصر الصداقة بيننا في الكبر ، وكلما تقدمت يوما انكشفت لى من امره ومن امر ملكاته مواهب زادتنى تعلقا به ، فلقد كان يملك كل صفات الزعامة واخلاقها في مجتمع كالنجف من حيث السعي للخير ، والبعد عن الشر ، والاتصاف بسعة الصدر ، واخذ الناس بالحلم ، وكان كبير النفس ، عالى الهمة ، بعيدا عن الرياء ، وقد رشح للصلاة بالناس عدة مرات فابى ، كما رشح الشيخ محمد طاهر الشيخ راضي غير مرة فابى هو الاخر اباء شديدا وهذه امور وان بدت تافهة ولكنها تصلح ان تعطى عن هذين الرجلين اذا لم تعط عن جميع الاسرة فكرة واضحة عن اتجاهاتهما وعلو نفسيهما واستصغارهما لمقام الرياسة •

ولقد اصاب السيد مير على (ابو طبيخ) كل الاصابة حين وصف الشيخ محمد كاظم في قوله :ـ

ارالك مقياس تشبيهي فمعذرة ان عنك قد ضاق ذرع الشعر تشبيها

وزادت من صلاتنا الروحية صلات اسرتينا من قبلنا ، صلات تجاوزت حدود الصداقة ودخلت نطاق القرابة والاخوة فكانت مصداقا لقول القائل (رب اخ لم تلده امك) وقد سبق لاحد اعمامى ان آثر الشيخ جعفر الشيخ راضى على عموم اسرته فاختاره وصيا على ميراثه بعد مماته •

ورحت اقضى اغلب اوقات فراغى عند الشيخ محمد كاظم فاجد عنده متنفسا لم اجده عند غيره ، وفى ايام المحنة ايام تألب الناس على لصرختى بوجوب الاصلاح الدينى وتهذيب قراءة المأتم عند خطباء المنابر ، ومقاومة ضرب الرؤوس بالسيوف فى محرم ، لم يكن آل الشيخ راضى يتفقون معى فى رأيى ، ولكنهم كانوا وكان الشيخ محمد كاظم الشخص الوحيد الذى تركن اليه نفسى وترتاح اليه افكارى •

وحين مات ابنى الوحيد (هاتف) وشملنى الاصدقاء بألطافهم وأبعدونى عن بيتى اياما ، لقيت من الشيخ محمد كاظم من الحدب على والاهتمام بى الشىء الكبير الذى سوغ لى ان استجيب له ، فاقضى عنده من الايام والليالى اكثر مما قضيت عند جميع الاصدقاء مجتمعا •

وولد للشيخ محمد كاظم توأمان قبل موعد ولادتهما الطبيعيـــة واحسست بخوفه عليهما ، وكان خوفه من نوع غريب لايشبهه خوف آخـر اذ كـان الشيخ محمد كاظم يحاول ان يجعل كل شىء مسودا للعقل ، وخاضعا للنواميس العلميـة ومع ذلك فقد قال لنجرب ارادة القدر قبال الحقيقة العلمية الداعية الى الخـوف على مصير هذين الطفلين ونهايتهما ماداما قد ولدا قبل اوان ولادتهما الطبيعية بشهرين او أقل قليلا •

قلت ـ فماذا نعمل ؟

قال ـ سمهما انت فعسى ان تكون التسمية فألا حسنا (وكانت قد اشيعت عن فألى الحسن اشاعات تجاوزت حدود المعقول) •

قلت ـ فليكن اسم الطفل (رجاء) وليكن اسم الطفلة (أملا) وقد كانا ••• وعاشا ، ومرة اخرى آمن بعض الاصدقاء بانني رجل ميمون وان فى قدمى بعض الخير ، وفى لسانى مثلهما ، وهى شهرة ليس لها ولا ذرة من الواقع ، ولكن أليس من حسن الحظ ان يظن الناس بك الخير وانت لم تعمل شيئا بل ولا تؤمن بمـا يظنون ؟

وكثرت فى السنين الاخيرة اجتماعاتنا ، وكثرت المناسبات التى دعت الى تبادل الاراء فى كثير من الشؤون التى تتعلق بمدينة النجف من جميع وجوهها ، وكان الشيخ محمد كاظم ممن يعقب قراءة الصحف ويتعمق فى الحوادث ، وكان لرأيه قيمته فى الشؤون العامة وقلما جمع رجل من الفقه والادب وعلم الاجتماع والسياسة مثلما كان يجمع الشيخ محمد كاظم على ذلك النحو الخاص الذى عرف به وحده

بين اقرانه ، وكل ما كان يؤخره عن منزلة الزعامة هو انه كان يحاذر لحد بعيد ان يند منه ما يخدش احدا مهما كان شأنه ، وان صفة كهذه وان كانت تحببه للجميع ولكنها لاتبوؤه مركز الزعامة التي تنفع وتضر ، فلقد كان لطيفا جدا مع الجميع وحتى مع اخشن الناس واكثرهم تعكيرا لصفاء الاخرين ، وكانت الكلمات التي يرسلها مزيجة بشيء كثير من الحلاوة واللين والعذوبة مما تصعب مجاراته فيها .

كنا ذات ليلة في بيت محمد الخليلي وكنا قد اغرقنا في الضحك بسبب مباراة أدبية استدعتها (النكتة) التي وقعت بين الشيخ محمد رضا المظفر وبين الشيخ محمد جواد الشيخ راضي شقيق الشيخ محمد كاظم فاغرقنا جميعا في ضحكة لايبعد ان تجاوز صداها عشرات البيوت فالتفت احدنا وقال :ـ

ـ في مثل هذه الايام جرى هدم قبور ائمة البقيع في (المدينة) وقد اتخذ البعض من هذا اليوم ذكرى حزينة ، فلو مرّ من هنا (عبد المحمد) (رادود) حلقة (الشوشترلية) [1] وهو الذي يعتبر مثل هذه الايام إيام عزاء لاينبغي لثغر فيها ان يفتر عن ابتسامة فضلا عن ضحكة ، وضحكة طويلة كهذه الضحكات ، فبماذا تستطيعون ان تجيبوه وبينكم عدد من العلماء والاتقياء امثال الشيخ محمد رضا المظفر والشيخ محمد كاظم اتقولون له : اننا لانؤمن بعرف يصنعه عبد المحمد وجماعته ؟ ام تقولون له اننا نستهتر بمثل هذه الطقوس وهذه الايام لاننا اذا عنينا بها فمعنى ذلك اننا لا نجد يوما بل ولا ساعة من الزمن تخلو من الذكريات المريرة .

وهنا تحول الموضوع الى جد فقال الشيخ محمد كاظم :ـ

ـ خذوا الامر على سبيل الجد ، فلو فاجأكم عبد المحمد ، او من كان على شاكلته ، وقال لكم ما هو تفسير هذه الضحكات العالية في مثل هذا اليوم فماذا كنتم تقولون ؟

لقد وجمنا ، لان العثور على جواب يلائم مزاج اخينا عبدالمجيد ، ويقنعه ويقنع اضرابه ليس من الامور الهينة ، ولكن الشيخ محمد كاظم قال :ـ

---

(١) عبدالمحمد شخصية ذات حول وطول في الالتزام بالمآتم الحسينية ومراعاة جداول الوفيات للائمة الاطهار .

ـ احسب ان المسألة ليست كما تظنون من التعقيد وصعوبة الحل ، اذ القضية لا تتجاوز اكثر من ان تقول له اذا ما قال :ـ

ـ لماذا انتم ضاحكون فى مثل هذا اليوم وهو يوم ذكرى مريرة ؟

ان تقول له ـ « اننا كنا نضحك على يزيد ابن معاوية وتنتهى الحكاية » •

ولست ادرى ما اذا كان امثال اخينا عبدالمحمد سيقنعون بهذا الجـواب ؟ ولكنى ادرى ان هذا القول بالاضافة الى تلك الاشراقة التى يفيض بها وجه الشيخ محمد كاظم كما كان يفيض وجه ابيه كانت تخفف الشىء الكثير من غضب الرجل اذا غضب ، ان لم تسحره •

لقد كان لى ابن عمة هو السيد محمد باقر العظيمى وهومن العلماء الممتازين بمثل هذا الخلق الرضى وهذا السحر الناطق به وجهه ولسانه ، وقد كان اذا احتاج الى خادم فلا يحتاج الامر عنده الى اكثر من يوم يخرج فيه الى السوق او الحرم فيعود بخادم بدون اى عناء ، وكل رأسماله فى ذلك وجه بشوش ، وكلمات حلوة معسولة ، وطيبة نفس ، اما الشيخ محمد كاظم فلم احسب ان الامر يتطلب عنـده اكثر من ساعة وليس اكثر من ذلك يخرج فيها خارج بيته ليعود بخادم يقوم بكل شؤون الخدمة حتى طبخ القهوة للضيوف يوميا وكيفية تقديمها ، وهكذا سحر خدامه فكانوا اخلص ما يكونون له نسبيا •

ولقد زادنى الخدم معرفة بالكثير من اصدقائى ، وانكشف لى جانب كبـير من اخلاقهم ، ومن طريق خدام الشيخ محمد كاظم عرفت الشىء الكثير عن علو نفسه ، وشممه وطيب سريرته ، وحسن معاملته لخدامه والطبقة الثالثة من الناس حين كنت ازوره ولم اجده فاقضى الوقت بمداعبة الخدم واختبار ملكاتهم ريثما يعود صاحب البيت •

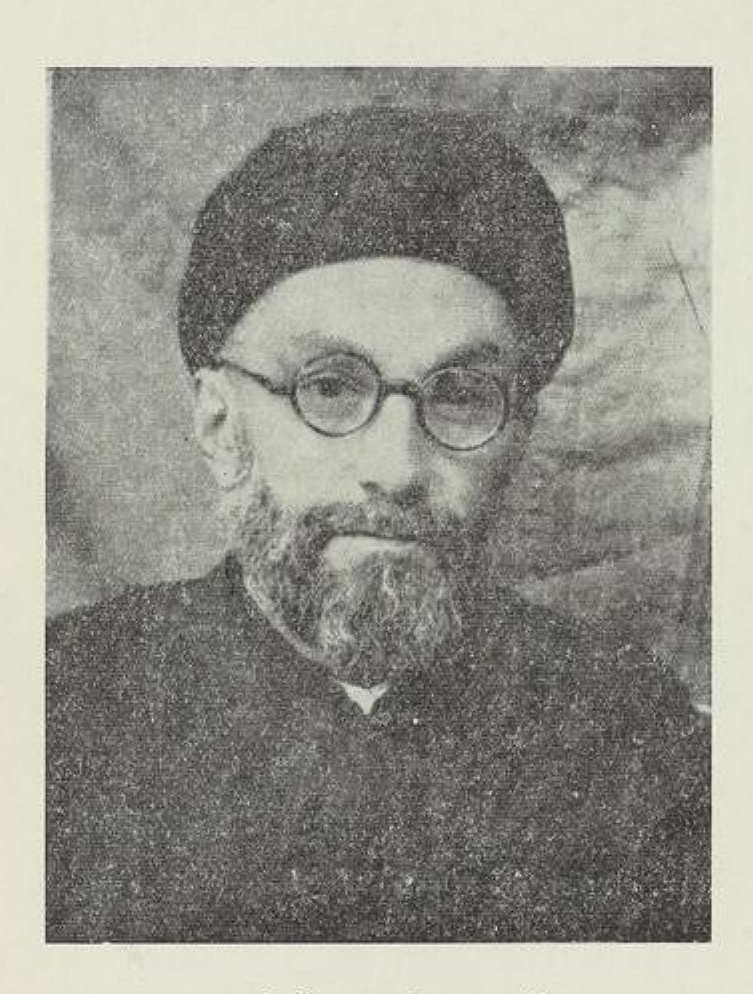
لقد عدت الى ذكرياتى استوحى منها صورة هذا الرجل الذى خسره العلم والادب وخسرته الاخلاق الكريمة الفاضلة وخسرته مدينة النجف ودواوينها فى هذا الوقت الذى طغت المادة فافسدت النفوس حتى عز تعويض الخسارة فلم اجـد لى طريقا بين هذا المزدحم من الذكريات المليئة بالحزن والفرح ، والمفعمة بالعبرة

والتأمل ، فهى ذكريات من الحرام ان تظل مطوية فى الصدور ، قابعـــة فى زوايا النسيان ، ولكن اين لى الوقت لتتبع هذه الامور ، واستخراج كنوزها ، واستكناه عبرها ، وعرضها على الانظار صورا مجلوة بجميع الوانها عن حياة كان لى من متعها الشيء الكثير •

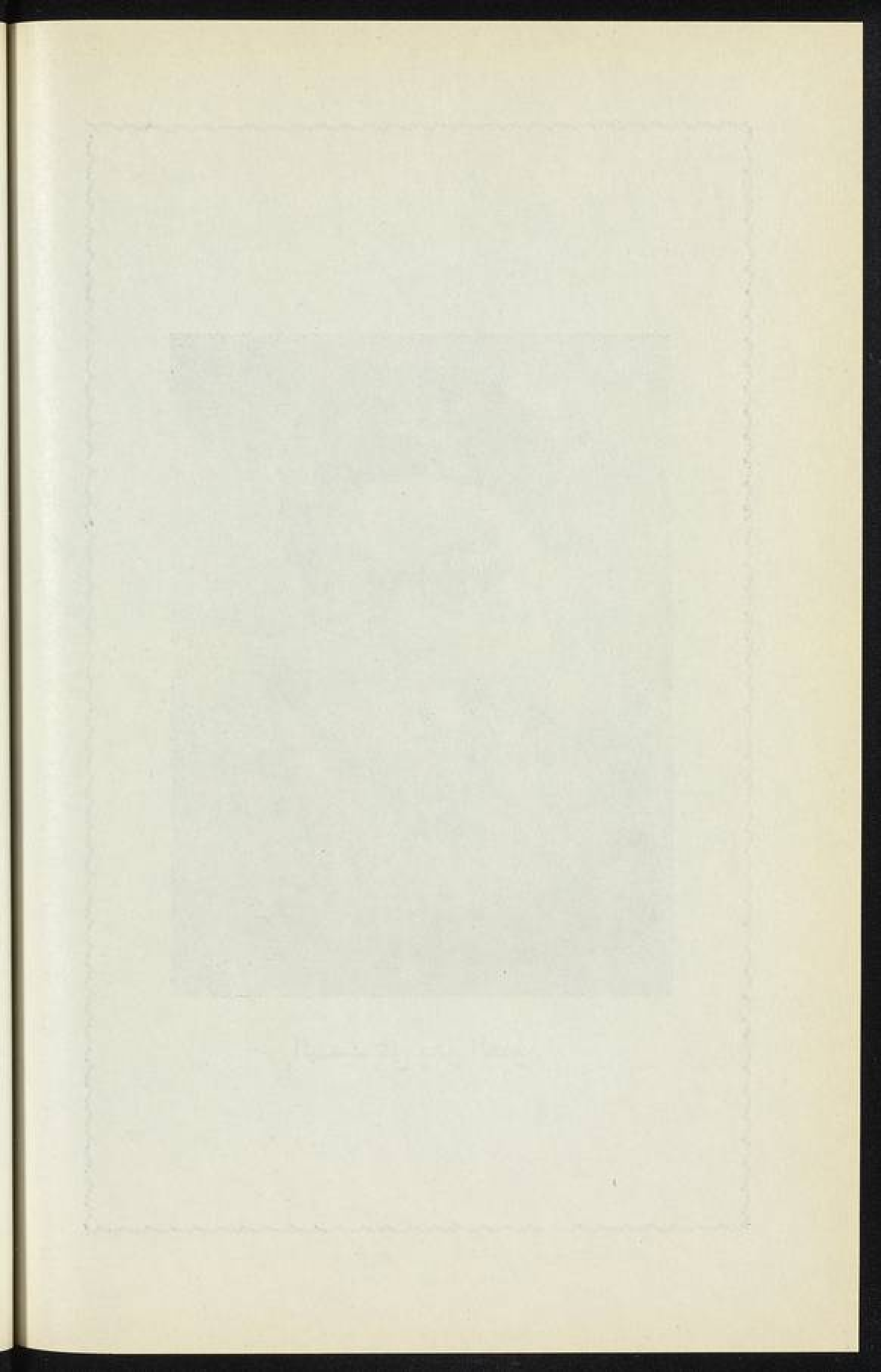
اننى اذكر الان ليالى احييناها فى النجف ، وفى مسجد السهلة ، وفى مدينة الكوفة ، وقد شربنا فيها كؤوس الادب حتى الثمالة وان كل خاطرة منها تكفى لتؤلف صفحة نقية من صفحات تاريخ هذا البلد فى فترة من ذلك الزمن الذى خطه عدد من فحول رجال العلم والادب وكان الشيخ محمد كاظم من اعلام تلك الزمرة •

فوجئت بموته مفاجأة غير منتظرة ، وفزعت فلم تذق عينى النوم ليالى طوالا ، وقد حضرت مجلس الفاتحة ، وخلافا للمألوف ، وخروجا على العادة المتبعة ، رأيتنى كالاطفال انفجر بالبكاء والنحيب بدون اختيار ، لاننى كنت قد فقدت فيه صديقـا كريما • واخا وفيا ، ورفيقا رقيقا ولان النجف قد فقدت فيه هى الاخرى احـد رجالاتها الذين قلما تجود الايام بامثالهم من ذووى النفوس الكبيرة التى عاشـت ساعية للخير هادية للصراط المستقيم ، بعيدة عن الشر ، حبيبة الى النفوس •

من كان يظن ان ذلك الوجه المشرق الساحر ، وذلك اللسان الذلق الجميل، وذلك القلب الكبير الحنون سيخفيه الموت عن الانظار فى بضع ساعات كان لم يكن هنالك قلب حساس ، ولا وجه حبيب ، ولا لسان درب ، لولا تلك الذكريات لتلك المحامد التى عطرت اجواء النجف عشرات السنين •



السيد على بحر العلوم



السيد علي بحر العلوم[1]

اذا رجعنا القهقرى نحو اربعين سنة واكثر قليلا واتيح لنا ان ندخل النجف زائرين فلن يستلفت نظرنا من النجف شيء غير هذه الحركة النشطة من دراسة الادب والفقه والاصول ، وهي حركة تتجلى فى العشرات من المدارس الدينيـة ، وفي الجوامع ، والمساجد ، وفي عدد من (الدواوين) التى كانت تسمى (بالمجالس) وكان الزائر يستطيع ان يستعرض الكثير من ذلك فى الصحن الشريف الذى كان يعج يومذاك بجموع غفيرة من المعتمين بالعمائم السوداء اشارة الى السلالة النبوية ، والمعتمين بالعمائم البيضاء التى تفصلهم عن غيرهم من العلويين وتجمعهم باكثرهم فى حلقة واحدة من حلقات الدرس ، والى مثل هذه العمائم التى كانت ابرز ما يشاهد المشاهد فى النجف يومذاك يشير الشيخ على الشرقى (النجفى) فى ضمن مايريد أن يشير فى قوله عن النجف قائلا :

بلدى رؤوس كلهـا   أرأيت مزرعة البصـل؟

وكانت هذه العمائم من بيض وسود تتحلق حلقات هنا وهناك فى الصحن الشريف وفى غيره مصغية بكل جوارحها الى استاذها الذى تنتهى عنده الحلقـة كما ينتهى العقد عند رأس القلادة ، وآنا آخر تبدو مشتبكة فى مناقشة تلين وتشتد حسب طبيعة المتناقشين وامزجتهم ، فقد زعموا ان حدة المناقشة كانت اكثر ما تجرى عند الطلاب الاتراك الذين كانوا يفدون من تركستان وقفقاسية واذربايجان امـا اللين والتوئدة فى المناقشة فاكثر ما كانت تسود الطلاب الهنـود والتبتين ، والواقع ان المزاج الحاد فى المناقشة كان مزاج الشبان من طلبة العلم على الغالب وكثـيرا

(١) مجلة النجف – تشرين الثانى ١٩٦٠ .

ما كانت تؤول حدة هذه المناقشة فى الدرس الى (ضرب المدس) فوق الرؤوس..

اما الذين كان يتغلب عليهم الوقار فى اغلب حركاتهم ومناقشاتهم فقد كانوا من شيوخ الطلاب ومن الذين افنوا اعمارهم فى الدراسة ، وقلما شوهد فتى ناشيء يستطيع ان يكبح جماح نفسه ويحد من غضبه وحماسه فى اثناء المناقشة والحوار العنيف الذى كانت تقتضيه دراسة العلم الحرة فى ذلك العصر ، خصوصا وان الصراع والعنف فى النقاش كان بمثابة الاعلان ولفت الانظار الى ان هذا المتحمس فى صرخاته والمشمر عن ذراعيه ، والضارب بكفه على جلد كتابه ، انما هو من الجادين فى الطليعة ، ولقد كان هذا المفهوم مطبوعا فى اذهان الكثير حتى كان البعض من اولاد الشوارع والاطفال يقومون بتمثيل حلقات الدرس فى العابهم ويستعملون اللفظة الغليظة المفخمة ، والصياح ، والعربدة ، فيقفز بعضهم فى وجه بعض معترضا محتجا على الاخرين كما يفعل بعض اولئك الطلاب المتحمسين تماما متخذين من تقليد حركة البحث والمناقشة موضوع تسلية فى لعبهم .

ولربما مر احد طلاب الدين على الاطفال فى الشارع وهم منغمسون فى تمثيل حلقة البحوث فيدنو منهم هذا الطالب ويضحك ، وربما نقل تلك الصورة التى شاهدها الى بعض اصحابه مازحا متندرا وقال لهم :

ـ لقد رايتكم اليوم بعينى وانتم تتحلقون فى الشارع ، واصواتكم تشق عنان السماء ، ورأيت رأس الشيخ محمود (مثلا) يكاد يتهشم تحت وابل من (المدس الناشفة) .

اقول قلما شوهد شاب يستطيع ان يتغلب على مزاجه فى تلك الايام ويدخل البحث ويخرج من حوزة الدرس فلا حدة فى النقاش ، ولا غضب خارج الحدود ولا عصبية تستلفت الانظار ، ولا اى شيء مما اعتاد اغلب تلك الجموع من الشبان ان يكون ، ومن هذه القلة كان شاب فى نحو العشرين نحيف الجسم حلو الشمائل دلت عمامته الانيقة السوداء وعباءته الفاخرة وحذاؤه الجديد الذى كانوا يسمونه يومذاك (بالتختة بابوج) والذى لم يلبسه الا القليل وجواربه البيضاء التى كان ينفرد يلبسها الوجهاء لان الاغلبية فى ذلك اليوم لم تعرف لبس الجوارب شتاء فضلا عن

الصيف لقد دل كل هذا على شيء غير قليل من الاناقة والوجاهة وكان يدلف الى (الصحن) وهو متأبط كتابا قد يكون هو الاخر منفردا بين الكتب من حيث جلده ، ونظافته ، فاذا حضر درس استاذه ، واندس فى حلقة البحث كان من اكثر الطلاب اصغاء ، واقلهم شجارا ، واكثرهم وقارا كما لو كان فى العقد الخامس او السادس من العمر ....!

وكثيرا ما كان يرافق هذا الشاب شاب اخر أكبر منه فى السن قليلا حين يدخل الصحن وحين يخرج من الصحن ، وقد يكون هذا الرفيق مشابها له كل المشابهة ، ومجانسا كل المجانسة لولا شقرة بادية فى وجهه ، وفى لحيته الخفيفة .

اما الاول فهو السيد على بحر العلوم،واما الثانى الاشقر فهو اخوه السيد ميرزه. وقد يرافق الاثنين بعض الاحيان شاب اصغر منهما سنا هو الاخر كان يستلفت الانظار باناقته ، اما هذا الشاب فهو السيد ضياء الدين بحر العلوم رئيس محكمة التميز الجعفرى اليوم .

ولم يكن السيد على بحر العلوم ليضيع على من يتسنى له ان يدخل حوزة طلاب العلم ويلج (المجالس) لا لانه كان متفوقا على أقرانه فى الدرس والبحث ، وانما لانه كان نسيج وحده من سلوك يثير العجب ، فهو فضلا عن كونه عنوانا للاناقة والذوق فقد كان عنوانا لعدد من الفضائل والمحاسن وكان طابعه الوقار فى كل حركة يقوم بها ، وفى كل كلمة ينطق بها ، ولم يكن يعسر على الملاحظين ان يتوقعوا له زعامة اجتماعية ومكانة تجعل منه شخصية مرموقة ، وتجعل من بيته (مجلسا) عامرا باهل الفضل ، والعلم ، والادب ، وملجأ يلجوء اليه ارباب الحاجات وطلاب المساعدة فالسنة الخصبة تعرف من ربيعها الخصب كما يقولون .

واصحاب المجالس (الدواوين) فى ذلك اليوم[1] كانوا كثيرين فى النجف ، ولكن الدواوين المرموقة باصحابها المرموقين لم تكن تزيد على بضعة دواوين كان فى

(١) وفى غير هذا المحل من الكتاب وردت اشارات كثيرة لمجالس النجف وماهيتها وقيمتها التاريخية والاجتماعية فى حياة النجف العامة والخاصة ، ولاسيما فى استعراض ايام الشيخ عبدالكريم الجزائرى ومجلسه العامر .

مقدمتها ديوان الشيخ جواد الجواهرى وديوان الشيخ عبدالرضا الشيـــخ راضى وديوان الميرزا مهدى الاخوند وديوان الشيخ عبدالكريم الجـــزائرى وديوان السيد محمد على بحر العلوم وبعض الدواوين الاخرى •

والمجالس كانت عنوان النجف منذ كان تأريخ النجف ، وهى تمثل النجف تمثيلا فيه الكثير من واقع البلد وحقيقته واهدافه ، وفى هذه المجالس كانوا يتبادلون الاراء والافكار السياسية ، وفى هذه المجالس كانت توضع الخطط ، وتعد المناهج العامة ثم هى بعد ذلك اشبه بقاعة المحاضرات ، والدرس ، والمباراة الشعرية ، بل كثيرا ما قامت هذه المجالس بمهمة المحكمة ففصلت بين المتشاكين ، وتوسطت فى حل المشاكل على قدر ما لصاحب المجلس من لياقة وقابلية ، والمرتادون لهذه المجالس وان كانوا من طبقات مختلفة ولكنهم كانوا عيون البلد ووجوههم لايصلح غيرهم ان يمثل النجف تمثيلا واقعيا فى افكاره وآرائه وما هى عليه من مواهب أدبية فنية ، والى مثل هذه المجالس يعود الفضل الاول فى بذرة الاستقلال ، ووضع اول خطة لكيفية المطالبة باستقلال العراق ، ومن هذه المجالس انبعثت فكرة ثـورة النجف الاولى فى وجه الانكليز ، والى مثل هذه المجالس يعود الفضل فى تضيـيـق دائرة الحروب القبلية وحروب (الزكرت والشمرت) •

ولاهمية هذه المجالس فى تاريخ النجف ـ بل تاريخ جانب كبير من العراق وما يدور فيها من الوان للحديث والافكار ـ سمى بعض المؤلفين فصول كتبهم (بالمجالس) وقالوا ان المجلس الاول من الكتاب مثلا يتناول من المواضيع كذا ••• وكذا •••

ولقيمة المجلس من هذه المجالس وحيويته قال المار على القبور وهو يسلم :ـ

سلام على اهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا فى (المجالس)

ومهمة اصحاب المجالس ممن اتيح لهم ان يتبوؤا زعامة البلد الاجتماعية شاقة وخطيرة بالنظر لعظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، ومع ذلك فقد كان هنالك ما يذلل هذه المشقة ، ويخفف من صعوبتها ، فقد كان بين الناس عدد غير قليل ممن جبلوا عـــلى حب التضحية بالمال ، والتضحية بالمجهود ، والتضحية بالجاه ، وكان هؤلاء عادة مـن المعجبين باصحاب تلك الدواوين ، والمأخوذين بسحرهم ، وكانوا يحضرون تلك

المجالس ـ وكثير منهم من يلازمها ـ فكان الزعماء الاجتماعيون من اصحاب الدواوين يستعينون بهؤلاء في سد ثغرة او تنفيذ امر او حل مشكلة كبيرة ، او تبرع بالمال لجهة من الجهات الخيرية ، خصوصا وان الناس كانوا يعافون دور المحاكم والقضاة ويرجعون في كل دعاواهم ومشاكلهم الى هذه الدواوين بحيث لم يبق هناك ما يشغل المحاكم الا القليل من الدعاوى المتعلقة بالجرائم ، والتي تؤول الى المحكمة على رغم اغلب اصحابها وذوي الشأن فيها ، ومما كان يروى عن قيمة هذه المجالس في فض النزاع وحل المشاكل بحيث تخلو دور القضاء الرسمية في تلك العهود من الدعاوى : هو ان قاضيا كان قد تعين لمحكمة النجف في العهد العثماني ، وكان قد تأخر دفع راتبه له وهذا ما كان يحدث كثيرا حينذاك فلم يجد هذا القاضي من يرجع اليه في دعواه مدة اقامته لكي يستطيع ان يفيد منه شيئا على حساب القيام بخدمة خاصة على الاقل اذا لم يكن على حساب الرشوة فطلب القاضي فراش المحكمة وامره بان يقف على الباب فيدخل عليه اول شخص يمر من هناك ....

وبعد ساعة مثل امام القاضي رجل كان قد مر فساقه الفراش الى المحكمة وسأله القاضي :ـ

ـ هل لك دين في ذمة احد لكي نبعث فنجلب مدينك الينا ونستحصل لك المبلغ لقاء شيء تدفعه لنا ؟ .

قال الرجل ـ لا ...

قال القاضي ـ وهل انت مدين لاحد لكي نتدخل في الامر ونحضر لك الدائن ونحمله بطريقة من الطرق على تصفية دينك واعفائك منه نهائيا ..؟

قال الرجل ـ لا ...

فالتفت القاضي الى كاتبه وقال له :

ـ اكتب له « لا طالب ولا مطلوب » وقل له « جيب مجيدي » .

اي انه لقد ثبت لدينا انك لست دائنا ولا مدينا وعليه فيجب ان تدفع لنا (مجيديا) والمجيدي عملة عثمانية تساوي ما يقرب من ربع الدينار اليوم .

اقول لقد كان لتلك المجالس (الدواوين) فضلا عن قيمتها فى حل المشاكل الخاصة والعامة وتمثيل النجف فى مختلف ادوارها ـ شأن كبير فى الثقافة العامة وصقل الافكار ، ولم يكن من الهين لكل من يستطيع ان يفتح بابه ، ويصف اباريق القهوة حول موقده ان يشغل تلك المكانة فيكون صاحب ديوان على هذه الشاكلة ، والا لكانت النجف كلها دواوين تسمع صوت فناجينها على بعد مئات الامتار وانما كانت لتلك المكانة مؤهلات خاصة يرجع اصلها الى الفطرة اولا ثم الى مجموعة من الملكات التى تصقلها التجربة ، والدراسة ، والخبرة ، وتسندها اخلاق تمتاز على اخلاق الوسط باشواط ومراحل ، وان الجديرين بهذه المنزلة كانوا معروفين من اول نشأتهم .

وكان السيد على بحر العلوم فى شبابه فى الطليعة اذا ما اريد حصر الذين يمكن ان يكون لهم مثل هذا الشأن فى المستقبل ، فقد كان يضع نفسه منذ اول نشأته موضع هذه الزعامة ، وكانت مؤهلاته كلها من حيث الاسرة والقابلية والجدارة تساعد على ذلك ، ويقول صديقنا الشيخ حسين الحلى ـ ان المرء حيث يضع نفسه فى النجف فاذا قال النجفى انى اريد ان يكون اسمى شيخ المشايخ مثلا قيل له : فليكن ذلك ، او قال اريد ان اتصدّر المجلس ، قيل له ليس هنالك من بأس ، ولكن المؤهلات هى التى تعمل عملها بعد ذلك وان كان المرأ حيث يضع نفسه .

ولكى يدعم الشيخ حسين قوله هذا بالبرهان قال لى :

ـ لا اشك انك تعرف السيد جعفر بحر العلوم .

قلت ـ اعرفه .

قال ـ فما رأيك فيه ؟

قلت ـ عالم جليل ، وبحاثة معروف ، وهو فى الفقه والاصول ، والادب العربى والفارسى حجة من الحجج وتحفة من التحف .

قال الشيخ حسين ـ ولكن السيد جعفر قال ـ اريد ان اكون خاملا فكان ... أفليس اذن حيث يضع المرأ نفسه ...؟

والسيد على بحر العلوم لم يضع نفسه حيث اراد فحسب وانما كانت تسند

زعامته مؤهلات عرفها فيه الناس يوم اول دخوله حوزة طلاب الدين ...

وشب السيد على وشبت معه هذه الخصال الحميدة، محبة يغمر بها من يعرف ومن لا يعرف، وخير يريده للغير اولا ثم لنفسه، وغيرة على الدين ربما تجاوزت الحدود .

وتردد اسم السيد على في جميع الاوساط وبدأت شهرته تعمل عملها يوما بعد يوم .

- اين كنت ...؟

- في بيت السيد على ....

- ومن اين جئت ؟

- من بيت السيد على ...

ولم تلبث هذه الشهرة ان اخذت طريقها المستقيم فاذا بهـــذا البيت يعج بالعلماء والادباء والتجار والعمال عصر كل يوم ومساء كل ليلة على الغالب، واذا بالمجالس النجفية تتقلص يوما بعد يوم كلما مات زعيم من زعمائها الاجتماعيـين فينهض بيت السيد على بمهمة تلك الزعامة بعد مجلس الشيخ عبدالكريم الجزائري ويصبح ديوانه الواجهة الوحيدة للنجف يطل منها الزائر الدارس على حياة النجف العامة والخاصة بكل اتجاهاتها الاجتماعية والروحية واذا بهذا الرهط من خيار الصحاب الذين يصابحون السيد على ويماسونه ينشطون في اتجاهاتهم العلميـة والادبية فيختارون لانفسهم اسم (الصفوة)، والحق انهم كانوا صفوة القـوم في بحوثهم وآدابهم واخلاقهم في جدهم وهزلهم، ولقد قيل ان اسم (الصفوة) كان اقدم من هذا التاريخ وانه كان يشمل عددا من هذا العدد وكان من اعضائه الشيخ محمد رضا الشبيبي وغيره وكيفما كان الامر فانه لم يبق من الصفوة اليوم الا الشيخ حسين الحلي وكانت هذه الصفوة تتخذ من بيت السيد على ندوة عامة وخاصة فهي لاتفارق (ديوانه) صباحا ولا مساء، فاذا ما انصرف الناس وقضيت بعض حاجات المراجعين من طلب وساطة السيد على في امورهم لدى العلماء او لدى الحكومة أو حل مشاكلهم الخاصة وفض النزاع فيما بينهم وانتهى المجلس فيما هو فيه مـــن

مناقشات وانفرط عقد الاجتماع بقى اعضاء الصفوة فى اماكنهم وتحول المجلس العام الى مجلس خاص ، وعمر هنالك بالوان شتى من جد وسمر برىء كانت تسوده النكتة والظرف والدعابة .

ومعرفتى الذهنية بال بحر العلوم مستمدة من التاريخ البعيد مما كان لابائى الاول من صلات متينة وقد جددها ابى بصداقته للسيد محمد على بحر العلوم والسيد جعفر بحر العلوم ، ثم توثقت اكثر بقيام حزب سياسى سرى بأسم (النهضة الاسلامية) كان قوامه السيد محمد على بحر العلوم واخى عباس الخليلى والشيخ محمد جواد الجزائرى والشيخ محمد على الدمشقى ، وهو الحزب الذى تبنى ثورة النجف سنة ١٣٣٦ هجرية وهى اول ثورة قامت فى وجه الانكليز واعتبرها البعض نواة الثورة العراقية الكبرى[1] وقد قبض فيها على السيد محمد على والشيخ محمد جواد وغيرهما ونالوا فى سبيل (نهضتهم) الشىء الكثير من التعذيب والتشريد مما هو مذكور فى تأريخ هذه الحقبة من الكتب وفرّ أخى عباس الخليلى ونجا وكان الوحيد الذى نجا من حبل المشنقة .

اما معرفتى الشخصية بالسيد على بحر العلوم فانى لا اذكر متى بدأت لاول مرة وكلما اذكر هو اننى كنت والسيد ضياء الدين بحر العلوم زميلين وصديقين نجلس على رحلة واحدة فى المدرسة العلوية ، وظللنا سنين ونحن نصعد صفوف هذه المدرسة معا ومن هذا الطريق عرفت فيما بعد الكثير من افراد هذه الاسرة ، ولم البث ان وجدتنى صديقا حميما للسيد على بحر العلوم يشدنى اليه اعجابى الشديد بالمزايا التى انفرد بها فى هذا المجتمع وزاد من توثيق صداقتى به صداقتى للسيد مير على ابى طبيخ عضو (الصفوة) والشيخ محمد حسين المظفر وانا وان لم اكن عضوا رسميا فى (الصفوة) ولكنى كنت احتل منها جانبا مغمورا بعواطف الصفوة جميعها وكان يوم الاربعاء وهو اليوم الذى اتخذ منه السيد مير على ابو طبيخ يوم (قبول) يسمح فيه لزواره الكثيرين بزيارته وهو كسيح مقعد فكان هذا اليوم يوم

(١) وفى مواضع اخرى ذكر عابر واشارة خفيفة لثورة النجف المذكورة لاسيما فى استعراض ايام الشيخ عبدالكريم الجزائرى .

تنفيس لاعضاء الصفوة يحضرونه كما يحضره غيرهم فاذا انصرف الزوار ظلت الصفوة جميعها عند السيد مير على ابى طبيخ فلا يحين الظهر الا ويصل غداء كل عضو الى بيت السيد مير على فيمتد الخوان وتصف الصحون ولكن المعول الاكبر فى اغلب الايام ان لم يكن كل الايام على ما يأتى من بيت السيد على بحر العلوم من غداء يجمع بين الوفرة والنفاسة وكثيرا ما كان يحجم بعض الاعضاء عن الاتيان بغدائهم مكتفين بغداء السيد على الذى يكون قد استظهر على ما يجلب الاخرون .

وتأخذ هنالك الصفوة حريتها الكاملة ، وتأخذ من النكت والتعليقات والدعابة نصيبا وافرا ، وحتى فى هذا المكان يكون الوقار من اظهر مظاهر السيد على بحر العلوم فلا يكون هنالك شىء غير طبيعى عنده ...!!

وانحصرت بديوان السيد على بحر العلوم جل مهمات دواوين النجف ولم يعد هنالك من الدواوين التى كانت تتعاون فى اداء الخدمة الا القليل وزاد من مشقة السيد على قلة اولئك الذين كانوا يضحون بالشىء الكثير من اوقاتهم ومجهودهم فى معاونة الزعماء فثقل عبء السيد على ، واصبح يعمل اكثر مما كان يعمل اى زعيم نجفى اخر .

وكان السيد على مجاملا باقصى حدود المجاملة . فكان لايسمح لنفسه ابدا بالتأخر عن تفقد من يعرف ، وكان وصولا لا اذكر انه سبقه احد فى زيارة عاجز او ضعيف او محتاج او انه توانى عن قضاء حاجة تخص البلد كله او تخص الافراد ، وكما كان شديد الاحساس رقيق العاطفة مع الناس ، فانه كان شديد الاعراض عن كل من يحس باستخفافه بحقوق الاخرين او الذين لايقيمون وزنا للفضيلة والكرامة ، واننى اعرف انه انقطع عن صديق له بعد صداقة ثلاثين سنة فلم يذكر اسمه على لسانه ولم يسمح لنفسه حتى بالاشارة اليه ، لانه كان قد اقتنع بان هذا الصديق قد ارتكب خطأ قطعيا عن عمد وسبق اصرار ولكن عداوة السيد على ما كانت لتتجاوز حدود الاهمال والاغفال والاعراض التام عمن يكره ويعادى فهو لا يذكره بخير أو بشر ، وهو بعد ذلك مرهف الحس كثير الغيرة على كرامته لحد الخيال تلك الكرامة التى يصعب ان تجد لها اليوم نظيرا ، والتى جعلت من يعرفه كثير

الحذر ، لئلا تبدر منه بادرة تساعد على ظن السيد على بانه من الذين لايفهمونه اولا يعرفون قيمة كرامته كما ينبغي ان يعرفوا .

لقد اهدى لى ذات يوم (طاقة) من الترمة (الشال الكرمانى) العزيزة الوجود ، وكان هذا النوع من القماش وخاصة بلونه الترابى اجدر به مما هو بى انا لاختلاف ملبوسينا ، فاصررت على ان يدعه لنفسه واصر هو على ان أخذه انا لنفسى ، وعبثا حاولت ان اثبت له ان لونا كاشفا قريبا للبياض كهذا لايمكن ان يكون لباسا شتويا لمن يرتدى السترة والبنطلون من امثالى بمقدار ماهو مناسب لمن يرتدى الجبة والقباء من امثاله ثم لمحت – وانا اصر – على وجهه سحابة اوحت الى انه ربما تصورنى مستنكفا ، فاستدركت واخذت (الطاقة) وشكرته ، واسرعت فعملت منها سترة وبنطلونا ولبست البذلة مرة او مرتين حتى قنعت بانه قد رآها على ، ثم خلعتها بعد ذلك على صديق كانت البدلة اكثر ملائمة له منى .

وعلى ذكر الهدية والاهداء فانى اعرف ان الهدايا التى كان يتلقاها السيد على فى بعض المناسبات كانت كثيرة ولكنى لا اعتقد انه قد سمح لنفسه مرة بان تقبل أية هدية ممن لايعرف ، ولا اعتقد انه تلقى هدية من احد دون ان يخص الكثير منها بالكثير من اصدقائه ، فقد كان كريم النفس ، سخى القلب ، لحد الجنون ، وهو بعد ذلك من اوفى الاصدقاء ، ومن اكثر الناس حرصا على ان لايكون ثقيلا على أحد .

* * *

لقد بلغنى انه قدم بغداد مستشفيا وانه يشكو من وعكة ليست بذى بال كما قال الاطباء وسرعان ما خففت الى زيارته ليلا بمدينة المنصور ، فالفيته قد انتقل الى المستشفى ، وفى اليوم الثانى زرته فى المستشفى وقد وجدته قلقا على اكثر من قلقة على نفسه ...!! فقد كان يعرف انى اعانى بعض الشيء من وطأة ضغط الدم وان الطبيب كان قد الزمنى بقلة الحركة فقال لى انه قد طلب من نجله السيد محمد بان يتصل بى تلفونيا حين علم بمجيىء الى بيته فى المنصور ليلا ، ليقول لى

بانه يكتفي مني بهذه الزيارة وانه لن يمنحني رضاه اذا ما فـكرت بزيارته في المستشفى •

* * *

وتكررت زياراتي له في المستشفى ورأيت الغرفة تكاد تتحول بل تحـولت الى ديوان آخر من تلك الدواوين المواجة برجال العلم والادب والسياسـة في النجف وكان السيد علي في مرضه هو السيد علي في شفاه وجه بشـوش وذلاقة لسان ، وفكر صائب ، وحديث حلو عذب ، وكان الازدحام على اشده من زائريه الذين بدأوا يؤمون المستشفى من جميع الاطراف •

وتماثل للشفاء حتى لقد تعين يوم خروجه من المستشفى وقد اعدت العـدة لاستقباله ان هو عاد من بغداد الى النجف ، وفي آخر زيارتي له في المستشفى قال لي وهو يبتسم ـ قال لي ـ :

ـ ان الطبيب المختص قد طلب مني ان اسجل وزني في كل ثلاثة ايام مرة هنا •

قلت ـ أهنالك مانع لديك ؟

قال ـ اتظن اني باق هنا الى غد لكي اقيد نفسي بهذا القيد ؟

ثم اضاف قائلا انه قد انتوى ان يترك المستشفى غدا مادام قد شفي تماما •

وفي الغد ••• في الغد نفسه انتابته نوبة فجائية سلم على اثرها روحه لبارئه، وقد صدق حين قال لي انه انتوى ان لايمكث هنا اكثر من هذا اليوم •

* * *

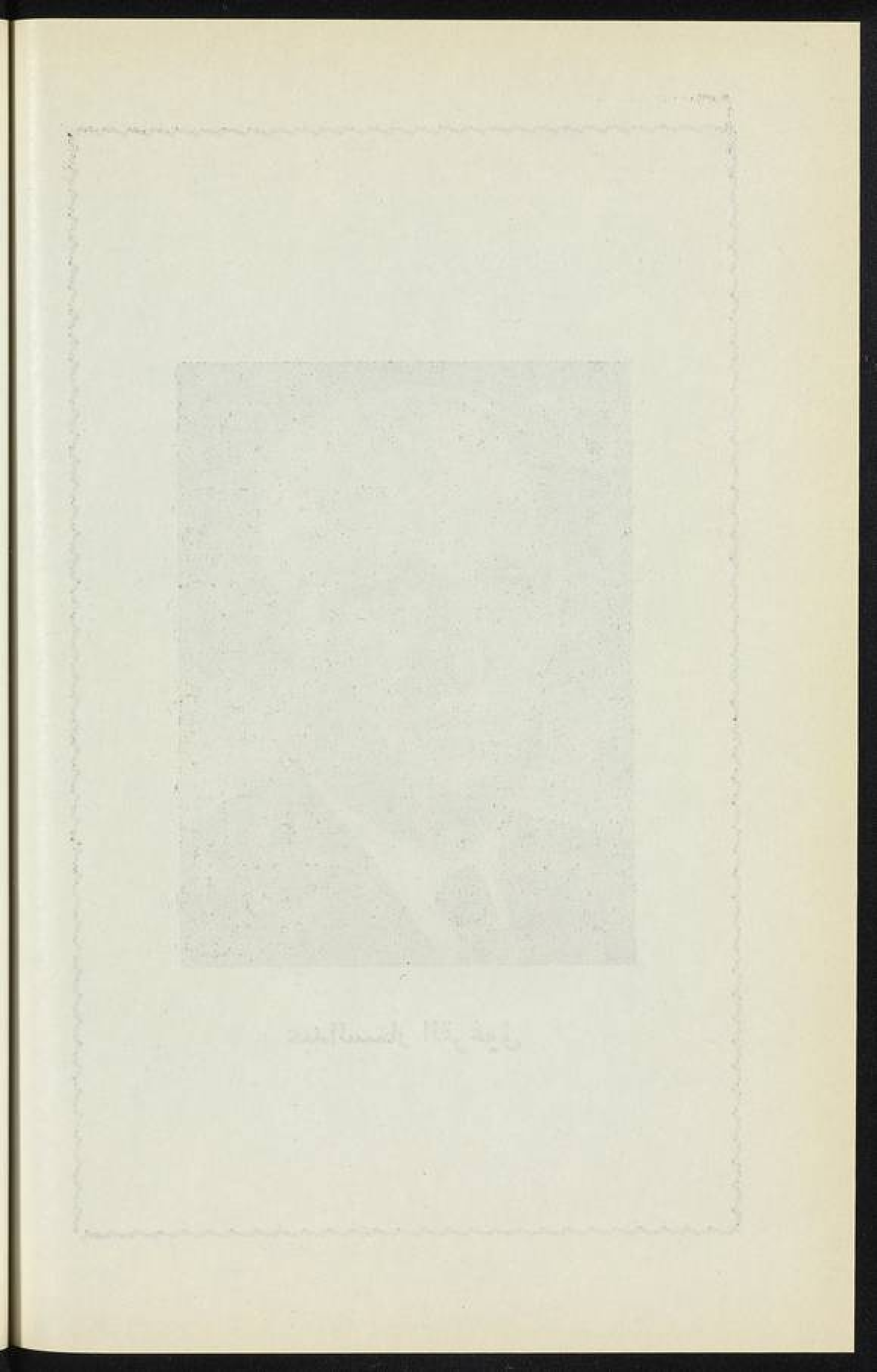
مات السيد علي بحر العلوم وبموته اغلقت آخر نافذة يستطيع الزائر ان يطل منها على النجف فيراها على حقيقتها ، مات فانطفأت بموته شمعة ظلت تنير السـبيل للتائهين عشرات السنين ، وانهار ذلك المثل الشامخ من الرجولة والزعامة الاجتماعية الذي طالما اتخذه ارباب الحاجات والخائبون في آمالهم ملجأ تأوي اليه ارواحهم وتثلج به صدورهم •

ربما كان الكثير قد ملك بسبب السيد علي وعن طريقه افخـم دار للسكن ،

ولربما كان الكثير قد تغلب على مشاكله المالية بسبب السيد على بحر العلوم ، ولربما كان الكثير قد كسب راحة البال بسبب السيد على بحر العلوم ، ولكن السيد على بحر العلوم نفسه مات ولم يرتح له بال ، ولم يملك عقارا ، ولم يبن له دارا ، وانما ملك شيئا قل الذين ملكوه من الزعماء الا وهو تلك الكرامة التى انفرد بها والتى سيتحدث عنها تاريخ النجف طويلا ، فوالهفتى عليه وما افجع قلبى بفقده .



عبدالستار القرغولي



عبدالستار القرغولي [1]

لا احسب ان تعيين الزمن بالضبط ضروري هنا ولذلك لن اكلف نفسي مشقة البحث عن تاريخ انتقالي المضبوط الى الحلة وانما سأترك لذاكرتي الحرية ان تسجل بعض ماهو مرسوم على صفحتها من التواريخ والحوادث وكلما اذكر الان هو اني نقلت من مدرسة النجف الى مدرسة الحلة معلما في نحو السنة ١٩٢٣ على اغلب الظن وكنت فتى في مقتبل العمر لا اخلو من الغرور بالكلمتين من المعرفة السطحية بالتاريخ والجغرافية اللذين كنت اتقنهما على حد زعمي وانا طالب وصرت ادرسّهما وانا معلم ،ومثلهما من اللغة العربية والادب العربي ، ولا يبعد ان اكون قد مددت قدمي اطول مما يتسع لهما بساطي ، ووضعت نفسي في محل اين منه الواقع لولا هذا الغرور الذي يركب الشباب ، وكان من حقي على زعمي ان افعل ذلك .. الم استطع ان احمل القلم فاسطر بعض السطور من الاخبار وابعث بها الى جريدة الاستقلال والى جريدة العراق افرغ فيهما كل رغباتي حقا ام باطلا ، مثنيا على البعض او حاملا على البعض الاخر ، متسترا وراء اسم (المخبر الخاص) أو (مندوب الجريدة الفاضل) وهو في الواقع تستر صوري ليس له وجه الا فوق الصحيفة ، اذ لم يبق في النجف احد لم يعرف مني (انا بالذات) باني انا ــ وليس غيري ــ المندوب الفاضل ، والمخبر الخاص ...

اضيف الى ذلك انني كنت بحكم بيئتي ومحيطي شديد التماس بمجالس النجف الادبية ، قريبا من الادباء اللامعين ، أراهم عن كثب ، واسمع احاديثهم عن قرب ، واتوخى الدعابة والمزاح على القدر الذي يألفه شاب نجفي مثلي يتطلب

(١) جريدة الاخبار ــ بغداد ١٢ــ٥ــ١٩٦١ .

السلو والمتعة فلا يجد فى تلك الارض القاحلة الجرداء (النجف) غير الانتجاء لخلق النكتة ، والسخرية ، والمزاح والمساجلات الادبية ، وغير ذلك من الدعابة البريئة وغير البريئة ، واللذة الادبية الروحية الخالصة .

* * *

بمثل هذه الروح جئت مدينة (الحلة) قبيل افتتاح المدارس بأيام ، وعلى الرغم من تنوع وسائل المتعة فى هذا البلد يومذاك فقد وجدتنى اتهيب هذه المتع كلها ، بل اخافها كلها ، فانا لم اذق الخمرة ، ولم اجرب حظى فى القمار ، فرحت ابحث عن محيط يشابه محيطى النجفى ، وبيئة تحكى بيئتى ، ومجموعة من الناس تهفو اليهم نفسى ، وكان من حسن حظى ان وجدت فى أحد ابناء عمومتى الذى كان يسكن الحلة منذ زمن بعيد والذى نزلت فى ضيافته ملجأ ، فقد كان هذا القريب على صلة لا بأس بها بالادب والادباء فى الحلة ، وقد كان نفسه يقرض الشعر ، ولربما جود فيه بعض الاحيان فاتصلت عن طريقه بعدد من الادباء ، وقد تعرفت بهم عن طريق قريبى هذا بزميل شيخ كان على جانب كبير من الخبرة بالادب وتاريخه ، وبالشعر والشعراء ، بل كان فى الواقع ممن يعتد برأيهم فى مفاهيم الشعر ، وطبقات الشعراء فى جميع ادوارهم ، ذلك هو الشيخ عبدالرزاق سعيد ، او الشيخ (رزوقى) كما تسميه الاكثرية ، وقد رحب بى الرجل كثيرا وتولى القيام بتعريفى للادباء ، وقد رأيت شيئا اكثر من العناية من هؤلاء الادباء حين عرفوا بانى انا وليس غيرى المراسل المرموق ، والمندوب الصحافى ، واننى سأكتب عنهم وعن الحلة فصولا طويلة فى الصحف كما كنت اكتب قبل ذاك عن النجف ، ولم يكن يومذاك من المألوف لكل أحد ان يزاول الكتابة فجل الناس كانوا يصبون الى قول الشعر وحده ، كما لم يكن من الهين ان يتمرس الكاتب اساليب الصحافة وصياغة الخبر يومذاك ، وهذا ما كان يزيدنى غرورا خصوصا وقد ظهرت لى بعد ايام فى الصحف اخبار ذات اهمية عن الحلة وسمعتها التاريخية ، ومقامها الادبى ، اما الشعر فيكفينى منه اننى قد جربته من قبل وجودت فيه الى غير ذلك من المزاعم والادعاءات التى كانت تقتضيها حالة الشباب الذى لايكاد يعرف شيئا غير نفسه وما يحيط بها .

وانفتحت المدرسة وبدأ المعلمون يفدون اليها ، وكان من بين هؤلاء الوافدين من المعلمين شاب اسمر اللون ، حلو الشمائل ، معتدل القامة ، في شيء من القصر ، يعلو رأسه فيس أحمر ، ولم تختط بعد شارباه ، تطفح بشرته بهجة ووداعة تقولان لك انهما عنوان الخير والمحبة ، ذلك هو عبدالستار القرغولي ، وخلال ايام قصيرة استلفت نظر القرغولي تقربي من الشيخ رزوقي ، وعرضي عليه ماكنت استظهر من الشعر ، والامثال ، وما كان يعلق به الشيخ على ما يسمع مني كلما سنحت لنا فرصة من فرص الدرس ، او في اثناء ملازمتي للشيخ عند انصرافنا من المدرسة ونحن في طريقنا الى البيت فلم احس الا وقد اندمج معنا القرغولي متحمسا بهـذه اللذة الادبية ، ومشتركا معنا فيما نكون فيه من طرافة فنية ، ومتعة شعرية ، وصرنا نحن الثلاثة نخرج معا من المدرسة ونظل ماشين حتى نقابل جسر الحلة القديم فيفارقنا عبدالستار ليعبر الى الجانب الثاني حيث يساكن احد معلمي المدرسة الاولية ، ونظل انا والشيخ عبدالرزاق ماشين فلا نفترق الا عند بيتنا فقد كان بيت الشيخ عبدالرزاق قريبا من بيت قريبي الذي استضافني ، وكان علينا ان نخترق السوق في طريقنا الى البيت والمدرسة كلما عدنا من المدرسة او أبنا اليها ، وفي السوق كانت زمرة اخرى من ادباء الحلة تعرفت بهم عن طريق قريبي الميرزا عبدالحسين الخليلي وعن طريق زميلي المعلم الشيخ عبدالرزاق سعيد وفي طليعة اولئك من الشعراء والادباء كان الحاج مهدي الفلوجي الذي كثيرا ما كنا نلقاه وقد اقتعد متجرا لاحد اولاده في السوق ، ثم الشيخ حسن خصباك عم الدكتور شاكر خصباك ، والسيد قاسم وهو من افاضل اهل الادب واشرفهم ديباجة واخلاقا والحاج جواد فاتي ، والشيخ كاظم فاتي فنقضي بعض الوقت من كل يوم ونحن ذاهبون الى المدرسة او آيبون منها ، واتسعت دائرة معارفي واتصالاتي ، فعرفت فيمن عرفت الشيخ محمد امين عوض وكان من اوسع الادباء اطلاعا بتاريخ الادب ، ومن اكثرهم حفظا للنصوص ، ومع ذلك فلم يكن يستغني الشيخ محمد امين عن ضبط الشيخ رزوقي وفصاحته فلقد عود الشيخ رزوقي نفسه على ان ينطق بالكلمة صحيحة التركيب ، مضبوطة الاعراب مفخمة حتى في الكثير من الاستعمالات الاعتيادية ، وكثيرا ما كنا نسمعه وهو

يوجه كلامه لاحد الطلاب فى الصف صائحا به :

«اجلس طاح حظك بضم الظاء » وهذا الضم هنا وان كان يعنى المحافظة على الضبط ، ولكنه من جهة أخرى نوع من التوكيد على (طياح الحظ) ، وكان القرغولى يشعر بحاجة ماسة الى تلقى مثل هذا الضبط فى كل كلمة يسمعها ، فلقد كان ينزع الى الادب بطبيعته ، ثم اتيح له هذا الظرف فراح يغذى نفسه بما كان يسمع يوميا وما كان يعرض هو الاخر على الشيخ رزوقى وقد كان من حبـه للادب ان قام بتدريس اللغة العربية فى بعض الصفوف فاقتضى ذلك منه ان يزيد من الاتصال بالشيخ رزوقى وان يأخذ منه ما يتيسر .

والشيخ رزوقى يستعمل كلمة (الربط والمربوط) كثيرا ، شـأن النجفيين وطلاب العلم فى النجف كأن يعترض الشيخ رزوقى مثلا على قول وارد فى غير محله ، او رأى يبدو له غير منسجم مع الموضوع فيقول : (شلها ربط) ؟

ويبدو ان القرغولى لم يكن قد سمع الربط والمربوط قبل هذا اليوم فسألنى قائلا ان الشيخ رزوقى يكثر من كلمة « لا مربوط ، وبلا ربط ، وشلها ربط » وانا اخجل ان اسأله عن ذلك فما هو الربط ؟ فشرحت له معنى هذه العكازة ومحل استعمالها ...

* * *

واشتدت الالفة ما بيننا ، واذا بالقرغولى يصحبنا الى نهاية الخط فى كل يوم او فى اغلب الايام ، ويجلس معنا عند هؤلاء الاصدقاء فى السوق ، وكثيرا ما صحبنى الى بيت قريبى ، وتناولنا غداءنا معا عنده خصوصا بعد ان عرف ان مثل هذا فضلا عن كونه لايكلف مضيفى شيئا فانه يسره كثيرا لاسيما وان طعامه كان من البساطة بحيث لا يوصف حتى لقد قدموا لنا ذات يوم خبزا وتمرا ولبنا وقالوا لنا انهم لم يطهوا شيئا اليوم بسبب الغسيل وطلبوا منا ان نأكل ونعـذرهم ، والقرغولى مـن الدماثة والخلق الرضى والمجاملة ما ليس الى وصفه سبيل ، لذلك لم يكن غريبا منه ان يقسم لاهل قريبى بان غداءهم هذا هو الذ غداء يأكله فى حياته ولقد بالغ الرجل كثيرا حتى صحت به مازحا وقائلا له : يا سيدى ويا اخى لقد نويت انا ان ابقى هنا وعند قريبى

هذا الى ان اجد مسكنا مريحا انتقل اليه وانا اخشى ان يصدقك اهل قريبى وانت تثنى عليهم وعلى طعامهم فيصابحونى بالتمر واللبن ، ويماسونى بالتمر واللبن ، حتى يهلكونى بالتمر واللبن ، اما انت فماذا يهمك وقد رتبت لنفسك كل شيء فى بيتك من سكن وطاهية وغير ذلك .

* * *

ونزل قريبى على رغبتى فى البحث عن مسكن لى بعد ان اخفق فى حملى على البقاء عندهم الى النهاية وبعد بحث طويل بالنظر لقلة المساكن وجدنا بيتا يخص آل النايب وقد تركوه منتقلين الى بغداد ، وكان قد سكنه رجل وامرأة على سبيل الحراسة وهو بيت كبير ، يحتوى على عدة غرف ومرافق و (طوارم) ، وأبى آل النائب ان يتقاضوا منى اجورا بالنظر لصلاتهم الوثيقة بقريبى الميرزا عبدالحسين وانتقلت اليه، ورحت اتناول طعامى فى المطعم الوحيد الذى يتناول الموظفون الغرباء فيه طعامهم ما عدا بعض أيام الجمع التى كان قريبى يرغمنى فيها على تناول الطعام عندهم .

وكنت اقضى جانبا من الليل انا والشيخ رزوقى فى بيت الشيخ محمد امين عوض مجتمعين حول دلة ما عرفت القهوة الجيدة من غير طريقها ، ولا ازال للان اتذكر اننى لم اكن وحدى الذى كان يتحسس جودة هذه القهوة وانما حتى الفنجان كان ثملا بها ، فكنا نقضى جانبا من الليل نقرأ جانبا من شعر الرضى أو المتنبى او البحترى ، وما كان يحضرنا من تعليقات واقوال حول ما كنا نقرأ ، والحق اننى افدت من مجلس الشيخ محمد امين الشيء الكثير وعرف القرغولى سمرنا هذا فرافقنا الى هذا المجلس ، وفى هذا المجلس عرف القرغولى صناعة (التقفية) لاول مرة والتقفية هى ان يمسك احد ديوانا من الشعر فيقرأ البيت الاول قراءة كاملة ثم يشرع بقراءة القصيدة بيتا بيتا دون ان يذكر القافية لان ذكر القافية يكون من شأن المستمع الذى يجب ان يكون قد عرف ـ بمقتضى سليقته واطلاعه ـ القافية التى ركبها الشاعر وصاغها كنهاية لهذا البيت[١] .

---

(١) لقد تم شرح التقفية فى أكثر من مناسبة من فصول الكتاب .

ولقد فرح القرغولى بهذا اللون من (المتعة) واعتبرها السلم الاول لقـــول الشعر ، وهنا فى بيت الشيخ محمد امين حبذوا للقرغولى قراءة العروض وشجعوه على النظم ، واعتبروا تجربته فى التقفية ، وفى التشطير ، والتخميس الذى مارسه قليلا تجربة ناجحة دالة على ملكة ذات صلة بالمستقبل اللامع ، ومن هنا على اغلب الظن بدأ تأريخ القرغولى الشعرى .

* * *

وفى العصر من كل يوم كنا نرتاد مقهى فى الحلة كان يضم السيد قاسم والملا نافع ، والشيخ حسن خصباك ، وفى هذا المقهى كان يأتينا مرتادوه المذكورون بكل طريف وجديد مغموسا بالدعابة والمجون وكان السيد قاسم هو المجلى فى هذا الادب المرح وهو أدب كانت نفسى تهش له ولا يبعد ان أكون قد التذذت به اضعاف لذتى بالجد الوقور منه ...

وفى هذا المجلس من هذه المقهى عرفنا اشخاصا يشغلون مراكز ائمة فى عدد من الجوامع المهمة لا تتناسب مراكزهم المرموقة مع ماكانوا يحدثوننا به عنهم من ضعف المدارك وشدة البلادة ، وضحل المعلومات ، فكان هذا الجمع اى جمعنا فى المقهى يتسقط اخبار اولئك النفر ويتخذ منهم موضوع شعر ساخر يتبارون فيه ويظلون يتندرون به الى ان تهىء الحوادث لهم مواضيع جديدة .

وانى لاذكر ان مستنقعا كان يتصل بالحلة من جهة الغرب وقد ارتفع النزيز فى هذا المستنقع حتى ضايق البيوت المتطرفة من المدينة فتصدى الحاج شكرى بك الى هذا المستنقع ودفنه فارخ له أحد اولئك الائمة اللامعين والذين طالما اتخـــذهم الادباء موضوع دعابة ، لقد ارخ هذا الامام ردم المستنقع بما يلى :

« سم عين نزت وشكرى بك عماها »

فتناول الرفاق هذا التأريخ وتفننوا فى تشطيره وتخميسه والتعليق عليه ، ولم ادر فى وقته كما لم ادر للآن بعد ماهو معنى (سم) ويغلب على ظنى ان تأريخه كان ينقصه ماية من العدد فاستعان بالسين والميم فى سد هذا النقص والله اعلم .. واذكر

فيما اذكر ان احدا من اولئك الائمة العباقرة كان قد نظم قصيدة طويلة هذا هو مطلعها :

لا اله الا الله تجرى المقادير حكمة بالغة تعتبر

وقد نالت هذه القصيدة من اولئك الرفاق الشيء الكثير من اهتمامهم حسب العادة ٠

وقد تلا مرة احد الرفاق ابياتا لاحد مدرسي جامع الهيتاويين في الحلة على هذا النمط من اختلال الوزن والقافية وكان منها الشيء الكثير من (الدمدمه) فسماها السيد قاسم بالقصيدة الدمامية واقترح الرفاق ان يشتركوا كلهم في مباراتها فابتدأ الملا نافع بهذا المطلع :

دوم ، دوم ، دوم طبلا بد مام قد حسن الصفع على الهام

ثم ضمنوا هذه القصيدة البيت الهجائي الذي ظل يردده جميع ادباء الحلة مدة طويلة وهو :

افكاره تجذب اوساخها كأنها جرة حمام

واشترك الجمع واشترك القرغولي لاول مرة في هذا اللون من الفكاهة فقوبل بالتهليل والترحيب ٠ وهكذا كانت هذه الزمرة تجتمع كل عصر فتتندر بالجاد من الشعر والنثر ، والهازل منهما فنحضر انا والقرغولي الندوة ونقضي وقتا لذيذا ثم ننتقل ليلا لنسمر عند الشيخ محمد امين ٠

* * *

وتوسعت دائرة المتعة عندنا ففكرنا في اصدار جريدة أدبية نكتبها بالطابعة في بضع نسخ ونتولى توزيعها على المدرسين والاصدقاء على ان يشترك كل جمع في قراءة عدد واحد وقد انضم الينا أحد زملائنا المدرسين وهو فريد توما ، وفريد توما هذا ذو مواهب متعددة ليس من حيث اتقانه عددا من اللغات الحية فحسب وانما لانه اديب متفنن وقد اسهم معنا في هذه النشرة ، وكان لشعر القرغولي في هذه النشرة سهم كبير ، وكان الفضل في طبعها ـ كلما انجزنا مسودتها ـ يعود الى السيد

نوري شقيق السيد قاسم الاديب الشاعر .

* * *

وكانت فكرة التعليم المسائي قد انتشرت يومذاك في العراق وقد تبناها ثابت عبد النور ببغداد فهبت الادارة والبلدية في كل مدينة تفتح مدارس مسائية على حسابها ومن ضمن اولئك كانت متصرفية الحلة وبلديتها ، وقبلنا انا وعبدالستار القرغولي العمل في هذه المدرسة الليلية غير راغبين وشبه مرغمين لان معارضة المتصرف لم تكن يومذاك هينة خصوصا وقد كان السيد ناجي شوكت من اقوى المتصرفين يومذاك ، والسبب في عدم رغبتنا هو اننا لم نرد ان نفرط باوقات فراغنا التي خصصناها لمتعتنا الادبية ، وكم سرنا ذات ليلة حين وجدنا لنا عذرا نقضي تلك الليلة عند الشيخ محمد امين عوض فقد انطفأت مصابيح الكهرباء ، وكان يملك مشروع الكهرباء في الحلة آل سوسة ، وهم اهل الدكتور أحمد نسيم سوسة ، وكثيرا ما كانت تنطفيء الاضوية فجأة فيصيح اطفال الحلة (خمد سوسة .... خمد سوسة) فاذا ما اضاءت فجأة صاح الاطفال (اشتعل سوسة .... اشتعل سوسة) وفي تلك الليلة انطفأ الضوء فصرخ طلاب المدرسة المسائية على انهم لم يكونوا اطفالا لقد صرخوا (خمد سوسة .... خمد سوسة) ووجدناها فرصة ثمينة ، فخرجنا الى دار الشيخ محمد أمين عوض ، وفي الطريق الفينا السوق مضيئا !! فهل يا ترى ان ضياء سوسة قد خمد في المدرسة وحدها !! ثم علمنا بعد ذلك ان هنالك طريقة يلجأ اليها الفراشون فيقطعون مجرى الكهرباء فتعطل الدراسة ....!! وعلم الفراشون اننا انا والقرغولي مرغمان على التدريس ليلا ، واننا نستطيب انقطاع الضياء ، فراحوا يراقبون سأمنا حتى اذا رأونا ذات مساء على غير سجيتنا عمدوا الى المجرى فقطعوه ، فكنا نعرف القضية ونتجاهلها بل طالما عمد احدنا فدعا الله على مسمع من الفراشين بان يبعث ملائكته تقطع التيار بعد انتهاء الدرس الاول مثلا ، فيرفع الثاني منا يده الى السماء قائلا : آمين اللهم آمين .... وسرعان ما ينقطع المجرى فتظهر الدهشة علينا امام الفراشين ، ونستغرب كيف ان الله قد استجاب

دعاءنا ، ويستغرب الفراشون هم الاخرون معنا ، ولكنهم كانوا يضحكون فى (عبهم) كما يقول الاصطلاح العامى انهم كانوا يضحكون فى سرهم منا ومن بلادتنا .

* * *

وجاء رشيد القرغولى الاخ الاكبر لعبدالستار الى الحلة ونزل عند ال الحاج شكرى بك فقد كانت بينه وبينهم مودة ، ولاول مرة رأيت المرحوم رشيدا وعلمت ان رشيدا هذا لم يكن راضيا من الاسراف الذى كان يظهر به عبدالستار ، وعلمت ان راتب عبدالستار لم يكن يكفيه ، وان السيد رشيد كان يمده فى كل شهر بمقدار آخر من النقود لذلك عوتب عبدالستار من لدن الحاج شكرى بك واخيه ، وافهم ان مثل هذا الاسراف غير صحيح ، وقد عرض عليه ان يترك بيته وينتقل الى بيت الحاج شكرى وقد قبل عبدالستار بان يترك بيته ويترك الخادمة المستأجرة من قبله ومن قبل زميله ومساكنه ، ولكنه ابى خجلا ان ينزل فى بيت الحاج شكرى ، وقال لاخيه بانه سيمتثل امره ولكنه سينتقل الى بيت الاخ الذى لم تلده امه ، وقد كان يعنينى انا بذلك .

وهكذا تم انتقال القرغولى الى بيت آل النائب وأبى ان نختار له غرفة مستقلة من تلك الغرف الكثيرة فى هذا البيت الواسع الذى لم يسكنه غيرى وغير حارس وزوجته ، وانما فضل ان يشاركنى فى غرفتى ، فكنا نتناول طعامنا فى المطعم ، ونأوى الى بيتنا هذا فنقضى بعض الوقت فى تحضير الدرس اما هو فكان يميل على أحد الدواوين عند فراغه من تحضير الدرس وتصحيح التمارين المدرسية ويبدأ بقراءة الشعر ولكنه كان يأبى ان يقرأ هذا الشعر لنفسه وانما يصر على ان يشركنى معه ولا يفيد معه قولى باننى مسبوق بهذه القصيدة ، واننى كنت قد قرأتها قبل سنوات ، وكنت اقول ذلك صادقا بعض الاحيان وكاذبا حينا اخر لكى اتخلص من هذه المشاركة فى قراءة الشعر وانصرف الى مطالعاتى الخاصة .

وذات ليلة ايقظنى القرغولى بعد ان كنت قد اطفأت الضوء ونمت ، وقال لى انه قد حضره بيتان من الشعر وهو يريد ان ادلى برأيى فيهما ، والحق انهما كانا بيتين جميلين على ما اذكر ، ولكنى قلت له اننى لم اسمع اسخف منهما شعرا وان

الاصح هو ان يترك قول الشعر وقلت له اننى كنت قد خدعته حين قلت له اننى معجب بشعره وحين قلت له ان بينه وبين تبوأ مقام الشاعر ليس الا شبر أو أقل من ذلك ••• فسكت ولم ينطق بكلمة واحدة وفى الصباح صارحته بالحقيقة ، وقلت له اننى معجب كل الاعجاب ببيتيك ولكن أفما كنت ترى من الانسب لو انك اجلت عرض البيتين على الى الغد ؟

قال ـ ولكن اتدرى كيف قضيت تلك الليلة وانت تجابهنى بتلك الصراحة التى لم اشك بها ؟

قلت له ـ لا ادرى ••••

قال ـ لم تجف لى عين من الدموع !!

اذن فقد كان الشعر كل مبتغاه وامانيه فى حياته ، وقد ظن انه لن يظفر به مادام احسن منظومه عندى هو اسخف ما سمعته الاذن على ما قلت له فقد كان يعتز برأيى كثيرا ، ولكى ازيل الشبهة من نفسه تماما طلبت منه ان يعرض البيتين على الشيخ عبدالرزاق ، والسيد قاسم ، والملا نافع ، ثم يعرضهما على الشيخ محمد امين عوض ليتأكد من اننى كنت هازلا ، ولم يكتف هؤلاء بالاستحسان بل عمد بعضهم الى تشطيرهما وفى تلك الامسية تطرق الشيخ عبدالرزاق والشيخ محمد امين عوض الى طائفة من المعانى المقاربة لبيتى القرغولى ، وفى تلك الليلة او فى ليلة اخرى طال بنا السهر والسمر فى بيت الشيخ محمد امين فلم نلتفت الا وضوء الفجر يملأ الكون •••• !!

* * *

وافترقنا بعد ذلك ، فقد عدت انا الى النجف وانتقل هو الى على الغربى ثم الى بغداد وابتدأت المراسلة بيننا ، وقد تضمنت هذه المراسلة الشىء الكثير من هواجسه وافكاره وآلامه النفسية وقد وقع بينه وبين أخيه رشيد شيء من سوء التفاهم ، فقد كان يريد هو السفر الى مصر للدراسة ، وكان اخوه يمانع ، ثم حدث بينه وبين بعض اصدقائه ما ابعد الشقة بينهما وكنت انا فى كل ذلك اسعى على قدر الامكان لتبديد آلامه واحزانه ، وكنت انا الذى سعيت الى اصلاح ذات البين برسائلى او

بمواجهتي له في اثناء العطل بينه وبين اخيه فقد كنت ازوره في بيته في القرغول وكان يفتح لي نفسه على مصراعيها ليسمع من جديد ما كنت اسـطره له بقلمي مشروحا بلساني وهذه احدى شكاواه التي كان يبعث بامثالها الى النجف ٠

لا احد غيرك يا جعفر — يسبر احوالي او يشعر
فانت لي خير نصير اذا — داهم قلبي الفزع الاكبر
يامن يقولون له (جعفرا) — وتستقي من فضله الابحر
وافى كتاب منك الفاظـه — يفوح منها المسك والعنبر
بدد بعض الحزن عن مهجة — تكاد في نيرانه تسعر
قد كنت لا اعرف معنى الاسى — ولا اذم الدهر او اضجر
وكنت لا ابكي لخطب عرا — واليوم صارت ادمعي تنثر

واشتدت ألفتنا اكثر واكثر ، وازداد اتصالنا في أيام العطل المدرسية حتى لقد فكرت اخته ان تخطب لنا معا وفي آن واحد وقالت لي : انني اريد ان ازوجك امرأة سنية لكيلا تبعدك عنا ولتظل قريبا منا الى الابد وبدأت تبحث لنا فعلا عن زوجتين ٠

* * *

وقد وقع القرغولي في حب احدى الفتيات اللاتي اكملن دراستهن في تلك السنة بدار المعلمات وكنت قبل ان اعرف القرغولي لا اؤمن بما جاءت به القصص عن العذريين على ذلك النمط من المبالغة بل كنت اعتقد ان ذلك ضرب من السفسطة التي لفقها كتاب القصص لقضاء الوقت او لتحبيب المثل في النفوس فاخرجوها عن واقعها بتلك الصور التي مثلوا بها حب ليلى وقيس ، وحب ليلى وتوبه ، وحب جميل وبثينة ، وغيرهم ، اقول لم اكن اؤمن بشيء من تلك المبالغات التي تجاوزت الحد حتى رأيت القرغولي ، وحتى سبرت عواطفه ، وحتى فهمت قلبه فاذا بي اشد ما اكون ايمانا بوجود هذا النوع من الحب العذري ٠

وعارض اهله في هذا الحب واطلعت انا على سر هذه المعارضة فالفيت نفسي اكثر منهم حماسا في الحيلولة دون تحقيق هذه الخطبة ، وحدثت هنالك امور كان لها تأثير كبير على صحته فقضى صيف تلك السنة في لبنان وسوريا استجماما للراحة ،

فقد نزل على رغبة الجميع وطلق حبه نهائيا ومع ذلك فقد ظل يئن ويحن ، ويبكى ، فهو من رقة العاطفة بحيث لايستطيع ان يسمع قطة تموء الما ، او شاة تثغو استيحاشا وبعد زمن عرف تماما ان الخير كله كان فى عدوله عن ذلك الحب وانصرافه عن الزواج بمن احب ، وهذه قطعة من قصيدة كان قد بعثها الى يوم كان الحب مسيطرا عليه :

اسر الحب فؤادى زمنا	ونفى عن مقلتى الوسنا
اصبح الدمع طليقا ولقد	الف الجسم نحول وضنا
ارقب النجم وحيدا فى الدجى	كحكيم بالدرارى افتتنا
ليس لى فى وحدتى من مؤنس	غير انى اسلى بالمنى
نكث العهد احبائى الاولى	كنت فى قربهم اجنى الهنا

وتزوجنا انا وهو فى زمن متقارب وانا وان لم اتزوج سنية كما احبت شقيقته ، ولكن زوجتى الشيعية كانت لآل القرغولى اكثر سنية من السنة من حيث قربها لهم فقد انتقلنا الى بغداد ، واتصلت العائلتان اتصالا اوثق وكثر التزاور بينهما ، وتعرف اولادنا بعضهم ببعض ، ووجد كل منهم فى صديق ابيه ذلك الاخ الذى اشار اليه القرغولى ، وكنت قريبا من منتوجه الادبى يقرأ على منه كلما قد تم قبل طبعه من شعر ، وتحقيق ، وتأليف ، وقد خلف شيئا غير قليل من نفائس بحوثه ، منها تاريخ القرغول ومنها تعليقات وبحوث ادبية لغوية ذات قيمة ، ومنها ديوان شعر يفيض بسوانحه ونزعته الوطنية الصادقة .

* * *

وشكا من علل قال الاطباء انها علل سببها الاجهاد ، فقد كان احرص من رأيت فى اداء واجبه كمدرس ، ومدير مدرسة ، ومفتش ، ومدير معارف وكان يقضى جانبا كبيرا من الامسيات والليالى فى انجاز الاعمال ، واستطيع ان اجزم انه كان احب الناس الى رؤسائه ومرؤوسيه ، واحب الناس الى كل من يتعرف به ، وكنت ازوره كلما حانت لى فرصة على الاخص فى ايام مرضه وقد طالت هذه

الايام وكان عليه ان يتجنب القراءة والكتابة والاعمال الفكرية حسب نصيحة الاطباء ، وقبيل وفاته بشهر كنت قد تلفنت له سائلا عن حاله فقال مازحا :

ـ لك ان تقدر حال مريض لم يكتفوا بتحريم القراءة والكتابة عليه فراحوا يغلقون فى وجهه حتى ابواب المطبخ .

قلت ـ افتشتهى ان تأكل شيئا ممنوعا عليك ؟

قال ـ لا ، وانما المانع من دخول المطبخ هو الخوف من فضولى وتطفلى ومن التدخل فى شؤون الطهى بداعى التسلية اما الاكل فيا ليتنى املك بعض الشهية .

* * *

وضاقت نفسه بمرضه خصوصا بعد ان قضى زمنا غير قصير فى المستشفى واذا كان هنالك من فضل على تلطيف مزاجه واحواله النفسية فالفضل كله يعود لاهل بيته من زوجة واولاد فقد لقى منهم مدة ثلاث سنوات وهو معتل كل حدب ، واهتمام ، وعناية ، وقبل وفاته باربعة ايام او خمسة قمت انا وكل اهل بيتى بزيارته فى بيته وكان اثر التعب باديا عليه وقد اوحى لى حاله بشىء غير سار وقد قضيت عنده ساعات قطعناها باستعراض الماضى وهى المرة الاولى التى نفيض فيها انا وهو بهذه السعة من تذكر الماضى وقد قال لى فيما قال :ـ

ـ لم يبق ما يدخل على نفسى شيئا من السكينة واللذة غير انغماسى فى الماضى ، فانا اليوم اتمثل ايام شبابنا كما لو كانت قد مرت امس فتدمع عيناى واحاول ان انهض فاتمسك بظلالها ، واجمع خطوطها ، واحتضن صورها ، ولكنى كمن يمسك الهواء .... وهنا لاحت لى دمعة تترقرق فى عينيه فغيرت الحديث الى ناحية ثانية وتناولت احد مخطوطاته التى كان قد عرضها على لمشاركته الرأى فيها وبدأت اقرأ بصوت عال لاشغله عما هو فيه من استعراض للماضى .

* * *

وفى الساعة السادسة من صباح الاسبوع الثانى ايقظتنى احدى بناتى والعبرة تخنقها وقالت :

ـ مات ...

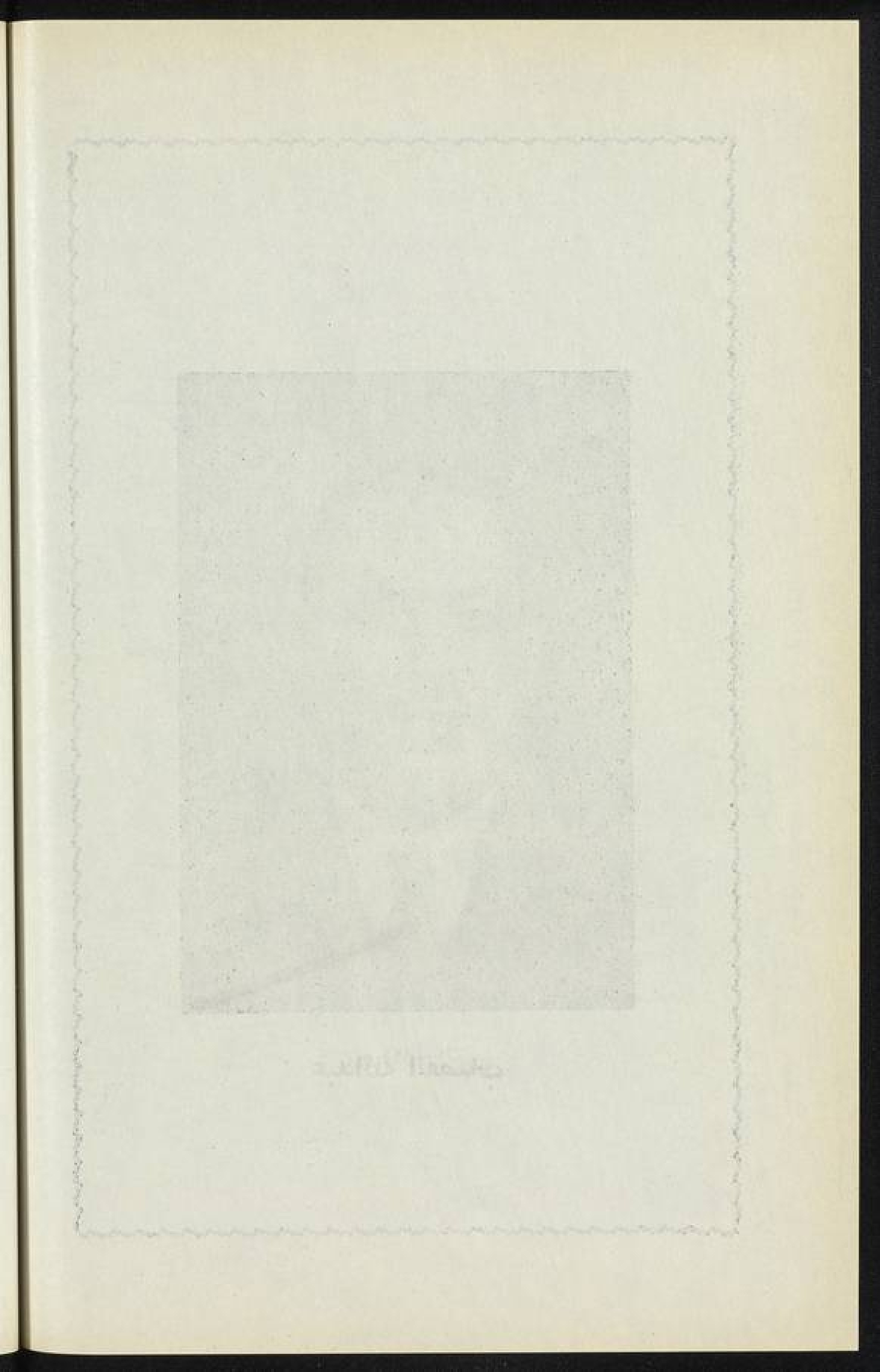
وقد قفزت من فراشي بهلع لا اطيق وصفه وقلت من ..؟ من هذا الذى مات؟ قالت وقد انفجرت الطفلة فى هذه المرة بالبكاء :

ـ لقد مات عمى عبدالستار ....

مات عبدالستار القرغولى ، واذا كان له امثال من الشعراء ، والباحثين ، والكتاب فقد والله عز وجود امثاله من حيث طهارة النفس ، وسمو الذات ، وحب الخير ، والانسانية التى عشقها فمشت فى وجوده مشية الدم فى عروق الانسان فوا لهفتى عليه .



عبدالله القصاب



عبدالله القصاب[1]

لست ادرى متى كان ذلك بالضبط ، ولكنى اذكر اننى كنت قد رأيت عبدالله القصاب وهو معتم بعمامة بيضاء ، مشوبة بشىء خفيف من زرقة الچويت بين اثنين أو ثلاثة من زملائه المعممين الذين تدل بزتهم على انهم من طلبة العلوم الدينية ، لقد رأيتهم فى طريقى وانا امر مع صديق لى بدار المعلمين لاداء امتحان الليـــاقة ، وكانت دار المعلمين يومذاك فى مكان (ثانوية الكرخ للبنات) اليوم وعلى النهر تماما ، فسماهم لى الصديق الذى كنت ارافقه الى (الدار) فلم يعلق بذهنى من اسمائهم غير اسم عبدالله القصاب ، والسبب على ما أعتقد هو ماكان يبدو عليه بين زملائه مـن اناقة ملبس ، وصباحة وجه ، واعتدال قامة ، ولربما كان مما بقى فى الذهن عـن ابيه من شهرة كسبها عن مسلكه الدينى وتقواه شأن فى رسوخ اسمه فى ذهنى ، أو ربما كان لما عرف به عمه السيد عبدالعزيز القصاب الذى كان قائممقـــاما فى السماوة على العهد العثمانى ونجاحه فى الادارة الذى اكسبه بعض الشهرة فى الفرات ثم ماجرى عليه وعلى أهله وحتى أمه من سلب عند انسحاب الادارة من لواء الديوانية فى الحرب العظمى شأن آخر فى انطباع اسم عبدالله القصاب فى ذهنى بمجرد ان نطق به الصديق ، فقد كان السلب والنهب الواقع على امتعة السيد عبدالعزيز فى طريق الديوانية حديثا تناقلته الالسن ، واستنكرته النفوس ، لما كان لعبدالعزيز من تماس بالناس ، وقد لمس اثره المرحوم عبدالله القصاب يوم صار بعد زمن طويل قائممقاما فى (السماوة) فقد عرف اصدقاء عمه عن كثب هناك .

---

(١) جريدة الاخبار ـ العدد ٥٩٤٥ ـ ١٩٦٢/٢/٢٣ .

ومن الغريب انى رأيت الرجل الذي قام بهذا السلب بعد ذلك بزمن بعيد ، وبما يقرب من خمس عشرة سنة ، لقد رأيته بعيني يوم كنت مديرا لمدرسة الرميثة ، فقد رأيت ذات يوم شيخا قرويا كبير السن فى لحية بيضاء وقد خرج به الشرطى من سجن الرميثة الى حديقة السراى وانا مقتعد كرسيا فى محل لا ابارحه من مجلس مدير الناحية عصر كل يوم من حديقة السراى وكان مدير الناحية يومذاك ابراهيم السالم .

اقول لقد رأيت الشرطى يقتاد شيخا كبير السن الى حديقة السراى ، ويسلمه صفيحة تنك ويأمره بان ينقل الماء من النهر بها ويرشه فى طريق الحديقة ، وفوق الاشجار ، ورأيت السجين الشيخ ينقل الماء بدون فتور ذاهبا آيبا بين الشط والحديقة ، وراقبته وانا اهم ان اتوسط له عند مدير الناحية ليعفيه ، بل لقد ترقرقت دمعة فى عينى وانا اشاهد العرق يتصبب من رأس هذا الشيخ ، وانتظرت ان يتم المدير حديثه مع احد مراجعيه لاعرض وساطتى اذا كان لوساطتى بعض شأن عنده ، وكان ان فعلت ، ولكن المدير اعتذر وقال :ـ

ـ ان القانون لايخولنى حبس أحد أكثر من سبعة ايام وقد اجهدت نفسى لاحتال على القانون لعلى استطيع ان احبس الرجل واعذبه اكثر فما استطعت الا ان اجزأ التهمة الى ثلاثة اجزاء لاسجنه واحدا وعشرين يوما افتريد ان تخلصه منى بهذه السهولة ....؟

قلت ـ ولكنه شيخ كبير السن ولا احسب ان ثمة ذنبا يستدعى مثل هذه القساوة ...

قال ـ انه مجرم ، وقد كان قاطع طريق ، وسل عنه ليحدثك الناس عما ارتكب هذا الشيخ من جرائم قتل وسلب فى أيام الفترة بين العهد العثمانى والاحتلال الانكليزى فراحت تلك الدماء والاموال هدرا وقد جرى سلب امتعة عبدالعزيز القصاب ووالدته على يديه فلم يترك لهم شيئا .. ولم يحجم عن سلب ثياب امرأة مخدرة مسنة ..

* * *

ورأيت عبدالله القصاب فى بزته الجديدة وهو مدير لناحية الحيرة يرتاد

النجف في كل يوم جمعة تقرب ناحيته منها ، وكان هذا اول اتصـــاله بالنجف والنجفيين ، والحقيقة انني لم اكن انا اول من التفت الى ان هذا الرجـــل لايشبه بوجه من الوجوه الموظفين الاخرين من امثاله ، وانما كان جميع الذين يتصلون به يتحدثون في ذلك ، فقد كان هنالك رجل من وجوه النجف هو الحاج عبدالرسول شريف ، وكان له مجلس عند دكانه يجتمع عنده بعض الشخصيات مـن الاهلين والموظفين ولاسيما في أيام الجمع التي يفد فيها الى النجف اغلب حكام الادارة والمحاكم من الاقضية التي تحيط بالنجف ، فكان مجلسه عامرا ، وكان عبـــدالله القصاب من رواد هذا المجلس حين يتاح له ان يزور النجف ، ثم كان من اكثـر المرتادين لمجلس المجتهد السياسي الشهير الشيخ عبدالكريم الجزائري .

* * *

وفي هذا المجلس تعرف به الكثير من رجال العلم والسياسة والادب لما كان يضمه مجلس الجزائري في كل يوم من مختلف الشخصيات البارزة ، وزادت روابط القصاب بالنجف فيما كان لكثير من النجفيين من بساتين واملاك في الحيرة واشتدت صلاته بالسيد محمد رضا الصافي خاصة ، وازدادت صـــلاته بالنجف والنجفيين وثوقا بحكم زمالة البعض من النجفيين له في كليـة الحقـــوق وفي مقدمتهم السيد سعد صالح .

* * *

هنا عرفت عبدالله القصاب عن كتب ولكن دون ما حاجة الى درس واختبار ، فقد كان وجهه ناما على جميع احاسيسه لامن حيث الصباحة والانطلاق فحسب وانما من حيث الاشعاع ، فقد كان القصاب من القلائل الذين يصلحون ان يكونوا مصداقا لعلم الفراسة بجميع مشخصاتها فانت حين تراه لاتلبث بعد دقائق الا وتوكد بانك امام مجموعة من صفات سلبية فهو رجل لايكذب ، ولا يحقد ، ولا يسيء وانك امام مجموعة من صفات ثبوتية فهو صديق ، وهو وفي ، وهو حـليم لاتقصى حدود الحلم .

ولا ابالغ اذا قلت انه قلما وقع نظر احد عليه دون ان ينجذب اليه ، فقـــد

كان كالفلتة بل انه فلتة واكثر من فلتة فى هذا الزمان .

وتنقل فى الوظائف فلم اعد أراه الا مصادفة ، وحين مررت لاقضى بعض الوقت عند قريب لى فى السماوة كان هو قائممقاما فى السماوة ، وهنا تجلت مواهبه باجلى صورها فى اصلاح بعض المرافق ، فقد كانت السماوة ابعد جميع الاقضيـة عن الاصلاح ، وكان قد شغلها عدد من القائممقامين وفيهم عدد من الموهوبـين ، ولكن الظروف لم تؤاتهم للقيام بما يتطلبه بلد كالسماوة من الاصلاح والمشـاريع . يضاف الى ذلك ان السماوة قلما وجدت نظراء لعبدالله القصاب من حيث الدماثة والامتزاج بالاهلين كانه كان واحدا منهم ، فقد مرت على السماوة بل على جميع لواء الديوانية ادوار فرضت السياسة على حكامها الاداريين ان يكونوا خشنين مع الناس ، اشداء عليهم ، وان الخشونة والشدة كانت ابعد ما تكون عن خلق عبدالله القصاب ، لذلك وجد فيه الاهلون طرازا جديدا من الموظفين قل عهدهم بنظرائه .

* * *

خرجت معه عصر يوم بعد ان تناولت الغداء عنده ، فقطعنا مسافة ماشين عـلى ضفة النهر وليس معنا احد ، فما مر بنا شخص الا وسلم عليه ، وهم البعض منهم ان يأخذ يده فكان يسحبها ، وان الموظف فى السماوة لايتوقع مثل هذا من الناس ، وان اهل السماوة لايعملون مثل هذا مع اى موظف ولو كان متصرفا او وزيرا ، فقد عرفت السماوة منذ عهد العثمانيين بالاعتزاز بالنفس وبعض الشموخ من دون اغلب مدن الفرات ، لذلك كانت سياسة الحكومة معها قائمة على المخاشنة ، وقـد شهدت السماوة وعشائرها حروبا غير منقطعة بينها وبين الحكومة وبينهـا وبين بعضها ، وكان البعد بين السماوة وعشائرها من جهة وبين الحكومة من جهة ثانيـة كبيرا جدا بحيث اوشك ان يكون من المستحيل تبادل المحبة بين الحكومة والاهلين ، ولهذا دهشت انا لمثل هذا التفاهم ، ولم اخف دهشتى على القصاب ، وزدت بان طلبت ان يشرح لى السبب اذا كان الذى رأيته صحيحا فقال :ـ

ـ دعنى اختصر لك الطريق ، ان العلة كلها كامنة فى الحالة الاقتصادية وفقدان العدل ، فاذا استطعت ان تضمن للناس توفر المعيشة بالقدر الممكن ، وتضمن لهم

العدل الذى يدخل الاطمينان الى النفوس أمن الناس شر الاعتداء ، والضغائن ، والاحقاد ، وحينذاك لن تسمع للسيد (طفار) وأمثاله من المدنيين والعشائر اسما فى ميدان التمرد والخروج على الطاعة ـ والسيد طفار والقسم الشرقى من مدينة السماوة كان مضرب المثل فى العصيان ـ ثم قال : وان السر فى شهرة لواء الديوانية من حيث عدم الاستقرار بين جميع الالوية منبعث من فقدان هذين العاملين فقدان العامل الاقتصادى ، وفقدان العدل ، وما انا الا قائممقام محدود السلطة ، وعلى قدر ما استطعت عملت لاوفر للبلد شيئا من الرخاء او قل حددت على الاقل مضايقة حكومة القضاء للناس فى معيشتهم وسعيت ان اتجنب المحاباة والجنوح والميل لبعض ضد بعض على قدر ما يتيحه لى القانون ، ولا احسب شيئا غير هذا يستطيع ان يجعل من الناس جميعا او من لواء الديوانية خاصة لواء آمنا مطمئنا يسوده السلام والاطمينان .

* * *

والحق ان عبدالله القصاب كان يؤمن بما يقول ، ويجهد ليقرن القول بالعمل فى كل ادارة انيط أمرها به . ومر زمن فاذا به يتولى متصرفية لواء الديوانية ، وهنا استطاع ان يعمل اكثر فى تحقيق الغرضين ، لان حدوده كانت اوسع ، وعند استعراض المستعرضين لتأريخ ادارة هذا اللواء الذى عرف منذ العهد العثمانى بالتمرد ، والحروب ، والعصيان ، سيجدون ان الفترة التى شغل بها عبدالله القصاب هذا اللواء كمتصرف كان اللواء اكثر هدوءا ، واكثر اطمينانا ، واقل مشاكل ، واقل اضطرابا .

* * *

وفي هذا الوقت كان السيد سعد صالح متصرفا فى الناصرية وكان يسعى لتأليف جبهة من متصرفى الالوية فى وجه صالح جبر الذى كان يشغل وزارة الداخلية يومذاك ، وكنت انا يومها مدعوا عند الشيخ محمد حسن حيدر فى سوق الشيوخ ، فاستبقانى السيد سعد صالح عنده فى الناصرية لقضاء ليلة هناك ، وكان عبدالله القصاب قد جاء من الديوانية ليقضى تلك الليلة عند سعد بناء على دعوته له

وعلى مائدة العشاء جرى الحديث بين السيد سعد والقصاب عما ينبغي ان يقوما به للحد من تصرفات صالح جبر في الادارة ، وقال السيد سعد : انه مطمئن من ان عبدالهادى الظاهر متصرف الحلة ، وعبدالرزاق عدوه متصرف العمارة وقال وربما كان عبدالحميد عبدالمجيد متصرف البصرة ايضا سيكونون متفقين تمام الاتفاق في الوقوف معنا في وجه صالح جبر .

وهنا التفت لى السيد سعد صالح وقال :ـ

ـ « بالله جعفر تره المجالس بالامانات » .

فقال عبدالله ـ كنت انتظر ان تكون اعرف منى بالخليلي ....

فقال سعد وهو يضحك ـ وهو كذلك ، ولكن الخليلي صحافى ، ولو كنت اشك فيه لما اصررت عليه بالبقاء عندنا وانا بانتظارك ، ثم لما فاتحتك بمثل هذه الصراحة امامه ، وضحك عبدالله ، وكثر الاخذ والرد بين سعد صالح وعبدالله فيما ينبغي ان يكون ، وما لاينبغي ان يكون ، ورويت امامى اشياء على لسان عبدالهادى الظاهر ، وعلى لسان عبدالرزاق عدوه ليس هذا محل ذكرها .

وقال عبدالله ـ اريد ان اضع النقاط على الحروف كما يقول الصحافيون ـ قال ذلك وهو يحدق الى وجهى ويضحك ـ فاشرح لك خطتى في دنياى ونهجى كمتصرف او غير متصرف ، وهو انى لا اوقع شيئا لا أومن به ، واجهد ان لا انفذ شيئا لا اعتقد بصلاحه ، لذلك فان أى أمر يصل الى من أية جهة كانت سواء كان مصدرها وزير الداخلية أو غيره فلن يجد منى قبولا اذا وجدته مخالفا للاصول والواقع ... والفارق بينى وبين غيرى هو انى ارفض ذلك بدون ضجة واحتجاج وصراخ ، فانا معكم اذا كان الامر كهذا الذى اقول ...

* * *

والحق انه كان كذلك ، فقد وقع له اختلاف مع السلطات وهو متصرف في الديوانية ، وفى الموصل ، ثم وهو وزير للداخلية ، وكان اختلافه مع ارشد العمرى جوهريا وكبيرا يوم كان ارشد رئيسا للوزراء والقصاب وزيرا للداخلية ، ويوم كان ارشد رئيسا لمجلس الاعمار ، والقصاب امينا للعاصمة ، ولكن تلك

الاختلافات لم يدخل فيها شيء من الصخب ، والصراخ ، والتنديد ، فكان القصاب يخرج من المعمعة والابتسامة لاتزال مطبوعة على ثغره ، والحلم ، والوداعة ، والطيبة ، والمحبة تغمر نفسه فلا يبقى لاحد فى نفسه شيء الا الزين من الامور والطيب من الذكريات .

* * *

وجئته وهو وزير للداخلية اشكو له خطة مديرية الدعاية والنشر مع جريدة الهاتف ، وكان المدير حينذاك كمال عبدالمجيد وكان مدير المطبوعات ناجي القشطيني ، فقد كان ورق الصحف يوزع على الصحف بعضا دون بعض ، اما جريدة الهاتف فقد كانت تشترى ورقها من السوق السوداء ، وقد بلغ الامر بها ان اشترت البند الواحد بأحد عشر دينارا ، ولم تكتف مديرية الدعاية بحرمان الهاتف من حصة الورق بل عمدت مرة الى الكتابة الى متصرفية لواء كربلا للقيام بالتحقيق عن كيفية حصول جريدة الهاتف على الورق من السوق السوداء واقامة الدعوى على الجريدة لحصولها على الورق بالطرق غير المشروعة ، وبالفعل اقيمت الدعوى عليها بناء على طلب مديرية الدعاية ، فى حين كانت اكثر الصحف تستلم حصتها من الورق بقيمة نصف دينار للبند الواحد فتطبع صحفها ببعض الحصة وتبيع الباقى فى السوق السوداء باضعاف ثمنه ...!!

* * *

لقد جئت عبدالله القصاب شاكيا سوء المعاملة والاجحاف ، وقد ساءه كثيرا ان تكون الاتجاهات غير عادلة فى اقسام وزارته ، وسألنى عما اذا كنت اعرف صحفا محرومة اخرى غير الهاتف فاجبت بالنفى ، فطلب منى ان أراه فى الغد وفى نفس الوقت .

وجئته فى الغد فقال لى :ـ

ـ والان بامكانك ان تواجه مدير الدعاية لترى كل شيء كما يقتضيه العدل .

وجئت مدير الدعاية واخبرته اننى قد جئته بناء على طلب الوزير ، فقال وانا

اقول لك انه ليس لدينا ورق .

فقلت ـ كنت اعرف انه ليس لديكم ورق ، ولكن حسن ظنى بعدل القصاب قد حملنى على مواجهته .

قال ـ كيف؟ كيف؟ (لقد قالها بشيء من الغضب والهياج) .

واعدت عليه نفس العبارة ..

فلم التفت الا وقد هب الرجل من مقعده واندفع بشدة الى خارج الغرفة ، وتركنى فى مكانى مبالغة فى الاهانة ..!

فقمت وانا اضحك ضحكة تجمع بين السخرية والاستغراب ، وسافرت توا الى النجف دون ان أمر (بالقصاب) ودون ان اخبره بما وقع ....

وبعد اسبوع تقريبا تلقيت من مديرية الدعاية كتابا تقول فيه انها قد خصصت للهاتف حصة من الورق ...!!

أما كيف تم ذلك ؟ وما الذى قاله مدير الدعاية للوزير؟ وبمـــاذا اجاب الوزير ؟ فليس لى بذلك علم وكل ما عرفت هو ان هذا الامر قد جرى على رغم ارادة مدير الدعاية لان القصاب كان يعتقد ان التبعيض مخالف للعدل ومجحف بالحقوق ، وهادم للبناء .

* * *

وتوثقت العلاقة بينى وبين القصاب فقد كان من قراء الهاتف ، ومـن متتبعى مؤلفاته ، وكانت له تعليقات على بعض ماكنت اكتب واطبع ، فقد كان كثير القراءة ، يقرأ كل شيء بشغف ، واكثر ما يحب من القراءة هو قراءة المذكـــرات وتراجم مشاهير العصر الحديث والتعليقات السياسية العامة وكان يصغى الى محطات الاذاعة دون ان يتقيد بمحطة دون اخرى ، ويؤلف لنفسه رأيا خاصا فى السياسة والاجتماع وحتى فى الادب ، فكثيرا ما كان يختلف فى الفكرة مع اصدقائه ولكن اختلاف القصاب لا يشبه اختلاف احد ممن نعرف ، انه اختلاف لين ، هادىء ، لطيف ، يتحاشى ان يقول لمناظره اننا مختلفان ، وقد ملك لسانا لم يعرف الشتم ، او البذاءة ، أو أى شيء مما يعاب عليه المرأ عند الغضب ، بل قلما شوهد غاضبا بالمعنى الـذى

تشهد به اكثرية الغاضبين ، لقد طلب منه مرة خاند الدرة ان يصحبـــه الى عملى ممتاز ، وكان وزيرا للمالية ـ للتوسط فى اطلاق مجلة الوادى من قيد التوقيف ، فمشى القصاب الى وزير المالية والتقيتهما فى الطريق فسرنا معا ، فلم ار شخصـا اكثر حماسا على مصلحة تخص غيره كما رأيت القصاب وهو يدافع عن (الوادى) وعن صاحبه ، وحين تناولت مجلة (الوادى) (القصاب) بالغمز والتنديد ذات يوم ، لم يبن والله على وجه القصاب ماينم عن كدر ، او اسف ، او انزعـاج ، وهـذا جانب آخر مما حبب القصاب الى مختلف النفوس ، حتى لقد تضافر على حبه جميع من عرفه وان اختلفت نزعاتهم واراؤهم ، ولم اشهد رجلا احبه الناس جميعا حتى كاد يخلو من كارهين واعداء كعبدالله القصاب او كاد كارهـوه عـلى الاصـح لايزيدون على عدد الاصابع .

وكان لهذه المحبة شأنها الكبير حتى فى نفوس الحكومات المختلفة المشارب، ولقد حرصت التحقيقات الجنائية على ان يظل الامر مكتوما على القصاب حين حامت الشبهة حول عدد من الشبان وفى ضمنهم ولده (غازى) ، فقد كان يظن ان الحادثة التى ادت الى احتراق سيارة سمير الرفاعى امام قصر الزهور لم تكن حادثة احتراق طبيعية ، وانما هى قنبلة جاءت من الاردن منقولة بالطيارة لتفجر بها ولتقضي على الرفاعى الذى كان يستقلها الى بغداد ، ولكنها لم تنفجر فحملت فى السيارة الى حيث القصر ، ولكن الرفاعى لم يكن فى السيارة فانفجرت ، الا ان التحقيـــق يومذاك لم يؤيد هذه الرواية ، وكيفما كان فقد تناولت الشبهة عددا من الشبان وسعت ادارة التحقيقات ان تخفى الامر عن عبدالله القصاب بخصوص اتهام ابنـه الى ان ينتهى التحقيق وذلك مبالغة منها فى اكرام القصاب وتجنيبا له عـــن الالم والاذى وكان يعانى وعكة قلبية وهو غاية ما يبلغ المرأ من المحبة ، وهكذا كان شأن حكومة الاردن فلم يند منها شيء امام عبدالله القصاب عن ابنه رعاية لشخصه .

* * *

وشغل القصاب أمانة العاصمة أمينا وهو أول من فسح فى المجال لاشـــراك

الاهلين فى عرض ما يهمهم ويعنيهم على الامانة وتداولهم معها فيما يرتؤون ، وكان قبل هذا قد عمل نفس العمل مع اصحاب البساتين ، واصحاب المكابس ، وتجـار التمور يوم كان مديرا لجمعية التمور العامة ، وأسس شعبة للشكاوى فى امانة العاصمة عهد اليها التعاون مع الاهلين فى تذليل الصعاب وتجنب الحيف والاضرار ثم اصدر نشرات ضمنها أهم ما يفيد الاهلين من الشؤون البلدية فيما يخص نظافة البيوت وكيفية مكافحة الارضة والصراصير وما ينبغى العمل فيما يخص مسارب المياه فى البيوت ، وسمى النشرة (تعاون معنا) وقد حث الاهلين فى كل نشرة على ايصال شكاواهم الى امانة العاصمة ، وقد عملت معه فى اخراج هذه النشرات على قدر ما استطعت ولكن طلبات الناس كانت كثيرة ، والعمال والموظفين لم يألفوا بعد هذا النوع من المسؤوليات فتقلص عمل الشكاوى وتبادل الاراء بين (الامانة) والاهلين عند انتقال القصاب من امانة العاصمة .

وعند عودته الى جمعية التمور العامة مديرا عاما ، عاد ليواصل من جديد عمله فى تنظيم شؤون التمور فقد كان القصاب من اول الداعين الى تصنيع التمـور ، وتنظيم الكبس والتجارة على أساس المقايضة ، وعلى انه قد ترك فى كل ناحية من النواحى التى عمل فيها اثرا محمودا فان اثاره فى جمعية التمور كانت واسعة وكبيرة .

* * *

ودعانى ذات يوم وقال ان الجمعية بحاجة جد ماسة الى وضع كتـاب استعراضى عن التمور على غرار الكتب العلمية يتناول كل ما يتعلق بالتمور من حيث الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، لغرض ايقاف التجار والموظفين والزراع والمستهلكين على مشاكل التمور عندنا وما يترتب على الجميع من الحكومة ، والمغارسين ، والمستهلكين ، والمتاجرين فى مثل هذه الاحوال ، فضحكت وقلت له : يسرنى كثيرا ان يحسن الناس الظن بى باكثر مما انا استحقه ، ولكن مغالاة فى الظن كهذه بحيث ينتظر منى ان اؤلف كتابا فى موضوع لا اعرف منه شيئا امـر

مستغرب وغير منتظر اذا لم اقل انه أمر غير داخل في حيز الامكان .

قال ـ ولكنه ممكن لك ...

قلت ـ وهذا هو الغلو بعينه ...

ورحت اجسم له خطورة الموضوع بالنسبة لكاتب مثلي يتناول قضية واسعة الاطراف وبعيدة كل البعد عن مفهومه .

فقال انه مستعد ليضع تحت يدي كل التسهيلات اللازمة من السجلات والتقارير والاضابير ويزودني بمن اريد من الكتاب لمساعدتي .

وعبثا رحت اورد له الدليل بعد الدليل على انني جاد فيما اقول ، وان اعتذاري لايشوبه شيء من التواضع ولكن الحاحه كان قد تجاوز الحد وما زال بي حتى قبلت هذه المهمة الشاقة على مضض ، ولكنني اشترطت على ان انفذ له المطلوب واؤلف الكتاب دون ان اسمح بذكر اسمي فوق صفحة الكتاب وذلك مبالغة في الاحتياط مني لنفسي ولكنه أبى متذرعا بانه انما يريد ان يستفيد من الاسم والمسمى ، فكانت ثقة جاء بها حسن ظنه ، ولست ادري مأتى حسن ظنه هذا الذي حمله على ان يطلب مني تأليف مثل هذا الكتاب .

وشرعت في التأليف وبي شيء من الرهبة ، فهنالك مواضيع تتعلق بغرس النخيل ، وهناك مواضيع تتعلق بتركيب التمور الكيماوي وتحليلها ، وهناك مواضيع تتعلق بصناعة التمور ، فكيف ساخوض هذه المواضيع ؟ وباي نحو ساؤلف هذا الكتاب ؟

ومضيت في تأليفي ، وكنت اعرض اي فصل مما كنت اكتبه من الامور التي لاتدخل تحت اختصاصي على المتخصصين من بعض من اعرف ، وشجعني ان وجدت تأييدا عجيبا من هؤلاء بحيث ان التعليق على ماكنت اعده كاد يكون مفقودا الا ما ندر ولست انسى انني حين عرضت القسم الكيماوي مماكتبته على الصديق الدكتور غازي حمدي بارك لي هذه الخطوة ، وعدّها فوزا كبيرا ، ومع كل ذلك

فقد قضيت فى تأليف الكتاب نحو سنة وثلاثة شهور حتى اخرجته باسم (التمور العراقية قديما وحديثا) ، وبين عشية وضحاها واذا بالكتاب يصبح مرجعا علميا مهما للدراسة ، وقد تكاثر عليه الطلب من الخارج فابتاعت منه الجامعة المصرية ، والجامعة العربية وكثير من المؤسسات العلمية الاجنبية كالجامعة الاميركية ببيروت والجامعة السورية بدمشق عددا كبيرا وصار المعول عليه فى كتابة بعض الاطروحات ذات المساس بالزراعة ، والصناعة ، والنخيل ، وقد اضاف هذا التأليف الى مجموعة افكارى عن عبدالله القصاب فكرة اخرى وهى انه ذو ملكة من شأنها غـرس التشجيع وخلق الامل فى النفوس حتى ليوجد من اللاشىء شيئا .

* * *

واشتكى عبدالله القصاب من عوارض كانت تأتيه بين آونة وأخرى فتختل بسببها صحته فيلازم البيت بعض الايام ، وزادت الشكوى حتى اضطر ان يقضى شهور الصيف من بعض السنين بلبنان ثم اشتدت ازماته القلبية فامتـدت زياراته الى اوربا حتى لقد قضى ذات مرة ثلاثة شهور فى قرية على الحدود الالمانية تسمى (بادن بادن) مستشفيا فى حماماتها وكان عليه ان يخلف كل عاداته وراء ظهره ، وان يرضخ لتعاليم الاطباء ، فيأكل اكلا خفيفا منافيا لذوقه من حيث الطعم ، وان ينام مبكرا ، ويقلل من القراءة ، وزاد على ذلك ان فرضت هذه القرية التى لاتعرف سوى اللغة الالمانية الصوم عن الكلام عليه ، ولكن عبدالله القصاب القادر عـلى الكبت ، والصبر ، وتحمل الشدة ، قد تحمل هذا النوع من الحبس بشىء كثير من الرضى .

* * *

وزادت آلامه ، فزاد صبره ، وطفح حلمه ، وتوثق ايمانه بالله وبالاقدار فراح يتقبل كل ذلك بشىء من الدعة والرضا والتسليم .

وفى ايامه الاخيرة كان يحب ان يكون اصدقاؤه المقربون الى جانبه طويلا كأنه كان عالما بانه لن تطول اقامته بينهم اكثر من هذا وحتى لقد كان يعتب اذا تخلف محبوه الخاصون عن زيارته ليلة من الليالى ، ولقد تأخر الشيخ على الشرقى ذات ليلة

وكنت انا عنده ، فتلفن له قائلا :

ـ يا ولفى ليش ...؟

وقلت له ـ اتمم الجملة لتكمل الاغنية المعروفة (يولفى ليش هاجرنى) وكان من رقة العتب والدماثة والمجاملة انه لم يطق ان يقول للشرقى على لسانه (يولفى ليش هاجرنى) وانما قال له ذلك على لسانى كما لو كنت انا المتكلم مع الشرقى . وقال له يقول الخليلى : يولفى ليش هاجرنى ؟

* * *

وقبل وفاته بليلتين جئى له بصورة زيتية بريشة الرسام الشهير (صميمى) كان قد رسمها له قبل عدة سنوات فلم تصل اليه الا فى تلك الليلة ونحن عند صديقه الدكتور ضياء جعفر فقال اننى لم اعد بحاجة اليها خصوصا وانهـا لم تحـكى بواقعى اليوم .

قلت ـ ولكنها صورة حية تصلح ان تكون ذكرى طيبة .

قال ـ وما فائدة الذكرى ؟

وقد ارتج على فلم اعرف كيف اصور له فائدة الذكرى لاننى انا نفسى كنت قانعا بعدم جدواها لصاحبها اذا غادر الدنيا ، ولكنى لم اكن اتصور انه سـيغادر الدنيا بمثل هذه العجالة ، فقد كان فى ايامه الاخيرة كأحسن مايكون صحة وراحة بال نسبية .

* * *

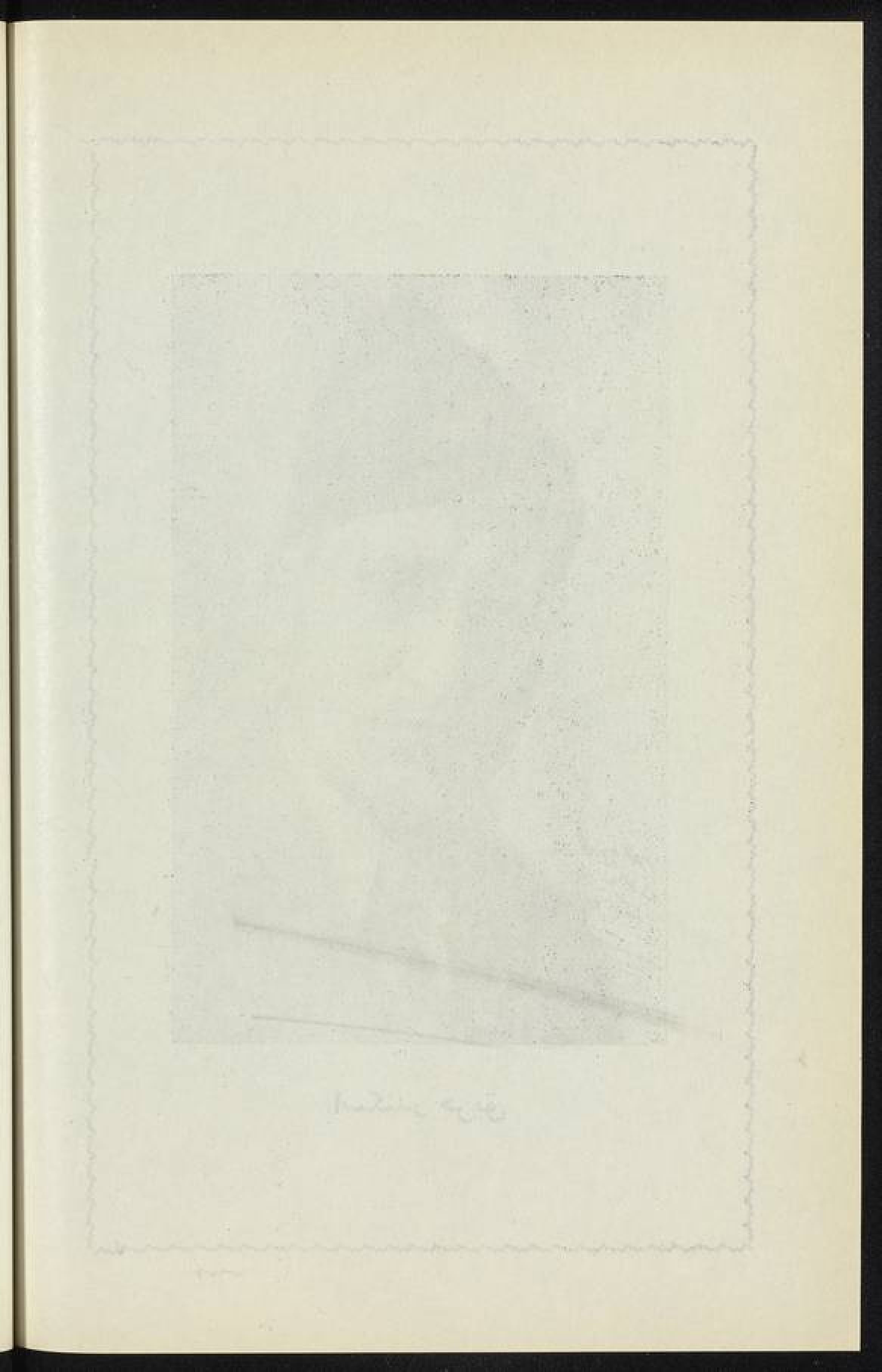
ما سافر مرة الى الخارج وعاد الى بغداد الا وجاءنى بهدية من هناك ، وكانت هديته لى فى هذه السنة قمصانا ولست ادرى الى كم ستظل هذه القمصان معلقة فى خزانة ثيابى ؟ ولكنى اريد ان تظل معلقة امام عينى الى الابد .

ولم ار ثلان من يستسيغ تقطيع كبده مثلى على هذه الحالة ذلك لانى وانا

اعصر روحى لاستقطرها دموعا سخينة لاحس ان كل دمعة منها تحكى قصة عمـا كان لى فى يوم من الايام مع هذا الصديق الذى راح ولن يعود ، من ذكــريات غالية ، فاحس وكأنى فى عالم آخر ما اشبهه بالاحلام ولن استيقظ الا حين تكون دموعى قد جفت وهذا ما لا احسبه سيقع مادمت مليئا بذكرياته .



اسكندر حريق



اسكندر حريق[1]

قبل ثلاثين سنة واكثر كانت ثانوية النجف وثانوية الموصل مثار دهشة رجال العلم والمعرفة لما كان يبدو على هاتين المؤسستين من جد ، ونشاط ، ومنافسة فى التقدم العلمى استدعى وزارة المعارف ان تخصهما بشىء من الرعاية التى كانت تخص بها الثانوية المركزية ببغداد ، وان تختار للمدرستين اساتذة اكفاء ممن كانوا يعملون عندها من ابناء مصر ولبنان وسوريا .

وكانت وزارة المعارف فى حيرة ووجل من امر النجف ، لان خيرة اساتذة المعارف لم يكونوا من المسلمين ، وهى تخشى ان يكون رد الفعل فى هذه المدينة المقدسة عنيفا اذا هى ارسلت لها مدرسين مسيحيين وغير مسلمين ، وعلى رغم ان الواقفين على حقيقة النجف من ابنائها قد نفوا وجود ما يستدعى الحذر من ايفاد اى مدرس من أية طائفة فقد تأنت وزارة المعارف فى ذلك ، ثم بالغت فى حذرها بحيث راحت تستعرض جملة من اللبنانيين لتختار ألينهم عريكة ، وابعدهم عن التعصب الدينى والطائفى ، واكثرهم انغماسا فى التربية والتعليم ، وكان اسكندر حريق فى صدر القائمة ، ولو كان رجل غير اسكندر حريق قد ولد مثله فى ضهور الشوير عروسة مصايف لبنان ، ودرس فى الجامعة الاميركية ببيروت ، وتخرج من جامعة كلمبيا باميركا ، وطاف باغلب اقطار اميركا الشمالية والجنوبية دارسا ، لا متنع من المجيىء الى بلد كالنجف عدمت فيه الوسائل الصحية الكافية من المياه الجارية فى الانابيب ، والنور الكهربائى فى البيوت ، والكثير من الحاجات الضرورية التى

---

(١) جريدة الايام ـ بغداد ـ العدد ٤ ـ ١٩٦٢/٤/١١ .

تقتضيها المدنية الحديثة ، فقد كانت النجف آنذاك كسائر المدن العراقية قريبة عهد بكل تلك الوسائل ، وجاء اسكندر الى النجف ، وقد وضع هذه الامور كلها نصب عينيه ، وكان يقول انه لم يكن يفكر في شيء من هذه الاشياء بقدر ما كان يفكر في كيفية اندماجه في المجتمع النجفي وكسب رضاه ، فاذا بكل شيء يتلاشى في ذهنه ، واذا باسكندر يتبوأ في ايام قليلة محلا من القلوب قلما ظفر به احد من ابناء المسلمين فكيف بمسيحي ينتقل رأسا من عاصمة الكفار على حد تعبير بعض الجهلة الى عاصمة المسلمين ليتولى تعليمهم وليقوم بتدريس علم الاجتماع ...!!

ولكن الواقع هو ان النجف عن كثب غيرها عن بعد ، وعلى ان قسما من موفقية اسكندر في الظفر برضا الناس جميعا يعود الى مكانته وسيرته الخلقية فان النجف كانت ولم تزل تضم طوائف غير قليلة من النفوس السمحة الرضية التي تتصل بالكثير من الافكار الحديثة وبينها من تفوق جرأته في الفلسفة حد التصور بحيث ينعدم في نظره اى فرق يأتي من الجنسيات والاديان والمذاهب ، والغريب من أمر اسكندر ان أصبح في أيام قليلة صديقا لعدد غير قليل من رجال الدين كان من بينهم الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والشيخ عبدالكريم الجزائري والشيخ محسن شرارة ومن الادباء كان موسى كاظم نورس ، وعدد من أدباء شباب الشيوخ آنذاك امثال حسين مروه ، ومحمد شرارة ، ولم تكن يومئذ مبادىء تفرق بين الناس ، وانما كان الادب اقوى حلقة وصل بين حلقات المجتمع ، وقد كان اسكندر على جانب كبير من الادب ، يحسن فهم تأريخه ، ويتقن قواعده ، ويفهم خواصه حتى لقد قل ان تجد له زلة فيما يقرأ ، وفيما يكتب ، وفيما يناقش من قواعد البلاغة ، وقد ساعدته اللغة الانكليزية ، والفرنسية ، والاسبانية على الاجادة فيما يقرأ وفيما يكتب .

* * *

وكنت يومها مدرسا بثانوية النجف ، ولا احسب ان التقائي اياه قد تجاوز مرة او مرتين حتى شعرت باني اكاد اعرفه منذ زمن بعيد ، وان نفسي قد كانت تبحث عن امثاله بين الناس ، وبين الكتب ، وبين الصور الخيالية التي ينسجها الذهن

لتأنس بها الروح فاذا به يحكى الكثير مما كنت انشد ٠

روح خالصة ، وسريرة طيبة ، وأدب جم ، وظرف يطفح على لسانه ووجهه فيدخل على نفسك السرور لاول مرة تلتقيه فيها ، حتى لقد دعا الشاعر الكبير رشيد سليم الخورى (الشاعر القروى) ان يرتجل وهو فى اعلى السلم مستقبلا اسكندر حريق وهو يصعد السلم بساباولو فى البرازيل ووجهه يفيض بالبشر واللطف قائلا :ـ

يا رفيق الاحرار اهلا وسهلا (بحريق) يبل صدر (الخورى)

والتورية فى كلمة (حريق) و (الخورى) واضحة لاتحتاج الى توضيح ، وقد رد عليه اسكندر قائلا : بل يبل ذقن الخورى وهى الاخرى تورية واضحه يقصد بها الواحد من الخوارنة يبل ذقنه ليحلقه له ٠

كنا مرة على مائدة ابراهيم السالم وكان معنا نايف نصر فاشير اليه بالقعود الى جانب اسكندر حريق فقال نايف ولكنى لا اخاف شيئا كخوفى من (الحريق) فرد عليه اسكندر قائلا :ـ

ـ تذكر يا نايف انا فى بيت ابراهيم ، وقد اراد بذلك ان النار لاتمس ابراهيم وآله مصداقا للآية الكريمة (يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وآل ابراهيم) ٠

* * *

وتوفى والده (منصور حريق) واسكندر فى النجف ، فضاقت الدنيا فى عينيه، وادركت انا عمق جرحه لاسيما وهو من رهافةالحس بحيث تسيل عواطفه سيلا ، واشفقت عليه من الشعور بالغربة ، واستعراضه لحياة أبيه ، ثم تفكيره فى احتضاره وهو بعيد عنه ، فبالغت فى دنوى منه ، وحدبى عليه ، ونقلته الى بيتى لقضاء يومين او ثلاثة تحاشيا من شدة الصدمة ، وفى بيتى زاره الكثير من معارفى ومعارفه معزين ، وهنا رأى لونا جديدا من التعزية والسلوان والعواطف مما خفف عليه الالم ، والنجف من هذه الناحية ناحية سبك العواطف فى الادب

وصياغة التعزية تكاد تكون منفردة وقد سمع اسكندر امثالا كثيرة سيقت له على سبيل العبرة والموعظة ، وسمع حكايات كثيرة نقلت له على سبيل التسلية انتزعها من تاريخ ابى عبدالله الحسين (ع) وسمع عبارات كادت النجف تنفرد بها فى مقام التعزية من قبيل :ــ

عظم الله لك الاجر .

وجعلها الله خاتمة الارزاء .

وصبرك الله على بلواه .

وقد عملت مثل هذه التعابير والحكايات عملها فى نفس اسكندر .

واسكندر من كتاب القصة اللامعين ، وهو من المحدثين البارعين يتقن لحد كبير حبك الحديث وتطعيمه بالنكتة والتفنن فى السيطرة على المسامع اذا تحدث ، واستلفات انظار القراء اذا كتب ، ونقل السامع والقارىء الى عالم زاخر بالادب والمرح الجذاب ، لذلك كان اسكندر اكبر قوة استعنت بها انا يوم استقلت من التدريس واصدرت جريدة (الراعى) ثم اصدرت (الهاتف) حين اغلقت الحكومة جريدة (الراعى) ، وقد ترجم اسكندر فى (الراعى) سلسلة من مقالات برتراند رسل ، ومواضيع اجتماعية ذات شأن كبير نقل بعضها من الانكليزية والبعض الاخر من الفرنسية .

وحين زرت كمبرج بعد مرور ست عشرة سنة على ترجمة اسكندر حريق لمقالات برتراند رسل ونشرها فى (الراعى) اسعدنى الحظ برؤية الفيلسوف العظيم برتراندرسل فى مقر جامعة كمبرج ، وفى سياق الحديث ذكرت له قيام جريدتى بنشر سلسلة من مقالاته ، فقال رسل انه يذكر انه قد كتب له يومذاك بان جريدة تصدر فى العراق قد قامت بترجمة بعض مقالاته ، وقال انه لايعرف العربية ولكنه قد قيل له ان المترجم قد وفق توفيقا باهرا فى نقل افكاره من الانكليزية الى العربية وقد حملنى اسنى تحياته وعميق شكره الى المترجم ، وحين نقلت حديثه

الى اسكندر حريق قال ـ لقد كنت انا الذى كتبت له بشروعى بترجمة مقـــالاته ونشرها فى (الراعى) وقد بعثت له ببعض الاعداد من الجريدة •

قلت له مازحا ـ اذن فانت الذى كتبت لبرتراندرسل مادحا نفسك ، ومطريا ترجمتك ؟

قال وهو يضحك ـ ولم لا ••••

ثم تحول الحديث الى جد وقال اسكندر ـ انه قد تلقى من (رسل) كتابا فى وقته يقول فيه انه قد قرأ ترجمته لمقالاته عن طريق احد طلابه العرب فى الجامعة ، ويسره ان يعرف بانه كان موفقا كل التوفيق فى نقل افكاره الى العربية وانه يشكره كثيرا على ذلك •

* * *

وكتب اسكندر فى (الراعى) و (الهاتف) عشرات القصص والمقالات وقد نقل الشىء الكثير من أدب الانكليز والفرنسيين مما لم ينقل من قبل الى العربية ، وقد قمت انا بنشر مجموعة من قصصه جمعتها من جريدة (الهاتف) باسم (عشرون قصة) كان قد ترجم بعضها عن مكسيم غوركى ، وهانس اندرسن ، وتولستوى ، وجان نروادا ، واوسكار ويلد ، وانطون تشيكوف ، وميخائيل لرمنتوف ، ووضع بعضها بقلمه ، وبلغ به التواضع ان ذكر لى يوم نويت ان اطبع كتابه هذا قائلا انه لايرى فيما ازمعنا عليه أية فائدة مرجوة للبلاد او للجيب من طبع كتابه هذا ، وبالغ فى تواضعه وظرفه قائلا وياليت فى قدرة هذا الكتاب ان يحقق أمل ابى يوسف حين لم يستطع ان يسدى للعلم والوطن شيئا ، فسألته عن قصة ابى يوسف فقال :ـ

« كان صديق يقرأ مقدمة كتاب لابى يوسف وقد قرأ فى هذه المقدمة قول ابى يوسف :ـ

« والذى دعانا الى تأليف هذا الكتاب هو خدمة العـلم والوطـن » فقال لـه الصديق :ـ

أهى خدمة العلم والوطن ام خدمة ام يوسف والاولاد ؟ ».

ثم اورد اسكندر الحكاية المتقدمة فى مقدمته من كتاب (عشرون قصة) ، ونفدت الطبعة من كتابه هذا فى شهر واحد .

* * *

وفى سنة ١٩٣٦ كنت مصطافا بضهور الشوير بلد اسكندر حريق الجميل ، وكان اسكندر كعادته فى كل صيف يبحث جادا عن زوجة تلائمه فلم يوفق وذلك لما كانت تكلفه التى كانت تقع تحت اختياره من شروط ثقيلة لاقبل له بها وقد هدد ذات يوم مازحا ، لقد هدد ونحن فى مجلس حافل بعـدد مـن عائـلات ضهور الشوير قائلا :ـ

ـ لعننى الله ان لم ادخل فى الاسلام واتزوج بمئات النسـاء نكاية بعنصر المرأة المسيحية واظل اتزوج واطلق الى ما شاء الله .

ولكن اسكندر فى هذه المرة عثر على بغيته وكانت الشروط ملائمة ، والفتاة جميلة ومؤدبة ، وقد اعدت العدة لعقد اكليل الزواج فى اليوم التالى ، ولاسكندر حقوق كثيرة عند الكثير من بلده وغير اهل بلده لما اتصف به من دماثة وخلق كريم فلا بأس ان يكون لزواجه وقع فى النفوس وتحفز لحضور الاكليل .

وجاءنى رسول منه يستعجلنى الى بيته قائلا انـه قد تركـه فى حـال من الاضطراب لايوصف ، وكان الوقت ظهرا وكنت قد القيت بنفسى على سـريرى فى اوتيل سنترال بضهور الشوير ، فخففت اليه واذا به يتقلب فى فراشه كمن لدغته افعى والدموع تتحادر من عينيه ، والى جانبه اخته الانسة (زلفا حريق) تصب الدموع صبا واخته (مارى) وكانت اقدر من اختها زلفا على الجلد أو أنها لم تكـن تعرف سبب هذا النحيب وكانت تقدم له شيئا من الدواء الذى وصفه له الطبيب قبل ساعة لتهدئة الاعصاب ـ ، وظللت اكثر من ساعة وانا احاول ان اعرف الطارىء ، وظل الاخ والاخت يسعيان للتغلب على ثورتهما النفسية حتى اتيح لى ان اعـرف

الحكاية ، والحكاية ليست مشكلة مستعصية ، ولكن خلق اسكندر يجعلهـا مـن المشاكل المستحيلة الحلول ، فقد علم اسكندر قبل ساعة بان البنت التى خطبها كان لها خطيب من قبل وانها ٠٠٠٠

قلت ـ افلم تسأل عنها من يعرفها حين اقدمت على خطبتها ؟

قال ـ لقد سألت السماوات والارضين ٠٠٠، والناس لايصدقونك القول ، ولسان الحال منهم يقول :ـ

« شوبدىَ منو» •

فيكتمون عنك كل ما يعرفون ، وتنعدم النصيحة ، وهذا هو كل ما وقع ٠٠٠

قلت ـ وهب انه كان للفتاة خطيب فما الضائر ؟

ـ قال ولكن لماذا اخفى اهلها عنى الخبر ؟ ثم ألم تقولوا انتم (النجفيين) فى كل شىء من هذا القبيل ـ ألم تقولوا :

قد قيل ما قيل ان حقا وان كذبا   فما اعتذارك من قـول اذا قيـلا

ألم تستشهدوا بهذا البيت فى كل مناسبة من مثل هذه المناسبات ؟

قلت ـ بلى ٠٠٠٠ ولكن ٠٠٠٠

قال ـ ولكن ماذا ؟ ٠٠٠ لقد قيل لى اليوم عنها اشياء كثيرة وانا لا اعرف كيف اعمل لكى اجنبها هذه الاهانة اذا اردت ان الغى الزواج ؟ انها اساءة كبيرة ان لم تكن جريمة ، فانا لا استطيع بعد هذا ان اتزوجها ، ولا استطيع ان اعـلن فسخ الخطوبة لاعرضها للاهانة ، ولاجعلها مضغة فى افواه الغادين والرائحين ؟ ترى ما الذى سيقول الناس عن هذه المسكينة ؟

وهدأت من قلقه ، وحملته على ان يواجه الكارثة بالحـــلم ، وان يفسخ الخطوبة بطريقة معقولة مقبولة وليس هذا محل ذكرها ، وقد ضحى بكل ما انفقه فى هذا السبيل من مال ، ولم يزل كلما يتذكرها يشعر بتأنيب لايستطيع ان يعرف مداه من لم يعرف اسكندر بحقيقته حتى بلغه زواج الخطيبة بعد ثلاث سنوات ونجاحها فى زواجها وهنالك استراح من تعذيب الضمير ٠٠٠

وأحسن الله الى هذا الرجل الطيب الطاهر فهيأ له بعد عدة سنوات زوجة

جمعت بين جميع مؤهلات الزوجة الصالحة ، من حسن تربية وأدب واخلاص وحدبت عليه وزادت حدبها عليه شيئا كثيرا من مزاياه فقد سمت عاطفته اكثر ورق طبعه اكثر واكثر ...

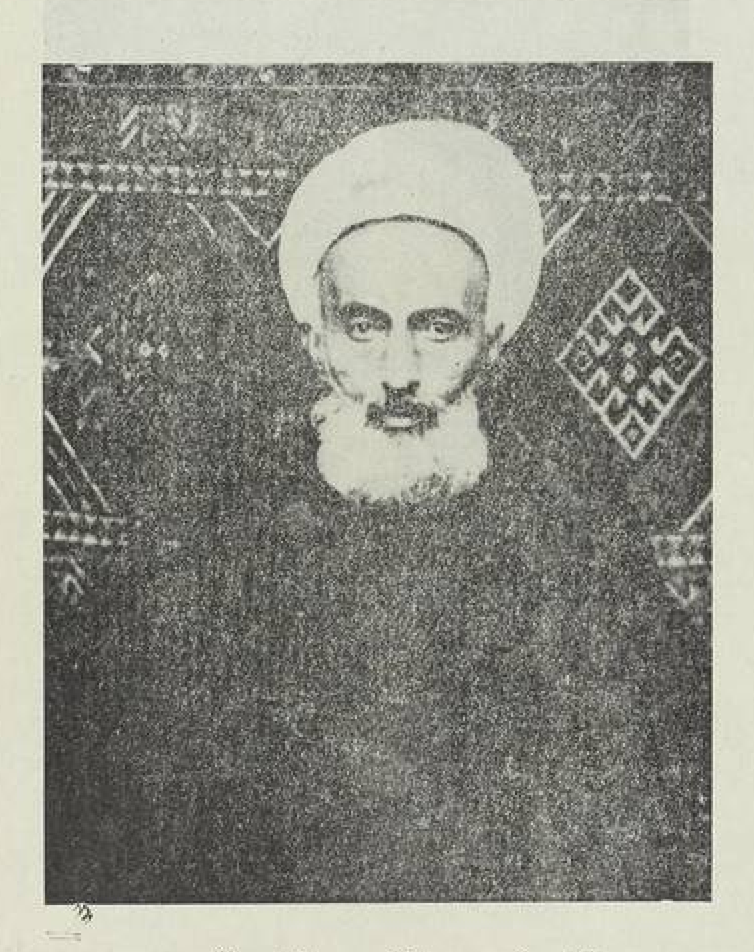
وحين ترك العراق بعد خدمة طويلة للمعارف والادب عاد الى الجامعة الاميركية ببيروت وعمل فيها استاذا من جديد ، ثم عمل بعد ذلك فى شركة نفط العراق ببيروت ، وانيطت به رياسة تحرير مجلة اهل النفط وكانت الاقلام العربية من مختلف الاقطار فى هذه المجلة تتزاحم بحيث لم يكن مجال فى المجلة الا للقليل من الكتاب العراقيين قبل ان يتولى اسكندر رياسة التحرير ولكن اسكندر هو الذى فج هذا الزحام وزاد من عدد الكتاب العراقيين فى هذه المجلة على رغم قصر المدة التى ادار فيها تحرير مجلة اهل النفط .

وزرت بيروت فى ربيع سنة ١٩٥٧ وسرنى ان اجد اسكندر حريق متمتعا بجو عائلى بهيج ، وانه استطاع ان يجد الزوجة الحبيبة دون حاجة لان يضحى بمسيحيته ويدخل الاسلام على حد مزاحه .

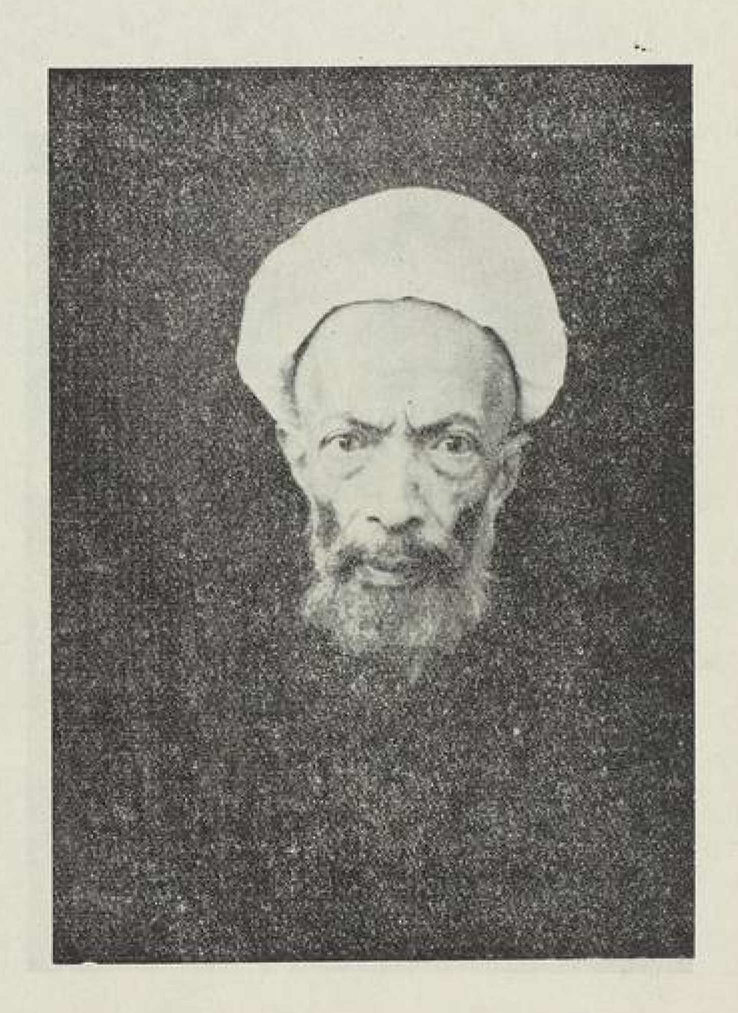
وتناولنا انا والصديق حسن الامين طعام العشاء فى بيته واستعرضنا هناك الماضى فاذا به يحن الى العراق ، والى ناسه ، والى النجف وحياتها الخشنة حنينا عميقا ، واذا به يقول انه يحس بحاجة ما بعدها حاجة الى استجمام روحى يضمنه له قضاء شهر واحد فى ربوع العراق ، ولكنه توفى قبل ان يتسنى له الظفر بتحقيق هذه البغية .

وانا اقرأ خبر نعيه فى الصحف كانت دموعى تحوط الخبر من جميع اطرافه فكانت هذه الدموع اشبه بالاطار الذى يحيط بالصورة .

لقد مات اسكندر ، وكان من القلائل الذين لم يكن له قبر واحد فى بقعة واحدة ، وانما ترك فى كل صدر من صدور عارفيه قبرا لن يعفى ، وفى مقدمة اولئك طلابه الكثر فى الجامعة الاميركية ببيروت وثانويات العراق ودار المعلمين ببغداد وصدور حملة الاقلام العربية الذين تعرفوا به من طريق أدبه ، رحمه الله ووفاه حقه من خدمته الصادقة للعلم والادب .



الشيخ عبدالكريم الجزائرى



الشيخ محمد جواد الجزائري

الشيخ عبدالكريم الجزائري[1]

كان ملء السمع والبصر يوم وعيت ، وكانت لمجلسه شهرة خاصة بين عشرات المجالس النجفية لاقتصاره في الغالب على طبقة تجمع بين العلم ، والادب ، والسياسة وزن الامور بموازين تختلف مقاييسها عن موازين الكثير من مجالس النجف ، ومن هذه المجالس اى (الدواوين) كانت تنتشر الاخبار السياسية ، وغير السياسية ذات العلاقة بالعالم الداخلي والخارجي ، البعيد والقريب ، وكان المنبع الذى تستمد منه المجالس الاخبار الخارجية يومذاك هو بعض الصحف التى كانت تصل الى النجف بين اونة واخرى من اسطنبول ، وايران ، وبيروت ، والقاهرة ، وبغداد ، فتدخل بعض المجالس وتظل الالسن تلوك اخبارها الى ان تصل رزمة جديدة منها بعد اسبوع او اسبوعين ، واحيانا بعد شهر واكثر لعدم انتظام وصول البريد يومذاك وكان المنبع الاخر الذى تستقى منه هذه المجالس اخبارها هم(الجنازون) والجنازون هم حملة الجنائز الذين يأتون بالجنائز من مختلف الاصقاع وبغاية ما يستطيعون من السرعة خشية تفسخ الجثث ليدفنوها فى النجف فينقلون مايعرفون من اخبار اصقاعهم ومواطنهم الى مضيفيهم ومعارفهم ، ينقلها هؤلاء رأسا الى تلك المجالس بحكم العادة ، ومن هناك تنتشر فى جميع اطراف النجف بسرعة البرق .

وعن طريق هؤلاء (الجنازين) كثيرا ما تتضارب الاخبار وتتناقض ، ولكنهم كانوا كالراديو اسرع وسيلة يومذاك لوصول اخبار المدن وحروب القبائل وما كان يجدّ هناك ، وكانت هذه الاخبار تصل صحيحة تامة الصحة حينا ، وملفقة بعض التلفيق او كل التلفيق احيانا اخرى .

---

(١) جريدة الايام ـ بغداد ـ العدد ١٠٠ ـ ١٩٦٢/٨/١٢

وكثيرا ماتعوز رواة الاخبار غير الصحيحة الحجة فيما يروون فيتكئون على الجنازين ويتخذون منهم سندا فيما يروون قائلين :ـ

« روى ذلك جنّاز ورد على آل العادلى مثلا او آل حموزى »

وللسخرية بالاخبار غير المنطقية او الحوادث المستحيل وقوعها يقول النجفيون عنها : انها اخبار (جنّازين) ، ولذلك كثيرا ما يتفكهون فى صوغ الاخبار الفكهية على السنة (الجنّازين) فيقولون مثلا ان البابا الاعظم ينوى ان يؤسس فى الفاتيكان مقبرة واسعة يعارض بها مقبرة النجف ، ويدعو أهل الجنائز ان يدفنوا جنائزهم فيها بدلا من دفنها فى النجف ، ثم ينسبون الخبر الى (الجنازين) قائلين ـ روى ذلك جنّاز جاء من ايطاليا حديثا ونزل على (آل الملك) أو (آل مال الله) مثلا ، وآل الملك وآل مال الله اسرتان من الاسر النجفية المعروفة .

ومع ذلك فكثيرا ما تصل الى النجف اخبار صحيحة وسريعة عن المدن العراقية والقبائل وما كان يجد فى الاطراف بواسطة هؤلاء الجنّازين .

وهناك عامل آخر ذو شأن فى اتصال النجف بالعالم الخارجى وهو كثرة من يخرج من النجف من طلاب الدين والمشايخ ومن يرد اليها منهم وكثرة الزوار الذين يؤمّون النجف من مختلف الاطراف ثم الرسل الذين يحملون المكاتيب من العلماء والرؤساء فى الخارج الى العلماء والرؤوساء فى النجف بقصد الاستفتاء أو التوسط فى قضاء بعض الحاجات العامة والخاصة ، فكان كل هذا عاملا خطيرا فى نقل الاخبار الى تلك المجالس وانتشار تلك الاخبار عن طريق المجالس ، هذا مضافا الى العدد الكبير من الوجوه وكبار الشخصيات الرسمية والاهلية ورؤساء القبائل الذين يؤمون النجف فى مختلف المواسم فيقصدون اول ما يقصدون ـ بعد زيارة مرقد الامام ـ اصحاب تلك المجالس توددا لهم وتكريما لشخصياتهم أو لداع من مصالح واستشارات وتبادل اراء بين ارباب تلك المجالس حول المسائل العامة أو الخاصة لذلك كانت النجف اكثر مدن العراق على الاطلاق اتصالا بالعالم الخارجى البعيد والقريب لكثرة ما كانت تعطى ، وكثرة ما كانت تأخذ من الاخبار والحوادث،

وهذا ما ساعد النجف على ان تكون موضع التفات الاقطار الاسلاميـــة والاقطار العربية فضلا عن قيمتها الروحية والعلمية والادبية ، وهذا ما جعل النجف اسرع المدن في تجاوب الافكار لذلك لم يكن غريبا ان يكون الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ علي الشرقي من اوائل من أبَن الباخرة (تيتانيك) ووصف غرقها واحاسيس ركابها في اثناء الغرق ، وكان لتلك الاتصالات او الصادرات والواردات كما يسميها أحمد الصافي النجفي متفكها شأن كبير في قيمة مجالس النجف يومئذ وما كان لها من اثر سياسي ، وعملي ، وادبي في الاوساط مما قد اشرنا اليه في هذه المجموعة من قبل :

فصادرات بلدتي مشايخ وواردات بلدتي جنـائز

ومجلس الشيخ عبدالكريم الجزائري كان في الطليعة من حيث اتصـــال الخارج به ، ومن حيث زيارة الوجوه له ، ومن حيث تلقيه الرسائل مـن مختلف الجهات وما كان له من قيمة في تكوين الرأي العام وتوجيهه والوقوف به مواقف مشرفة في دنيا الوطنية والتحمس لقيام المشروطة في ايران والانقلاب العثماني ، والمطالبة باللامركزية للعراق في العهد العثماني والتحفيز لطلب الاستقلال التام بعد الاحتلال البريطاني ذلك لان الشيخ عبدالكريم كان ذا جوانب متعددة ، ووجوه متنوعة ، وملكات ، ومواهب ، وقابليات ظهرت باجلى مظاهرها في ميادين البحوث العلمية والادبية والتجديد فضلا عن النضج السياسي المعروف .

فاذا عدّ العلماء كان للجزائري مقامه المرموق بينهم واذا عـــد الادبـاء كان الجزائري في الرعيل الاول منهم واذا عد كبار ساسة النجف كان الاول بعد ان مات الشيخ جواد الجواهري ، والشيخ عبدالرضا الشيخ راضي ، لذلك كان لمجلس الجزائري شأن خطير في تاريخ المجالس النجفية .

وكنت اسمع باسم الشيخ عبدالكريم الجزائري واسمع باسم مجلسه وانـا صبي ، اسمع به مرددا على لسان ابي وعلى السنة اعمامي حينما تجيء المناسبة ، اما اين هذا الجزائري ؟ وما هي اوصافه من حيث الشكل والهيكل والصـــورة ؟

فهذا مالم اكن اعرف عنه شيئا لانى لم ادنف بعد الى المجالس النجفيـــة لارى هؤلاء بعينى بعد ان سمعت باسمائهم باذنى ، ولكنى استطعت ان اعرف بعد زمن ان الشيخ محمد جواد الجزائرى ، هذا الذى يندفع كالسيل اذا ما تحدث ، والذى لم تهدأ ثورته ، ولم تخمد جذوة حماسه الوطنى ، هذا الشيخ لـم يكن الا الاخ الاصغر للشيخ عبدالكريم ، لا لانى كنت قد رأيت الشيخ محمد جواد غير مرة فى بيتنا وفى حجرة اخى الاكبر عباس الخليلى بمدرستنا فحسب وانما لان ثورة النجف التى اشترك فى تنظيمها كل من السيد محمد على بحر العلوم ، والشيخ محمد جواد الجزائرى ، والشيخ محمد على الدمشقى ، واخى عباس ، وأججوها نارا حامية ، وقد جعلت اسم الشيخ عبدالكريم يحتل من ذهنى اكبر مجال عن طريق ذكر اخيـــه الشيخ محمد جواد الجزائرى •

اما ثورة النجف فهى الجذوة والشرارة التى اراد هؤلاء الاربعة ان تكون مبعث الثورة العراقية الكبرى ففشلوا ، وكانوا قد دبروا الامر تدبيرا اعوزه الكثير من الاحتياط والعمل ، اذ اكتفوا بالاتصال ببعض القبائل وعلى الاخص (العوابد) و (آل على) و (الحواتم) وادخلوا فى اليمين بعض رجالات القبائل مثل مرزوق العواد ووداى العلى ، وسلمان الفاضل ، ومشكوف من شيوخ بنى حسن (الحواتم) وعـدد كبير من شيوخ النجف وحملة السلاح كالبوگلل ، وكاظم صبى ، وكريم الحاج راضى ، وعباس على الرماحى ، والحاج نجم الذى كان له شأن يذكر وغيرهم مثل محسن ابى غنيم ، واقسم الجميع على ان يحملوا السلاح فى وجه الانكليز ساعة تنطلق اول رصاصة من النجف وادار المؤتمر السرى المؤامرة ادارة متقنة ، وعينوا يوم النوروز موعدا للثورة ، ولم يكن ذلك كافيا ، لان ثورة يراد لهـا النجـــاح المضمون لتتطلب دراسة اعمق ، وخبرة اوسع للناس ومدى تضحياتهم وما يملكون من استعداد قبال تلك القوة ، وكيفما كان الامر فقـــد ثارت النجف فى المـوعد المضروب وقتل الحاكم الانكليزى (الكابتن مارشال) ولكن الثـــورة ظلت ثورة محلية ، ذلك لان سلطة الاحتلال كانت قد احست فى الوقت المناسب بالثـــورة

وتغلغلها بين العشائر فاسرعت لاتخاذ التدابير والاحتياطات الكافية لحصر الحركة في محلها والحيلولة بينها وبين اشتراك القبائل فيها .

وفشلت الثورة وحارب النجفيون وحدهم ، وأبلوا بلاء حسنا . ودخل الانكليز المدينة بعد حصار دام اكثر من شهر ونصف شهر فتم القبض على زعماء الحركة ، وكان السيد محمد علي بحر العلوم والشيخ محمد جواد الجزائري في مقدمة المقبوض عليهم وحوكم الثوار عسكريا ، وتم اعدام احد عشر شخصا منهم وزج اكثر من مائة رجل في السجن وتقرر نفيهم الى سمربور في الهند ، اما اخي عباس الخليلي فقد كان الشخص الوحيد الذي فرّ ونجا باعجوبة فحكم عليه بالاعدام غيابيا ، ولكيفية اختفائه وهروبه قصة طويلة ليس هذا محل شرحها .

واما الشيخ محمد جواد الجزائري ، وبحر العلوم فقد انجاهما من الحكم بالاعدام توسط أمير المحمرة الشيخ خزعل في أمرهما فصفدا بالسلاسل وارسلا ليقضيا سجنهما في الهند عن طريق بغداد وعند مرورهما بالبصرة جدّد الشيخ خزعل توسطه فاطلق سراحهما ، وبقيا عند الشيخ خزعل بخرم شهر (المحمرة) نحو سنة الى ان اذنت سلطة الاحتلال لهما بالعودة الى النجف فعادا .

ويعتبر الشيخ خزعل من اكثر المخلصين للشيخ عبدالكريم الجزائري ، ومن مقلديه والمقتدين به والآخذين برأيه والمطيعين لامره ، لذلك كثيرا ما كان الجزائري يتوسط لدى الشيخ خزعل في حل الكثير من الازمات العامة والخاصة وما كان يقع بين الحكومة العثمانية والايرانية والقبائل في تلك الجهات بل كثيرا ما استعمل الجزائري وساطته لحمل الشيخ خزعل على الاسهام في المشاريع العامة فكان الشيخ خزعل اطوع له من بنانه ، حتى وقعت الحرب العامة الاولى ، واعتبرت هذه الواقعة حربا بين الكفار والمسلمين بنظر رجال الدين ، اضافة الى كره الشيخ عبدالكريم الشديد للانكليز ، فكتب الجزائري الى الشيخ خزعل يأمره بوجوب تجهيز حملة من القبائل ودخول الحرب الى جانب العثمانيين ، ولكن الشيخ خزعل كان على خلاف تام من هذه الناحية مع الشيخ الجزائري فرد عليه معتذرا وشارحا له استحالة

قيامه فى وجه الانكليز فقطع الجزائرى علاقته بالشيخ خزعل منذ ذلك اليوم ولم يعد يذكره بخير أو شر كما هى عادته فى القطيعة ، وسعى الشيخ خزعل لاسترضاء الشيخ الجزائرى بمختلف الوسائل والوجوه فلم يوفق ، حتى حدثت ثورة النجف، وسيق الشيخ محمد جواد الى المحكمة العسكرية فوجد الشيخ خزعل فى هذا الحادث الفرصة الصالحة التى كان ينشدها للصلح مع الجزائرى وسعى بكل مافى وسعه لاطلاق الشيخ محمد جواد، ثم تود د وتوسّل ، ولكنه اخفق ولم يفز حتى بكلمة شكر واحدة من الشيخ الجزائرى على توسطه لانقاذ اخيه ، ولكن صلات الشيخ خزعل بالشيخ عبداللطيف الجزائرى وهو الاخ الاصغر للشيخ عبدالكريم قد ظلّت على حالها ، وعلى اساس هذه الصداقة قد شاع فى اوساط النجف حينما خطر للشيخ خزعل ان يرشّح نفسه لعرش العراق انه قد دفع للشيخ عبداللطيف الجزائرى مبلغا قدره عشرون الف ليرة عثمانية لينفقها فى بث الدعاية وتهيئة الرأى العام لهذا الترشيح وشاع ان الشيخ عبدالكريم ماكاد يسمع بهذا الخبر حتى ثار وقامت قيامته فى وجه اخيه الشيخ عبداللطيف ولم يعرف بعد مدى صحة هذه الاشاعة ، ولكن المؤكد ان قطيعة ما لزمن ما . كانت قد حدثت بين الشيخ عبدالكريم والشيخ محمد جواد من جهة وبين اخيهما الشيخ عبداللطيف من جهة اخرى ، بيد انه ليس هناك من يستطيع ان يعين السبب الحقيقى لتلك القطيعة ، وهل كانت بداعى تلك الاشاعة ، او بداع اخر ، ذلك لان الشيخ عبدالكريم الجزائرى لايدع لاحد مجالا ان يستشف كوامنه ، فقد كان عفّ اللسان ، كثير الاحترام لخصومه بحيث لايكون من السهل الوقوف على رأيه اذا كان غير مرضى فى الاخرين ، وانا من القلائل الذين يعرفون ان العلاقات بين الشيخ عبدالكريم الجزائرى والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء لم تكن حسنة ، كما لم تكن العلاقة بينه وبين المرجع الروحانى السيد محسن الحكيم على ما يرام ولكن ليس هناك من قد عرف هذا من الشيخ عبدالكريم الا القليل القليل .

ولشدة تعلق الشيخ خزعل بالشيخ عبدالكريم قبل القطيعة كان قد شاع فى

وقته ان الكتاب الذى تم تأليفه باسم (الرياض الخزعليه) والمنسوب الى الشيخ خزعل انما الفه الشيخ عبدالكريم الجزائرى ونسبه للشيخ خزعل والواقع ان الشيخ عبدالكريم اكبر بكثير من ان ينسب له مثل هذا التزلف وانما الكتاب هو من تأليف الشيخ محمد الهر ، أو الشيخ محمد خشاف كما حققته بنفسى فى حينه ونسيت الان ايهما كان المؤلف لبعد عهدى بذلك والكتاب المذكور ـ وقد قلت الان نسخه ـ نفيس جدا من حيث مواضيعه وابوابه واهدافه الادبية ولقد قرأته فى مقتبل شبابى قراءة ممعن يطلب الافادة والمتعة الادبية .

ومن داخل السجن ببغداد وهو فى طريق المنفى نظم الشيخ محمد جواد الجزائرى بعض الشعر الوطنى الذى يفيض بالحماسة ومن ضمنه القصيدة النونية التى يشير فيها الى الثورة النجفية فى قوله :ـ

عشقنا المنون وهمنا بها ... وعفنا اباطحنا والحجونا
وقمنا بها عـزمات مضـاء ... ابت ان نسيس الردى او نلينا
وصنّا كرامة شعب العراق ... وكنا لعليـاه حصنا حصينا
وخضنا المعامع وهى الحمام ... ندافع عن حوزة المسلمينا
وجحفل اعدائنـا الانكليز ... يملأ سهل الفلا والحزونا
وما ضامنا ثقل ذاك الحديد ... اذا ما قضى للعلاء الديونا

ومن طهران يشير عباس الخليلى الى هذه الثورة من قصيدة مطلعها :

أما وغمام يشبه الظلم اسـودا ... ورعد حكى قصف المدافع بالصدى

الى ان يقول :

رويدا رجال الانكليز ومهلة ... ان اليوم أسرفتم فان لنـا غـدا
وان قصرت اقدامنا عن خطاكم ... مددنا الى ما فوق هامـكم يـدا
يحييكم اهل العراق على النوى ... فتى فى سبيل المجد أمسى مشرّدا
تحية عان كلما هبّت الصبا ... ينوح كما ناح الحمام مغردا

ان اليوم اطلقت اللسان بحبكم فبالامس عنكم قد سللت المهندا
عواطف لاتنفك تغلى بمهجتى الى ان ارى فوق الصعيد موسّدا

وحين جرى نفى عباس الخليلى من ايران الى العراق من قبل السلطة الايرانية لسبب سياسى آخر وذلك فى سنة ١٩٣١ على ما اذكر شرع وهو يلقى أول نظرة على ارض العراق بعد خروجه منها بنظم قصيدة بدأها عند اجتيازه الحدود الايرانية العراقية فى السيارة واتمها قبيل دخوله بغداد وكان لهذه القصيدة يومها وقع كبير فى النفوس نقتطف منها هنا بعض ما يتعلق بحادث الثورة المذكورة اذ يقول :

قبلت منك بعينى الارض لا بفمى
وجف دمعى فرواك الحشا بدمى
عفرت بالترب وجهى اذ سجدت ضحى
فناب للسعى رأسى فيك عن قدمى
وكاد ينطق طرفى بالسلام على
ارض العراق فهذى أدمعى كلمى
ما الدمع واللفظ الا لؤلؤ رطب
خلطت منتثرا منه بمنتظم
ارخصت درا غلا من ذا وذاك على
معالم للعلى والعز والكرم
رضعت فيك لبان المجد من صغر
فلست حتى الردى عنه بمنفطم
ما الرافدان وان ساغا بعذبهما
يبردان غليلى منك بالشبم
ضحيت انسان عينى بالبكاء على
ثرى كفاه دم القتلى عن الديم
كم من كمىّ تردى فيك ثوب ردى
وكم أبى بسهم النائبات رمى

وكم طـريد مضى والويل رائده

فانتابه الحتف فى الاجام والاكم

قد شردتنى منك الحـادثات وقـد

ردتنى اليـوم ، فلتنبئك عن هممى

انا الذى هدّ ركنـا من عداك كمـا

قـد شاد للمجد ركنـا غير منهدم

جدنا بانفسنا نحمى حماك فلا

نرضى لك الذل ان قيل العراق (حمى)

متى تربّى لك الايام مثـلى مـن

ان خـانه السيف يوما قام بالقـلم

يا حسنها سـاعة ردت اليـك فتى

ما كان يرجو اليك العود فى الحـلم

وازيح الستار وعرف الناس رجال الثورة النجفية ، ولمع اسم الشيخ عبدالكريم الجزائرى اكثر باعتباره الاخ الاكبر للثائر الكبير الشيخ محمد جواد ، بل قال الكثير ان الثورة النجفية لم تكن خالية من اصبع للشيخ عبدالكريم ، وحتى اليوم والكثير يعتقد ان الشيخ عبدالكريم قد اسهم فى الثورة النجفية من خلف ستار ، وكان لمجلسه وتردد القبائل والرؤوساء عليه شأن فى ربط اولئك الزعماء بالثورة النجفية وقد أيد هذا الرأى ما اصاب الجزائرى بسبب فشل هذه الثورة من هياج وعدم استقرار والتوجه بكله الى السعى لجمع الكلمة وتنظيم الامر من جديد والعمل مع الميرزا محمد رضا الشيرازى ابن الامام الشيخ محمد تقى الشيرازى مفجـر الثـورة العراقيـة من جهـة ومـع قبـائل الفـرات مـن جهـة اخـرى للقيام بثورة جديدة اذا بقى الانكليز مصرّين على عدم اجابة مطاليب الشعب ، والحق انه لم يكن الشيخ عبدالكريم الجزائرى وحده الذى نهض بالثورة ومهد لها فى النجف وانما كان الشيخ عبدالكريم من اشد العاملين فى بعثها ومن اكثرهم حماسا

وحرارة وانغماسا تحت ظل الامام ميرزا محمد تقى الشيرازى ، وكان ممن افاد من فشل الثورة النجفية فائدة جنبت الثورة العراقية الكبرى كثيرا من مواقع الزلل، وكان مجلسه فى هذه المرة بمثابة مجلس القيادة السرية التى وضعت الخطط وهيأت الرأى العام للمطالبة بالاستقلال حتى كان احد المندوبين الاربعة الذين انتخبوا لتقديم المطاليب الشعبية الى سلطة الاحتلال باسم الشعب العراقى .

وحين تألفت اول حكومة عراقية كان نشاط الشيخ عبدالكريم الجزائرى مضرب المثل فى الميدان السياسى فقد وقف منذ اليوم الاول موقفا سلبيا تجاه ما يسمى بالوصاية والانتداب والحماية من حيث اللفظ والمعنى ، وهو اول من ندد بمقام المستشارين الانكليز بالصورة التى وجدوا بها ، فقد كان يرى ان وجود المستشارين كفنيين ترجع اليهم الحكومة بقصد الاستشارة فى الامور الادارية والفنية والعلمية امر صحيح ، بل ولازم لدولة فتية لم تمارس عملا خطيرا كهذا ، ولكنه لم يكن يؤمن بان المقصود من ايجاد الاستشارة هو الاستشارة الصحيحة والا لما داخل الناس الشك فى حقيقة الحكومة العراقية خصوصا وقد كان للمندوب السامى كل القيمة فى كيان الدولة والحقيقة هى ان مفهوم الاستشارة كان كل شىء فى الحكومة يومها ولذلك تلقى الناس قول الشيخ باقر الشبيبى :

المستشار هو الذى شرب الطلا   فعلام يا هذا الوزير تعربد

لقد تلقى الناس قوله هذا بالشىء الكثير من الايمان بالواقع

وحين مرّ الملك فيصل فى اول طوافه بالفرات هزجت قبيلة آل فتلة (بالهوسة) المعروفة وهى تخاطب رئيسها الشيخ عبدالواحد هازجة :

« يوحيّد صح يومجبعينه »

اى هل ان هذا الملك ملك حقا ام انه مغطى ومستور بالعباءة ؟

اما الشيخ محمد جواد فانه كان يذهب الى ابعد من ذلك فانه لم يكن يعترف حتى بوجود الحاجة العلمية والفنية والتجربة الادارية للمستشارين لذلك سمع مرة

وهو يصيح بعالى صوته امام الملك فيصل الاول وأكابر العلماء مجتمعون عنده فى الحرم المقدس حيث جرت العادة ان يجتمع العلماء مع الملك كلما قدم النجف لقد سمع الشيخ محمد جواد يصيح :ـ

ـ اطردوا هؤلاء المستشارين ، اطردوهم فليس لاستقلالكم حقيقة وهؤلاء موجودون فى مراكز الالوية ، ولم تعجب هذه الطريقة من الكلام الهائج الثائر اخاه الشيخ عبدالكريم خصوصا وانه كان يرى وجوب تحديد عمـــل المستشارين تحديدا صحيحا واقعيا الى ان يحين الوقت الذى يتم الاكتفاءمنه بقدرة العراق على ادارة شؤونه لذلك حال بعدها بين اخيه وبين حضور مجلس الملك حين كان يقدم الملك الى النجف وكان الملك فيصل يسأل عن الشيخ محمد جواد فيجاب فى كل مرة بعذر من الاعذار .

وظل الشيخ عبدالكريم يلح على وجوب تحديد سلطة المستشارين الى ان حمل هو وليس غيره حمل الحكومات العراقية على الاسراع فى تقليص نفـــوذ المستشارين ، ولعل ياسين الهاشمى الذى نال تأييد الشيخ عبدالكريم فى جميـــع خطواته السياسية كان قد اشترى هذا التأييد باتجاه سياسة الشيخ عبدالكريم قبال الانكليز ونفوذهم ومعارضته للمعاهدة بناء على معارضة الجزائرى العنيفة ، فلقد ايد الشيخ عبدالكريم سياسة الهاشمى تأييدا يكاد يكون مطلقا ، وحمل العشائر عـلى الالتفاف حول الهاشمى نتيجة للتفاهم السياسى الذى كان قد تم بينه وبين الهاشمى فى النجف وفى بيته نفسه .

واتهمت سياسة وزارة الهاشمى الداخلية بالتحيز الطائفى ، ونال الشـــيخ عبدالكريم شىء من لوم الناقمين على الهاشمى لتأييده اياه ، وذات مرة وانا عنده وجدت احد حضار مجلسه جريئا فى انتقاد الهاشمى وفى لوم الجزائرى على تأييده قائلا :ـ ان وزارة الهاشمى قد اغلقت ابواب الوظائف فى وجوه الشيعة ، فقـــال الشيخ عبدالكريم وهو يضحك :

ـ ألم تر ان ذلك حق من حقوقهم ، فلقد كان العهد العثمانى ، وكانت الوظائف كلها لهم ، ومقتصرة عليهم ، وكان الشيعة زاهدين فيها ، اما اليوم فلم يدع الشيعة طريقا لم يلجوه لاختطاف هذه الوظائف من ايدى اصحابها ، فهاهم اولاء الداخلون عليهم من الابواب ، والوالجون من الشبابيك ، والمتسلقون للحيطان والنازلون عليهم من السطوح ، فلم لانسمى الدفاع عن مصالحهم ضربا من ضروب تنازع البقاء ؟ افلم يكن هذا اصح من تسميته بالطائفية ؟

لقد قال ذلك وهو يضحك ، وكان لوصفه واشاراته بيديه حاكيا كيفية نزول طلاب الوظائف من السطوح والدخول من الشبابيك وثقوب الحيطان والولوج منها داع آخر لضحك حضار مجلسه .

وظل الشيخ عبدالكريم الجزائرى زمنا طويلا وهو موضع استشارات كبار الساسة العراقين ورجال الحكومة خصوصا فى الادوار الاولى من تشكيل الحكومة العراقية وخصوصا فى اثناء عقد اول معاهدة عراقية وبروتوكولها ، وكان له فى هذه المعاهدة رأى أخذ ببعضه ولم يؤخذ بالبعض الاخر .

الى هنا كان ذهنى مشحونا باخبار الشيخ عبدالكريم الجزائرى الوطنية والسياسية وكانت بطولة اخيه الشيخ محمد جواد وجرأته وايمانه قد شغلت كل فراغ فى نفسى ، وانا الان فى نهاية العقد السادس استطيع ان اؤكد انى لم اشهد حتى اليوم من يشبه الشيخ محمد جواد وطنية ، وشجاعة ، وتدفقا كالسيل فى ميادين الثورة على الفساد ، وعلى الضلال والطغيان ، دون ان يمازج نفسه خوف من اى شىء .

ونقلتنى السنين من صبى صغير الى شاب يافع وبدأت اخطو بعض الخطى فى قراءة الادب والتعرف بالادباء النجفيين عن بعد وعن قرب وصرت ارتاد المجالس واسمع ما يدور فيها من احاديث أدبية وطرائف فنية ومناظرات ومساجلات يرجع اليها وحدها فضل صقل الذهن ونمو القابليات الفكرية والفنية عند المتأدبين فتعرفت عن طريق هذه المجالس بالكثير من الادباء الذين ماتوا ولم ادركهم ، والادباء

الاحياء الذين كان يتألف منهم الرعيل الاول من ائمة الادب النجفي وكنت ارى كيف كان هؤلاء يدخلون المجالس وكيف كان يحتفى بهم ، ويبالغ فى احترامهم ، ويهمس البعض من الشبان فى اذن البعض بان الداخل الى المجلس انما هو فلان صاحب القصيدة العصماء الفلانية ، والمساجلات الادبية المعروفة ، ويكاد الناس كلهم يعرفون لاولئك مزاياهم حتى وان كانوا قد هجروا تعاطى الادب وزهدوا فيه ، ذلك لان كثيرا منهم ولاسيما العلماء كان يطلق قول الشعر ويصفى حين يضع اول قدم له فى مرحلة الكهولة ومع ذلك فان ذكريات شبابه الادبى تظل شاغلة اذهان الادباء والمتأدبين على قدر مالها من قيمة فى عالم الادب ، وفى هذه الذكريات يكون الشيء الكثير الذى يحفظ ولا ينشر من مساجلات ، ومناظرات ، ومدائح وغزل ، ومهاجاة واقعية وغير واقعية ، ودعابات لها قيمة كبيرة فى بناء الادب الحى وكان الشيخ عبدالكريم الجزائرى فى شبابه وحتى الى اوائل دور الكهولة من هـــذه الزمرة فى الطليعة وقد ترك حين طلق قول الشعر الكثير من الاثار التى تستشهد بها النجف فى موضع الاستشهاد الفنى فكان لشعره ثمن كثيرا ما حمل الادباء على مدارسته والتفكه بمناوشاته وتحرشاته الشعرية .

وكانت مجالس التهانى والاعراس ، ومجالس الفواتح والتأبين والمناظرات والمساجلات التى كثيرا ما يثيرها التباهى والتنافس والدعابة والتنفيس عن النفس هى السوق الذى يستغله الادباء ويتخذون منه مناسبة لعرض منتوجهم الادبى فى النجف ولشد ماكان يفرح الشعراء حين يسمعون بعرس احد الوجهاء وخصوصا اذا كان هذا الوجيه اديبا ، ولشد ماكانوا يفرحون حينما يسمعون بموت احد العلماء او الافاضل لان مباراة الشعر ستكون باوسع حدودها حتى وان لم يكن للشاعر كبير صلة بالعريس او الميت ، فقد كانوا يخلقون المناسبة خلقا ، وكانت هنالك طبقات وجماعات كل جماعة تضمها حلقة مستقلة يجمع بين افرادها التجانس النسبى ، وكان الشيخ عبدالكريم الجزائرى جزءا من حلقة تضم الشيخ جواد الشبيبى والسيد جعفر الحلى والشيخ اغا رضا الاصفهانى والسيد باقر الهندى

والشيخ هادى الشيخ عباس واخرين كثيرين وكان كل واحد من هؤلاء وهم فى دور الشباب علما من اعلام الادب الحى ، وكانت النكت والفكاهة الادبية تلازمهم حتى فى اشد الازمات فلقد كانوا مرة فى الكوفة وقد نزلوا النهر سابحين ولم يلتفتوا الا وقد اخذ الموج السيد جعفر الحلى واغرقه ، ولم يكن احد منهم يعرف السباحة فعلا صراخهم وعويلهم طالبين النجدة وسمع هذا الصراخ رجل هنالك من ال مواش يعرف بسليمان ال كريم ، فاندفع الى النهر وبجهد جهيد انقذ السيد جعفر الحلى من الغرق فكان هذا الحادث موضوع مباراة بين تلك الحلقة عملت فيها الظرافة والدعابة عملها حتى السيد جعفر نفسه قد اسهم فى تلك المباراة وكان من نظمه وهو يصور منقذه سليمان ال كريم قائلا :ـ

فسخر الريح سليمان له   من آل مواش كريم معرقه

ثم انهى آخر البيت من شعره بتاريخ هذه الواقعة وقد تضمنت القافية هذا التاريخ بكلمة واحدة هى (يغرقه) واقسم السيد جعفر ان التاريخ قد صنعه وهو بين الحياة والموت ولم يخرج الى البر ويتنفس حتى كان قد اكمل التاريخ ، والغريب فى الامر ان تاريخ هذه الحادثة التى تجمعها كلمة (يغرقه) فى حساب الجمل وهو سنة ١٣١٥ هجرية هو نفسه الذى صار تاريخ وفاة السيد جعفر الحلى فقد مات الحلى فى تلك السنة نفسها التى ارخ فيها تأريخ مماته بنفسه ..!!

والدعابة عند النجفيين بوجه عام وعند الشعراء بوجه خاص تكاد تكون طبيعة ثابتة ، وان الشعر النجفى الخاص مشحون بالوان من تلك الدعابات التى قد تفرغ احيانا فى قالب من الهجاء المقذع بينما هى ليست غير دعابة ومزاح يحسن النجفى تمييزها ويصفق لها حتى وان كان هو المقصود منها بالذات .

سأل مرة احد شيوخ اسرة كاشف الغطاء الافاضل : السيد محمد القزوينى ـ وآل كاشف الغطاء هم اخوال آل القزوينى ـ لقد سأله جادا ـ

ـ ترى من هو العلوى الذى تناول التاريخ خؤولته بالطعن والثلب من حيث النسب ؟

فاجاب السيد ـ نا ....!!

وكان بين الشيخ عبدالكريم الجزائرى وبين السيد جعفر الحلى كثير من هذه الدعابات المفرغة فى قوالب يخالها السامع هجاء مرا فى حين ليست باكثر من صور للمزاح عند الشباب من شعراء النجف فى الجيل الماضى الذين كان يعوزهم التنفيس عن النفس فى بلد قاحل كالنجف لا ماء فيه ولا خضرة ولا رواء فكانوا يستعيضون عن كل ذلك بالشعر وبالمزاح وما اصدق قول احمد الصافى مرة اخرى فى وصف النجف حين يقول :ـ

صدق الذى سمّاك فى وادى طوى	يا دار بل وادى طوى وعراء
جلست على الانهار بلدان الـورى	فعلام انت جلست فى الصحـراء

قرأ مرة الشيخ جواد الشبيبى ابياتا له كان يزمع ارسالها الى السيد جعفر الحـلى ـ وكان الحلى يومها فى زيارة لاحدى قرى الحلة ـ وكانت الابيات فائية القافيـة فوجد فيها الشيخ عبدالكريم الجزائرى مناسبة مستملحة لاعادة نغمـة (الكشـفية) على سبيل المزاح ، والكشفية مذهب كان بعض اصدقاء السيد جعفر الحلى ينسبونه له فكان الحلى يهيج ويشتم ويتنصل من الكشفية ويرميهم مقابل ذلك بما يجرى على لسانه فيضحكون ، وقد اخذ الجزائرى الابيات الفائية من الشيخ الشبيبى ودس فيها هذا البيت :ـ

لئن اكشف غطاء الهجـو يوما	لساءك جعفر الحلى (كشفى)

وليس من شك ان الشبيبى قد اشار الى السيد جعفر الحلى بان البيت مدسوس من الشيخ الجزائرى توقيا من هجوم الحلى العنيف عليه وخوفا من شتائمه .

وبعد ايام تلقى الشيخ جواد الشبيبى رسالة من السيد جعفر وفى ضمنهـا البيتين التالين :ـ

نح عبدالكريم عن حلبة الشعر	فعـار عـلى ذوى الالبـاب
أعليك الخيـول ويحك قلت	فشددت السروج فوق الكلاب

ولـم ينتشر هذان البيتان الا على لسان الشيخ عبدالكريم الجزائرى نفسه ..

وبمناسبة هذه الدعابة اذكر ان الشيخ محمد جواد الجزائرى كـان قـد عارض قصيدة الطلاسم لابى ماضى التى ينهى فيها ابو ماضى كل مقطع من موشحه بكلمة (لست ادرى) ، لقد عارضها الشيخ محمد جواد الجزائرى بقصيدة على نفس النمط معارضة رد فيها على فلسفة اللا ادريين ، وانهى كل مقطع من الموشـــح بكلمة : (انا ادرى) وما كاد الشيخ محمد جواد الجزائرى ينشر هذه المعارضـة حتى تلقى رسالة فى البريد وفيها بيت مغفل من التوقيع يقول فيه صاحبه :ـ

انت مجنون ولكن لست تدرى انا ادرى

وليس من شك ان الشيخ محمد جواد الجزائرى لم يتلق البيت تلقى الرضا وليس من شك انه لم يرتح من قائله ولكنه ما كاد يعرف فيما بعد ان قائل البيت هو الشيخ على الشرقى حتى سكن وراح يروى الحكاية بنفسه لانه تيقن ان المزح فى هذا القول هو الهدف الاول لقائله خصوصا اذا علمنا ان الشيخ على الشرقى كان ممن درس على الشيخ محمد جواد الجزائرى بعض الحين .

ولست ادرى من قائل هذا البيت مزاحا فى آل الطريحى ؟ ولكنى ادرى ان آل الطريحى انفسهم لايحجمون عن الاستشهاد به اذا ما دعت المناسبة وهو :ـ

اذا شئت الدلاوة تشتريها فقم واستنق من بيت الطريحى

ذلك لان الدعابة او الروح الرياضية تكاد تكون صفة ملازمة للنجفيين كمـا ذكرت :ـ

ومن المؤسف ان يفوت مؤرخى الادب النجفى تسجيل مثل هذه الصـــور فيفوتنا بسبب ذلك الشىء الكثير من ابرع واروع الصور الادبية التى كانت تؤلف جانبا له قيمته الكبرى فى تعيين مدى الاستعداد الفنى والملكات والمواهب عند الاديب النجفى فى الجيل الماضى .

* * *

وكنا نحضر مجالس الاعراس والفواتح بقصد الاستماع الى ما كان يتلى فيها من الشعر ولكى نرى كبار الادباء عن كثب ونسمع تعليقاتهم على ماكان يتلى هناك، فقد جرت العادة ان تكون هذه المجالس عامة فى مثل هذه المناسبات ، وكنا نعالج تقفية القصيدة المنشودة ، بان نعيّن القافية قبل وصول المنشد اليها بكلمة ، واحيانا نعيّن القافية ومنشد الشعر لم يزل فى صدر البيت من انشاده متوصلين اليها من سياق المعنى ومقتضيات الشعر بل كثيرا ما كنا نتخذ من التقفية وسيلة تسلية وأنس كما قد اشرت الى ذلك فى مكان آخر من هذه الصور وانى لاذكر مرة ان مهدى الجواهرى وكنا حوزة واحدة قد راهن بان يقفى من كل عشرة ابيات ثمانية ابيات من أية قصيدة وعرة القافية لم يسبق له ان قرأها من قبل كائنا من كان شاعرها على ان يكون الرهان نصف اقة او ما يقاربها من حلاوة كانت تعرف بالحلاوة المسقطية وكان لمهدى الجواهرى مثل هذا الرهان فيما يتعلق باستظهار الشعر ، وتم الاتفاق فاستطاع ان يقفى الشعر بنسبة تسعة ابيات الى عشرة وكسب الرهان وأكلنا الحلاوة معا .

اجل لقد كنا نرى ونسمع كيف كان يقفى الذين سبقونا فى نضجهم الادبى ، وكيف كانوا يعترضون طريق الانشاد اذا ما ورد البيت مغلوطا من حيث لغته واعرابه ووزنه ، وكيف كانوا يصححون البيت آنيا وبدون تأخير فيستلفتون بذلك الانظار الى قابلياتهم ومواهبهم ، وقد تحدث بسبب هذه الاعتراضات مناقشات طويلة فتستمر اياما تقلب فيها المعاجم والكتب التاريخية والدواوين الشعرية رأسا على عقب بغية التحقيق والبحث عن اصل هذا الاعتراض وصحته، وقد عجمت هذه المجالس اعواد مرتاديها فى الادب وجعلت لهم اذهانا حادة لفهم اية اشارة ادبية واردة مهما خفيت خصوصا فى الجناس والتورية والتواريخ الشعرية التى كثيرا ما تضمنت وجوب حذف عدد أو أكثر أو أضافة عدد أو أكثر الى التاريخ الشعرى ليستقيم التاريخ وينطبق على السنة المطلوبة فكان الجميع يدركون المقصود فى الغالب بدون اى عناء .

حدّث ذات مرة الشيخ عبدالرضا الشيخ راضى :-

ان السيد محمد العاملى وهو صديق حميم للشيخ عبدالكريم الجزائرى كان قد تزوج بالسيدة (هدى) فكانت مناسبة ادبية حملت الكثير على المباراة فى التهانى الشعرية بالنظر لمقام آل العاملى الادبى وكان الشيخ عبدالكريم الجزائرى من ضمن المتبارين وقد زاد الشيخ الجزائرى فيما فعل بان انهى البيت الاخير من قصيدته بايراد تاريخ الزواج فى الشعر ولكن حساب تأريخه الوارد فى عجز انيت كان يزيد اربعة على السنة المعينة لذلك كان قد تدارك الامر واشار الى هذه الزيادة فى صدر البيت اشارة فنية وجعل التاريخ يتضمن اسم العروس تورية فكان بيته كما يلى :-

مذ طاح قلب (هدى) فى عرسكم جدلا

ارخت شمس (هدى) زفت الى القمر

قال الشيخ عبدالرضا : فصاح احد الادباء الحاضرين وكان قد حسب التاريخ آنيا وفاتته الاشارة البديعية فظن ان فى التاريخ زيادة قد فاتت الشاعر لقد صاح هذا الاديب باعلى صوته فى المجلس :-

- ان فى هذا التاريخ زيادة قدرها اربعة اعداد ، ووجم المجلس .... وانشغل بالحساب بعض من لم يلتفت للاشارة فى حساب التاريخ ، ولكن الشيخ جواد الشبيبى قطع هذا الوجوم بان صاح موجها الكلام للمعترض - قائلا :

- ولكن فهمكم للاشارة ينقصه اربعة ليستقيم التاريخ .

ودوّى المجلس بالضحك وماأسرع ما استوضح الذين لم يلتفتوا لهذه الاشارة فاوضحها لهم الاخرون ، وكان الدكتور عبدالرزاق محيى الدين حاضرا مجلس الشيخ عبدالرضا وهو يروى هذه الحكاية فى معرض الحديث من التواريخ الشعرية وما تستلزم من ادراك فنى حين يكون فيها شيء من الزيادة او النقصان فقال الدكتور عبدالرزاق وهو يضحك -

- يبدو ان فهمي ينقصه ثمانية ليستقيم الحساب لانى انا الاخر لم التفت للنكتة .

وهنا شرح الشيخ عبدالرضا الاشارة البديعية فالمقصود (بقلب هدى) هو حرف الدال الذى يؤلف القلب وهو الوسط من كلمة (هدى) والذى يساوى حسابه اربعة فاذا (طاح) هذا العدد وحذف من مجموع العجز من البيت فى قوله :

مذ طاح قلب (هدى) فى عرسكم جذلا

ارخت شـمس هـدى زفت الى القمر

يكون مجموع ما بقى هو تاريخ السنة التى تم فيها عرس السيد محمــد العاملى .

وعلى ان الشيخ عبدالكريم الجزائرى قد طلق قول الشعر مع الشباب فقد ظل الكثير من الادباء يروى الشىء الكثير من شعره دليلا على ماكان يمتاز به شعر الجزائرى من براعة التصوير ، وجمال الاخراج ، وعمق الفكرة ، وقد ظلت قصيدته فى رثاء المرجع الاكبر السيد حسن الشيرازى متلوة على افواه الكثير من متتبعى الشعر لسلاستها وحسن صياغتها ومن هذه القصيدة قوله :-

أصبت بسهم واترة المنايا ... فيا اخطى البرية من اصابا

أرى كاسا سقيت الحتف فيـه ... تحسّى منه كل الناس صابا

فلو ان الدموع تبل وجدا ... لاجريت الدموع حشى مذابا

ولو رد المنون هديل نوح ... لصيّرت الحنين عليك دابا

ويوم رأيت الشيخ عبدالكريم الجزائرى لاول مرة بعد ان ملأت مسموعاتى عنه كل فراغ فى نفسى دهشت ، لقد دهشت لانى لم اجد الرجل كما كنت اتصوره عملاقا بدينا ذا صوت أجش خشن كما ينبغى ان يكون العظماء فى مخيلة السذج البسطاء وانما رأيت رجلا نحيفا هادىء الصوت رقيق الحاشية فى صورة جذابة ذات سحر خلاب ، وظللت بعيدا من حيث الدنو منه ، قريبا من حيث مسموعاتى عنه ، وعن مجلسه العامر بما يسد حاجة الوطنى ، والعالم ، والاديب ، حتى بعثا

دارنا الاولى ، واشترينا احدى دور اسرتنا المتصل بعضها ببعض ، والتى لاتفصلها عن دار الشيخ عبدالكريم الجزائرى غير ثلاث دور لاغير ، وحتى قامت قيامة السيد صالح الحلى فى وجه المصلح السيد محسن الامين الداعى الى حرمة التطبير ، وما كان يجرى فى شهر محرم من كل سنة باسم عزاء الحسين من ضرب السلاسل، ودق الطبول والصنوج ، فكان الشيخ عبدالكريم الجزائرى فى مقدمة مؤيدى السيد محسن الامين بعد المرجع الروحانى الكبير السيد ابى الحسن الاصفهانى ، ولكن الاكثرية المطلقة من العلماء والناس وفى طليعتهم السيد صالح الحلى الخطيب المعروف بلباقته وقدرته على تسيير دفة الدعاية كانوا ضد حركة الاصلاح التى نادى بها السيد محسن الامين فلم يكن فى ميدان الدعوة الاصلاحية الا فئة قليلة من بعض العلماء وفئة من الشباب لاحول لها ولا قوة الا فيما كانت تكتبه من المقالات وتنشره فى بعض الصحف العراقية واللبنانية وفى وسائل قام بتأليفها ونشرها الشيخ محمد الكنجى مما كانت تعد اكبر اثر نسبى فى القضية •

وكان لابد لهذه الاقلية المؤيدة لفكرة الاصلاح الدينى ان تتكتل ، وان يتعرف بعضها ببعض ، فكان الشيخ محمد جواد الجزائرى هو المحور لهذا التكتل ولما كنت واحدا من الشباب المتحمسين لفكرة الاصلاح التى نادى بها السيد محسن الامين فقد الفيتنى فى زمرة آل الجزائرى وتحت شعاع الشيخ محمد جواد الذى كان يساكن اخاه الكبير الشيخ عبدالكريم فى بيته ويشاركه فى مجلسه •

وبدأت اتردد على بيت الجزائرى واحضر مجلسه منذ ذلك اليـــوم تردد الغريب المتهيب على رغم انى كنت اعلم ان أبى قلما فارق مجلسه وانني كثيرا ما التقيه عنده ثم صار ترددى على الجزائرى تردد الجار القريب ، ولم يطل الزمن حتى صار ترددى عليه تردد الصديق الحميم ، وعلى الاخص حين اصدرت جـــريدة (الفجر الصادق) ، وحين وضعت نصب عينى محاربة السيد صالح الحلى ، وحين تبنيت الدعاية للدعوة الاصلاحية على اوسع وجوهها وعلى قدر ما كانت تصل اليه يدى طبعا •

وبلغ قربى من الشيخ الجزائرى ان صرت اناقشه رأيه ، واعلن له مخالفتى اذا وجدتنى مخالفا لرأيه فى شىء ولقد شجعنى فاعطانى شيئا من الحق والايثار فى ان اتوسط لديه ، ولست بناس ما كان قد حدث بينه وبين السيد جعفر حمندى من سوء تفاهم ربما كان من الصعب ان يزول لو كان قد ترك لشأنه زمنا اطـول وتوليت انا بناء على رغبة السيد جعفر حمندى التوسط فى الامر ، وصحبت السيد جعفر الى بيت الشيخ الجزائرى وكان هناك اعتذار من حمندى ، وظرف وتندر وتفكه من الجزائرى ، شأنه فى اغلب مجالسه العامة .

وحدث بينه وبين الحاج محسن شلاش شىء مثل ما حدث بينه وبين السيـد جعفر حمندى واكثر بعد صداقة متينة كانت قد امتدت جذورها الى سنوات بعيـدة ودعانى الحاج محسن شلاش ذات يوم وقص على ماكان قد وقع بينه وبين الشيخ الجزائرى من جفوة ، وقال انه لم يشأ ان يسعى لازالة ما قد علق بذهن الشيخ عنه قبل اليوم لانه ـ اى الحاج محسن ـ كان وزيرا فخشى ان يحمل تودّده للشيخ على سبيل الحاجة ، اما اليوم وقد خرجت من الوزارة ـ كما قال ـ فليس ثمة مايحمل تودّدى على شىء وانا اريد ان تمهد لى الامر فازور الشيخ وانت معى ... فكان الذى اراد ...

واشتدت ثقة الجزائرى بى حتى لقد كان يمر بى فى البيت اذا ما خطر له خاطر فنبحث معا امورا كان يعتقد ـ مصيبا كان ام مخطئا ـ ان لى فيها خبرة ورأيا ، واذا لم يجدنى هناك اوصى لى بان اقصده فى بيته ساعة وصولى الى البيت .

وحين اقتضت سياسة الحكومة ان تفرض الرقابة على بيته ، وان تصارح الناس برغبتها فى الابتعاد عن مجلسه ، فر الجميع فلم تعد ترى الا واحدا او اثنين فى عرض الاسبوع ممن يمر به دقائق معدودات ليسأل عنه ، وفى هذه الفترة كنت من اكثر الناس اتصالا به فلا اكاد افرغ من تناول العشاء فى اغلب الليالى حتى كنت اقصده فى بيته فاجده وحيدا او مع أخيه الشيخ محمد جواد فنقضى قسطا من الليل بالاحاديث المختلفة ، ودعانى الشيخ محمد جواد الجزائرى مرة للاسهام معـه

فى قضية سياسية لم استسغها فامتنعت وغضب على ، وحاول احتقارى غير مرة فلم اهتم ، وقد ظهرت بمظهر من لا يعنيه الرضا والغضب واحس الشيخ عبدالكريم مرة بهذه الجفوة الحاصلة بينى وبين أخيه وانا عنده وفى بيته فكشف لى ولاخيه عن احساسه وطلب ان نذكر له السبب، أما انا فسكت ، واما اخوه فقد قال والشرر يقدح من عينيه ـ قال :

ـ انه ـ وهو يعنينى ويشير الى ـ يختلف عن اخيه عباس فى كل شيء .

فقال الشيخ عبدالكريم ـ وانا يا اخى اختلف معك فى كل شيء واى اخ لايختلف مع اخيه فى الجبلة والطبيعة والخلقة ؟ لا بل متى اتفقت انا واياك لتطلب من جعفر ان يتفق مزاجه ومزاج اخيه ...؟

والحق انهما كانا يختلفان فى كل شيء وعلى الاخص فى طريقة معالجة الامور وفى الحلم والغضب وكل شيء آخر وكثيرا ما كان الشيخ محمد جواد يلقف الحديث من اخيه فى المجلس ليسير به فى الاتجاه الذى يعاكس اتجاه اخيه وعقيدته، وفى هذا المكان لاتسمع من الشيخ عبدالكريم غير حوقلة يرددها مع شيء من هزة الرأس علامة عدم الرضا ، ويظل يحوقل حتى يسكت الشيخ محمد جواد ، وكم كان يبدو برما حين يكون عنده أحد رجال الدولة وهو يحاول ان يعالج امرا باسلوبه الخاص فيتلقف الشيخ محمد جواد الحديث ويحيله الى ثورة يخرج بعدها الشخص الزائر وهو غارق فى بحر من الخجل ، ولا يمنع الشيخ عبدالكريم وجودى انا ـ اذا كنت موجودا ـ ان يلوم اخاه بمحضر منى حين يخلو المجلس ويؤاخذه على طريقة اشتراكه فى الحديث ولكن الشيخ محمد جواد أتون مشتعل ، لايمكن ان يخفف اللوم من حرارة ايمانه وطريقة حديثه وان جاء اللوم من اخيه الاكبر ، وهو على خلاف طبيعة اخيه الدافئة الحليمة التى تغتفر الزلة وتخلق العذر للخائب الفاشل لتحيى فيه الرجاء من جديد .

وذات يوم والشيخ محمد جواد فى مثل هذا التجهم والمزاج الحاد وجه الى الشيخ نورى الجزائرى ـ وكان الشيخ نورى حينذاك صبيا وفى اول مراحل

تعلم النحو ـ لقد وجه اليه بيتا من الشعر ليعربه ، فتلجلج الشيخ نوري واصفر لونه .... ولمح الشيخ عبدالكريم المشهد فقال يخاطب اخاه الشيخ محمد جواد :

« والله لو انك لقيت سيبويه بمثل مالقيت الشيخ نوري وانت تلقى عليه السؤال بمثل هذه الصرامة والحملقة وجحوظ العينين لارتج عليه ، ولا ضاع طريق الصواب ، فما حال الشيخ نوري وهو صبي ولم يقرأ النحو الا منذ شهور ؟» .

وكنت ذات يوم عنده وتطرق الحديث الى احد الزعماء وكان قد ارتكب خطأ لايمكن ان يرتكبه شخص في مثل تجربته واختباره ومركزه وقد أنحيت انا عليه باللائمة ، وكان الشيخ محمد جواد حاضرا فايدني واندفع بما عرف به من بلاغة وفصاحة وحلاوة حديث يصور خطيئة ذلك الزعيم تصويرا بارعا وحين سكتنا قال الشيخ عبدالكريم :

ـ الامر طبيعي جدا فان كل انسان مهما تقدم في العمر وعجم الدهر عوده وكثرت تجاربه فان ناحية من الطفولة تظل كامنة فيه فلا تستغربوا اذا بدرت ذات يوم من كبير بادرة تدل على هذه الطفولة وخذوا العبرة من نفسي فقد عدت ذات يوم من الحرم الشريف بعد ان اديت الصلاة وادى خلفي المؤتمون صلاتهم حتى اذا كدت ابلغ البيت ألفيت في الطريق قطعة قحف من جرة مكسورة ، وقد جذبني وضعها من حيث ظهور سطحها المحدب الى الاعلى وانتصاب هذا القحف من الخزف على هيئة نصف قبة صغيرة في وسط الشارع ، ولذ لي ان اسحق هذا القحف بقدمي لمجرد سماع طقطقته وهو يتكسر وينفتت تحت قدمي ، وهكذا فعلت، وظللت نحو دقيقة وانا اضغط بقدمي على سطح القحف وهو يتكسر وانا متلذ بهذه الطقطقة الموسيقية التي لا اشك انها من بقايا لذائذ الطفولة ونحن نسحق مثل هذه الاقحاف في الشوارع وما كدت اخطو خطوة او اثنين حتى انتبهت الى نفسي .

ـ ترى ماذا يسمى مثل هذا العمل اذا لم يسم بالعمل الصبياني ؟

ان شيخا كبيرا يشغل مقاما روحانيا وقبل بضع دقائق كان يأتم به العشرات من المقتدين به والمؤمنين برجحان عقله يقفه قحف من كوز مكسور في قارعة

الطريق فيتخذ منه لعبة يلهو بها ولو لعدة ثوان ... بماذا ترى يفسر مثل هذا اذا لم نفسره بتيقظ روح الطفولة فى الانسان ؟

وهنا التفت لى ولاحيه وقال :

ـ لا لوم على الرجل اذا ما تيقظت روح الطفولة فى نفسه ذات يوم فأتى بعمل الصق بالصبيان منه بالرجال وانما يجوز اللوم اذا تعدد مثل هذا التيقظ وكثر ... قال ذلك وهو يضحك •

والشيخ عبدالكريم الجزائرى يكاد ينفرد ببعض ما يستعمل من الكلمات والاصطلاحات فينتقى اجمل الكلم ويصوغها اجمل صياغة فاذا اقسم مثلا فانه يقول •

« والله الذى لارب سواه »

واذا استقبل زائرا مثلا قال ـ

« أضاء البلد »

واذا عزى احدا فى مصيبة قال ـ

« احسن الله لك العزاء »

ولكنه لايجمد على مثل هذه التراكيب وانما يبتكر الاقوال المناسبة فى وقتها بحيث تظل كلمته راسخة فى الذهن فقد التقانى مرة وانا أضع نظارة سوداء على عينى فقال لى :

ـ ارجو ان تكون هذه النظارة (للغوه وللهوه ، وليست للدوه) •

فقلت : وهى كذلك ، وزاد تعلقى به فزاد لطفه على وغمرنى بمحبته ، واعطانى من عطفه الشىء الكثير الذى طالما اعتززت به ، وكثيرا ما اتخذت من هذا العطف وسيلة لقضاء بعض الحاجات للناس عنده ، وحين ازمعت النية على الانتقال من النجف الى بغداد كان الشيخ عبدالكريم ممن عارض ومانع وحاول بكل جهد ان يحول بينى وبين هذا الانتقال ولكنى كنت مصمما فودعنى بكلمة واحدة لاتزال عالقة بذهنى وهى قوله ـ

ـ خار الله لك فى الامر .

وانقطعت عن زيارة النجف طويلا وحين كان يتاح لى ان ازور النجف كان اول عمل اعمله هو ان ازور الشيخ عبدالكريم الجزائرى فى مجلسه ، فلا اجد ترحيبا اشد من ترحيبه وهو يلتقينى ، ولا فرحة اوسع من فرحتى وانا التقيه .

وكانت لى فى النجف قطعة ارض وهى كل ما بقى لى فيها من روابط مادية شاءت الظروف ان تقطعها فسافرت قبل شهور قليلة الى النجف لبيعها ، ومررت كالعادة بالشيخ الجزائرى ولشد ما حزنت ان رأيت صحته قد تدهورت ، وان ثقل المائة من السنين التى قضاها فى خدمة متواصلة للعراق عن طريق السياسة ، والعلم ، والايمان الوطنى الخالص ، كان قد ظهر باشد ما يظهر على صحته وتمثل لى الماضى كله ففاضت عيناى بالدموع ، وتراءى لى اننى لم آت لاقطع علاقتى بالنجف من الناحية المادية فحسب ، وانما اوشك ان اقطع علاقتى الروحية بها ، وهى كل ما املك من لذة فى هذا الوجود القاحل ، فلقد كان الشيخ عبدالكريم كل ماضى النجف الروحى وصورته الحية وكان اخر من مثل السلف الصالح وختم تلك السلسلة المتصلة الحلقات بحكاية قل من استطاع ان يحكيها مائة سنة واكثر كما حكاها الشيخ عبدالكريم الجزائرى .

وقبيل زيارتى الاخيرة له كان قد زاره صديقى السيد احمد الهندى وحين سأله الهندى عن صحته قرأ الجزائرى عليه هذا البيت الفارسى :

دلم گرفته بحدى كه فكر باغ ندارم

بحد انكه گلى بوكنم دماغ ندارم

ومعنى ذلك اننى اعانى من انحباس الطبع وضيق الصدر بحيث يتعذر على حتى ذكر الخميلة وتصورها وتخيل ازهارها ، وبحيث يتعذر على حاسة الشم عندى حتى شم الوردة الذكية العطرة .

وهكذا انتهى الشيخ عبدالكريم وطواه التاريخ فطوى به صفحة من السجل

المحافل بالمآثر ، وجلائل الاعمال كما توقعت ذلك قبيل وفاته •

وفي بحة من الصوت الذى تخنقه العبرات وجدتني اردد قول الجزائري نفسه في رثاء استاذه لانني وجدته خير ما يصور لوعتي ويحكي وجدي وأنا اقطع آخر علاقة روحية لي بالنجف ـ

فلو ان الدموع تبل وجدا   لاجريت الدموع حشى مذابا
ولو رد المنون هديل نوح   لصيرت الحنين عليك دابا

ولم تبق لي من تلك العلاقة غير الذكريات المشحونة بالاهات والالام والحسرات •

اعتذار

بالنظر لعدم امكان قيام المؤلف بالاشراف التام على تصحيح كتابه هذا فقد وقعت في الكتاب عدة اغلاط اقتضت المطبعة ان تستميح عليها عفو المؤلف وعفو القراء وغفرانهم •

مطبعة الزهراء

فهرست الاعلام

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

— ن —

— و —

— هـ —

— ى —

الفهرست

من مؤلفات الخليلي المطبوعة

١ ـ اولاد الخليلي ـ « مجموعة قصص » ٠

٢ ـ الضائع ـ « قصة » ـ طبعة ثانية ٠

– على هامش الثورة العراقية الكبرى ـ حقائق لم يسبق نشرها عن الثورة العراقية ، من سنة ١٩٢٠ ٠

٤ ـ عندما كنت قاضيا ـ « استعراض مقتضب للاحوال الشخصية فى العراق ، من زواج ، وطلاق ، ومواريث ، واوقاف » طبعة ثانية ٠

٥ ـ يوميات : جزءآن ـ « صورة عابره من الحياة الاجتماعية » ـ طبعة ثانية ٠

٦ ـ جغرافية البلاد العربية للدراسة المتوسطة ـ طبعة ثانية ٠

٧ ـ حديث القوة ـ « مجموعة قصص قصيرة » ـ طبعة ثانية ٠

٨ ـ اعترافات ـ « مجموعة قصص قصيرة » ـ طبعة ثانية ٠

٩ ـ تسواهن ـ « ريبورتاج عن الجمال والغناء والرقص فى العراق » ٠

١٠ ـ من فوق الرابية ـ « مجموعةقصص قصيرة متنوعة » ٠

١١ ـ مجمع المتناقضات ـ « قصص موضوعة ومترجمة » ٠

١٢ ـ فى قرى الجن ـ « قصة موضوعة على غرار المدينة الفاضلة » ـ طبعة ثانية٠

١٣ ـ مقدمة عن القصة العراقية ـ « استعراض موجز لتاريخ القصة القديم والحديث » ٠

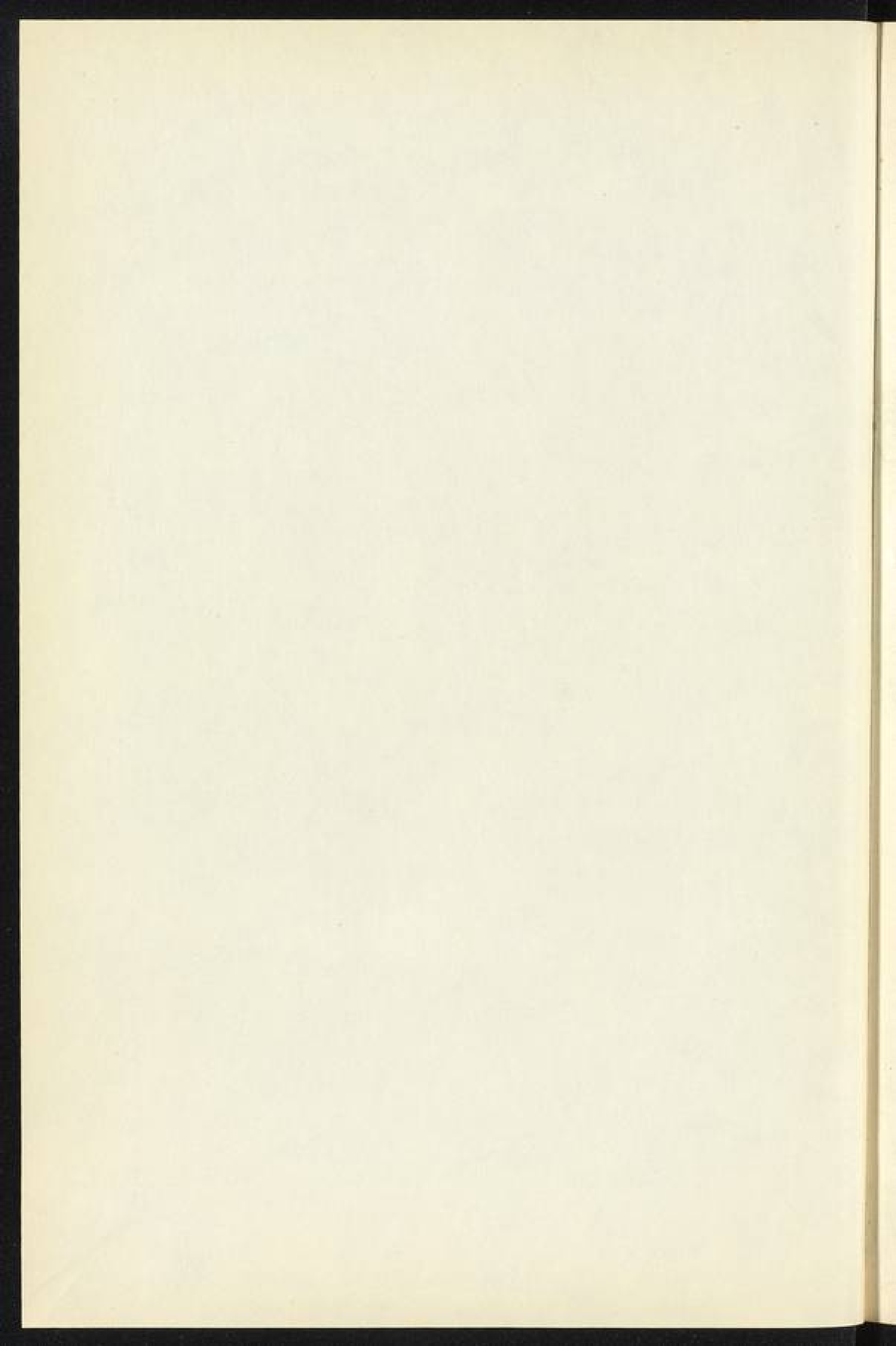
١٤ ـ كنت معهم فى السجن ـ « دراسة واستعراض عن السجن والاجرام فى العراق » ٠

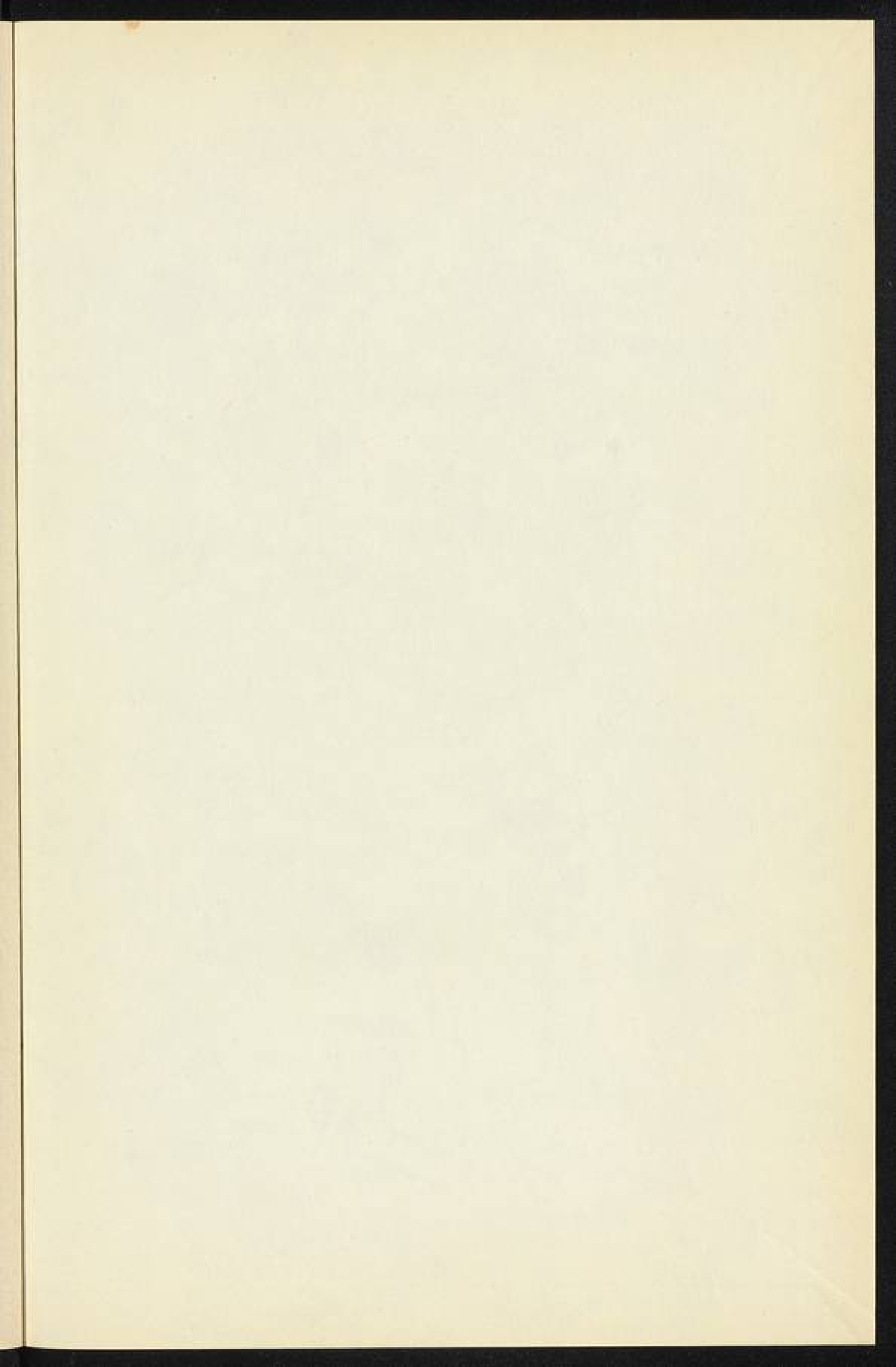
١٥ ـ هؤلاء الناس « مجموعة قصص قصيرة » ٠

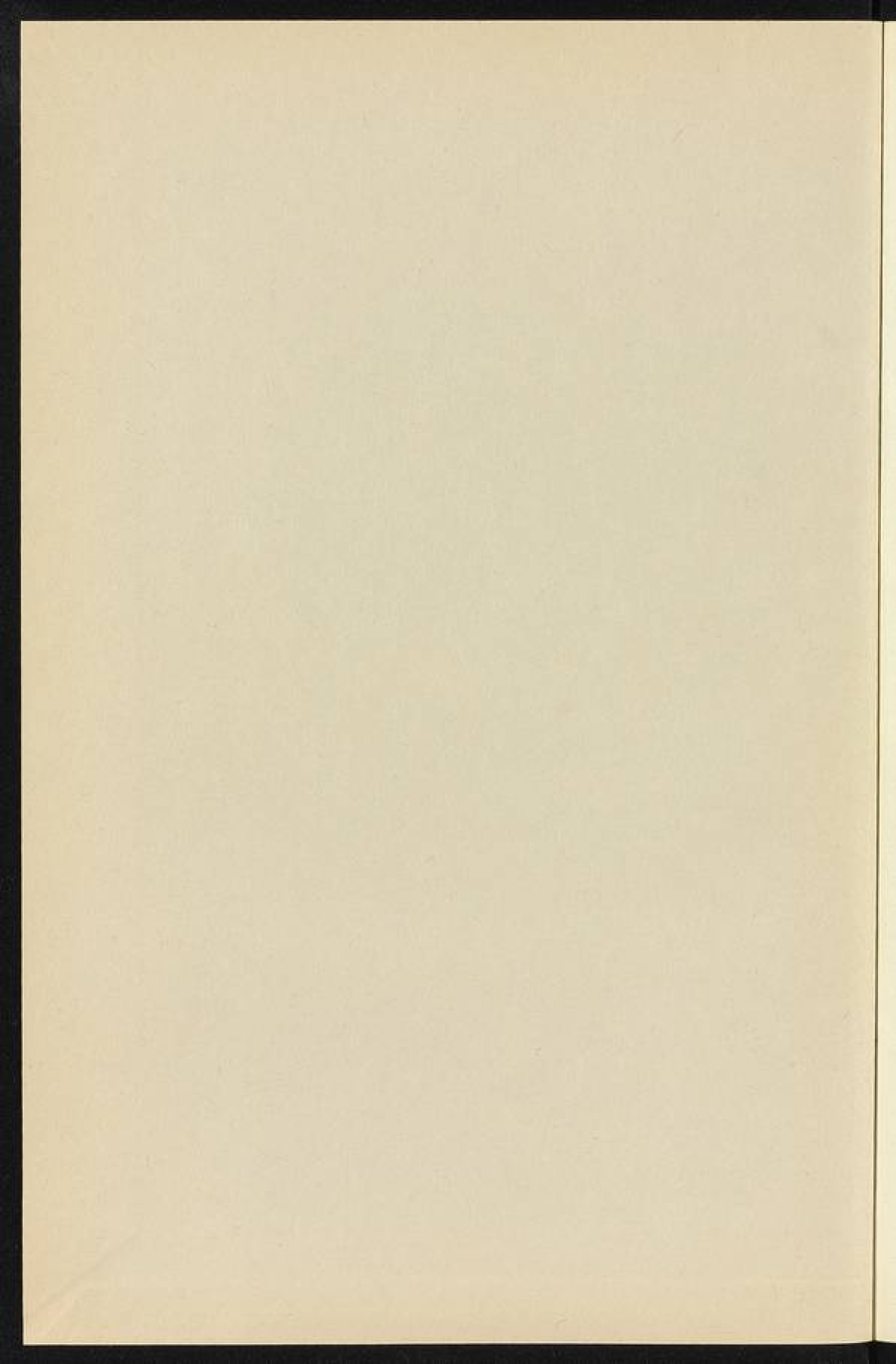
١٦ ـ التمور العراقية قديما وحديثا ـ « بحث شامل عن النخيل والتمور العراقية من اول نشأتها الى آخر مراحل استهلاكها » ٠

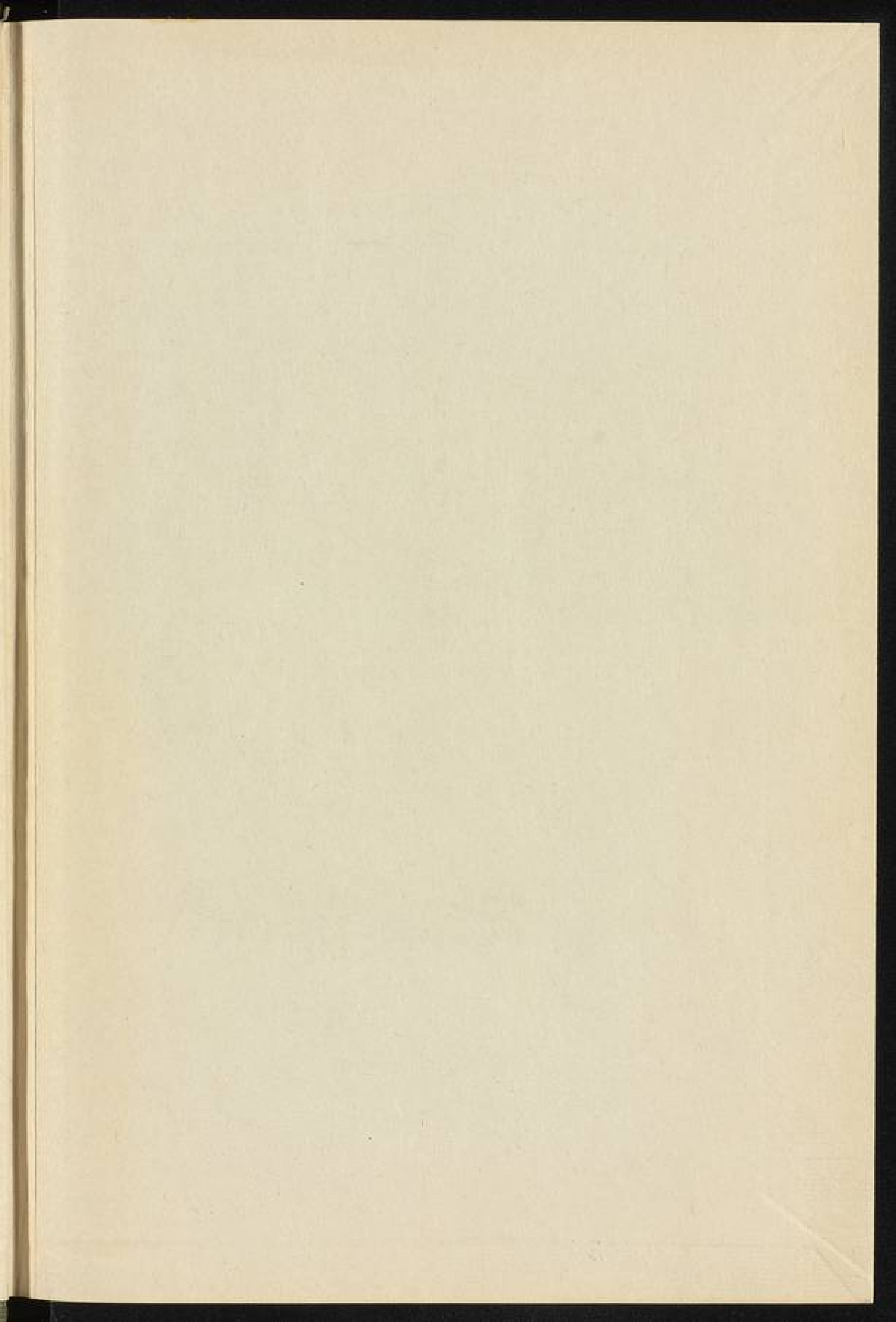
١٧ ـ القصة العراقية قديما وحديثا ـ « استعراض مجمل لتاريخ القصة العربية ثم القصة العراقية قديمها وحديثها » ٠

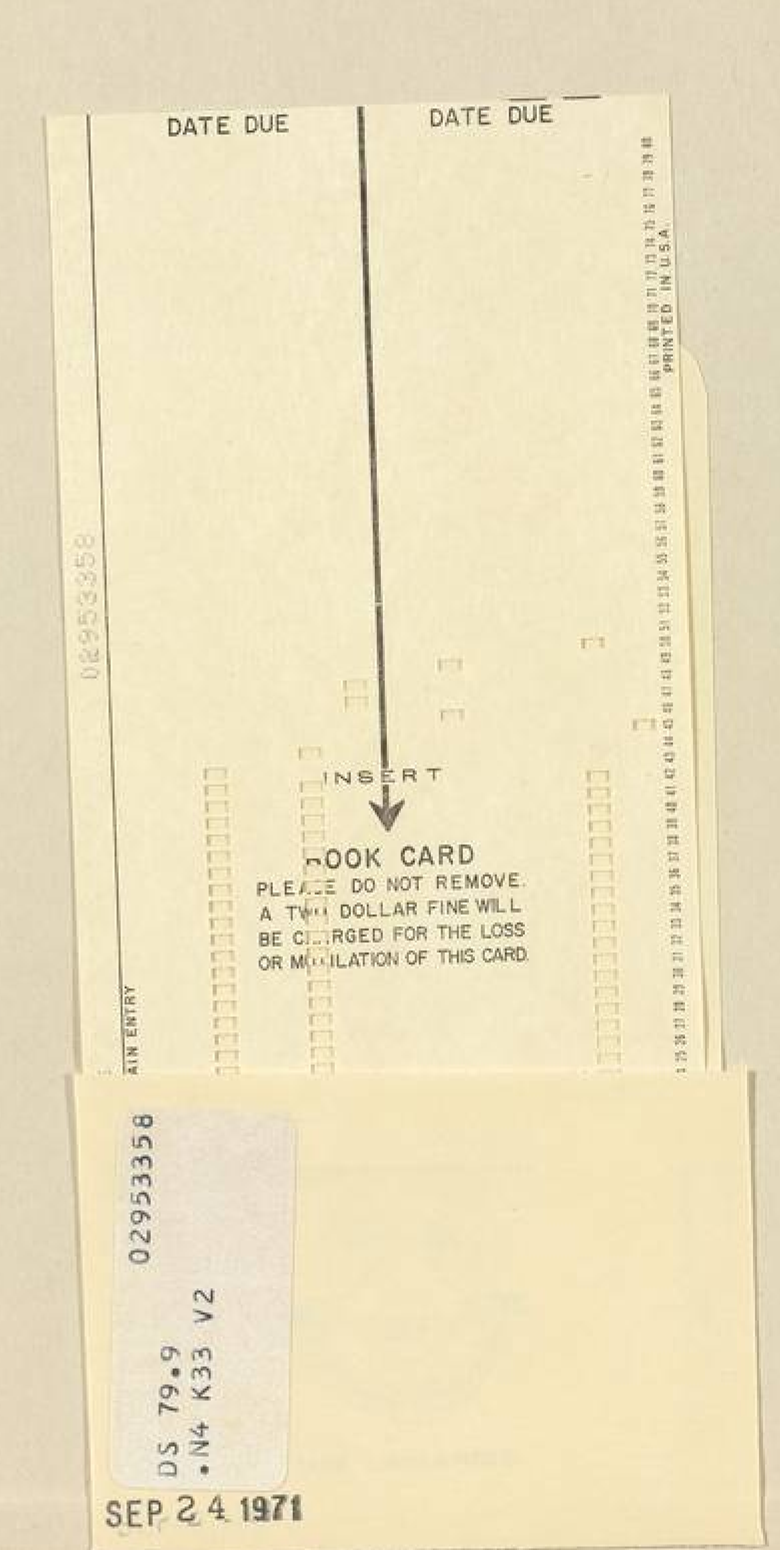
١٨ ـ هكذا عرفتهم ـ « خواطر عن اناس افذاذ عاشوا بعض الاحيان لغيرهم اكثر مما عاشوا لانفسهم » ٠










DATE DUE
DATE DUE
02953358
PRINTED IN USA
INSERT
OOK CARD
PLEA E DO NOT REMOVE.
A TW DOLLAR FINE WILL
BE C RGED FOR THE LOSS
OR M ILATION OF THIS CARD.
AIN ENTRY
DS 79.9
.N4 K33 V2
02953358
SEP 24 1971


COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU17733952